

نعم تشومسكي



# فراق جديدة في دراسة اللغة و الذهن

ترجمة : حمزة بن قبلان المزني

# آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن

تأليف

نعوم تشومسكي

ترجمة

حمزة بن قبلان المزيني



٢٠٠٥



المشروع القومي للترجمة  
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٩٦
- آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن
- نعوم تشومسكي
- حمزة بن قبالن للمزيبي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

New Horizons in the Study  
of Language and Mind.

Noam Chomsky

© Cambridge University Press, 2000

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

---

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

## المحتويات

|     |   |
|-----|---|
| 7   | تقديم المترجم.....  |
| 61  | تمهيد نيل سميث.....   |
| 81  | مقدمة.....  |
| 85  | الفصل الأول: اتفاق جديدة في دراسة اللغة.....                          |
| 111 | الفصل الثاني: تفسير استخدام اللغة.....                                |
| 161 | الفصل الثالث: اللغة والتأويل: التأملات الفلسفية والبحث الاختباري..... |
|     | الفصل الرابع: المقاربة العلمية الطبيعية والمقاربة الثنائية في دراسة   |
| 215 | اللغة والذهن.....   |
| 267 | الفصل الخامس: اللغة موضوعًا طبيعيًا.....                              |
| 311 | الفصل السادس: اللغة من المنظور الداخلي.....                           |
| 361 | الفصل السابع: المقاربة الداخلية.....                                  |
| 417 | المصطلحات الواردة في الكتاب.....                                      |
| 425 | المراجع.....  |



## تقديم المترجم

كنت كتبت مقالاً من سبع حلقات في ملحق ثقافة اليوم في جريدة الرياض، سنة ١٤٢٠هـ بمناسبة بلوغ اللساني والناقد السياسي والاجتماعي الأمريكي المشهور نعوم تشومسكي السبعين من عمره في السابع من شهر ديسمبر ١٩٩٨م. ولما كان كتاب تشومسكي الذي أترجمه هنا يمثل مراجعة شاملة للمنطقات الفكرية والفلسفية والعلمية التي يقوم عليها المنهج الذي شرع في دراسة اللغة؛ فإنني أود يراد تلك الحلقات التي كتبتها عن تشومسكي ومشروعه اللساني بصورة عامة لتكون مقدمة لهذا الكتاب. والسبب الآخر لهذا القرار أن نيل سميث، محرر كتاب تشومسكي هذا، كتب مقدمة إضافية لما تتضمنه فصوله من قضايا. لذلك فمقدمتي إطلالة عامة على تشومسكي ومشروعه العلمي. كما تتضمن معالجة لقضية تثار دائماً في الثقافة العربية؛ وهي الادعاء بأن تشومسكي استقى منهجه في دراسة اللغة من المصادر النحوية العربية.

ويستحق تشومسكي أن يكتب عنه دائماً؛ للأثر الكبير الذي تركه على مختلف النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية. وهو يستحق أن يكتب عنه في العالم العربي خاصة، لما يستحقه من الاعتراف بإنجازاته العلمية، ولمواقفه المشرفة من القضية الفلسطينية التي لم يتوقف عن الدفاع عنها منذ أكثر من خمس وأربعين سنة.

وسأتناول هذا الموضوع من جوانب مختلفة تتعلق بإنجازات تشومسكي في دراسة اللغة وبنشاطه الذي لا يعرف الكلل في النقد السياسي والاجتماعي و ببعض المزايا الشخصية التي تميز شخصيته الفريدة.

وأبدأ بتناول بعض جوانب حياته؛ تلك أن هذه الجوانب تلفت النظر بالقدر نفسه الذي تلفته آثاره العلمية والاجتماعية والسياسية. كما تلقى ضوءاً



ربما يساعدنا في فهم كثير من الظروف التي أثرت في نشأته وفي تكوين شخصيته ورسم مسار حياته.

وسأعتمد اعتمادًا كبيرًا على سيرة حياة تشومسكي التي ألفها روبرت بارسكي، ونشرت في سنة ١٩٩٧م بعنوان: "نعم تشومسكي: حياة من المعارضة"

Robert Barsky, Naom Chomsky: A Life of Dissent. MIT Press, 1997

وترجمها إلى العربية ياسين الحاج صالح وصفوان عكاش، بعنوان "نعم تشومسكي: حياة منفي"، حلب: فصائل للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٨م، وهي ترجمة سيئة، خاصة فيما يتعلق بنشاطه العلمي في اللسانيات. وعلى كتاب نيل سميث، "تشومسكي: أفكاره ومثالياته"

Neil Smith, Chomsky: Ideas and Ideals, Cambridge University Press, 1999

وعلى عدد من المصادر الأخرى، وبعض المقالات التي نشرت عنه في أماكن متفرقة.

ولد نعم تشومسكي في السابع من شهر ديسمبر ١٩٢٨م، في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان أبوه وأمه قد نزحا من روسيا سنة ١٩١٣م؛ هربا من تجنيد أبيه في الجيش القيصري رغمًا عنه. ومرا بحياة تنسم بالفقر كما هي حال كثير من النازحين إلى أمريكا.

لكن الفارق الحاسم أن والدي تشومسكي كانا متعلمين تعليمًا عاليًا قبل وصولهما إلى أمريكا؛ لذلك كان عثورهما على عمل مجز أمرًا سهلاً. وكان والد تشومسكي من أبرز المتخصصين في اللغة العبرية، فوجد عملًا في تدريس العبرية في أماكن متفرقة. وألف عددًا من الكتب في الموضوع. ومنها تحقيقه لكتاب النحوي اليهودي الأندلسي ديفيد قمحي الذي عاش في القرن السابع الهجري، ويعد هذا الكتاب واحدًا من الكتب الرئيسة في نحو اللغة العبرية. وقرأ نعم تشومسكي مسودة هذا الكتاب الضخم المتخصص وهو في الثانية عشرة تقريبًا.

ونشأ تشومسكى فى هذا البيت الذى يهتم بالعلم والثقافة، كما كان الجو الاجتماعى للحافز الذى يتمثل فى تلك المحادثات الطويلة التى كانت تجرى بين أبويه أو بين أبويه وعدد من أقاربه، على ملأ لسانهم كما يقول تشومسكى، أثر فاعل فى حث ملكته اللغوية، وتوجيه اهتمامه إلى التفكير فى المسائل والآراء التى كان يتناولها أولئك. وكان أفراد أسرة أبيه وأفراد أسرة أمه ينتمون إلى تيارات فكرية وسياسية مختلفة، بل متعارضة أحياناً. وكان ينشأ فى هذه البيئة الغنية بالاختلاف كثير من النقاش الذى فتح بصيرته على أهمية اختلاف الآراء وأهمية الحوار حولها.

ومن الأمور اللافتة للنظر فى صباه انكيايه على القراءة. ومن ذلك ما ثروبه صديقة لأسرته أنها كانت فى زيارة للأسرة، وسألته وهو فى السابعة من عمره، وأشارت إلى دائرة المعارف المحمّدة — Compton's Encyclopaedia التى تتألف من عدد من المجلدات الضخمة، إن كان سبق له النظر فى واحد من هذه المجلدات. وكانت إجابة تشومسكى، كما ثروبيها، أنه قرأ نصفها فقط. وكان منكبا على قراءة الأدب العبرى الحديث، ولبرز الآثار الأدبية فى اللغة العبرية، ومنها الكتب الدينية اليهودية بلغتها العبرية.

وكان قارئاً نهماً للآثار الأدبية المشهورة فى اللغة الإنجليزية وتلك المترجمة إليها، ومنها الروايات الواقعية لكبار الروائيين مثل دوستوفسكى وهاردى وهوجو وتولستوى ومارك توين وزولا، وهو ما شكّل وعيه نحو كثير من القضايا الاجتماعية. وكان وهو فى التاسعة من عمره كثيراً ما ينصرف بذهنه عن متابعة المدرسة التى كانت، فى الغالب، والدته، ذلك أن ما يدرس فى ذلك الصف كان قد غرغ من معرفته فى بيته منذ زمن، لكثافة ما يقرأ.

ومن أهم المؤثرات فى حياته أن والديه ألقاه وهو فى الثانية من عمره بمدرسة متأثرة بفكر عالم التربية الأمريكى جون ديوى، وظل فيها حتى الثانية

عشرة من عمره وكانت الفلسفة التي تقوم عليها أفكار ديوى كما يقول تشومسكى، أن مهمة التعليم يجب " . . . أن تكون توفير الفرص من أجل أن يحقق الطفل ذاته بنفسه، فأحسن ما يمكن أن يقوم به التعليم هو توفير بيئة غنية منحدبة الفرد كي يتفحصها، معتمداً على نفسه هو " . وما يزال تشومسكى يرى أن هذا ما يجب أن يقوم به التعليم، ذلك "أن الأفراد يتطورون بطريقة أفضل إذا ما وهرت الفرصة لهم لكي يكتشفوا ما حولهم معتمدين على أنفسهم، ويتفحصوا بحرية بدلاً من إرغامهم على اتباع بعض المبادئ التربوية الصارمة". ويرى أن التعليم يجب ألا يكون شبيهاً بمحاولة ملء كأس فارغ، بل يجب أن ينظر إليه بمثابة توفير أفضل الظروف لزهرة أن تتفتح. وهو ما يعنى أن يساعد الطفل على أن يتعلم بنفسه، بدلاً من الوصاية عليه.

واستطاع في هذه المدرسة، التي تضم أطفالاً آخرين من مختلف البيئات ويتمتعون بمستويات مختلفة من الاستعدادات، أن يطور قواه الخلاقة من غير تنقيص من النظام التربوي الذي يقوم على التقويم التنافسي. فقد كان الأطفال يتابعون إنجاز ما يهتمون به إما أفراداً أو في مجموعات، وكان يُشجع كل عضو في الفصل على أن ينظر إلى نفسه على أنه طالب ناجح جداً. وكان الهدف في هذه المدرسة "الإبداع لا الدرجات، ولم يكن يُنظر إلى أى عمل أنه أكثر أهمية من الأعمال الأخرى التي ينجزها الآخرون أو أقل منها"، كما يقول تشومسكى.

ويقارن تشومسكى بين ذلك النظام التربوي الفاعل والنظام التربوي السائد في التعليم، فيقول إن أولاده لم يصلوا إلى السنة الثانية الابتدائية إلا وهم يستطيعون أن يصنفوا الطلاب الآخرين بأنهم إما أذكاء أو أغبياء. وذلك نتيجة للنظام التعليمي الذي يقصد إلى إنكاء روح التنافس بين الطلاب، بدلاً من بث روح التعاون بينهم وتعليمهم أن يفكروا أى عمل يمكن أن يكون نتيجة للاجتهاد الفردي.

وكان لهذه التربية التي نهتم بالاستقلال العردي أثرها في حياته؛ وكان يذهب بمفرده في الإجازة الأسبوعية، وهو دون العاشرة، من مدينة فيلادلفيا إلى مدينة نيويورك، ويفضي الإجازة متنقلاً بين المكتبات قارناً كل ما يقع تحت يده، ثم يزور عمه الذي يبيع الصحف في مكان جانبي، ويصت إلى المناقشات التي لا نهاية لها بين المفكرين اليهود للنازحين من روسيا وأوروبا الشرقية وكان معظمهم ينتمي إلى الفكر اليساري. وهي مناقشات تتركز على الفكر والسياسة والعلوم المختلفة. وترك ذلك فيه أثراً بالغاً، حتى إنه انتمى منذ تلك الفترة المبكرة من حياته إلى الفكر اليساري، بل العنصري. وكان من نتيجة اهتمامه السياسي وانتمائه إلى الحركات اليسارية تأليفه كتاباً عن الثورة الإسبانية وهو في العاشرة.

ولما بلغ الثانية عشرة التحق بالمدرسة الثانوية. لكنه وجد الجو فيها مختلفاً؛ فقد كان النظام فيها يقوم على الضبط والتحكم، وعلى غرس الاعتقادات الكاذبة في عقول الطلاب، وتجريدهم من الحرية التي فطر الناس عليها. وذلك عكس ما كان عليه الأمر في مدرسته السابقة، كما يقول. لذلك يفتئ تلك الفترة من أسوأ الفترات في حياته؛ ويحاول دائماً أن يعتمد محوها من ذاكرته. ولم يجد شيئاً جديداً في تلك المدرسة، إذ سبق له أن قرأ أصعاف ما كان مقررًا فيها. لكنه فوجئ بأنه كان متوقفاً فيها، ويحوز دائماً على أعلى الدرجات.

وتخرج في تلك المدرسة بتفوق، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وهو في السادسة عشرة، وكان يدفع مصاريف الدراسة في الجامعة من عمله مدرساً للغة العبرية في أوقلت فراغه. وكان للطالب الوحيد الذي تخصص في تلك الفترة في دراسة اللغة العربية في تلك الجامعة، بالإصطفاء إلى دراسته للفلسفة واللسانيات. وكان من أساتذته الذين أثروا فيه تأثيراً حاسماً جورجيو لافي سيللا فيدا، وريك هاريس. ومما شجعه على الدراسة مع هذين الأستاذين انتماءهما السياسي إلى التيارات اليسارية.

ومن الطريف أن والده ألحقه بجامعة بنسلفانيا للدراسة مع هاريس لكي يحول بينه وبين الهجرة إلى إسرائيل.

وكان طامع الدراسة الجامعية في قسم اللسانيات الذي كان يدرس فيه يشبه الطامع الذي كان سائدًا في مدرسته الابتدائية. إذ كانت الدراسة بعيدة عن النمط المألوف، وتقوم بدلاً عن ذلك على النقاش المستمر الذي لا تحده ساعات أو فصول معينة. وكانت تلك الفترة من أكثر سنوات حياته الفكرية حصياً؛ فقد تعرض في أثناء دراسته في تلك الجامعة لتأثير كبار المتخصصين في العلوم كلها تقريباً، كالعاسة وعلم النفس والتحليل النفسي والمنطق والرياضيات وغير ذلك.

ثم حصل على البكالوريوس بطريقة غير معهودة؛ إذ أعطى تلك الدرجة وهو في الحادية والعشرين من عمره في الرياضيات واللسانيات والمنطق، مع أنه لم يكن متخصصاً في أي من هذه العلوم تحديداً. وكانت رسالته للتخرج عن النظام المصرفي في العبرية، وهي التي تضمنت الدور المبكرة لنظريته التي اقترحها فيما بعد.

ثم التحق ببرنامج الماجستير في الجامعة نفسها، وحصل عليه في سنة ١٩٥١م، ثم حصل على منحة للعمل باحثاً في هارفارد. وانصرف في تلك الفترة إلى البحث والمحاضرات العامة في الجامعات المختلفة. وأنجز فيها كتابة بحث طويل يقرب من ألف صفحة بعنوان: "البنية المنطقية للنظرية اللسانية". وكان مضمون هذا البحث غريباً عن المؤلف مما يسمى باللسانيات في تلك الفترة التي كان يسيطر فيها المنهج البنوي المتأثر بالمدرسة السلوكية في علم النفس. وهو منهج يقوم على وصف الظاهرة للعبوة لا تفسيرها، كما يقوم على الاهتمام بما كان يسمى بإجراءات الاكتشاف التي تتبع في ذلك الوصف.

وعلى الرغم من انقطاعه عن الدراسة في جامعة بنسلفانيا منذ ١٩٥١ إلا أن صلاته التي لم تنقطع بأستاد زيك هاريس شجعت له في تلك الجامعة لذلك منح درجة الدكتوراه على الرغم من أنه لم يدرس فيها بانتظام، ولم

يتقدم إليها للوفاء بمتطلبات تلك الدرجة إلا بعصل واحد من العمل الصخم الذي أجزه في هارفارد.

وتقدم بعدها بمخطوطة تلك البحث الطويل إلى عدد من دور النشر، لكنه رفضت نشره. وكان سبب رفضها طول البحث طولاً مفرطاً، وعزلة محتواه عن المباحث السائدة في اللسانيات حينذاك. لكنه اكتفى في نهاية الأمر بمحاولة نشر الفصل الذي تقدم به إلى جامعة بنسلفانيا ومنح الدكتوراه عليه بعنوان "البنى التركيبية" Syntactic Structures، ومع ذلك رفضت نشره دور النشر الأمريكية التي تقدم به إليها. لكن دار نشر هولندية نشرته في سنة ١٩٥٧م.

وكان نشر ذلك الكتاب صئلاً الحجم يداناً بشق طريق غير مألوف في البحث اللغوي. وسرعان ما استقبل استقبالاً منقطع النطير، ونشرت مراجعات كثيرة له، كان من أشهرها المراجعة التي كتبها روبرت لير وقال فيها: "إن كتاب تشومسكي، 'البنى التركيبية'، أول محاولة جادة يقوم بها لسانى لباء نظرية شاملة عن اللغة في إطار التعاليد المعروفة لبناء النظريات العلمية، وهي النظرية التي يمكن أن تفهم بالمعنى منه الذي تفهم به لغة نظرية كيميائية أو أحادية في تلك الحقول العلمية".

وفي ١٩٥٥ تعاقدت معه جامعة ماساتشوستس للتقنية للعمل باحثاً في معمل الألكترونيات في هدد الجامعة العلمية، وكان للعرض من التعاقد معه العمل في برنامج أبحاث يهتم بتطوير الترجمة الآلية، لكن تشومسكي لم يكن معيلاً بمثل هذه المشروعات التي كانت تمويلها وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض معينة. واشتغل بدلاً من ذلك بتدريس بعض اللغات الأجنبية لطلاب دراسات العليا. ويصف تشومسكي ذلك العمل بأنه كان إعطاء دروس مكثفة بتعليم أولئك الطلاب بعض الحيل التي يمكن أن يستخدموها لكي سيجوا في امتحان اللغة في برنامج الدكتوراه. واستغل بعض الدروس

الأخرى التي أسند إليه تدريسها لعرض منهجه الجديد في دراسة النحو واللغة بدلاً من تدريس المحتوى الدقيق لتلك الدروس.

لكنه التقى بصديقه وزميله «مورس هالي» الذي سبقه إلى التدريس في تلك الجامعة. ثم أسسما قسم اللسانيات الذي أصبح بتأثيرهما أشهر قسم للسانيات في العالم. وترقى في السلم الأكاديمي بسرعة فائقة حتى حصل على درجة أستاذ في تلك الجامعة وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وعين أستاذ شرف جامعي وهو في السابعة والأربعين، وذلك أمر غير مسبوق.

وبعد أن نشر كتابه الأول «البنى التركيبية» أخذ نجمه في الصعود، وبدأ الصراع العنيف بين منهجه الجديد والمناهج السائدة في اللسانيات. لكن منهجه أخذ في الشبوع والانتشار، وبدأ المتخصصون يتخلّون بسرعة عن المناهج التي ألفوها من قبل، وأحدوا بنصموم إلى التيار الثوري الذي يقوده تشومسكي مسلحاً بتلك الطاقة على التفكير والتطوير والإنجاز التي لا يكاد يجاريه أحد فيها.

وتبغى الإثارة هنا إلى قدرته غير المألوفة على العمل لساعات طويلة من غير تعب ولا كلال أو ملل. فما يعرفه المقربون منه أنه لا ينام إلا أربع ساعات في اليوم، وأنه يقضى أكثر من عشرين ساعة في الأسبوع في كتابة ربود على الرسائل التي ترده من مختلف أنحاء العالم، وتتعلق بشتى المواضيع اللسانية والسياسية والمواضيع العادية جداً التي يود مراسلوها الاستئناس برأيه فيها. وهناك موقع خاص في شبكة المعلومات العالمية «الإنترنت» يحوى نماذج من الرسائل التي يكتبها يومياً في الرد على الرسائل التي ترد إليه. ويقول أحد عارفه إن تشومسكي لا يعرف معنى الإجازة التي يعرفها الناس؛ إذ إن الإجازة في عرفه لا تعدو أن تكون إنقاص العمل من عشر ساعات في اليوم إلى ثمان!

ومن الشواهد على هذه الطاقة الفائقة على العمل المتواصل ما يقوله أحد الباحثين عن إنجازات تشومسكي في إحدى العزات المبكرة من حياته التي أنجز فيها عدداً من الكتب والمقالات المهمة: «إن قليلاً من العلماء يمكن

لهم ان ينشروا هذا لكم الكثير من الأبحاث ذات القيمة العالية عن مختلف المسائل في مثل هذا الوقت القصير".

وبصف تشومسكى تلك اللحظة في تعليقه على ما كان يقوم به يومياً في أواخر الستينيات: "لقد كانت تلك الفترة متعبة جداً؛ فقد كنت غالباً ما ألقى عدداً كبيراً من المحاضرات السياسية في اليوم الواحد في عدد من الأماكن، وكنت أتعرض لأجنجال الشرطة لى، وأذهب إلى الاجتماعات التي تعقد من أجل العصيان المدني وغيره، وكنت ألقى محاضراتي في الجامعة، ولعب مع اصدقاءى، وغير ذلك. بل إنى كنت أجد بعض الوقت لدى استطيع فيه أن أغرس في اليوم نفسه كثيراً من الشجيرات والنباتات. وحين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام يصعب على تخيل القيام بكل هذه النشاطات في وقت واحد".

وبما أننا عرفنا شيئاً عن طفولته بحسن أن نطلع على رأى ابنه هارى تشومسكى في التربية التي تلقاها منه، فيقول في نهنته لأبيه بمناسبة بلوغه السبعين: "ما مدى الأثر الذي تركته في؟ والواقع أن الناس كثيراً ما يسألوننى السؤال نفسه بطريقة مختلفة هي: لبت شعري كيف كانت نشأتك مع أب مثل هذا؟ وأحسن طريقة أجيب بها عن مثل هذا السؤال هي القول بأنها كانت تبدو أمراً طبيعياً بالنسبة لى. لقد كنت أقرأ لى قبل أن ألام من بعض الكتب عن نظرية النسبية، وكنت ترسم لى الارتفاعات على هيئة رسوم ساخرة - وتحتوى هذه الرسوم معادلات خطية linear equations ثم تعلمنى كيفية حل تلك المعادلات. وكنت تدلى على المصادر التي أرجع إليها في التقارير التي أكتبها لمادة الدراسات الاجتماعية في المدرسة، تلك من غير أن أكتشف كم أن تلك المصادر مختلفة عن المصادر التي يرجع إليها معظم الطلاب. . . . إبنى لا أستطيع أن أتخيل طفولة شحلو من مثل تلك الحوافز الفكرية في كل لحظة، ومن غير تلك القطارات الكهربائية، وتلك القصص الطويلة التي كنت نرويها لى بكل حب، أو صحبتى لك في معنى تلك المسافات الطويلة حين كنت . . .



وليس من السهل إيراد آراء العلماء في تشومسكى وفي إنجازاته، لكنه يكفى إيراد بعضها فى دلالة على المنزلة التى يحتلها فى السياق العلمى والفكرى المعاصر .

فيقول ستيفن بنكر عنه: " . . . يُعد تشومسكى الآن واحداً من الكتب العشرة الأولى التى يكثر الاستشهادُ بهم فى الدراسات الإنسانية (وهو يتقدم على هيجل وشيخرون، ولا يسبقه إلا ماركس ولينين وشكسبير والإنجيل وأرسطو وأفلاطون وفرويد) وهو الوحيد الذى من أفراد هذه المجموعة.

وهو يثير الناس ويجعلهم يتخذون مواقف محدّدة مما يقوم به، وتراوح ردود الأفعال على عمله بين الإعجاب به إعجاباً مفرطاً وتعظيمه تعظيماً يليق بأئمة الطوائف الدينية الغربية، والهجوم المرس لدى طوَره الأكاديميون وجعلوه فناً رهيباً. وتعود هذه المواقف إلى أن تشومسكى يُهاجم واحدة من الركائز السائدة الآن للحياة الفكرية فى القرن العشرين - وهى (نموذج علم الاجتماع المعيار) الذى يرى أن النفس الإنسانية تُشكّلها الثقافة المحيطة بها. كما أن هناك سبباً لهذه المواقف، وهو أنه ليس بإمكان أى مفكر أن يتجاهل تشومسكى.

وكما يعترف الفيلسوف هيلارى بتيام، وهو من أشرس المناوئين له، فإننا:

حين نقرأ ما يكتبه تشومسكى نحس إحساساً عميقاً بأنها فى حصره قوة فكرية عظيمة؛ إذ يكتشف أننا أمام عقل متفوق. ويعود ذلك بقدر متساوٍ إلى سحر شخصيته القوية، وإلى المزاج الفكرية الواضحة التى يتمتع بها، ومنها الأصالة والأنفة من السطحيّ الساذج؛ والرغبة فى إحياء مواقف تبدو باليسة (مثل فكرة الأفكار الفطرية)، والقدرة على ذلك؛ والاهتمام بمواضيع لها أهمية عظيمة مثل بنية العقل الإنسانى.

وأنتج تشومسكى إنتاجاً علمياً غزيراً فى عدد من التخصصات. ويقول بارسكى إن تشومسكى نشر، إلى سنة ١٩٩٧، أكثر من سبعين كتاباً وأكثر

من الف مقالة في اللسانيات والفلسفة والسياسة وعلوم المعرفة وعلم النفس. وورد العدد الآن كثيراً عن تلك الإحصائية.

كما أن تشومسكي، كما قال بنكر آنفاً، من أكثر من يستشهد به في العلوم المختلفة. فقد استشهد به فيما بين ١٩٨٠ و ١٩٩٢ أربعة آلاف مرة في العلوم الإنسانية، و ١٦١٩ مرة فيما يسمى بالعلوم الصحيحة.

ويقول عنه اللساني الأمريكي البارز راي جاكندوف، وهو أحد طلابه السابقين. "لا أعرف أحداً استطاع أن يهيمن على علم معين [مثل هيمنة تشومسكي على اللسانيات]، إلا هروب [الذي هيمن على علم النفس]".

ويتصف تشومسكي بالحياة الذي ربما يصل إلى حد الحجل، وبالتواضع الشديد، على الرغم من إنجازاته الذي لا يكاد يماثله إنجاز. ومما يدل دلالة واضحة على هذا التواضع ما يلي.

فقد عُقد في القدس، سنة ١٩٨٨، مؤتمر تحت مسمى "المنعطف التشومسكي: اللسانيات التوليدية، والفلسفة، والرياضيات، وعلم النفس"، وسمى بهذا الاسم للدلالة على الطفرة الجديدة التي وصفها تشومسكي لدراسة اللغة. وقد جمع أساتذة كاشير، منسق المؤتمر، الأبحاث التي أقيمت في كتاب بعنوان:

The Chomskyan Turn. ASA KASHER (ed.).1991.

وأسهم تشومسكي نفسه ببحثين شراً في الكتاب. يقول تشومسكي في بداية بحثه الأول ما ترجمته:

أشعر أن من واجبي أن أبدأ بما يمكن وصفه ببداية غير مهددة بعصر الشيء، تلك أنني أود تسجيل اعتراضي على الصورة العامة المقترحة للمؤتمر، وهو ما عبرت عنه لأساتذة كاشير حين الإعلان عنه. فمع أن ما أريد الإشارة إليه واضح بما يكفي، لكن ربما يحس بي أن أقول إن علامة أهمية

مجال بحث معين، وأنه يستحق بذل الجهد فيه يتناسبان عكسا مع شخصيته  
يربطه باسم شخص معين؛ ولذا نلظن أن للمسائل التي نعالجها [في اللسانيات]  
مهمة وتستحق البحث فيها. أما المواضيع التي من قبيل: "علم أحياء فلان" -  
أو "اقتصاد فلان"، أو "علم نفس فلان"، أو ما إلى ذلك - ولك أن تختار فلان  
الذي تريد، فلا يمكن أن تكون مفيدة إلا في الطور البدائي للبحث في  
موضوع ما، وهو المستوى الذي يأمل المرء أن يتجاوزوه الباحثون بسرعة  
ليصبح البحث مشروعًا تعاونيًا مشتركًا، حيث تتعير، في حالتنا، لسانيات  
فلان كلما ظهر عند جديد من دورية علمية، أو كلما دخل طالب دراسات  
عليا ببعض الأفكار الجديدة مكتب أستاذه المشرف على رسالته، أو مع كل  
مناقشة تحدث في فصل دراسي وتعود إلى فهم جديد ومشكلات جديدة. وقد  
أصبح كل ذلك، لحسن الحظ، أمرًا مألوفًا [في اللسانيات] منذ سنوات طويلة،  
لذلك فعبارة "لسانيات فلان" ليست في محلها، إلا إذا كان فلان هذا هو  
[اللغوي الهندي القديم] بانيني أو وليم فون هيمبولت [اللغوي الألماني الشهير]،  
أو فريدياند دي سومور، ذلك بشرط أن يفهم هذا الحكم أيضًا على أنه لا  
يزيد عن كونه تجريديًا بعيدًا من واقع أكثر تعقيدًا.

والشيء نفسه ينطبق على "النظريات" المتكاثرة التي تربط باسم فلان  
أو فلان أو باسم جماعة معينة، إذ إن ذلك، مرة أخرى، علامة على عدم  
نصح ذلك الموضوع المعين أو هو علامة على الانطباع الخاطئ عن حقل  
التخصص المعين بصورته التي يتطور بها في الواقع.

ويعني قوله هذا أنه على الرغم من المكانة التي يتبوأها تشومسكي في  
اللسانيات بحالصة إلا أنه لا يرى لنفسه فضلًا على غيره.

وهذه المعلومات الشخصية عن تشومسكي مهمة؛ إذ إنها ربما تساعد  
في فهم هذه الشخصية الفريدة، والنظر بجدية إلى الجوانب التي أسهمت في

تكوينه، وهي التي يمكن لها أن تفيدنا في تربية الناشئين وتعليمهم؛ لينشأوا  
أفراداً مستقلين مبدعين. كما تشهد بأهمية العمل الجاد الدؤوب، وضرورة  
حلي الباحثين بالتواضع.

ومن المسائل الكبرى التي يتشغل بها بعض الباحثين العرب الذين  
يهتمون بدراسة اللغة في الثقافة العربية المعاصرة، وبخاصة عند الحديث عن  
النظرية اللسانية التي ارتبطت باسم نعوم تشومسكي، تكرار القول عن الصلة  
بين هذه النظرية والنحو العربي.

وملخص هذا القول، أن هناك تشابهاً واضحاً بين النظرية التي ارتبطت  
باسم تشومسكي والنحو العربي. ويورد بعض هؤلاء الباحثين ما يرونه ألفة  
على هذا التشابه؛ ويحاول بعضهم أن يذهب أبعد من ملاحظة هذا التشابه إلى  
القول بأن تشومسكي انطلق فعلاً، في تطويره اللساني، من المبادئ التي  
وضعها النحويون العرب القدماء. ثم يذهب هؤلاء خطوة أبعد ليلتبعوا المسار  
الذي سلكته هذه المبادئ حتى وصلت إلى تشومسكي.

ولا بد هنا من ملاحظة هامشية تكشف عن البنية المعرفية للثقافة  
العربية المعاصرة. فقد رأى بعض الباحثين العربيين، وبعض العرب أيضاً،  
أن نشأة النحو العربي نفسه إنما كانت بتأثير من الثقافات الأجنبية كالسريانية  
والهندية واليونانية. وحين يعرف بعض الباحثين العرب المعاصرين لهذا  
الرأي براهم يكادون يجمعون على استنكاره ونفيه واتهام من يقول به بالجهل  
بالنحو العربي، بل بالعداء للثقافة العربية نفسها.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الذين يُنكرون أثر الثقافات الأجنبية في  
النحو العربي لا يحدون غصاصة في إرجاع كثير من الإنجازات الفكرية  
العربية المعاصرة إلى تأثير الثقافة العربية. وما الإحياء بتأثر تشومسكي  
بالنحو العربي، بل تأكيد انطلاق تشومسكي من النحو العربي، إلا وجهاً من  
أوجه هذه النية المعرفية.

ويجب أن نشير منذ البدء أنه ليس من العيب أو المستعرب أن تتقل ثقافة عن ثقافة أخرى؛ بل إن هذا ما يحصل دائماً سواء كان ذلك يوعي أم من غير وعي. بل ربما لمكن القول، إن التأثير الإيجابي، والسلبى، نتيجة لارعة للتلاقي بين الثقافات.

ومن الأمور الأخرى اللافتة للنظر أن الباحثين العرب للمحدثين يعنون دائماً في ترك إعادة النظر في النحو العربى في ضوء النظريات اللسانية الحديثة. وهو ما يفرد إما لنقده نقدًا موجعًا أو تيجيله تيجيلًا مفرطًا.

فقد تعرض النحو العربى، فى القرن العشرين، إلى نقد عنيف من مصدرين اثنين: فالمصدر الأول هو النقد الحنيف الذى وجهه بعض الباحثين إلى أصول النحو العربى والمبادئ التى يقوم عليها والتحليلات التى يتضمنها، انطلاقاً من التأثير بابن مضاء الأندلسى.

فقد أحدث تحقيق الدكتور شوقى صيف لكتاب ابن مضاء الأندلسى "الرد على النحاة"، سنة ١٩٤٧م، موجة عارمة من نقد النحو العربى الذى ينحو نحو التعليل.

ويكفى إيراد ما يقوله محقق الكتاب فى مقدمته للطبعة الأولى (الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ٧-٨): "وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته، أو قل سهام ثورته، إلى نظرية العامل، التى أحالت كثيراً من جوانب كتاب النحو العربى إلى عقد صعبة الحل، عسيرة الفهم. وما لعل؟ إن كل ما تصوره النحاة فى عواملهم النحوية تصور باطل، . . .".

و: ليس هذا كل ما تجرّه نظرية «العامل» فى كتاب النحو العربى، فهى تجر وراءها أيضاً حشداً من علل وأقيسة، يعجز الناقب الحس والعقل عن فهم كثير منها، لأنها لا تفسر غامضة من عوامل التعبير، ولا تقنية من تعائن الأسلوب، وإنما تفسر فروصاً للنحاة، وظنوناً مبهمة.

و: "وهذا كله أهدى كتاب النحو العربي إسهادا، لأنه صلاه بمسائل ومشاكل، لا نحتاج إليها في تصحيح بطقنا، وتقويم لغتنا".

ومع أن كتاب الرد على النحاة يمثل انتكاسة للتفكير النحوي العربي إلا أنه نفى قبولاً واسعاً وما يزال ينظر إليه على أنه يمثل منهجاً جيداً لإيجاد النحو العربي من المسطق والتعليل، كما يقال.

ولا شك أن لمباح الفكري في مصر وبخاصة في الأربعينيات من القرن العشرين كان مؤثراً لانتشار أفكار ابن مضاء. ذلك بسبب ما سبق تلك الحقبة من محاولات لمراجعة كثير من المسلمات الثقافية والفكرية. ومن أهم الكتب الأساسية التي صدرت منذ العشرينيات في هذه المراجعة: كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" ١٩٢٦م، وكتاب علي عبد الرزاق نظام الحكم في الإسلام" ١٩٢٤م، وكتاب إبراهيم مصطفى عن النحو العربي في ١٩٢٧م، وغيره.

ويتمثل المصدر الثاني لنقد النحو العربي في النقد العنيف الذي صدر عن عدد من الأساتذة الذين درسوا اللسانيات في أوروبا في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وكان جلهم قد درس اللسانيات في صوة البطرية الوصفية التي كانت سائدة في تلك الفترة في أمريكا وأوروبا.

ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها الدراسة الوصفية للغة جمع المادة ووصفها والاكتفاء بذلك. فلم تكن تلك الدراسة تعنى بما وراء الظواهر اللغوية من آليات التي تسيرها، ولا بما هي دهن المتكلم حين يتكلم لغة. لذلك اكتفت بوصف المادة اللغوية ولم تحاول استكناه ما يحتمل وراءها.

ولما كان النحو العربي يقوم على معص الأصول والمقولات والآيات التي لا تظهر في المادة اللغوية نفسها، كالعامل الذي يفسر الإعراب، والأصوات الصرفية للكلمات التي ربما لا تتوافق مع الأشكال المنطوقة لها، فقد حصر هؤلاء الباحثون إلى هذه المعادى والمقولات والأصول على أنها لا

متوافق مع الأصول والمبادئ وطرائق التحليل التي تقوم عليها الدراسة الوصفية الحديثة للغة.

لذلك شنوا حملة شعواء على النحو العربي تصممتها بعض الكتب المشهورة التي نشرت في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ومن أشهرها كتاب الدكتور عبد الرحمن أيوب "دراسات نقدية في النحو العربي" الذي نشر أول مرة في سنة ١٩٥٧م، وقد كتب الدكتور إبراهيم مصطفى - الناشر الأول على النحو العربي - مقدمة لهذا الكتاب.

وكانت معظم المآخذ التي أخذها الدكتور أيوب على النحو العربي موجهة إلى التقدير والتحليل اللذين يقوم عليهما التحليل النحوي العربي القديم. وبين الدكتور أيوب تلك المآخذ في تحليله لكثير من الظواهر النحوية والنحوية والصرفية. ويكفي أن نرى رأيه مجملًا فيما يلي.

فقد عرّض الدكتور أيوب للتقدير في مواضع عدة؛ ويمكن أن يلخص رأيه فيه قوله (ص ٥٢): "يلعب التقدير دورًا كبيرًا في النحو العربي. وذلك لأن النحاة كثيرا ما يلجئون إليه لتصبح رأيًا قالوا به. والتقدير ولا شك أمر غير واقعي... ونحن حين نرفض نظرية التقدير نرفضها لعدم واقعيتها هذه".

أما عن التحليل فيقول (ص ٣٣): "... ولم يبق إلا أن نقلع عن [التحليل] ونكتفي بتقرير الواقع لا غير. وهذا ما تفعله المدرسة التحليلية الشكلية اليوم".

وتكرر هذا النقد عند الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور كمال بشر والدكتور تمام حسان. وكان الدكتور تمام حسان أكثر الناقدین جذرية؛ ذلك أنه اقترح بديلاً لمبدأ العامل وبعض الآليات التحليلية التي تقوم إلى جانب الإعراب في تفسير النبية النحوية للعربية. وقد أوضح ذلك للبديل في كتابه "اللغة العربية منهاها ومعناها"، ١٩٥٩م، وظل وفياً لها إلى الآن، وذلك في كتابه الجديد "الحلاصة النحوية"، ١٤٢٠هـ، الذي يمثل تطبيقاً لنظريته البديلة تلك.

لكنه استبدل بهذا النقد الذي كان يوجه للنحو العربي بصورته التي

حداها في المصادر العربية الأساسية، منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين. ما يشبه إعادة الاعتبار لمقولات النحويين العرب للقدماء وارتدادهم ومضائفهم في التحليل.

أما هذا الانقلاب المعاجي الذي يتمثل في إعادة الاعتبار لمطالقات النحو العربي القديم فكان نتيجة لاتصال بعض الدارسين العرب المعاصرين بالنظرية اللسانية التي بدأها تشومسكي في أواسط الخمسينيات. فقد اهتم بطرح كثير من الدارسين العرب تمييز تشومسكي بين مستويين للجملة، أحدهما المستوى الظاهري المنجز لها والثاني المستوى الذي تشتق منه الجملة بشكل من الأشكال. ولما كان النحو العربي يقوم على بعض المقولات المجردة كالإضمار والحذف وما يتبع ذلك من تعليل وتقدير للعناصر اللغوية المصغرة والمحدوفة من الشكل الظاهري للجملة، فقد رأى هؤلاء أن النحو العربي القديم يقول، هو أيضاً، بوجود مستويين للجملة، وهو ما يماثل ما نقوله نظرية تشومسكي.

بل تجاوز الأمر ملاحظة هذا التشابه بين النحو العربي ونظرية تشومسكي إلى القول بأن تشومسكي لم يكن إلا ناقلاً لهذه المقولات من النحو العربي مباشرة، ثم يورد هؤلاء بعض الأدلة التي تشهد لهذا الرأي.

ومن هذه الأدلة أن والد تشومسكي كان من نخبة اللغة العربية المعاصرين البارزين. ولأن النحو العربي أسس في المصور الوسطى على مثال النحو العربي فلا بد أن تكون معرفة تشومسكي بهذه المقولات العربية قد أتت عن طريق معرفته بالنحو العربي. ومن وجه آخر، يوحى هؤلاء بنباحثون بأن مقولات النحو العربي انتقلت إلى تشومسكي عبر اطلاعه على أعمال المعكرين الفرنسيين والألمان في القرن الثامن عشر، ومن أشهرهم فون همبولت الذي كان قد اطلع على اللغة العربية والدراسات النحوية فيها خاصة. ومن وجه ثالث، فقد صرح تشومسكي نفسه بأنه درس اللغة العربية في المستوى الجامعي الأول وصرح بأنه قرأ سيوييه. وكان قد درس العربية



في جامعة بنسلفانيا على أيدي مستشرقين معروفين هما جورجيو دي لايفدا وفرايز روزنتال، كما رأينا.

لهذا، كما يرى هؤلاء الباحثون، فمعرفته بالنحو العربي كانت عميقة، ومن غير المستبعد إذن أن يكون قد نقل مقولات النحويين العرب بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولما كان هذا الموضوع واحداً من أكثر الموضوعات المتعلقة بشومسكي أهمية من حيث التأريخ لمساره العلمي فسوف أعرض له بتوسع، مستعرضاً الأدلة المتوفرة لي عنه كلها.

ويجب القول هنا أن الدارسين العرب المعاصرين لم يكونوا الوحيدين الذين لاحظوا أوجه التشابه بين التطوير النحوي العربي ونظرية تشومسكي. لذلك سأورد بعض آراء الدارسين الغربيين الذين لفتت أنظارهم هذه التشابهات كذلك.

وسأحاول إيراد بعض الآراء الممثلة للقول بهذا التأثير وبعض الآراء الأخرى التي تنفيه. ثم أعود إلى ما يقوله تشومسكي عن هذه المسألة، وإلى الأسس التي صرح بأن نظريته تقوم عليها.

ولا يتسع المقام هنا لعرض كل ما قيل عن وجود هذا التشابه أو ما قيل عن أخذ تشومسكي عن النحو العربي؛ لكنني سأكتفي بإيراد عينات ممثلة لهذه الآراء، وسأحاول تبليغ المعطيات التي استندت إليها.

وتأتي هذه الآراء أحياناً على هيئة ملحوظات عابرة تشير إلى هذا التشابه؛ لكن بعضها يأتي بصور أكثر تفصيلاً لأوجه التشابه بين النحو العربي والنظرية التوليديّة، وللطرق التي وصلت بها المفاهيم النحوية العربية إلى تشومسكي.

ومن أوائل الإشارات العربية إلى أوجه التشابه بين النحو العربي أو الدراسات العربية بشكل عام ما ورد في كتاب كمال أبو ديب *Al-Jurjani's Theory of poetic Imagery*, 1979 نظرية الجرجاني عن التحليل الشعري" وكان في الأصل رسالة للدكتوراه التي أنجزها في جامعة

أكسفورد في بريطانيا قبل ذلك التاريخ بسنوات. فقد أشار في أربعة مواضع من هذا الكتاب إلى التماثل القائم بين عصر المفاهيم وطرق التحليل التي قال بها الجرجاني وتلك التي جاء بها تشومسكي (الهامش ٢١ ص ٢٩؛ الهامش ٣٦ ص ٣٣؛ الهامش ٦٥ ص ٣٩ و ص ٥٧). ويلخص الفصل التالي مضمون هذه الإشارات جميعها (ص ٥٧) وهو ترجمتي):

«وربما كان نوع التحليل الذي أتى به الجرجاني في هذا الفصل أول، بل أفضل، تحليل في اللغة العربية لـ "البنية السطحية و"البنية العميقة". ويصيح التماثل بين المفاهيم التي طورها الجرجاني، وطورها تشومسكي مؤخرًا، سهل جدًا. . . . ولتوضيح الفرق بين الينيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها تشومسكي الآن، من أجل الكشف عن البنى العميقة للتركيبات التركيبية المماثلة».

ولعل أفضل كتاب يمثل وجهات النظر التي تتلمس مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية كتاب الدكتور بهاد الموسى: "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). وقد صرح بأن اتجاه البحث في هذا الكتاب " . . . تشكل في نص صاحبه تشكله الأول على هيئة إحسان قوي بأن كثيرًا من الأنظار التي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين، ولاسيما في محاضراتهم ومقالاتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مصرحين به حينًا وصانين عنه — هـما يقرر الباحث — كثيرًا من الأحيان" (ص ٩).

وأول ما يلفت النظر في كتاب الدكتور الموسى أن النحو العربي بدأ كإنه يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة لا المدرسة التوليدية وحسب. فالنحو العربي، كما يرى الدكتور الموسى، يتشابه مع المدرسة البنيوية التورية. ويتبين ذلك في قوله: إن معطيات هذا المنهج في التحليل

هي بعض ما استشعره النحويون العرب في الإعراب وصنروا عنه، حتى إنها تعد من قيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية ومعلميها" (ص ٢٩). ويقول عن مبدأ "التوزيع" في هذه المدرسة: "وقد وقف النحويون العرب على هذا المبدأ في حقيقته" (ص ٣٣)، و" . . . يضيق مجال القول هنا عن استيعاب أمثلة هذا "المبدأ" لديهم، فلعل فيما تقدم قليلاً مقعياً" (ص ٣٧)، وإن هذا الإرهاب بمبدأ التوزيع ظاهر في كثير من وجوه التحليل النحوي عند العرب، ولكن النحويين كانوا يحتكمون إليه بقدر ما يكون مسعاً دون قصر" (ص ٣٨). ثم يورد رأي الباحث الأسترالي المعاصر مايكل كارتر عن كتاب سيبويه: "ويرى كارتر، في منتهى النظر، أن كتاب سيبويه يقدم نموذجاً من التحليل البنيوي لم يعرفه العرب حتى في القرن العشرين، ويُقَرَّر أن لو ولد سيبويه في عصرنا هذا لكتبوا منزلة وسطاً بين دي سوسير وبلومفيلد" (ص ٤٠).

كما يرى الدكتور موسى أن هناك اتفاقاً بين النحو العربي والمدرسة اللسانية المسماة بـ Tagmemics التي يترجمها إلى "الخائنية". ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهذه النظرية ثم يعقب قائلاً: "إن مجموع هذه العناصر بالإجمال متحصل صمماً في معطيات النحو العربي. . . ." (ص ٤٣).

وإذا انتقل إلى المدرسة التوليدية، نراه يقول عن اعتراضات تشومسكي على مبادئ المدرسة البنيوية: "ونلتقي جل منطلقات تشومسكي، نظرية التحويل والتفريع، في اعتراضاتها على البنيوية من الجهات التي وجدت أن البنيوية تتخلف فيها عن تفسير صور أساسية من الظاهرة اللغوية، مع الأصول التي رسمها لين هشام في (المعنى)، للتحليل النحوي، وساقها في هيئة "وجهات نظر يدخل الاعتراض على العرب من جهتها". وكان العرب، عند لين هشام، هو "البنيوي" عند التحويليين" (ص ٤٦). ثم

يعرض أوجه الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التحويلية في المفاهيم  
لأساسية لها.

ويرى كذلك أن النحو العربي يتشابه في كثير من المفاهيم والتحليلات  
مع بعض المدارس اللسانية المعاصرة الأخرى كالمدرسة الوظيفية، وعلم  
اللغة الاجتماعي، والدلالات المعجمية، وغيرها.

ويرى "أن هناك ثلاثة أبعاد من أبعاد النظر في اللغة هي من  
مستلزمات أية نظرية مشتركة أو اقتلاعية في التحليل النحوي" (ص ١١٠)؛  
وبعد أن يحدد هذه الأبعاد يحتم بالقول: "وهذه الأبعاد الثلاثة أيضا قد وسعها  
النظر النحوي عند العرب من خلال دأبهم المتصل في استكمال نظرية  
للتحليل النحوي لا تتخلف" (ص ١١١).

ويوضح الدكتور الموسى أن في عنوان كتابه: "... تجاوزا  
كبيرا، فالأمر في هذا البحث لا يعدو المعادلة بين "نظائر" و"تجاهلات"  
و"ملاحظات" و"معالجات" تهدي إليها الحياة العرب، وهي في الوقت  
نفسه مما أخذ به غيرهم في التقليد الغربي مسواء أكان ذلك على  
وجه التوارد الذي يقع بالضرورة أو على وجه التأثير للمحقق بالتاريخ  
الصحيح" (ص ١٥)، كما يصف عمله بـ"المجازفة الاستطلاعية  
الخلافية المقطعة" (ص ١١١).

وواقع أن القول بأن النحو العربي يتشابه مع هذه المدارس  
المتعددة المختلفة المتنافرة من حيث المنطلقات النظرية ووسائل  
التحليل يكفي في رد القول بأن النحو العربي يتشابه مع النحو  
النولبي تحصيلصا.

ومن وجه آخر فوصف الدكتور الموسى لعمله بفرصيته من

مصمونها؛ إذ إن كل ما نقيم من أوجه التشابه يمكن أن يكون من نوازل  
الحوادث "الذي يقع بالضرورة".

ويتجاوز الدكتور الموسى القول بتشابه النحو العربى مع النظرية  
اللسانية التوليدية إلى النظر فى إمكان أخذ تشومسكى عن النحو العربى،  
ويجب أن أشير هنا إلى أن الدكتور الموسى كان فى تتبعه مسار المفاهيم  
النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكى حظاً جداً، فقد أطر كلامه بأدق  
ما يكون من التحفظ.

فهو يقول فى (ص ص ٥٤-٥٥): "وليس تقرير التنبه بين ابن هشام  
وهمبولت ثم تشومسكى من هذه الجهة محتاجاً إلى أن يتكلف له التأويل"؛ ثم  
يعلق فى الهامش (ص ص ٥٤-٥٥) قائلاً: "إن التشابه يفرى بالتأمل،  
ويبقى معه الهاجس بأن هذه المسألة قد تكون بعض ما ورد على الغرب  
من العرب فى إطار "انتقال العلم العربى إلى الغرب اللاتينى". ذلك أن  
[المستعرب] سلفستر دى ساسى كان متضلعا... من علوم اللغة  
العربية". وما أنتجه من دراسات فى نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية  
من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه أدرك - إدراكاً لا  
بأس به - مفاهيم ومناهج الحياة العربى، ودى ساسى "هو الذى كوّن...  
فون همبولت" وغيره. "وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس دى ساسى  
هو اطلاعهم من خلال دراساتهم للعربية واللغات السامية الأخرى على  
المفاهيم اللغوية والنحوية العربى التى كانت تنقصهم فى ثقافتهم الفيلولوجية  
التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات". وكان دى ساسى  
"متشبعاً بمبادئ النحو الوصفى التطيلى. وهو يمثل فى زمانه ذلك المذهب  
الذى تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشر من طريق جيمس  
هارم وسكتيوس الإسكلى عن الحياة العرب مباشرة أو عن لعوى  
السكولاستيك عن فاعقة العرب". "وتلا دى ساسى فى العمل بهذه المبادئ  
تلميذه فون همبولت".

ثم يشير إلى مقال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عوفه "مدخل إلى علم اللسان الحديث (٣)" منشور في مجلة اللسانيات، التي كانت تصدر في الجزائر، للمجلد الثاني، ١٩٧٢، العدد الأول، ص ٩-١٠.

ويعلق بعد ذلك قائلا: "هل تكون هذه المعادلة عبد ابن هشام [أنظر لإشارة إليها فيما تقدم] مما لورده دي ساسي على هومبولت ثم لفهسا تشومسكي؟"

ثم يبدى تحفظه قائلا، نقلاً عن عبد الرحمن الحاج صالح أيضاً: "إنه لا بد من التحفظ على القاطع بقول حاسم، ذلك أنه، مثلاً، رغم . . . معرفة دي ساسي لمقاصد النحاة العرب فإن الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان يمكن أن يفهم في ذلك العصر لعدم خوض الغربيين بعد في هذا النوع من البحث، وبحسب بالسكر مناهج الوصف اللبنيوي ومفهومي الأصل والفرع والطريقة التكرعية. . .".

وهكذا نجد أنه على الرغم من هذه الافتراضات المتكاثرة عن المسار الذي سلكه النحو العربي حتى وصل إلى تشومسكي فلا تعدو هذه الافتراضات أن تكون افتراضات يصعب التذليل عليها.

بل إننا نجد الدكتور الموسى يصرح بأن أوجه التشابه بين النحو العربي ومدارس النظر في اللغة (وبخاصة النحو التحويلي) ربما تكون نتيجة لم يسميه بـ "المشترك" بين اللغات، ولي قلل من هذا الاحتمال. ومؤدى هذا أن . . . بين مناهج النظر اللغوي، على اختلاف الأزمان والمكان والإنسان، قدراً مشتركاً يقع بالضرورة. . .

"وكان مضمون ذلك الحديث [حده بـ "المشترك"] بديلاً راجحاً عن القول بتأثير تلك المناهج بعضها في بعض، أو أخذ أصحابها بعضهم عن بعض. . ." (ص ٩).

ومحصلة القول إن الطريقتين اللذين كان يمكن اللجوء إليهما في تقرير أحد تشومسكي عن النحو العربي ليسا كافيين ولا قاطعين، اعتماداً على ما بجدته في كتاب الدكتور الموسى. وهذا مما يشكك في هذا الاحتمال

ومع أن كتاب الدكتور الموسى يمثل وجهة نظر عدد كبير من الباحثين العرب اللذين يقولون بالصلة بين النحو العربي وتشومسكي إلا أننا نجد باحثين آخرين لا يرون تلك صلة. ويمكن أن يستشهد على عدم التوافق كثير من الباحثين وجود مثل هذه الصلة بالحالات التالية.

فعلى الرغم مما ذكره الدكتور الموسى نقلاً عن الدكتور الحاج صالح من تتبع المسار الذي سلكه المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي إلا أن الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه ("الفكر العربي والأجنبية"، منشور في كتاب: اللسانيات واللغة العربية. الجامعة التونسية، ١٩٧٨، ص ٣٠-٣١) ويوجد هذا النص في كتابه "التفكير اللساني عند العرب" كذلك يرى أن "... الغرب قد أهمل التراث اللغوي عند العرب فلم ينقل منه شيئاً وبذلك استلهمت الأمم اللاتينية مشعل الحضارة الإنسانية من العرب في كل ميادين المعرفة تقريباً إلا في التفكير اللغوي".

و"لما النتيجة المبدئية التي آل إليها تسيان" تراث العرب في اللغويات العامة فهي حصول قطع في تسلسل التفكير الأجنبي عبر الحضارات الإنسانية، فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني، ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، وإذا جاز لنا أن نبسط القول مصاندة في البحث لمكتسب أن نقرر اختصاراً أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكنت الألفية المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تتركه إلا بعد أمد".

وما دلم أن الدراسات اللغوية العربية لم تنتقل إلى العرب، فهي دلت على  
لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي نقرص دقما.

ومن الباحثين الذين لا يرون صلة بين النحو العربي وتشومسكي  
الدكتور تمام حسان. فقد عُرف الدكتور حسان بدراساته عن أصول التنظير  
النحوي العربي في كتبه المتعددة، ولم ينكر في أي منها، فيما أعظم، تشابهها  
بين النحو العربي والنظرية التوليدية. بل إننا نجد في بحث مشهور في  
الكتاب مذكر عواقبه "إعادة وصف اللغة العربية السنية" (ص ١٤٥-١٨٤)  
يستعرض المدارس النحوية العربية المعروفة، ثم يعرض  
تطبيقاً للمودج النحوي التوليدية على اللغة العربية مأخوذاً من كتاب  
تشومسكي "Aspects". وفي ختام عرضه للكيفية التي يطبق بها النموذج  
التحويلي على اللغة العربية يقول: "وهكذا يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن  
يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها السنية من  
خلاله" (ص ١٨٤).

ومعنى هذا القول أنه لو وجد الدكتور تمام حسان تشابهاً بين النحو  
العربي والنحو التحويلي لكان تعبيره عن هذا الأمر مختلفاً، ولكن من  
المحتمل أن يقول، بدلاً مما قال، إن هذا النموذج هو ما نجده في النحو  
العربي.

وهناك دليل آخر على عدم أخذ تشومسكي عن النحو العربي في  
نظريته. ويؤكد هذا الدليل من قول الدكتور مارن الوعر (علم اللسانيات  
الحديث: مدخل، ١٩٨٨، ص ٢٥٩-٢٦٠): "إنه لا غرابة أن يرى عالماً  
سبب أمريكي معاصراً هو يوم تشومسكي يقف وقفة دهشة وعجب من  
انتراث العربي اللغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلق على عمل لسانى  
كتب قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه. ففي رسالة بعثها إلى في ٢٦ نيسان  
١٩٨٢ قال فيها:



إنه من الواضح أن هذه الدراسة هي دراسة جدية ورائعة ومهمة . . . .  
ولقد دهشت بشكل خاص من تلك التطبيقات اللغوية التي ورنيت في ثنايا  
هذه الدراسة والتي كان قد قالها العرب القدماء. إن هذا وحده يجعل هذه  
الدراسة إسهاما قيما جدا لتطوير الدراسات اللسانية الغربية. . . .

كما أورد ما حدث به الدكتور أحمد المتوكل (وهو لسانى عربى  
معروف) من أنه [أى المتوكل] قد قال لى بأنه أرسل رسالة للدكتوراه التي  
وصعها والتي تدور حول النظرية الدلالية عند العرب القدماء إلى عالم  
اللسانيات الأمريكى تشومسكى وقد كان تطبق تشومسكى عليها إلى رسالة  
بعثها إلى الدكتور المتوكل] بأن ما قاله العرب القدماء في حقل الدلالات بعد  
فكرا فلسفيا عميقا لا بد من الأخذ به في الفكر الدلالي المعاصر، وقد وعد  
تشومسكى المتوكل بأنه سيعتمد هذه النظرية في الأعمال التي سيقوم بها في  
المستقبل.

وكما هو واضح نكل هاتان الحالتان بشكل صريح على أن تشومسكى  
لم يسبق له أن اطلع على إنجازات العلماء العرب القدماء قبل أن يقرأ ما  
كتبه هذان الباحثان العربيان المعاصران عن تلك الإنجازات.

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هما:

١- أن القول الذى يقضى بأخذ تشومسكى عن النحويين العرب لا دليل  
عليه؛ ذلك أن أكثر المعالجات تفصيلاً واستقصاء لهذه الدعوى لم تصل  
إلى نتيجة حاسمة يلزم منها الاطمئنان إلى حدوث هذا الأخذ المباشر،  
أو غير المباشر.

٢- ما يقوله تشومسكى نفسه من عدم اطلاعه على المنجزات النحوية  
واللغوية التي وصل إليها العلماء العرب القدماء. ولكي يلزم الرأى  
للقائل بأخذ تشومسكى المباشر أو غير المباشر عن النحو العربى فإنه  
يلزم القائلين بهذا الرأى أن يثبتوا أن كلام تشومسكى ليس صحيحا،  
وأنه كان يعرف أكثر مما صرح به.

وسدري هما يلي ديانا واضحا لرأى تشومسكى فى هذه المسألة،  
وعسيرا لأوجه التشابه بين النحو العربى وما بعده فى النحو التوليدى.

فمن أوائل الباحثين الذين اهتموا فى أبحاثهم بطبيعة الدراسات النحوية  
العربية اللغوى الأمريكى المعاصر المعروف مايكل بريم فى رسالته  
سندكور . . . وهى رسالة حلل فيها النظام الصوتى للغة العربية الفصحى،  
وأجره فى جامعة ماساتشوستس للتقنية بإشراف عالم الصوتيات المشهور  
موريس هالى فى سنة ١٩٧٠م. وينظر الباحثون إلى هذه الرسالة على أنها  
عمل بارز استخدم فيه مايكل بريم دراسة التراكيب الصوتية للغة العربية  
مثلا يحتج به لتطبيق النظرية الصوتية التى جاء بها تشومسكى وموريس  
هاله فى كتابهما الشهير "نمط الأصوات فى اللغة الإنجليزية" The Sound  
Pattern of English, 1968. وقد انتشرت هذه الرسالة انتشارا واسعا فى  
أقسام اللسانيات فى أمريكا وغيرها، واعتمدت مرجعا رئيسا فى الدراسة  
الصوتية، وظهرت الإشارة إليها فى عدد لا يحصى من الكتب والمقالات فى  
تلك الفترة. وما يزال يشار إليها بوصفها عملا كلاسيكيا فى النظرية  
الصوتية وفى الدراسات العربية على السواء.

ومما قاله بريم فى مقدمة لرسالة (وهى ترجمتى):

أعتقد أن النحو العربى خاصة قد بلغ أنى درجات الانحطاط على  
أيدى العلماء الغربيين. فقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تاماً  
كثيراً من مظاهر العمق والأصالة اللذين أورثاهما النحويون العرب. وسوف  
أعالج هذه الموضوع [أى النظام الصوتى للغة العربية فى تلك الرسالة]  
الروح التى عالجه بها أولئك النحويون العرب، وهذا صحيح فى الأقل فى  
المسألة التى استرعت اهتمامهم، وهى مسألة تحديد الأصل أو التمثيل  
العميق للغة. . . .

فهو يشير هنا إلى مسألتين مهمتين من أوجه التشابه بين النحو العربى

والنظرية التوليدية: أنهما يفترضان أن الكلام الذي نتجزه مشتق من أصل ربما لا يكون متوافقاً مع الشكل المنجز له، وأن جمل اللغة المنجزة لها مستوى مجرد.

ومن الأبحاث التفصيلية الأولى التي تنحو هذا المحى بحث كتبه بيير بيترسون بعنوان "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب"، ألقاه في الندوة السنوية لجمعية اللسانيات في جامعة شيكاغو في سنة ١٩٧٢، ونشر في مجموعة الأبحاث التي صدرت عنها. وناقش بيترسون في هذا البحث لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد في تفسير الظواهر اللغوية، ويحتمه بقوله:

... يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذي تقدم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأي حال. بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذي يُصنّف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلى. لقد كان النحويون العرب يهتمون بالتحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض وهو ما يؤدي إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجردة ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم . . . إن دليل نجاحهم يتبين من أن عملهم لم يتجاوز إلا في حالات قليلة.

ومن أشهر الباحثين الغربيين البارزين الذين اهتموا بدراسة تاريخ النحو العربى وطبيعة الدراسة النحوية عند العرب ثلاثة، وهم مايكل كارتر وكيم فرستيغ وجوناثان لوين، إذ كتبوا في هذين الموضوعين عدداً كبيراً من المقالات والكتب.

قد حرر كيم فرستيغ ومايكل كارتر كتاباً بالإنجليزية عنوانه: "دراسات في تاريخ النحو العربى - ٢"، ونشر في ١٩٩٠. ويقولان في مقدمة هذا الكتاب:

يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يُعنى بهما مؤرخ اللسانيات:  
فالأولى أن الاهتمام العميق للظاهر الآن باللسانيات العربية نتيجة من غير  
شك لتطور النظرية اللسانية العامة ونُضجها، إذ وضع هذا التطورُ الطماء  
العربيين في مستوى يمكن لهم فيه أن يفتّروا عمق التفكير اللساني العربي  
ودقته، وبعض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون لللسانيات النظرية قد  
وشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية، إلا أنها أسهمت من غير شك  
إسهاماً موجباً في فهمنا لللسانيات غير الغربية، والنقطة الثانية أن من الواضح  
أنه على المستوى النظري الكلي أو على المستوى التطبيقي أو كليهما هناك  
بعض الدروس التي يمكن لللسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب  
القدماء. إن مفهوم الكليات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن دون  
النظر في التطويرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكد تطبيق  
كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة دون الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي  
تعد اللغة العربية أشهرها من حيث نصحتها الذي لا يقل عن نضج التقاليد  
اللسانية المعروفة الأخرى كالهندية أو الصينية. وربما وجد المهتم  
باللسانيات العامة الذي يعرف العربية، أو الذي يكون على استعداد لأن يتعلم  
من العربية ما يمكنه من فهم محتوى الأبحاث في هذه المجموعة، بعض  
المعلومات التي يمكن أن تقوده إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها  
على التقاليد الغربية.

أما جوناثان أوير فقد كتب عدداً كبيراً من الأبحاث التي نقاش قضايا  
معيّنة في النظرية النحوية العربية، وسأقتصر هنا على عرض ما قاله عن  
هذا الموضوع في كتابه "مقدمة للنظرية النحوية العربية في القرون  
الوسطى"، ١٩٨٨م. فهو يشير في المدخل الذي صدر به الكتاب إلى أن  
الفكرة التي مؤداها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تفهم حق الفهم من  
خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أواخر السبعينيات من القرن  
العشرين. كما يشير في المقدمة إلى أن عبارة "لغرون الوسطى" التي تظهر

في عنوان كتابه يجب ألا يفهم منها الفهم المؤلف في الدراسات العربية التي يمكن فيها أن تشير هذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده؛ ذلك أن النظرية النحوية العربية في تلك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة في عدد من الأمور الأساسية، وهو ما يجعل مناقشتها أسهل للقارئ العربي المعاصر. ويشير كذلك إلى أنه يمكن البرهنة على أن أحد الأساليب التي أدت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين اكتشافها الغربيون في القرن التاسع عشر، وهو الرمز الذي شهد تكون التقاليد الاستشرافية، أنه لم يكن في الدراسات الأوروبية في تلك الفترة مثيل لها. ولم توضع هذه النظرية في منظور أفضل إلا مع التقاليد البيوية التي أسسها دي سيسور وبلومفيلد وتشومسكي.

وعلى الرغم من هذا التشابه بين النحو العربي واللسمانيات الحديثة، والنحو التوليدي خاصة، فإنه يبين أن هناك أربعة فروق بين النحو العربي والنحو التوليدي في مسألة الحذف. وهي المسألة التي جعلت كثيرًا من الباحثين ينتبهون إلى وجوه التشابه بينهما. ولول هذه الفروق أن الحذف في النحو التوليدي لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل في النص. أما في النحو العربي فتحذف سببان: الأول تركيبى، والثاني "فريمى" pragmatic، ذلك أن المحذوف يمكن أن يفهم من السياق. والفرق الثاني بين النحويين فارق في الاهتمام؛ ففي حين ينظر النحو العربي إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف، يبدأ النحو التوليدي من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهري لها. والفرق الثالث أن في النحو التوليدي قواعد محددة للحذف، أما في النحو العربي فلم تحدد تلك القواعد، بل أسندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفرق الرابع أن النحو العربي كان ينظر إلى المعنى حين يقع الحذف، وهذا ما لا نجده في النحو التوليدي.

ويقارن أيضًا بين النحو العربي والنحو التحويلي من حيث أوجه التشابه والاختلاف في مسألة التحويل. ويرى عدم التشابه بين النحويين؛ لأن النحو التحويلي يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى، وذلك ما لا يفعله النحو

العربي. وينتهي إلى أن من المضلل أن نساوي بين النحويين، على الرغم من وجود بعض التشابه.

ویدرس فی الفصل التاسع وعولته "للتركيب، والدلالة، والذريعة" ما عمله النحويون والبلاغيون العرب من ربط المعنى بالشكل والعلاقة بينهما. ومن الذين اهتموا بهذه المسألة، سيبويه وأبو علي الفارسي من النحويين، والجرجاني من البلاغيين. ويعود مرة أخرى في هذا الفصل للمقارنة بين النحو النحوي والنحو العربي في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا يوجد تشابه بين النحويين، وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

وهكذا نجد من هذه النماذج للآراء التي يظهر فيها التقدير الكبير لما عمله النحويون العرب القدماء أن هناك تشابهًا في كثير من المنطلقات والتقنيات بين النحو العربي والنحو التوليدي خاصة. لكن لم يقل أحد من هؤلاء المؤرخين الدارسين بأخذ تشومسكي عن النحو العربي. بل الواسع من دراسة جوناثان أوين أن هناك اختلافات عميقة بين النحو العربي والنحو التوليدي، تكاد تسد باب الافتراض بأخذ النحو التوليدي عن النحو العربي.

وما دام أن تشومسكي نفسه طرف في القضية، فيحسن أن نطلع على ما قاله عنها تحديدًا. وكنت بعثت إليه برسالة أسأله فيها عما سمعته من الدكتور عدده الراجحي الذي أكد في محاضرة عامة في النادي الأدبي في الرياض أخذ تشومسكي عن النحو العربي، وذلك أنه، في رأي الدكتور الراجحي، درس كتاب سيبويه، واطلع على دراسات عالم اللغة الألماني فون هوبولت الذي كان يعرف النحو العربي، يراد على ذلك تأكيد الدكتور الراجحي أن هناك باحثًا عربيًا، هو الدكتور يوسف عون، يدرس تشومسكي كتاب سيبويه.

وقد أجاب تشومسكي عن تساؤلاتي في رسالة مؤرخة في ٢٨ مايو ١٩٨٩م. وكنت ترجمت هذه الرسالة ونشرتها جريدة الرياض في حينه، وأوردها هنا لملاءمتها للسباق.

يقول تشومسكى فى جزء الرسالة الذى يتعلق بهذا الموضوع:

وتسألنى عن تأثير النحو العربى التقليدى على منهجى فى دراسة اللغة. إن أكثر الأقوال التى سمعتها صحيحة جزئياً، إلا تلك التى تتعلق بعور همبولت الذى لم أطلع على دراسته إلا فى الستينيات. فقد كان والدى من علماء النحو العربى فى القرون الوسطى، وقد حقق الطبعة المعتمدة لكتاب النحو الذى ألفه [النحوى لليهودى الأندلسى] ديفيد قمحى. وكنت مطلعاً لطلاعاً جيداً فى أيام صباى المبكرة على أعمال لى، كما أتى درست حبسها شيئاً قليلاً من الدراسات التاريخية عن نحو اللغات السامية. وكان أثر النحو العربى [على النحو العبرى] عظيماً، وهذا أمر مشهور. وكان هذا السياق ذا أثر مباشر كبير على دراستى المبكرة. بل إن رسالة التخرج من الجامعة [البكالوريوس] ورسالة الماجستير اللتين أنجزتهما فى جامعة بنسلفانيا عن الأنظمة الصوتية الصرفية للغة العبرية الحديثة كانتا متأثرتين بتلك الدراسات إلى درجة كبيرة، كما صممتا جزئياً من حيث النموذج على مفاهيم مأخوذة من اللسانيات السامية التاريخية والنحو التقليدى. وكانت هاتان الرسالتان أقدم النماذج للنحو التوليدي المعاصر، وإن لم تقشرا إلا بعد سنين من تاريخ إنجازهما.

ولما التحقت بجامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٥م بدأت مباشرة بدراسة اللغة العربية مع جورجيو ليفى ديلا فيدا الذى كان مستعرباً متميزاً جداً، ثم درست، بعد أن تقاعد ديلا فيدا، مع فرانز روزينثال. ومع روزينثال درست مادة اللغة العربية لفصل واحد، وكنت الطالب الوحيد فى تلك المادة، ودرست معه فيها كتاب سيوييه، وربما كان هذا هو أساس الشائعة التى سمعتها [أى أن تشومسكى درس كتاب سيوييه وتأثر به]. وكان ريلك هاريس، الذى درست [اللسانيات] معه، أنجز أعماله الأساسية فى اللسانيات التاريخية السامية، وكنت درست ما كتبه فى هذا الموضوع أيضاً. إن من الصعب دائماً

أن يتسع تدفق مثل هذه الأمور، لكن هناك من غير شك لاحتتمالات كبيرة لمثل هذا التأثير.

كما كتب لي رسالة مؤرخة في ١٧ ديسمبر ١٩٩٠، بعد أن بحثت إليه نسخة من ترجمتي لكتابه "اللغة ومشكلات المعرفة" ضمنها النص التالي:

على الرغم من أنني كتبت في فترة مبكرة من حياتي أعرف ما يكفي من اللغة العربية أستطيع به فهم ما ينشر في جريدة أو رواية (لما درستني الفعلية فقد كانت معصورة على الشعر الجاهلي، والمؤلفات السحرية التي ألقت في القرن الثامن الميلادي [القرن الثاني الهجري]؛ ربما يشير هذا إلى كتاب سيبويه])، إلا أن ذلك كان قبل أربعين سنة خلت، أما الآن فإني لا أثق بمعرفتي [العربية]. لكنني سوف أعير للكتاب [الترجمة] إلى أحد زملائي أو أصدقائي [قراعتهم].

ويشير بوضوح من كلام تشومسكي أن تأثيره بالنحو العربي لا يتجاوز كونه احتمالاً. ولو كان يعرف العربية معرفة تمكنه من فهم دقائق كتاب سيبويه لما كان من الممكن لهذه المعرفة العميقة أن تصمحل إلى الدرجة التي يذكرها، بل إن من يعرف تشومسكي وأعماله ودقته في ذكر مصطلحه سيستعرب من عدم إشارته إلى كتاب سيبويه تحديداً، لو كان نقل عن سيبويه شيئاً محدداً في بناء نظريته.

كما أن كلام الباحثين العرب والغربيين على السواء لم يستطع على تفصيله في بعض الأحيان تأكيد هذه الصلة المباشرة بين تشومسكي والنحو العربي.

ومع ذلك فالمسؤول للمشروع عن مر هذا الشبه الذي يبدو واضحاً بين النحو العربي والنظرية التوليديّة ما يزال قائماً، وما يزال بحاجة إلى إجابة واضحة.

وربما رأى بعض الذين يربطون بين النحو العربي والنحو التوليدي



لنا لمنا بحاجة إلى البحث عن إجابة لهذا السؤال؛ إذ لا بد أن يكون تشومسكي قد تأثر بالنحو العربي بصورة دقيقة، لأن هذه التشابهات لا يمكن أن تأتي من فراغ، خاصة أن تشومسكي صرح بدراسته للعربية وباطلاعه على كتاب سيويو. فلما بحاجة إذن إلى البحث عن إجابة غير هذه حتى إن لم يكن لدينا أي دليل.

لكن يجب علينا، لكي يسلم لنا بأخذ تشومسكي عن النحو العربي أو التأثير به تحديدًا، أن نبرهن على أمرين: الأول: أن النحو العربي وحده هو الذي تبدو فيه هذه التشابهات مع النحو التوليدي، أي أن هذه التشابهات لا توجد في الأنحاء الأخرى في القديم والحديث.

وهذا الافتراض ليس صحيحًا، كما سنرى فيما يأتي، ذلك أن كثيرًا من الأنحاء في الحضارات الأخرى قديمها وحديثها تتضمن كثيرًا من الأفكار التي يتشابه فيها النحو التوليدي مع النحو العربي.

والأمر الثاني: أنه ما دام أن هذا التشابه موجود بين الأنحاء الأخرى، غير العربية والنحو التوليدي، فيجب علينا أن نبرهن على أن تشومسكي لم يطلع على تلك الأنحاء.

وسأحاول هنا أن أبين أن كثيرًا من الأفكار التي يشترك فيها النحو العربي مع النحو التوليدي موجودة في أنحاء أخرى كذلك، وأن تلك الأنحاء كلها كانت متوفرة في المجال العلمي والثقافي الذي نشأ فيه تشومسكي، بل إن تشومسكي صرح باطلاعه على بعض تلك الأنحاء؛ وصرح بتأثره بها.

ويكفي أن نطلع على بعض الكتب التي تؤرخ لدراسة اللغة في الحضارات القديمة المختلفة لنجد ألفة كافية على الأمر الأول. وأقرب كتاب موحز لتتبع هذا التاريخ هو كتاب اللساني البريطاني المعاصر ر. هـ. روبنر "موجز تاريخ علم اللغة" الذي صدرت طبعته الأخيرة في ١٩٩٠م، وترجمه إلى العربية الدكتور أحمد عوص، ونشر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في عددها ٢٢٧، رجب ١٤١٨هـ/نوفمبر ١٩٩٧م (وسأقبل هنا

عن هذه الترجمة، مع تحفظي عليها من حيث دقة الترجمة والأسلوب في كثير من المواضع).

والواضح من هذا الكتاب أن دراسة اللغة في أوروبا منذ عصر النهضة إلى القرن التاسع عشر، وهي القرون التي قامت عليها الأفكار الحديثة عن اللغة ودراساتها في الغرب، قد تأثرت بالدراسات اللغوية للنسب 'جرب حرج أوروبا، ومنها النحو العربي أيضا، وإن لم يكن هذا الأثر بالمستوى الذي كان للنحو الهندي، كما يتضح من هذا الكتاب.

يقول روبنز:

والعسبة باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى بشاة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته. وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالثقافات اللغوي الأوروبية وساهم فيه، يصعب الاعتقاد في بعض الجوانب المهمة بأن علم اللغة الأوروبي كان سيصبح في الوضع الذي هو عليه الآن، دون الأفكار التي رفنته بها الأعمال اللغوية من خارج أوروبا، خاصة مؤلفات اللغويين الهنود القدماء عن قواعد اللغة السسكريتية ونظامها الصوتي (ص ٢٣).

ويقول عن علم الصوتيات: "أما علم الصوتيات في القرن التاسع عشر الذي شهد تقسما سريعا في هذا الجانب من علم اللغة [في أوروبا]، هذين بيعة الرئيسى للتكبيك الوصفى للعلماء اليهود، ومنهجية الملاحظة في اثراث الإمبريقي للقرون الثلاثة الماضية" (ص ٥٦).

ويقول:

.. ويبرز اسم بانيني بين القواعديين للهند متوقفا عطيتهم جميعا، ورغم أن تاريخ بحثه غير مؤكد فإنه على نحو واضح تماما أول بحث

قواعدى موجود فى أية لغة هندو - أوروبية، وهو حسب كلمات [اللسانى الأمريكى المعاصر] بلومفيلد "مظم من أعظم معالم الذكاء الإنسانى". ومع ذلك فبينما وصل تقريبا إلى الكمال فى أهدافه التى أعلنها فى ميدان قواعد السنسكريتية التى يتعامل معها، فهو ليس ما يطلق عليه عادة قواعد كاملة للغة السنسكريتية، وربما يجب وصفه بشكل أفضل بلغة حديثة باعتبارها صرفا توليديا للغة السنسكريتية (ص ٢٣٨).

ويقول عن بعض التقنيات التحليلية فى النحو الهندى: "والأداة الوصفية المألوفة للغويين اليوم، وهى التمثيل الصغرى لعصر أو فئة، ترجع لبسانينى بشكل مباشر، والصيغ الشاذة ظاهريا ربما نجعلها تبدو أكثر طرادا عند مستويات التمثيل والتحليل الأكثر تجريدا، عن طريق افتراض مرهيم يمثل تنوع مورفيمي morph صغرى، أى دون تمثيل صريح فى صورة مادية صوتية. . . ." (ص ٢٤٣).

كما اهتمت الدراسات اللغوية التى قامت فى الحضارة اليونانية القديمة بدراسة اللغة اليونانية ووصلت إلى أفكار وتحليلات تشبه ما نجده فى النحو التوليدى. يقول روبنز: إن " . . . المعكرين اليونان الذين فكروا فى اللغة وفى المشكلات التى تثيرها البحوث اللغوية، قد استهلوا فى أوروبا الدراسات التى يمكن أن نطلق عليها الآن العلم اللغوى بمعناه الواسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء وحتى العصر الحاضر فى تتابع متصل للمعرفة، بحيث إن كل من عمل فى هذا المجال كان على دراية بأعمال سابقيه، وكان متفاعلا معها بطريقة معينة" (ص ٣١).

ويقول: "وأفضل الأعمال التى قام بها اليونان (والرومان) كانت فى ميدان القواعد [التركيب syntax]. . . إضافة لهذا فإن النظريات والمقولات والمصطلحات التى ابتدعها العلماء القدماء [اليونان والرومان] فيما يتعلق

فقد عد لغاتهم هم، قد أصبحت جزءاً من الأدوات القواعدية العلمية للعويين الوصيين المعاصرين" (ص ٥٧).

ويقول: "وتظهر بعض التهم الموجهة ليرشبان ولعلماء القواعد اللاتين الآخرين، شأنها لاقتا للنظر مع تهم تجاهل الكفاية التعليلية للنظرية لمصلحة كفاية الملاحظة للمادة المسجلة، تلك التهم التي وجهها في الوقت الحاضر علماء القواعد [التركيب] للتوليديين، ضد سابقهم الوصيين بشكل حالص والمرتبطين ببلومفييد، وبالانجاءات المائدة في المؤلفات اللغوية في الربع الثاني من القرن العشرين" (ص ١٣٥).

أما في عصر النهضة، فقد بدأ التفكير العلمي في دراسة اللغة، ووصل إلى كثير من الأفكار التي بعدها في النحو التوليدي. وفي ذلك يقول روبنز: "ومن هذا الموقف ظهر بشكل ثابت مفهوم قواعد أساسية وعمومية [كلية]، وهو بحث متكرر منذ ذلك الوقت للغويين النظريين. . . . وقد صرح روجر بيكون الذي كتب هو نفسه قواعد لليونانية كانت من لولى القواعد التأملية. . . بأن القواعد قواعد واحدة، وهي نفسها في كل اللغات من حيث جوهرها، وأن الخلافات السطحية فيما بينها هي مجرد حقائق عرضية" (ص ١٣٦-١٣٧).

كما أورد روبنز كثيراً من خصائص التطوير النحوي في عصر النهضة الأوروبية وما تلاه حتى القرن الثامن عشر. وقد برز في تلك الفترة علماء اقترحوا كثيراً من الاقتراحات التي تشبه اقتراحات تشومسكي. ومن أولئك نحويو هورت رويال والفيلسوفان لينز وبواربييه وغيرهم كثير.

وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بدأ الانحسار الكبير بالدراسات التي أنجزها النحويون الهنود القدماء. يقول روبنز عن ذلك: كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسنتسكريتية أثر مزدوج، فقد شكلت مقارنة

السنسكريتية باللغات الأوروبية للمرحلة الأولى في التطور المبهي لعلم اللغة للمقارن وعلم اللغة التاريخي، وإضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في المكتبات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف بمزاياه في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقاً وبقياً" (ص ٢٢٦-٢٢٧).

ثم يعرض لكثير من المدارس التي ازدهرت في القرن التاسع عشر يقول: "والنظرية اللغوية التي أنجزها تروبتسكوي ورفاقه من مدرسة براغ وأصبحت في الذهن التحليل الفلجي [الصواتي] أساساً قد قادت إلى عدد من التطورات عظيمة الأهمية، وتحليل الوحدات اللغوية في صورة مجموعة من الملامح المميزة لدى مده ياكوبسن بالفعل إلى الصرف، قد طبقة أيضاً في التحليل القواعدى عموماً، وهو الآن تحليل مركزي إلى حد بعيد في القواعد التوليدية - التحويلية" (ص ٣٢٧).

ويقول: "ومشاركة تشومسكى في دراسة تاريخ علم اللغة قد نشأ - من افتتاعه بأن كثيراً من مقاربتة هو أساساً عبارة عن تطور مصوغ بشكل أفضل للممارسة الأوروبية التقليدية (والمرء يمكنه أن يضيف: وللممارسة الهندية السنسكريتية)" (ص ٣٦٣).

ويتبين من هذه النصوص من كتاب روبنز أن كثيراً من الأنحاء القديمة تتمثل فيها الأفكار نفسها التي نجدتها في النحو العربي. كما أن هذه الأنحاء كانت متوفرة بوضوح وقوة في المجال الثقافي والعلمي الذي نشأ فيه تشومسكى. وأن تشومسكى على معرفة بها. كما يتبين من مسيرة حياة تشومسكى أنه درس اللسانيات على بعض الأساتذة اللذين كانوا من أبرز المتخصصين في دراسة النحو الهندى.

ومن هؤلاء هنرى هوينجسوالث Henry Hoenigswalt وكان

تشومسكي انطاك الوحيد في الفصل الذي كان يدرس فيه هوبجر قالت  
السايات التاريخية، ويقول عنه تشومسكي: كان "عالمًا متميزًا في اللسانيات  
الترجيحية كما كان يعرف للتقليد [النحوية] الهندية. . . وكان على معرفة  
بالتقاليد السويدية الأوروبية" (زوبرت نرسمكي، ص ٥٤-٥٥). ويقول  
تشومسكي إن هوبجر قالت: قرأ رسالة البكالوريوس التي كتبها تشومسكي  
عن انضمام الصوفي للصوتي للغة العبرية الحديثة، وهي التي تتضمن الأفكار  
أساسية للنحو التوليدي، ولا بد أنه لاحظ التشابهات بين هذه الرسالة  
والأداء الأخرى وصولاً إلى التقليد الهندية [النحوية] الكلاسيكية" (ص ٥٥).

بهدف إلى ذلك أنه كان هناك كثير من اللسانيين الذين ينتمون إلى  
المدرسة اللسانية التي ثار عليها تشومسكي، وكانوا لا يتركون سبيلاً ممكناً  
إلا سلوكه في التشجيع على نموذج النحو التوليدي الذي اقترحه. وكان ممكناً  
لواحد منهم في الأقل، في بحثه عن أي شيء يمكن أن يتحد وميل إلى الليل من  
هذا النموذج ومن صاحبه، أن يشير إلى أن هذا النحو منسوخ من النحو  
العربي. لكن أحداً لم يتهمه بشيء من ذلك.

وبهذا فإن افتراض أحد تشومسكي عن النحو العربي على وجه التحصر  
أو تأثره به وحده لا يمكن أن يكون مقبولاً؛ إذ تشير الأدلة كلها إلى وجود  
أداء أخرى اطلع عليها تشومسكي في أثناء تكويبه العلمي، وهي تقسم  
بالخصائص نفسها التي يتم بها النحو العربي.

ويجب القول هنا أن عدم ثبوت أحد تشومسكي عن النحو العربي  
مجردة ليس عيباً لهذا النحو؛ فالنحو العربي ينتمي إلى الأنحاء التقليدية التي  
لا حصت كلها بعض الخصائص الجوهرية لسيه اللغة.

وكثيراً ما نجد تشومسكي يؤكد للصلة القوية بين النحو التوليدي  
والأداء التقليدية، من غير أن يحدد نحواً بعينه، وإن أشار إلى بليني

النحوى الهندى القديم بكثير من التقدير، وإلى بعض النحويين التقليديين المعاصرين كالتحوى الدينماركى جيسبرسن، الذى يشير إليه فى كثير من أبحاثه. وكان تشومسكى بحلول ذلكم أن يبين أوجه التشابه بين نظريته وهذه الأنحاء فى موجهته المبكرة مع النظرية الوصفية التوزيعية التى سادت فى أمريكا بخاصة من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين.

ومن الطرائف التى تتصل بهذا الأمر أنه عقد مؤتمر لللسانيات فى مدينة لوسطن فى ولاية تكساس سنة ١٩٥٩م، وقد دعا مبطلو هذا المؤتمر، وهم الذين كانوا القادة البارزين فى حقل اللسانيات فى تلك الفترة، تشومسكى لمناظرة فى أرقه اللسانية الجديدة. وكان الهدف من دعوته إلى ذلك المؤتمر، كما يقول، القضاء على النحو التوليدى فى مهده. وكان من بين المدعويين نحوى تقليدى وضعه منظمو المؤتمر فى صف تشومسكى لكى يجعلوا من هذا النحوى لأضحوكة بعد أن يقضوا على تشومسكى. لكن تشومسكى بدأ فى الدفاع عن هذا النحوى لسبين كما يقول: "الأول أنه لم يرق لى ما كان يجرى لمن الاستهتار بهذا النحوى"، والثانى أن هناك فى الواقع أشياء كثيرة مشتركة بين النحو التوليدى والنحو التقليدى". وكانت النتيجة انتصار تشومسكى فى أعقاب تلك المناظرة على اللسانيين الوصفيين انتصاراً ساحقاً جعل بعض البارزين منهم يحول ولاءه إلى النحو التوليدى مباشرة (بارسكى، ص ٩١-٩٢).

ومن النصوص المهمة التى كتبها تشومسكى عن العلاقة بين النحو التوليدى والأنحاء التقليدية ما جاء فى كتابه: "القضايا الراهنة فى النظرية اللسانية" ١٩٦٤:

ليس بعيداً عن الصواب أن ننظر إلى النموذج التحويلى على أنه صياغة شكلية مبسطة للخصائص الموجودة بشكل ضمنى فى الأنحاء التقليدية، وأن ننظر إلى تلك الأنحاء على أنها أنحاء توليدية تحويلية صممت؛ ذلك أن هدف الأنحاء التقليدية أن توفر لمستعملها القدرة على فهم أى جملة

من جعل اللغة، وأن يصوغها ويستعملها بشكل ملائم في المقام العائلي. ولهذا  
 فهدى (في الأقل) بمائل في اتساعه وبعده أهداف النحو للتوليد، الذي  
 وصفه بها. يضاف إلى ذلك أن الآليات الوصفية للنحو التقليدي تفوق بكثير  
 الحدود التي تقيد النموذج النحوي للتصنيف [الميلق لتشومسكي]، لكن هذه  
 الآليات يمكن صنعها بشكل كبير، أو ربما بشكل كامل في إطار النموذج  
 النحوي. ومع ذلك من المهم أن نعي أنه حتى أبق الأنحاء التقليدية وأكملها  
 إنما تعتمد بشكل أساسي على حدس مستعملها ونكاته، وهو الذي يُنظر منه  
 أن يستنتج المقننات الصحيحة من الأمثلة والإحياءات الكثيرة (وللقوائم  
 الواضحة للشواهد) التي يقدمها النحو. فإذا صيغ النحو صياغة جيدة فيمكن  
 لمستعمله عندئذ أن ينجح في استعماله، لكن الاطرادات العميقة للغة التي  
 يمكن له اكتشافها تستعصى على الصياغة المنصبة، كما أن طبيعة القدرات  
 التي يمكنه من استخدام النحو واكتشاف تلك الاطرادات مستظل أمراً محيراً.  
 ويمكن أن تقدر مدى اتساع هذه العقبات إذا ما حاولنا أن نصوغ قواعد  
 واضحة لكامل الحقائق اللغوية المتاحة للمستعمل فالصاح للغة (من  
 ١٦-١٧).

وبعد اتفاق النحو العربي مع الأنحاء التقليدية الأخرى التي رأى  
 تشومسكي أنها تفوق الدراسات اللسانية الوصفية التوريةية التصيفية التي  
 كانت سائدة في أمريكا بحاصة في النصف الأول من القرن العشرين أبلغ  
 إشارة إلى أن النحو العربي، حاصة في صورته التي يمثلها كتاب سيبويه، قد  
 بلغ حدًا بعيدًا من العمق في البحث عن الأسس العميقة للمعرفة اللغوية التي  
 يحترّبها المتكلم في عقله عن لحنه، وما القول بالعامل وتقدير الأصول لبعض  
 الكلمات والبنى المجردة لبعض للجمل إلا إشارة إلى ذلك الحق.

ومحصلة القول أن تشومسكي لم يتأثر بالنحو العربي على وجه اليقين،  
 وأن التشابه بين نظريته التوليدية والنحو العربي إنما جاءت من اهتمام



الأنحاء التقليدية كلها، ومنها النحو العربي، ببعض القضايا الجوهرية في سبيل اللغة، وهي التي جاء تشومسكي ليصوغها صياغة نظرية حديثة مبسطة.

وكما بينت فقد بنى تشومسكي نحوه التوليدي على أفكار استقاه من مصادر متعددة، كالأنحاء التي كانت تسمى بالأنحاء الفلسفية التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعض الأنحاء التقليدية الأخرى، ومن أعمال بعض الفلاسفة واللغويين الأوروبيين وبالأخص نيكارت وسمبولت وهيوم.

كما بنى النظرية التي ارتبطت باسمه على منجزات العلوم التي حدثت في أواسط القرن العشرين، وهي التي ساعدته في صياغة كثير من الأفكار التي استقاها من تلك المصادر القديمة صياغة نظرية متماسكة جديدة.

وسأعرض هنا ما يقوله تشومسكي نفسه عن مصادر المعرفة التي انطلق منها وتمثلت الأسس التي قامت عليها نظرية النحو التوليدي التي ارتبطت باسمه.

فيبين في عدد من كتبه ومقالاته الأسس العلمية التي انطلق منها، ومن أقدم الأمثلة على هذا ما نجده في كتابه ("لقضايا الراهنة في النظرية اللسانية" Current Issues in Linguistic Theory، ١٩٦٤م، ص ٢٧-٢٧). فهو يقول (وهي ترجمتي): "يُعبر النموذج التحويلي على الوجه الذي وصفته آنفاً عن وجهة نظر في بنية اللغة ليست جديدة أبداً" (ص ١٥). ثم يبين تماثل هذا النموذج في بعض الخصائص المهمة مع النحو الذي يسمى "نحو بورت روبال" كما يظهر في كتاب "النحو العام والتعليل" Grammaire générale et raisonnée، الذي نشر سنة ١٦٦٠م، ثم يورد بعض الأفكار الأساسية التي اقترحها اللغوي الألماني فون سمبولت عن طبيعة اللغة وبنيتها واكتسابها، ويورد النصوص التي تمثل تلك الأفكار بلغة الألمانية (ص ١٧-٢٢).

وعرض تلك الأسس مرة أخرى بشكل موسع في كتابه "اللسانيات  
الديكارتية: فصل في تاريخ الفكر العقلاني"، ١٩٦٦م.

كما أشار إلى تأثير ديكرت وحمولات وديجند هيوم في مواضيع متعددة  
من كده "اللغة والمسئولية"، ١٩٧٩م language and Responsibility ، وفي  
مقال به عنوان "طبيعة اللغة واستخدامها واكتسابها" (نشر في كتاب ثلاثون  
سنة من تطور اللسانيات"، Martin Putz (ed.): Thirty Years of Linguistic  
Evolution، ١٩٩٢، ص ٣-٢٩).

وكذلك في الكتاب الذي ألهمه ديفد بارسكي عن مسيرة تشومسكي. يقول  
بارسكي (ص ١١١): "يشير تشومسكي في نقاشه للبنى العميقة والبنى  
السطحية في كتابه "اللسانيات الديكارتية" إلى قيمة النظرية الكلية أو الفلسفية  
لدراسة النحو التوليدي التحويلي. وهو يقوم بذلك مشيراً إلى النحو والمنطق  
كليهما كما وصفا في نحو جماعة بورت روبال Grammaire generale et  
raisonnee، ١٦٦٠، فهو يقول [أي تشومسكي]:

تهتم هذه النظرية على وجه التأكيد بالقواعد التي تحدد البنى العميقة  
وتصلها بالبنى السطحية، وكذلك بقواعد التمثيل الدلالي التي تعمل على البنية  
العميقة وقواعد التمثيل الصوتي التي تعمل على البنى السطحية. وبكلمات  
أخرى، فليست هذه النظرية إلا تطويراً وصياغة شكلية للأفكار الموجودة  
بشكل صمني [في النحو الديكارتية]. . . . لذلك يبدو لي، من لوجه عديدة،  
أنه لا يبعد عن الصواب أن نعد نظرية النحو التحويلي التوليدي، بشكلها الذي  
تطورت به في الدراسة المعاصرة، وجهاً معاصراً وأكثر جلاء للنظرية التي  
يُصممها نحو بورت روبال.

وسألخص فيما يلي وجهة نظر تشومسكي عن هذا الموضوع كما  
ورثت أخيراً في الكتاب الذي حرره آسا كاشير : The (cd) Asa Kasher  
Chomskyan Turn 1991 ، "المعطف التشومسكي". وهو كتاب يحوى

الأبحاث التي أُلقيت في مؤتمر عقد في القدس سنة ١٩٨٨ لتكريمه. ويتضمن الكتاب بحثين ألقاهما تشومسكي في ذلك المؤتمر - ويهمننا هنا البحث الأول الذي جاء بعنوان *Linguistics and Adjacent Fields: A Personal View* "اللغويات والعلوم المجاورة: وجهة نظر شخصية" (ص ٣-٢٥)، ويعرّص فيه الأسس الفلسفية العميقة التي يقوم عليها النحو النحوي والمطلقات التاريخية التي سبقته إلى تلك الأسس التي يؤكد استقلاليته منها.

فيشير في نص سبق أن لورنته في هذه السلسلة إلى بعض العلماء السابقين ويخص النحوي الهندي القديم، بانيني واللغوي الألماني وليم فور هوبولت. وهو ما يدل على المكانة التي يحلها فيهما.

ويؤكد (ص ٤) أن "... دراسة النحو التوليدي تطورت ضمن ما أسماه بعض الباحثين بـ "الثورة المعرفية" التي حدثت في الخمسينيات لمن القرن العشرين، وكانت عاملاً مهماً في إحداث هذا التحول في المنظور فيما يخص الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنساني". أما هذه "الثورة المعرفية" فعلى الرغم من أنها كانت مجهولة في تلك الفترة [الخمسينيات] ولا تفهم في الوقت الحاضر إلا فهمًا محدوداً، فإنها لم تكن أكثر من عودة إلى الاهتمامات القديمة ومحاولة إحياء المفاهيم السابقة التي نسيت، ووضعها في منظور جديد أحياناً".

ومن المفاهيم المكونة للثورة المعرفية المعاصرة التي ساعدت على إحياء المفاهيم القديمة، يخص تشومسكي "... نظريات التمثيل والحوسبة للدماغ، واختبار تيرنج نسبة إلى عالم الرياضيات البريطاني المعاصر ألين تيرنج عن الذكاء الإنساني، وقضية الشروط الفطرية الخاصة بنمو المعرفة والفهم، وبعض الفروع الأساسية في علم النفس الجسّالي [الكلي]، وغير تلك كثير" (ص ٤). وكانت هذه الأفكار قد طورت وبحثت بطريقة مفصلة وعميقة ضمن ما يمكن أن نسميه بـ "الثورة المعرفية الأولى"، في القرنين السابع عشر والثامن عشر (ص ٤).

ويقول:

فإذا كان التاريخ للفكرى يتصف بالحظية والاستمرارية والتراكمية،  
بدلاً من سجله الحقيقى الذى يتسم بالقفزات المتهورة والبديلات الحاطنة  
والنفهر المألوف، فيمكننا أن نقول إن الثورة المعرفية التى حدثت فى  
الحسبيات، ومن صمناها ظهور النحو للتوليدى، إنما تمثل نوعاً من تلاقى  
أفكار الثورة المعرفية الأولى وفتوحها بالفهم النقصى الجديد عن طبيعة  
الحوسبة والأنظمة للصورية التى طورت على وجه العموم فى هذا القرن،  
وهو ما مكن من صياغة بعض القضايا القديمة، التى كانت تتم بقر من  
العموم، بطريقة أكثر جلاء، وهو ما جعل من الممكن إخصاءها للبحث  
الغنى المنتج فى بعض المجالات فى الأقل، وكانت اللغة واحدة منها (من  
٤-٥).

ثم يذكر بعض القضايا الأساسية فى دراسة اللغة، ويخلصها فى الأسئلة  
التالية:

- ١- مم تتكون معرفة اللغة؟
- ٢- ما الكيفية التى تكتسب بها هذه المعرفة؟
- ٣- كيف تستعمل هذه المعرفة؟

ويقول بعد ذلك:

كانت هذه القضايا، وإن بشكل أولى، منطلقاً لنقاش حى فى بداية  
الحسبيات، ولم يشارك فى ذلك النقاش بشكل رئيسى إلا عدد قليل من  
طلاب الدراسات العليا. ويمكن لى أن أذكر من هؤلاء على وجه الخصوص،  
فى مدينة كمردج [فى ولاية ماساتشوستس الأمريكية]، إيريك ليبيرج  
ومورس هالى، وكذلك يهوشوا بار هليل، الذى لم يعط ما يستحقه من تقدير  
كفاء مشاركته البناءة ونقده المتعاطف لهذا المنحى الجديد من البحث  
[اللسانى]. وفيما كنا نقارب هذه القضايا من منطلقات وخلفيات مختلفة، فقد

كان يجمعنا شك مشترك في الجو العلمي المهيمن، كما كان يجمعنا منظور مشترك وحس متنام بأن مناحي التفكير التي نحاولها، وهي المناحي التي ترتبط بطرق معقدة ببعض التطورات الأخرى في تلك الفترة، كانت تسير في مسار صحيح (ص ٦).

ويقول: "إن لكل واحد من هذه الأسئلة التي توطّر هذا المسعى من البحث طعناً كلاميكيًا وسوابق قديمة، شأنها شأن "الثورة المعرفية" عمومًا" (ص ٦). ثم يربط بين السؤال الأول وفور همبولت، ويسميه "مشكلة همبولت"، وبين السؤال الثاني وديكارت وهيوم، ويسميه "مشكلة أفلاطون"؛ ويربط بين السؤال الثالث وديكارت، ويسميه "مشكلة ديكارت".

كما يربط بين النحو التوليدي والنحو التقليدي بالصورة التي رأيناها فيما سبق.

ويشير إلى الصلة بين "الصوتنة التوليدية" واللسانيات التاريخية، وبالأخص اللسانيات التاريخية السامية، على الوجه التالي:

أما الفكرة المتمثلة في النظر إلى اللغة على أنها نظام من القواعد من هذا النوع [الذي اقترحه في التركيب]، فقد دُعيت بالممارسة التي تقوم عليها الصوتنة التوليدية، وهي التي طوّرت — أو بصورة أكثر تحديدًا، أُحييت — قبل تلك سموات قليلة، تأسست على أنظمة من القواعد تكاد تكون من هذا النوع على وجه التحديد. ولم يكن للدافع لذلك في هذا المعنى إلا اللسانيات التاريخية — وبحاصة اللسانيات التاريخية السامية — التي تقدم فكرة — "التفسير" لا توجد في التقاليد اللسانية البنيوية [التي سبقت تشومسكي، في أمريكا على الأخص]. وكانت أبحاثي في هذا الموضوع في أواخر الأربعينيات تقوم بشكل صريح على هذا النموذج، وذلك بفعل فكرة التفسير والقواعد المرتبة [التي كانت تقترح تفسيرًا للتطور الثقافي للغة] إلى الإطار

الترامى؛ وقد افترح يهوشوا بار هليل نحسيناً شاملاً على هذا العمل، كما افترح — بصورة صحيحة كما تبين فيما بعد — أنه يمكن أن تحسن هذه الصرية بصورة عميقة إذا ما أخذنا للصيغ المرسّنة تاريخياً [الصيغ التي افترح، وحودها في طور أقدم للغة] على أنها هي للصيغ التي يقوم عليها النحو الترامى (ص ٢٠-٢١).

ويمكن أن نلاحظ هنا أن استنتاجه من الدراسات اللسانية التاريخية السامية لا تعنى استنتاجه من النحو العبرى أو العربى، وإنما تعنى استنتاجه من اندرسات السامية التاريخية التي وضحت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بتأثير الدراسات التاريخية التي أشار إليها روبر في كتابه سابق الذكر.

ومما يلفت النظر أن تشومسكى لم يتكلم عن تأثره بالنحو العبرى، على وجه الخصوص، على الرغم من معرفته بهذا النحو نتيجة لمعرفته بأعمال أبيه في هذا المجال، ولو ذكر تشومسكى له تأثره بالنحو العبرى لكان ذلك مدحاً للقول بأنه تأثر بالنحو العربى بصورة غير مباشرة. ذلك أن النحو العبرى أسس، استشهاده بالحقائق التاريخية المعروفة وبكلام تشومسكى نفسه، على النحو العربى. لكن عدم إشارته إلى النحو العبرى يشير إلى أن هذا النحو، والنحو العربى تبعاً لذلك، لا يحتصان بشيء لا يوجد فى الأنحاء التقسيمية الأخرى. كما أن عدم إشارته إلى النحو العبرى يدل على صدق كلامه عن عدم تأثره بالنحو العربى تحديداً؛ إذ إنه لو لم يكن موضوعاً وصفاً وراك أن يعلى من شأن أى نحو، بسبب تشابهه مع النحو التولىدى، فالمتوقع منه أن يشير إلى النحو العربى.

ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا أن هناك من يرجع إلى تشومسكى تأثره بتطيرات بعض اللغويين الذين سفوه فى القرن العشرين. ويشار هنا إلى عمين اثنين تحديداً يزعم أنهما يتشابهان مع نظرية النحو التولىدى، وهما

مقال اللساني الأمريكي المعاصر ليونارد بلومفيلد Menomni morphophonemics "النظام الصوتي الصرفي للغة المينومي" (إحدى اللغات التي تتكلمها بعض قبائل الأمريكية الأصلية) التي نشرت في سنة ١٩٣٩م، أي قبل عشر سنوات من إنجاز تشومسكي ومسالته للبكالوريوس التي تصمتت البذور الأولى للنظرية التوليدية، ومقال رومان ياكوبس Russian Conjugation "تصريف اللغة الروسية"، الذي نشر سنة ١٩٤٨م.

كما يشار كذلك إلى كتاب زيالك هاريس، أستاذ تشومسكي، Methods in Structural Linguistics "مناهج اللسانيات البنيوية"، الذي قرأه تشومسكي مخطوطاً سنة ١٩٤٧م، ونشر ١٩٥١م.

وقد تولى اللساني الأمريكي فريدريك نيومير، الذي يمكن عدّه مؤرخ المدرسة التوليدية، إيضاح عدم صلة هذه الأعمال الثلاثة بعمل تشومسكي. وهو ما يعني أن تشومسكي لم يتأثر بها في وضع نظريته. وعالج نيومير هذا الأمر في كتابه Linguistic Theory in America "النظرية اللسانية في أمريكا"، ١٩٨٠م، وفي كتابه الآخر Generative Linguistics: A Historical Perspective "اللسانيات التوليدية: منظور تاريخي"، ١٩٩٦م.

ويلخص رأي نيومير في هذه القضية قوله، بعد إيراد عدد من الأدلة (١٩٩٦: ص ١١): "... ليس هناك دليل ألبتة على أنه كان للمقال بلومفيلد وبلاكسون أي دور في بلورة أفكار تشومسكي".

أما تأثير هاريس فتمثل، لا في بناء تشومسكي بصورة مباشرة على آراء أستاذه، بل في استغلاته من بعض آراء أستاذه وتطويرها بشكل مختلف (نيومير ١٩٩٦: ص ١٤-١٦).

كما أشار نيومايير إلى أثر " . . . الأبحاث في أسس المنطق وفلسفة العلوم"، في الأربعينيات على فكر تشومسكي (نيومايير ١٩٩٦: ص ١٥). فيقول (ص ١٥): "أعتقد أن تشومسكي ألقى رسالته للبكالوريوس [كان أول من أشار إلى أنه يمكن عقد الصلة بين الإجراءات التي كان يتبعها اللسانيون الوصفيون الأمريكيون وبين برنامج [الفيلسوف كارناب] في كتابه Der Logische Aufbau der Welt المنشور في سنة ١٩٢٨م، وهو البرنامج الذي يحاول أن يبني، بسلسلة من التعريفات، مفاهيم النوعية، والأحاسيس، وغير ذلك، بأحدتها مباشرة من التجربة [الواقع الحسي]. وجاء التأثير الآخر من [الفيلسوف الأمريكي] ويليام جولدمان [الذي كان أستاذًا لتشومسكي في جامعة بنسلفانيا] الذي تأثر تشومسكي تأثرًا صريحًا بكتاباته عن الأنافة بوصفها خصيصة من خصائص صياغة القوانين العلمية، بل وصل به الأمر إلى الاحتجاج بها [أناقة القوانين العلمية] في تسويغ القواعد المرتبة في النحو (جولدمان ١٩٥١). كما أن صياغة تشومسكي لقواعد بنية المركبات في رسالته للبكالوريوس (والمصطلحات التي رافقت تلك الصياغة) لا يمكن للشك بأنها متأثرة بكتاب كارناب The Logical Syntax of Language "التركيب المنطقي للغة"، المنشور ١٩٣٧م (نيومايير ١٩٩٦: ص ١٥).

ويمكن أن نخلص مما تقدم أن تشومسكي في صياغته لنظرية النحو التوليدي كان يطلق من مصادر كثيرة، بعضها قديم وبعضها حديث؛ بعضها من النحو، وبعضها من العلوم المتعددة التي لاطلع عليها. لهذا فالقول بأنه اعتمد على النحو العربي إنما يعنى إلقاء تلك المصادر المتعددة كلها.

وبقي أن نلاحظ أن الأمر لا يتوقف على المصادر التي استقلا منها تشومسكي؛ بل يتوقف على عبقريته التي مكنته من استغلال تلك المصادر على الوجه الأمثل لكي يأتي بشيء جديد يعرف به.

وهناك بعض الملحوظات التي لا بد لي من إبدائها هنا. ومنها أن كثيرا



من العرب المعاصرين يكادون يحفظون كتاب سيويه، إن لم يكونوا يحفظونه فعلاً، إلا أنهم لم يستطيعوا حتى اكتشاف الصلة بين النحو العربي والنحو النوليدى، بشكل واضح. وكان من المنتظر أن يهب هؤلاء ليببوا بالتفصيل تلك الصلة بشكل لا يس فيه.

والملاحظ الآخر أن كثيراً من العرب المعاصرين، على الرغم من الادعاء بأن تشومسكى كان متأثراً بسيويه، فإنهم يهتمون من يتخصص في اللسانيات بأنه تابع للغرب، وعدو للنحو العربي. وكان المنتظر من هؤلاء ألا ينفوا هذا الموقف؛ إذ كان من الواجب عليهم أن يكونوا أول المبادرين إلى الاطلاع على النحو العربي بثوبه الجديد!

والملاحظ الأخير أن وصول تشومسكى لنظرية النحو النوليدى إنما هو ثمرة للتقدم العلمى الكبير فى مجالات متعددة فى هذا العصر. وقد بين تشومسكى نفسه أن لكثير من الأفكار التى تقوم عليها هذه النظرية ما يشبهها فى فترات متقدمة؛ لكن الصياغة العلمية المصطبغة لهذه الأفكار لم تصبح ممكنة إلا فى هذا العصر. وبصدق هذا على كثير من الأفكار التى نجدها فى الآثار اللغوية العربية القديمة. لهذا فالمنتظر منا الآن ألا نكتفى بتريده ما كان يقوله الأولون؛ بل علينا - مع الاعتراف بمكانة الأوائل وسبقاتهم - أن ننظر فى تلك الأفكار من جديد مستعدين من الإتجاهات العلمية فى المجالات المختلفة التى تحققت فى هذا العصر؛ لنصل إلى صياغات أكثر علمية واتصافاً لتلك الأفكار.

والملاحظ القارئ الكريم أنى لم أتحدث عن تشومسكى كثيراً؛ إذ كان اهتمامى منصباً على مناقشة القضية التى تثار دفئاً من غير أن تتلقى فحصاً جدياً، وهى القول بأحد تشومسكى أفكاره مباشرة من النحو العربى.

وهناك قضايا فى اللسانيات النوليدية، وفى فكر تشومسكى الاجتماعى والسياسى تستحق أن تناقش.

ولم يترجم مما كتبه تشومسكى فى اللسانيات إلى اللغة العربية إلا  
نفيل. ومن كتبه التى ترجمت كتابه الأول "البنى التركيبية"، وترجمه الدكتور  
يونس يوسف عريز، بعنوان "البنى النحوية"، للدار البيضاء: الناح الجديدة،  
(١٩٨٧م). وكتابه الشهير الآخر The Aspects of the theory of Syntax،  
١٩٦٩، ترجمه الدكتور مرتضى حواد بقرا، بعنوان "جوانب من نظرية  
الحو"، وزارة التعليم العالي والبحث العلمى، جامعة البصرة، ١٩٨٥. و  
Language and the Problems of Knowledge، 1988، وقد ترجمته بعنوان  
"السنة ومشكلات المعرفة". ونشرت الترجمة فى دار توبقال للنشر، سنة  
١٩٩٠م. وكتابه الذى يحيل إليه كثيراً فى هذا الكتاب: Knowledge of  
Language، 1986، الذى ترجمه الدكتور محمد فتوح - رحمه الله، بعنوان:  
المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها. القاهرة: دار الفكر العربى،  
١٩٩٣م. وترجمه مرة أخرى الدكتور محيى الدين حميدى بعنوان "معرفة  
اللغة"، الرياض: دار الزهراء للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، وهى  
ترجمة سيئة تبلغ حدًا بعيدًا من العبث .

أما أعماله السياسية فترجم منها عدد لا بأس به؛ ومنها بعض مقالاته  
ومحاضراته التى ترجمتها ونشرت ضمن كتاب "العولمة والإرهاب: حرب  
أمريكا على العالم"، القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣م. وبكى أن تصعب اسم  
تشومسكى على أى محرك للبحث فى الإنترنت لتجد عددًا كبيرًا من الروابط  
التي يصير فيها اهتمام الثقافة العربية بما يقوله عن السياسة الأمريكية  
والإسرائيلية خاصة.

ما ما يخص الكتاب الذى أترجمه هنا فأود أن أذى بعض الملحوظات  
العجى وأشير بداية إلى استخدامى مصطلح "ذهن" بدلاً من "عقل" الذى  
مكر أن يوحى به المصطلح الإنجليزى. وكنت قد استخدمت المصطلح  
لاحير فى البداية، لكن بعض الرملاء أشار بأنه ينبغي التمييز بوضوح بين

مصطلح "عقل" الذي يعنى في اللغة العربية أموراً تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، وبين ما يتحدث عنه تشومسكى في هذا الكتاب من أنظمة معرفية مختلفة ناشئة عن الدماغ لكنها لا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، بل تتعلق بكيفية عمل الدماغ في أثناء تعامله مع العالم الخارجي. بصاف إلى هذا أن الفلاسفة العرب والمسلمين القدماء أشاروا إلى البدهن ولحتوائه على صور الموجودات في الأعيان، أى في العالم قحارجى.

ويتصل ثلثى الملاحظات بمحتوى الكتاب. فيشهد النقاش في الكتاب بعق المسائل المناقشة وبغزارة التنظيرات الفلسفية الغربية المعاصرة عن كثر من القصايا التى تتعلق بالذهن والشعور واللغة، وغير ذلك. ومما يؤدى إلى شىء من الصعوبة فى فهم ما يتضمنه هذا الكتاب أن تشومسكى لا يورد بالتفصيل مواضع التنازع بين النظريات الفلسفية المختلفة؛ بل يشير إليها معترضاً اطلاع القارئ بصورة ما على ذلك النقاش العنى. لذلك لا بد من التروى فى قراءة الترجمة والاستئناس بما قد يوجد من كتب باللغة العربية عن هذه القصايا، أو محاولة الرجوع إلى المراجع التى يذكرها تشومسكى فى ثلثيا النقاش، وأكثرها باللغة الإنجليزية. ومن للكتب التى يمكن الاستئناس بها كتاب الدكتور محمد غالى: المعنى والتلقى: مبادئ لتأصيل البحث الدلالى العربى. (سلسلة أبحاث ولطروحات) الرباط: معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٩٩م. وكتاب الدكتور حسن عجمى: مقام المعرفة: فلسفة العقل والمعنى. بيروت: دار كتابات، ٢٠٠٤م. وقد حاولت أن أضيف بعض الهوامش التى تبين بعض تلك القصايا أو المصطلحات، لكن الوفاء بها جميعاً يكاد يكون متعزراً؛ إذ سيئشاً عن ذلك تطويل الكتاب وإغراقه بالتفاصيل.

وقد أوردت فى نهاية الترجمة مسرداً بالمصطلحات المهمة التى وردت فى الكتاب، راجياً أن تكون عوناً على قراءته بصورة جيدة. ويحس بالقارئ

من أجل الاطلاع على ما تتل عليه المصطلحات اللسانية في الكتاب الرجوع إلى كتب الدكتور عبد القادر القاسبي الفهري، خاصة كتابيه "اللسانيات واللغة العربية"، ١٩٨٦، و"البناء الموزني"، ١٩٩٠م، وكتاب تشومسكي "اللغة ومشكلات المعرفة"، ترجمة حمزة المزيني، الدار البيضاء: دار توغال، ١٩٩٠م، و"العريضة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة". تأليف ستيف بيكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض: دار المريخ ٢٠٠٠م، وكذلك معجم المصطلحات اللغوية، تأليف رمزي منير بطيكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

وفي الختام أود أن أرجي جزيل الشكر للأستاذ الدكتور عموم تشومسكي على تشجيعه لي على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية؛ فقد أبدى سروره وترحيبه بهذا المشروع وعبر عن تمنياته الطيبة لي بإكماله.

كما أود أن أتوجه بشكر خاص للزملاء الذين تفصلوا بقراءة ترجمتي وأمدوني بملاحظاتهم التي أسهمت في تجنب كثير من مواقع الزلل، وأشير هنا إلى الزملاء الأستاذ الدكتور محمود نحلة في جامعة الإسكندرية، والأستاذ الدكتور محمد غاليم في جامعة محمد الخامس، والأستاذ الدكتور أبي يعرب المروقي، من الجامعة الإسلامية في ماليزيا، والأستاذ الدكتور محيي الدين محسوب، من جامعة الملك سعود، والأستاذ الدكتور عصام عبد الله الأستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس، والزميل الدكتور ناصر كاظم من جامعة البحرين، والأستاذ معيوف المعيوف طالب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية الذي قرأ مشكوراً معظم فصول الكتاب في إحدى صوره الأولى. ويجب أن أقول إن الصيغة النهائية التي تظهر بها للترجمة هنا من حيث اللغة والأسلوب والمضمون مسئوليتي وحدي.

وأود أن أعبر عن شكري الخاص للمجلس الأعلى للثقافة في مصر ممثلاً في أمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور الذي أبدى حماسه لهذا المشروع ووافق على نشر هذه الترجمة.

ويسرني هذا أن أعبر عن شكري الخاص لأسرتي الصغيرة التي كان  
دعماً حير عون لي في مكابدة إنجاز هذا المشروع، وأنا سعيد بأن أهدى  
لهذه الأسرة النموذجية هذا العمل.

الرياض

١٤٢٥/٩/١٠هـ

٢٠٢٣/١٠/١٤م

## تمهيد

### نبيل سميت

يتبوأ تشومسكي مكانة فريدة في المشهد الفكري العالمي. فقد كان الفائد الزرر لـ "الثورة المعرفية"<sup>(١)</sup> في الخمسينيات والستينيات لمن القبر العشري، وقد هيمن على حفل اللسانيات<sup>(٢)</sup> منذ ذلك الحين. وظلت نظريته عن النحو التوليدي، في عدد من الأشكال التي اتخذتها، الهادي والمهم لكثير من اللسانيين في العالم أجمع ومعيّاراً للمقارنة عندهم جميعاً تقريباً. وربما لا تتفق مع مشروع تشومسكي، لكن تجاهله سيكون قصوراً في النظر وموقفاً غير علمي في أن.

وقد تخرج تشومسكي في جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٩م، حيث كتب أطروحته للتخرج عن اللغة العبرية الحديثة، ثم عملها ووسّعها بعد ذلك لتكون رسالته للماجستير. ومع أنها لم تتضمن إلا بوراً متواضعة إنظرته اللسانية التي طوّرها فيما بعد<sup>(٣)</sup> فإنها كانت نقطة البداية للنحو التوليدي المعاصر. وقد تدمت القضايا التي تناولها حينذاك لتحذد ميداناً لبحث ما يزال يسهم فيه بعد خمسين سنة، وهو في جزء كبير منه نتاج لعقريته. ومع هذا لم تستغرق هذه الملحمة الفكرية إلا شطر وقته. أما الشطر الآخر فقد مخصصه للنشاط السياسي، حيث يشغل بمصح أكايب الحكومة [الأمريكية] والخطط الخفية للمؤسسات المالية والعسكرية الكبرى. وأدى به هذا إلى الاشتغال بإلقاء ما يبدو كأه سلسلة لا نهاية لها من المحاضرات حول العالم، نتج عنها أكثر من خمسين كتاباً، ومئات المقالات وآلاف الرسائل. وربما لا يوجد رابط أقوى بين هذين النوعين من نشاطه، لكن شهرته وجرءاً من تأثيره كانا للحصول المشترك لهما. (والإنتاج [العلمي والفكري] لتشومسكي غدير جداً؛ للاطلاع على نظرة عامة حديثة ومناقشة لكم ممثل من عمله، انظر Smith 1999)<sup>(٤)</sup>.

وكن لعمله التأسيسي عن اللغة نتائج بعيدة المدى، لا على اللسانيات

وحدھا بل على عدد من التخصصات الأخرى كذلك، ومن أبرزها الفلسفة وعلم النفس. ويولى هذا الكتاب الذى يضم عدداً من مقالاته عناية خاصة بهذا المسحى الثالث من فكره، ويتناول بشكل خاص بعض القضايا الميتافيزيقية "العيبية" التى أثارها أبحاثه، ويسعى إلى إيضاح بعض أنواع اللغط والتحيرات التى ابتليت بها دراسة فلسفة اللغة. ويقدم بعمله هذا حلولاً جديدة لبعض المشكلات التقليدية المحيرة ومنظورات جديدة لبعض القضايا التى تكحل فى الاهتمام العلم، بدءاً بمشكلة الدهن — الجسد وانتهاء بقضية توحيد العلم<sup>(٤)</sup>.

وجوهراً هذه المقالات أنها تأملٌ موسّع فى تأويل تشومسكى "الداخلي" لملكة اللغة البشرية. فقد صرّفت أكثرُ التقاليد الفلسفية اهتمامها إلى اللغة بوصفها كياناً علمياً لا يملك الأفراد إلا معرفة جزئية به. وتتغلغل وجهة النظر هذه بالعلاقة بين اللغة والواقع الخارجى: أى بالعلاقة بين الكلمة والعالم التى تعدُّ أساساً للنظريات النموذجية لعلم الدلالة الإحالي. ويدافع تشومسكى بتوسّع، فى معارضته لهذه التقاليد، وبمسلسلة من التحليلات اللغوية التى تبلغ مستوى عالياً من التحليل، عن وجهة النظر التى تقول إن معرفة اللغة فردية وداعية فى الدهن/الدماغ البشرى. وينترتب على هذا أنه يجب أن توجه الدراسة الحقيقية للغة اهتمامها إلى هذه البنية الذهنية، وهى وحدة نظرية يسميها بالمصطلح الجديد "اللغة — د<sup>(٥)</sup>"، أى أنها خصيصة داخلية للفرد. ومن لوازم وجهة النظر هذه أن التصور العلم (والفلسفى) "للغة"، الذى تكون به اللغة الصينية (بوصفها اللغة التى يتكلمها الناس فى هونغ كونج وبكين) أو الإنجليزية (كما استعملها شكسبير ونستعملها نحن)، ليس مجالاً صالحاً لأن يصوغ عنه نظريات علمية متمسكة.

ويدخل تركيز تشومسكى على وجهة النظر الداخلية للغة أبحاثه فى مجال علم النفس، وعلم الأحياء فى نهاية الأمر، ويعنى هذا أن اللغة البشرية "موضوع أحيائى". وينبغى، تأسباً على هذا، تحليل اللغة بالمنهجية المتبعة

في العلوم الطبيعية، وليس هناك مكان للقيود على البحث العلمي وراء تلك القيود المألوفة في الأبحاث العلمية كلها، ومع أن هذه المناهج طوّرت بأدوات أشكالها في الفيزياء وهي تميّزها، فإن هذا لا يعنى إمكان احتزال اللسانيات إلى الفيزياء أو إلى أى علم آخر من العلوم "الصحيحة"؛ فاللسانيات قوانينها الخاصة بها وتعميماتها التي لا يمكن وصفها بلغة "الكواركات" وأشدها. ومفهوم "المقاربة الطبيعية" بهذا المعنى مركزي لأبحاث تشومسكي كلها، وهي تعنى بصورة صريحة المنطقيات التي توجهها وجهة النظر اللسانية التي توجب أن يتوافق تحليل اللغة مع بعض المعايير التي تختلف عن المعايير الخاصة بالكيمياء أو علم الميكروبات أو تزداد عليها. لذلك ينبغي أن يتمثل مقياس نجاح اللسانيات، كما هو الأمر في أى علم اختبأرى آخر<sup>(٢)</sup>، في عمقها التفسيري وقوة نظرياتها، لا في موافقتها للقيود التي تفرضها الفلسفة.

ويترتب على دعواه العلمية الطبيعية عدد من المقتضيات، ومنها: أنه لا مسوّغ للمسئمة العامة التي مفادها أنه يسعى أن تعامل اللغات الطبيعية بالطريقة التي تعامل بها اللغات الصورية المصطنعة للمنطق أو الرياضيات؛ ولا مسوّغ للمتطلب الذي يقضى بأنه ينبغي أن يكون العدد الشعوري<sup>(٣)</sup> إلى قواعد اللغة التي نعروها للأفراد مكافئ ولا مسوّغ للاشتراط بأنه ينبغي أن يُختزل<sup>(٤)</sup> الذهن إلى الفيزيائي.

ويتجلى رفضه لهذه الثنائية الفلسفية بأوضح صورة في تعامله مع مشكلة الذهن - الجسد، وكانت إحدى المشكلات المزممة في الفلسفة أن نقرر كيف يمكن للذهن أن يؤثر في الفيزيائي، أى كيف يمكن لشيء يقتضى تعريفه أنه لا يتحقق مادياً أن يسبب إحداث بعض التعديلات في وحدات تحدّد مواضعها في حيز مكاني؛ ويكلمات آخر، كيف يمكن للذهن أن يحرك الجسد. وقد قطع تشومسكي عقدة جوردي<sup>(٥)</sup> بتأكيده واحدة من أكثر الصعوبات مركبة: وهي أن مشكلة الذهن - الجسد لا يمكن حتى صياغتها؛ لا لأنها لا يفهم الذهن إلا فهما محدوداً جداً، كما يفترض عموماً، بل لأنها لا تملك



معايير لتحديد ما يكون جسداً. ويشير تقويمسكي، فسي إحدى محاولاته التوضيحية الجذرية التي تميز بها، إلى أنه مثلما أتت آراء إسحاق نيوتن الحقيقة إلى انتشار مفهوم الآيات التماس فقد زُعمت فكرة الجسد عند ديكارت ولم يقترح بديل لها منذ ذلك الحين. وفي غياب أية فكرة متمسكة "للجسد" لا يعود هناك مكثفة تصوورية خاصة لمشكلة الدهن – للجسد التقليلية، لذلك ليس هناك مشكلات سببية خاصة. ويعني هذا، على درجة أعم، أنه ليس هناك مشكلة ميتافيزيقية "غيبية" خاصة تتصل بمحاولات التعامل بطرق علمية طبيعية مع الطواهر "الذهنية" (كمعرفة اللغة)، أكثر مما يكون هناك مشكلات غيبية عند الكيميائيين حين يعرفون ما يكون "كيميائياً".

والمقتضى الآخر لهذه الحجة أن الأفكار العامة عن الاحتزال في العلوم غير ملائمة. فمن الواضح أننا نرغب في دمج نظريتنا عن الدهن – ويشمل ذلك على وجه الخصوص اللسانيات – بنظريتنا عن الدماغ وأي مجال آخر ذي صلة. ومع هذا، وعلى الرغم من أن احتزال علم الأحياء إلى الكيمياء كان نتيجة للثورة في علم الأحياء الجزيئي، فلا يلزم أن يأخذ التوحيد شكل الاحتزال. وأهم من ذلك أن الرغم بوجود نوع من الأولوية للفيزيائي أو للمضوى خاطئ؛ ذلك أن النظريات اللسانية على درجة من الغنى تجعلها قادرة على تقديم بعض التنبؤات المحددة عبر مجال واسع مثلما تفعل النظريات الكيميائية والنظريات الأحيائية. لذلك ربما لا تكون محاولة احتزال اللسانيات إلى علم الأعصاب في الطور الراهن من فهمنا مثمرة. فنظر إلى المثال المحدد الخاص بفهم ما يرتبط على النشاط الكهربائي في الدماغ، كما يقاس به "إمكانات الأمغة التي تتصل بالحدث" (event-related brains potentials (ERP). فيفهم اللسانيون إلى حدٍ معقول بعض الأنواع المختلفة من البنى اللغوية "المُعدة"، حيث يعرف الشنود في ضوء معايير المخالفة لمبادئ النحو، كما يظهر الآن أن مثل هذه المخالفات ترتبط ببعض أنماط النشاط الكهربائي في الدماغ. وقد نظر إلى مثل هذه

لإرساطات على أنها توحى بأن من الممكن تفسير الوقائع اللغوية عن طريق علم الأعصاب. لكن اللسانيات، هنا وفي عدد من الحالات الأخرى، هي التي تُعينا كي نضع معنى على هذه النتائج، إذ ليس هناك نظرية كهربائية عصبية لافتة للنظر. وتماثل استحالة التعبير عن التعميمات المهمة عن اللغة في ضوء المفاهيم التقية للخلايا والعصبونات استحالة عدم إمكان التعبير عن تعميمات علم طبقات الأرض أو علم الأجنة في ضوء المفاهيم التقية لعلم الغريباء الجسيمية. فمتطلبات الاختزال في كلتا الحالتين تذهب بعيداً جداً.

وربما يكون التوحيد العلمي، بله الاختزال، مستحيلًا في بعض النواحي من حيث المبدأ. ولا يعنى هذا ببساطة الزعم البديهي الذي مفاده أننا لا نستطيع فهم بعض المجالات، فالأمر الأعق أنه لا يمكن لنكائنا العاد إلى بعض مظاهر الهيئة التي صنعها بها إطلاقاً. وليس من شك أن الفئران لا تستطيع التعامل فكرياً مع بعض الأفكار كالأعداد الأولية، لذلك ينبغي ألا نشك في أن تصميمنا المحدد أحياناً لننتج كأننا عسويًا لا يستطيع ببساطة فهم بعض المجالات. وكما يقول تشومسكى: فالعالم مصنف إلى "مشكلات" و"أحاج". وربما تخضع "المشكلات" لتطبيقات، أما "الأحاجي" فن تخضع لها إطلاقاً. فربما تستطيع ملكة صياغة العلم<sup>(١٠)</sup> لديها أن تُعينا في تحقيق قدر من الفهم الطرى عن علم الإبصار واللغة وعلم الوراثة، إلخ. لكن هذا لا يعنى أنه يمكن للمجالات كلها أن تخضع لذلك بالكيفية نفسها، بل إلى بعض القضايا — كـ "حرية الإرادة" أو التحديد الصحيح للشعور — ربما تقع بعيداً عن متناول قدراتنا الفكرية وتطل أحاجي، مثل احتمال كون الأعداد الأولية أحاجي عدد الفئران. ولا يعنى هذا الزعم بأنه لا يمكن أن نحصل قدرًا من الفهم عن هذه المجالات، بل يعنى أنه (ربما) لا نحصل فهمًا علميًا، وهو ما نجعلنا بحاجة إلى الاعتماد على عقريّة الروائيين والشعراء للحصول على فهم أوسع.

وحتى المجالات التي يطلب على تشومسكى اليأس من الوصول إليها

إلى فهم علمي الوصف الصحيح لاستخدامنا المألوف للغة في مقابل معرفتنا بها. وقد شرعت أبحاثه طوال نصف القرن الماضي دراسة "معرفتنا اللغوية" (إن استخدامنا للمصطلح الذي استبدل به الآن مصطلح "اللغة - د")، لكن الكيفية التي تحول بها تلك المعرفة إلى استخدام في أثناء أدائنا طلت إلى حد بعيد كتاباً مطلقاً، وربما لغزاً. ولا يعني هذا إنكار أننا حققنا تقدماً في فهم الكيفية التي يحل بها الناس الجمل التي يسمعون. ذلك أن النتائج التالية كلها رويتنا ببعض الفهم، أي: الدراسات الاختبارية ونظرية إدراك اللغة وإنتاجها وما نفهمه الآن عن اكتسابها وتغيرها؛ وتحليل وظيفة الدماغ عند المرضى والأصحاء. بل لقد تحقق قدرٌ من الفهم الأولي عن كيفية تأويلنا بعض المنطوقات<sup>(١)</sup> في السياق، لكننا ما نزال إنماثل في بعدنا عن الفهم الكامل بعد رينيه ديكارت عن معرفة السبب الذي يجعل شخصاً ما يختار أن يصوغ رد فعله على صورة بأن يقول: how beautiful "ما أجملها"، أو it reminds me of Bosch "إنها تذكرني ببوش"، بدلاً من أن يتمثل رد فعله بالصمت.

وسميت هذه المجموعة من المقالات بـ"آفاق جديدة"، إلا أن كثيراً من القضايا التي نوقشت أعلاه هي ما كان محوراً للاهتمام لسنين عديدة. فقد أبان تشومسكي، مدد مغامرته في تاريخ الأفكار في كتابه "اللسانيات الديكارتية" (١٩٦٦)، عن قدرة فائقة على وضع أفكاره في سياق منظور تاريخي وعلمي عام أوسع. ومكّنه اهتمامه العلمي بالتاريخ لا على تسهيل تتبع السوابق الفكرية [لمشروع] وحسب، بل على تحديد التطورات في اللسانيات بمقارنتها بالتطورات في العلوم التقليدية كذلك، خاصة تاريخ الكيمياء. وهو يقيم الصلة، في الوقت نفسه، بين هذه التطورات والأبحاث الحالية في علم النفس والفلسفة والرياضيات وعلوم الإدراك على وجه أعم.

وهناك مظهران لما هو جديد [هنا]. أولهما أن فيها أنواعاً جديدة من الأدلة على المواقف القديمة؛ وثانيهما، أن من الممكن الآن إثارة أسئلة كان

من المستحيل في الماضي حتى صياغتها. ولا يملك الآن إجابات عن هذه الأسئلة، لكن قدرتنا على إثارتها دليلٌ مثير بنفسه.

ويمكن أن يوضح أول هذين المظهرين بالإشارة إلى رعم اشتهر به تشومسكي منذ أمد طويل (أو اشتهر بالعلو في الإصرار عليه)، وهو: أن جزءاً كبيراً من معرفتنا باللغة محدّدٌ وراثياً، أو هو فطري. والبرهان على أن هناك شيئاً لعويّاً فطريّاً واضحاً بنفسه يبيّنه أن الأطفال يكتسبون اللغة — أما الفطري والعقارب والأحجار فلا. وتتوجّه أغلب أبحاث تشومسكي في الأربعين سنة الماضية إلى تبين التفاصيل النقيّة لما يعزوه بدقة إلى "الحالة الأولى" بملكة اللعوية للبشرية من أجل تفسير تلك الحقيقة الأولى. وقد نتج عن التقدم في اللسانيات والتخصصات القريبة منها وضع أتاح الآن "إمكاناً بعيداً" للمجته بأدلة من علوم الدماغ وعلوم الوراثة لتبيين الكيفية التي تحدث بها هذه الحتمية ومن ثم إمكان توحيد هذا الجزء من اللسانيات مع العلوم الأخرى. وليس هذا التوحيد مركزياً لأبحاث تشومسكي نفسه، لكن درجة النصيح والتعقيد التي تتصف بها اللسانيات التي اقترحها تجعل هذا مشروعاً ممكناً.

والمظهر الثاني إمكان وصل معرفتنا باللغة بتفسير معيّن للأجراء الأخرى من إدراكنا. ويتطلب تفسير الكيفية التي يمكن لهذا أن يحدث بها مراجعة عامة للتاريخ القريب جداً. فيهيمن على اللسانيات التوليديّة الآن موقف: الأول هو نظرية "المبادئ والوسائط" — كما أوضحها تشومسكي في كتابه (1986) Knowledge of Language "المعرفة اللغوية"، والثاني نظرية الحد الأدنى "Minimalism" — كما تبدو في أجلي مظاهرها في كتابه "برنامج الحد الأدنى" (1995c) The minimalist Program. وقد بسّل تشومسكي وأتدعه جهداً صححاً لصياغة آليات صوريّة وافية لوصف التعقيد الواسع جداً للعبت الطبيعية، وهو تعقيد تترايد روعته كلما رتدنا للنظر في اللغات المعية. وكانت بعض هذه الوسائل الصورية، ومنها التحويلات وفكرنا السبه

للعسيفة والسنية السطحية خصوصًا، ناجحةً إلى حدٍّ أحاذ، وحقت حدًّا عالياً من القبول العام خارج اللسانيات، عند الفلاسفة وعلماء النفس، بل عند عموم الناس كذلك. وكانت المعضلة تتمثل في هذا لطور من النظرية في أن التعقيد لدى اكتشف يجعل اللغات تبدو كأنها مما لا يمكن تعلمه؛ إذ كيف يمكن لطفل أن يتعلم على هذا التعقيد الباهر في السنوات القليلة التي يحدث خلالها اكتساب اللغة الأولى؟

وكانت إجابة تشومسكي أن أكثر معرفتنا باللغة فطريةً إلى حدٍّ يفوق ما كان متوقعًا من قبل؛ فالواضح أنه لا يمكن أن تكون اللغات المحيطة كالإنجليزية أو اليابانية فطريةً — كما تشهد بذلك الاختلافات بينها تبعًا لاختلاف البيئة — لكنَّ اكتساب اللغة المألوف يجعل من الواضح بشكل مماثل أن كما ضخماً منها لا بد أن يكون فطريًا. ولا يقتصر الأمر على أن هناك بعض القود على نوع الفرضية التي يمكن أن يصل إليها الطفل الذي يتعلم لغته الأولى، بل إن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة إلى النماغ منذ البداية. ويعني هذا أن الطفل ليس بحاجة إلى أن يتعلم من العدم خصائص اللغة التي يتعرض لها؛ فهو، بدلاً من ذلك، يتلقى وحسب بعض الخيارات المحددة من مجموعة محدّدة بشكل مسبق، ولتتمثل على ذلك فاللغة إما تكون من نمط "الرأس — أولاً" (حيث يسبق الفعل المفعول، كما في الإنجليزية) أو من نمط "الرأس — آخرًا" (حيث يسبق المفعول للفعل، كما في اليابانية). ويولد الطفل وهو يعرف أن هذين البديلين موجودان، وأن ما يجب عليه لا يختلف كثيرًا عن وضع المفاتيح في لوحة مفاتيح كي "تثبت وسائل" اللغة التي يتعلمها. ومن اللافت للنظر أن هذا الحل للتجانب بين الوصف والتفسير يعكس التطورات في العلوم الأخرى. فقد استُبدل بالنظرية "الموجهة" instructive لتفسير وجود الأجسام المضادة في علم المناعة نظرية "انتقائية" تمكّن فيها المحفزات antigens حتى الاصطناعية منها، الأجسام

المصادم الموجودة مسبقاً في الكائن العضوي قبل تعرضه للتأثير الخارجي. وهذا التوليد مع اكتساب اللغة لاهت للنظر.

وربما تكون نظرية المبادئ والوسائط التي طوّرت في العقدين الماضيين أول مقارنة حقيقية مُبدعة للغة طوال الألفين وخمسمائة سنة الماضية. وهي تختلف بصورتها اختلافاً شامعاً عن التصورات السابقة للغة، سواء التقليدية منها أو التوليدية، وهو ما يجعل تشومسكي يرى أنها المرة الأولى التي ربما أمكن أن يُسوّغ فيها وصف النظرية للسانية بأنها "ثورية"، وهو الوصف الذي توصف به أبحاثه في الخمسينيات دائماً. وبحل الشكل الحالي من نظرية المبادئ والوسائط - التي تختلف اختلافاً كبيراً عن شكل النظرية في الثمانينيات - هي "برنامج الحد الأدنى" الذي اقترحه في التسعينيات. وهذا الشكل محاولة جزئية لإعادة التفكير في أسس مشروع [البحث اللساني، كما يراه تشومسكي]، وهو يتغلب عن الصعاب غير الضرورية تصورياً كلها أو التي لا تفرضها الضرورة الاحتمالية، وتلك هي الشروط المألوفة في العلوم. وعت إعادة التفكير هذه التغلب عن كثير من الوسائل الوصفية في الأشكال المبكرة من النحو التوليدي - بل حتى تلك الاحتراعات الباهجة كمستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية - وهو ما أجاز إلى البحث عن تفسيرات جديدة.

ويتوخى تشومسكي الدقة في تأكيد أن "برنامج الحد الأدنى" لم يبلغ بعد أن يكون نظرية؛ فهو لا يعدو أن يكون برنامجاً لتحديد نسوع معين من المقاربة الحديثة. ويجب على أية نظرية للغة ضرورة أن تقترح صلة بين الصوت والمعنى، أي بين تمثيلات النطق وتمثيلات الخصائص المنطقية للكلمات والجمل. وتبعاً لهذا يجب على النحو - أي اللغة - د أن يحدد مستويين من التمثيل، يطلق عليهما "الصورة الصوتية" و"الصورة المبطنة"، وأن يحدد الصلة بينهما. ويبقى - في الحالة المثالية - ألا يكون هناك

مستويات أخرى وأن تكون تعقيدات هذه الصلة على حد أدنى. ويوحى هذا بسؤالين إما أنه لم يكن من الممكن تتلوّهما في السابق بصورة جادة أو ربما حتى صياغتهما. فالأول: ما مدى صلاح اللغة البشرية لأن تكون حلاً لهذه المشكلة التصورية الخاصة بتحديد الصلة بين الصوت والمعنى؟ فهل يمكن اقتراح أن أفعال اللغات الطبيعية "مثلى" optimal بمعنى ما<sup>(١٢)</sup>؟ والثاني، ما العلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ؟ وعلى وجه أخص، هل يمكن لأي شذوذ محتمل عن "المثالية" optimality في السؤال الأول أن يُعزى إلى الشروط التي يفرضها السؤال الثاني؟

ويتناول تشومسكي هذه القضايا في ضوء السؤال التالي: "إلى أي مدى تكون اللغة 'مُحكّمة'؟"<sup>(١٣)</sup>، ويجيب عنه بإجابة تُعدّ مفاجئة عن نظام أحيائي، وهي أن اللغة قريبة جداً من الإحكام. ويعني هذا أن أي شذوذ عن الضرورة التصورية التي توجبها الملكة اللغوية (أي: "اللغة - د") مدفوع بشروط مفروضة من الخارج. ويسمى تشومسكي هذه الشروط بـ "شروط المقرئية": أي الشروط التي يفرضها حاجة أنظمة الذهن/الدماغ الأخرى، من أجل استخدام التمثيلات التي توفرها الملكة اللغوية. ويشير هذا على وجه الخصوص إلى حاجة النظامين العُلقي والإدراكي لاستثمار تمثيلات "الصورة الصوتية"، وإلى حاجة النظام التصوري لاستثمار تمثيلات "الصورة المنطقية". وإطلاقاً من هذه الخلفية لا تبدو عمليات النقل أو "الإزاحة" displacement من النوع الذي نراه في الموضعين المختلفين اللذين يمثلهما الاسم "كلينتون" في الجملتين التاليتين:

They elected Clinton.

"انتخبوا كلينتون".

و:

Clinton was elected.

"كُنْتُخب كلينتون".

صورية تصوريًا. فما الذي يجعل اللغات الطبيعية تستثمر مثل هذه الوسائل التي لا توجد في لغات المنطق والرياضيات الاصطناعية؟ وإحدى الإجابات المؤقتة أن النقل ربما يكون مدفوعًا بالحاجة إلى تنظيم المعلومات من أجل التواصل الأمثل. وإذا كان هذا هو التفسير الصحيح، حقًا، فيبدو كأن إحدى خصائص الملكة اللغوية معروضة من خارج النظام، أي من جزء آخر من أجزاء الدهن/الدماغ.

ولا يقف تشومسكي عند ذلك الحد، بل يحاول وصل عدم إحكام اللغة الظاهر هذا بمظهر آخر من عدم الإحكام؛ فاللغات الطبيعية ملأى بالظواهر التي تنشأ عنها بعض المشكلات لمتعلمي اللغة الثانية، وبعض أنواع الإزعاج للفلاسفة؛ فهناك تعقيدات صريحة كقوائم الإعراب والأفعال غير القياسية، التي لا يبدو أن لها معنى حاصلاً بها حقيقة أو غير معيدة دلاليًا. فهي من المظاهر الأخرى لعدم الإحكام، وتوجب افتراض بعض السمات التي لا يمكن تأويلها؛ أي سمات ليس لها تأويل دلالي. ومع هذا تستغل النظرية التركيبية الحالية من هذه السمات التي لا تأويل لها استغلالاً مطردًا؛ فوظيفتها أن توجه عمليات النقل التي رأينا أنها مدفوعة بعوامل من خارج الملكة اللغوية. وإذا كانت مثل هذه الافتراضات على جادة الصواب فإنها تسمح بالإمكان الثلاث للنظر الذي يقضي باختزال نوعين من "عدم الإحكام" الظاهري إلى نوع واحد. بل إن النوعين "الظاهريين" من عدم الإحكام ليسا إلا نوعًا واحدًا حقيقة، إن كانت هذه الحجة صحيحة، حقًا. بل ربما لا يكون هناك بديل آخر. في ضوء القيود التي تفرضها الأنظمة الأخرى من أنظمة الدهن/الدماغ على الحلول التي تسعى إلى ربط الصوت بالمعنى، لهذا نفهم الضرورة التصورية الشكل العام للنحو.

وأخيرًا، سنوجه النظر الآن إلى المقالات واحدًا واحدًا. فالفصل الأول "أفق جديدة في دراسة اللغة" مقدمة مختصرة غير تقنية عمومًا للتفكير تشومسكي في الموقف الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، وتسعى لإيضاح مكان



أفكاره في إطارها التاريخي والفكري، أي: التقاليد الجاليلية والديكارنية [نسبة إلى جاليليو وديكارت]. ويبيّن هذا الفصل نزعة التي صارت مألوفة الآن حيث يأخذ أمثلة بسيطة ليرتب عليها بعض المقتضيات الصيقة. فإذا أخذت مكتبة نسختين من رواية "الحرب والسلام" لتولستوى، واستعار كل واحدة منهما شخص مختلف، فهل أخذ الشخصان الكتاب نفسه أم أحذا كتابين مختلفين؟ وكلا الإجابتين ملائمة تبعاً لما إن كما ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة ملئية أم بوصفه وحدة مجردة. وربما يبدو هذا واضحاً لكن هناك مقتضيات جادة لهذه المسألة على فلسفة اللغة، كما يستمر تشومسكي في إيضاح الأمر. والملاحظة المهمة الأخرى أنه يبدو أن معرفتنا بإمكان النظر إلى بعض الأشياء كالكتب بهذه الطرق المختلفة تأتينا عموماً باستقلال عن التجربة. ويمثل هذا حجة من قَرّ المنه على أن مثل هذه المعرفة محدثة فطرياً، وينبغي أن يكون أكثر ما يحويه هذا المقال سهل الفهم على غير المتخصصين، لكنه يمكن أن يقدم شيئاً كثيراً للمتخصص كذلك.

والفصل الثاني "تفسير استخدام اللغة" نقد لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أن اللغة شأن خارجي، خاصة [الفيلسوف الأمريكي المعاصر] هيلاري بتيام، وهو دفاع عن المقاربة الطبيعية لدراسة اللغة كذلك. ويقدم تشومسكي سلسلة طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التي مفادها أن أكثر معالجات اللغة نجاحاً هي تلك التي تصاغ في ضوء الحوسبات التي تجري على التمثيلات الذهنية الدلالية. وهذا بالطبع المجال الذي نجد فيه إسهاماته التنقية العظمى، ومع ذلك لا يتطلب هذا النقاش معرفة مسبقة بالنظرية التركيبية، ويتضمن جزء من تحليله تعميماً لفكرة "اللغة - د"، التي يقول بها الذين يرون اللغة موضوعاً داخلياً، إلى المجال المعرفي، مستعيناً بفكرة "الاعتقاد - د". ويبيّن هذه الدعوى، مرة أخرى، ببعض الأمثلة البسيطة لكنها لافتة النظر وتشهد بعمق معرفتنا وتقصيرها عن بعض الوحدات المعجمية مثل "بيت" house و "قريب" near. فنحن نعرف في جملة مثل:

John is painting the house brown.

يُصنع جون البيت بُنيًا.

— ومن غير توجيه فيما يبدو — أن السطح الخارجي للبيت هو الذي يُصنع، لا سطحه الداخلي. لكن لا يمكن أن يكون معنى "بيت" مقصورًا على سطحه الخارجي. وإذا كان هناك شخصان على بُعد متساوٍ من السطح، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج، فالشخص الذي في الخارج وحده هو الذي يمكن وصفه بأنه "قريب" من البيت. ويبدو، مرة أخرى، وكما لو صحت تلك الممارسات الاحتبارية، أنه حتى الأطفال للصغار جدًا يعرفون مثل هذه الحقائق، وهذا ما يوحي بأن المعرفة بمعنى من المعاني متوفرة بشكل مسبق لهذا الكائن العضوي [أي الإنسان].

ويأخذ الفصل الثالث "اللغة والتأويل" هذه الأفكار خطوة أبعد، ويُفصل تفصيلًا أوسع، بشكل خاص، حججه ضد [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] ويلارد كوين ومايكل دوميت وآخرين عن قضايا مثل عدم وثوقية الترجمة، واللغة الخاصة في مقابل اللغة العامة، وطبيعة المعرفة الذاتية، ومكافة "القواعد" اللغوية. ويأخذ تشومسكي بعصر الأمثلة التركيبية البسيطة التي تورد بكثرة في الأبحاث التقنية ويستخدمها للاحتجاج بعدد متووع من المؤلف الفلسفية. انظر إلى تأويل جملة مثل:

Mary expects to feed herself.

تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

(حيث تفهم "ماري" Mary و"نفسها" herself على أنهما تحليلان إلى الشخص نفسه)، في مقابل الجملة المماثلة جزئيًا:

I wonder who Mary expects to feed herself.

ليت شعري من تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

حيث يكون هذا الفهم للإحالة المشتركة مستحيلًا؛ ويبين تشومسكي عددًا من المفنصيات لعل هذه الأمثلة وتحليلاتها. فهي تنفي رعم كوين بأنه

ليس هناك حقيقة للأمر؛ ويمكن استخدامها لتأييد التمييز بين التحليل والتأليف<sup>(٤٠)</sup>؛ وتثير بعض المشكلات لأية فكرة عن شبكة للمعنى meaning holism<sup>(٤١)</sup>؛ كما تشير إلى استقلال ملكتنا اللغوية عن المظاهر الأخرى لنظامنا الاعتقادي.

ويعود الفصل الرابع "المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية في دراسة اللغة والذهن" إلى الهجوم على الفلاسفة لتنبئهم الضمني "للدعوى التفريقية"؛ وهي أنه ينبغي أن نخضع اللغة لنماذج وشروط إضافية على تلك التي نراعي في العلوم الطبيعية عموماً. ويبدأ تشومسكي بملاحظة أن مصطلح "ذهني" يُحذّر ببساطة بعض مظاهر العالم المعينة التي نود أن نخضعها للبحث العلمي الطبيعي، ثم يتوجه إلى عرض تاريخ دقيق للأفكار - من حيث صلتها بدراسة اللغة خاصة - بدءاً من نيكارت إلى الوقت الحاضر، مستخلصاً الأشياء من علم الكيمياء ودراسة "الإبصار" تحديدًا، وتقتضي هذه الممارسة أنه لا يمكن صياغة مشكلة للذهن - الجسد، وأن الدور المزعوم للشعور في تحديد ما يكون المعرفة اللغوية لا يبرهان عليه؛ وأن للفهم الداخلي للمعرفة اللغوية وحده هو القادر على إمدادنا بأي نصير لقرائنا.

ويعود الفصل الخامس "اللغة موضوعاً طبيعياً" إلى عدد من القضايا نفسها، لكن مع التركيز مباشرة بصورة أكثر على اللغة ومعرفة اللغة. فيرى تشومسكي أن اللسانيات تنتمي إلى العلوم الطبيعية، ثم يتبع السوابق الفكرية له في تلخيص أخاذ وملم بتاريخ العلم. وعلى الرغم من تكراره لهذا الزعم المصوغ عن مكانة اللسانيات "العلمية" فإنه كان صارماً في نقاشه للمحاولات الاختزالية التي تسعى إلى اختزال اللغة إلى العضوي والفيزيائي. أما ما نحتاجه هنا فهو التوحيد، ثم إن الاختزال ليس إلا حالة نادرة من هذا الإلحاق إبالفيزيائي والعضوي. ويتضمن مدى اللسانيات الحالية مشكلات الكيفية التي يتعلم بها الأطفال لغاتهم الأولى، وكيف يستخدم البالغون هذه اللغة. ويقدم تشومسكي هنا ملاحظتين مقلبتين. فالأولى أنه إن كانت اللغات مما يمكن

نعلمه حقاً سيكون هذا اكتشافاً اختياريًا مفاجئاً، والثانية أنه يبدو أن قلعات لا يمكن استخدامها جزئيًا، كما يشهد بذلك إخفاق أنظمة الأداء غالباً. ويختتم المقال بمناقشة رصينة لحدود الحدس. ويُعدُّ الحدسُ أو الأحكام للعوية مركزياً للحجاج في اللسانيات، لكن تشومسكي يشير إلى أنه ربما لا يمكن أن يمتلك حدوداً مماثلة حين يتعلق الأمر بالمفردات التقنية في الرياضيات أو الفلسفة، وأن اعتماد الفيلسوف على الاحتجاج بالحدس عن توأم الأرض<sup>(١٦)</sup>، مثلاً، صار دائماً.

ويتناول الفصل السادس "اللغة من وجهة نظر دلالية" بعض القضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بين البحث العلمي الطبيعي وما يسمى غالباً بـ "العلم الشعبي"<sup>(١٧)</sup>. وليست العلاقة بين الاثنين واضحة بنصفها. فحين لا نتوقع في الفيزياء أن تُفيد وجهات النظر الشعبية صياغة النظرية عند الحبير، ومع أن "العلم الإنثي"<sup>(١٨)</sup> بنفسه مجال بحثي لافت للنظر إلا أنه ليس هناك سبب للافتراض بشكل مبدئي أنه ينبغي للتصورات والصيغ في الحوار ما قبل العلمي أن تنتقل من غير تعبير إلى النظريات الصورية عن "اللغة - د". وليس هناك سبب، على وجه أضخص، لفرض شروطٍ تنفذ إلى الشعور على القواعد التي تُعَدُّ لعتاً. فإذا قال طفل:

I rided my bike.

"ركبتُ عجلتي"

لصياغة ماضي الفعل الإنجليزي ride "يركب" بشكل يختلف عن صياغته المعهودة]

فلن نكون محقّين في إنكار أن هذا الطفل يتبع القاعدة القياسية لصياغة الفعل الماضي [في الإنجليزية]، وأقل من ذلك أن نفترض أنه يعسى هذه الحقيقة. وكما هي الحال دائماً، ترتب النتائج العسفة والمعقدة - عن عقم التصورات الخارجية عن اللغة وضرورة التصورات الداخلية - على أمثلة بسيطة.

ويتلخّص الفصل السابع الأخير "المقاربة الدلالية" بتبيين المنظور الداخلي عند تشومسكي، ويأتي بأمثلة وحجج جديدة، موسّعة نقده إلى مدى أوسع من الأهداف، وإلى مظاهر تولّد الأرض خاصة. يضاف إلى ذلك أن هذا الفصل يُحكم الربط بين هذا النقاش وأبحاث تشومسكي الأخيرة في برنامج الحد الأدنى، وينتهي بمناقشة موسّعة لمدى الأفكار النظرية وأهميتها.

وإلى جانب أبحاث تشومسكي السياسية (التي لا يتضمن هذا الكتاب شيئاً منها) فقد اشتهر بتطبيقاته التركيبية. وتشتمل كثير من المقالات هنا على أمثلة واضحة ومحيّرة من الأنواع التي اشتهر بصياغتها؛ ومن ذلك التقابل بين:

John was too clever to catch.

"كان جون ذكياً جداً مما جعل القبض عليه صعباً".

والمثل المماثل:

John was too clever to be caught.

"كان جون ذكياً جداً أن يقبض عليه".

والجملة المستعيلة:

John was clever to catch.

"كان جون ذكياً ليُقبض عليه".

ومن اللافت للنظر أنه بالإضافة إلى هذه الأمثلة التركيبية، فأكثر التمثيل في هذه المقالات معجمي، مع حجج عميقة تقوم على عدد من الوحدات التي تُخدع بيمسطينها. ويُقدّم تشومسكي هذه الحجج بالمسطق القوي نفسه كما في السابق، ثم تقود النتائج إلى وجهة نظر عن العالم ظلّ يدافع عنها طوال أربعين سنة؛ لكن هذه الحجج جديدة.

لما ما يَشُدُّ الانتباه فيما يكتبه تشومسكي فليس عمقه الأخاذ ومداه الرائع وحسب بل ينجلوز ذلك إلى حقيقة أنه ما يزال بعد نصف قرن يمتلك القدرة

على المفجأة: فمن ملاحظته أن بني البشر ليسوا نوعًا طبيعيًا إلى تبينه  
همية اللغة الباشية لتحليل اللغة الإجليزية؛ ومن رفضه لأحتراعه المشهور  
"البية العميقة" إلى افتراضه أن اللغة، على الرغم من طبيعتها الأحيائية، ربما  
تكون أقرب إلى الإحكام؛ ومن التجانب بين النديه والعلم إلى مقتضيات ما  
يعرفه عن بيب بني أو كأم ماء؛ فكل شيء يتعاصد ليقيم وجهة نظر اللغة  
والدهن فريدة ومقبعة.

## هوامش التمهيد

- (١) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)
- (٢) هناك مصطلحات عدة تطلق في اللغة العربية الآن على هذا العلم؛ منها "علم اللغة العلم" و"الأسانية" و"اللغويات". لكن هناك ما يكاد يكون توجهًا عامًا لاستخدام هذا المصطلح. (المترجم)
- (٣) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)
- (٤) انظر تفسير هذين المصطلحين فيما يأتي في هذا التمهيد. (المترجم)
- (٥) يفسر تشومسكي هذا المصطلح في الفصل الأول من الكتاب. وهو يشير إلى ما تتصف به نظريته اللسانية بأنها داخلية فردية معيومية. والملاحظ أن الكلمات الثلاث في الإنجليزية، أي: internal, individual, intensional، تبدأ كلها بحرف I، لذلك استعمل هذا الحرف في الدلالة عليها جميعًا. أما في العربية فالكلمات النظرية تبدأ بحروف مختلفة، لذلك اكتفيت هنا باستعمال الحرف "ذ" (الذي تبدأ به كلمة "داخلية")، وينبغي أن نتذكر، كلما ورد هذا المصطلح، أن المقصود به الكلمات الثلاث. (المترجم)
- (٦) اخترت أن أترجم كلمة empirical بـ "اختباري"، وكذلك مشتقاتها؛ ذلك تجنبًا للبهس الذي يمكن أن ينشأ من ترجمة هذه الكلمة بـ "تجريبي" التي يمكن أن تدل على التوجه الفلسفي المعروف. (المترجم)
- (٧) النفاذ إلى الشعور هو قدرة الشخص على الكلام بصورة عينية عن حالاته الشعورية. (المترجم)
- (٨) الاختزال هو أن يُعالج علم ما في ضوء مقولات ومصطلحات علم آخر يُعد أرقى منه، كأن يُفسر الكيمياء بمصطلحات ومفاهيم الفيزياء، أو يُفسر علم الأحياء بمصطلحات ومفاهيم الكيمياء، وهكذا. (المترجم)

(٩) نسبة إلى القصة اليونانية القديمة عن شخص اسمه "ميداس" عقد عقدة  
عمر عن حلها كل الذين حاولوا ذلك. لكن الإسكندر الأكبر، القاتل  
اليوناني الشهير، حلها بطريقة الحاصة، حيث قطعها بالسيف.  
(المترجم)

(١٠) Science Forming Faculty وهي إحدى الملكات التي توجد في الدهن  
وتُعين البشر على تكوين النظريات العلمية. (المترجم)

(١١) Utterances مصطلح عام يطلق على أي مجموع من الكلام سواء  
كان كلمة أو جملة أو جزءاً من جملة. (المترجم)

(١٢) يعنى مصطلح "الحد الأدنى" التلخص من كثير من التقنيات الوصفية  
والتفسيرية التي كانت تستعمل في الأطوار المسابقة من النظرية  
التوليدية وتقليص هذه الوسائل إلى عدد قليل من المبادئ العامة  
والوسائل، ويعنى الوصف optimal للتوافق مع بعض الشروط  
الاقتصادية الطبيعية المحددة نحو: محلية العقل، وعدم وجود خطوات  
غير ضرورية للاستنتاج، إلخ. (المترجم)

(١٣) يصف تشومسكى اللغة بأنها "متكاملة" perfect، لأن الملكة اللغوية  
محددة ببعض الشروط العامة التي تُحدد مكانها داخل مجموعة  
لأنظمة المعرفية للذهن/الدماغ، وتحددها كذلك بعض الاعتبارات  
العامة للطبيعة التصورية التي تنصف ببعض معايير المعقولية  
المستقلة كاليساطة والاقتصاد والاتساق وعدم الزيادة unredundancy  
إلخ. وربما يكون هناك كلمة عربية أوفى لترجمة هذه الكلمة.  
(المترجم)

(١٤) يميز بين الفلسفة التحليلية والفلسفة التأليفية تبعاً لصياغة كسائط بأن  
نصوّر المحمول في القضية التحليلية proposition متضمن في  
نصوّر العاقل، ويمكننا من ثم الحكم على صدق القضية أو ريفها



بالتحليل. أما في القضية التأليفية فيضيف تصورُ المحمول شيئاً جديداً لتصور الفاعل، أما صدق القضية أو زيفها فلا يمكن تحديدهما من خلال التحليل. (المترجم)

(١٥) تعني الشبكية الذهنية (أو الدلالية) أن ماهية مضمون اعتقاد ما (أو معنى جملة ما) يُحدّد بالمكان الذي يشغله في شبكة من الاعتقادات التي تكون مجمل نظرية ما أو مجموعة من النظريات. (المترجم)

(١٦) إشارة إلى التجربة الذهنية التي اقترحها الفيلسوف الأمريكي المعاصر هيلاري بوتام في مقاله (١٩٧٥). ويدعونا فيها إلى تصور وجود لرض أخرى تشبه أرضنا بدقة، من حيث المظاهر الفيزيائية والخصائص الأخرى جميعها. لكن مكان هذه الأرض التوأم يختلفون عنا في أفكارهم ومعتقداتهم، وغير ذلك. وسوف يعرض تشومسكي لمناقشة هذه الفكرة في بعض فصول الكتاب هنا، ويبين مأخذه عليها. (المترجم)

(١٧) العلم الشعبي هو أخذ هروغ البحث العلمي الطبيعي - العلم البديهي - التي تهتم بالكيفية التي يزوّد بها الناس ثبات الموضوع، وطبيعة الحركة ومسبباتها، والفكر والفعل، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس. (المترجم)

(١٨) العلم الاتني هو دراسة لـ "التفسير النصي البديهي للسلوك الإنساني"، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس، نقلاً عن بيلجرامي. (المترجم)

**مقدمة**

شهد النصف الثاني من [القرن العشرين] نشاطًا بحثيًا مكثفًا، كان أغلبه متمرًا جدًا في دراسة الملكات المعرفية للبشرية، من حيث طبيعتها والظروف التي تدخل بها في الفعل والتأويل. ويتبنى هذا البحث عمومًا دعوى مفادها "أن الموضوعات الذهنية، بل الأذهان حقيقة، حصائص ناشئة للأدمغة"، مع إدراكه أن "هذه الخصائص الناشئة... . . . حصيلة لعمل بعض المبادئ التي تحكم التفاعلات بين الأحداث في المستويات الدنيا - وهي مبادئ لم نفهمها بعد" (Mountcastle 1998: 1). وتعتبر كلمة "بعد" عن التناول الذي ظل، خطأ أم صوابًا، ملازمًا للبحث طوال هذه الفترة.

وكانت دراسة اللغة إحدى المجالات التي تحقق فيها تقدم كبير، في العشرين سنة الماضية خاصة. لكن الأسئلة التقليدية ظلت، هنا كذلك، على الأفق، هذا إن كانت هناك ابتداء. وبأخذ هذا البحث، كما أفهمه، أخذ صيغ الدعوى عن الذهن / الدماغ التي أوردتها آنفاً أمراً مسلماً (بصورة صميّة في الغالب)، وهو الوجه الذي يمكن تأويله بصورة معقولة على أنه جزء من علم النفس أو جزء من علم الأحياء للبشري، بصورة أعم. وقد أطلق بعضهم الباحثين على هذا المنحى من البحث، بشكل مسوّغ، مصطلح "اللسانيات الأحيائية" (Jenkins 1999). وهي تأخذ موضوعاً لها بعض الحالات المحددة للناس، وهو ما يعنى غالباً حالات أصغيتهم: ولتسميها بـ "الحالات اللغوية". وتسعى إلى فكشف عن طبيعة هذه الحالات وخصائصها، وتطوراتها وأنواعها، والأسس التي تقوم عليها في الإعداد الأحيائي الفطري، ويبدو أن هذا الإعداد يُحدّد "ملكة لغوية" تتصف بأنها مكون فريد من مكونات الملكات الذهنية العليا (وربما يكون لعناصرها، بوصفها نظاماً، أنواع كثيرة من الوظائف)، أي أنها "خاصية مقصورة على النوع" ومشاركة بين بنى البشر إلى حد بعيد، مع بعض التنوعات العامة لها. والملكة اللغوية تطوّر أحيائي حديث جداً، وهي، على حد ما نعلم، قدرة معزولة أحياناً من حيث بعض المعايير المهمة. ويسعى البحث في اللسانيات الأحيائية إلى توحيدها مع المقاربات البحثية الأخرى لخصائص الدماغ، مع الأمل في أن تكتسب الشُرطة [1]، في عبارة "الذهن/الدماغ"، مضموناً أكثر جوهرية في المستقبل. ولا يقتصر اهتمامها على طبيعة الحالات اللغوية وتطورها، بل تهتم كذلك بالطرق التي تدخل بها [هذه الحالات] في استخدام اللغة. ويشمل هذا الاهتمام من حيث المبدأ، وأحياناً من حيث الواقع، علاقات هذه الحالات بوسيط خارجي ما (كإنتاج الكلام وإدراكه)، والدور الذي تؤديه في التفكير والكلام عن العالم والأفعال الأخرى التي يقوم بها الإنسان والتفاعلات بينها. ونوحى هذه المقاربة، كما يبدو لي، بأننا ربما نحتاج إلى قدر كبير من إعادة

التفكير، في بعض المجالات، ومنها على الأخص تلك التي تتصل بالإحالة والمعنى في اللغة الطبيعية، وذلك لأسباب ناقشتها في الفصول التالية.

ويجب بالطبع أن يبرهن على أن هذه المقاربة "الطبيعية الطبيعية" naturalistic طريق ملائم للبحث في ظواهر اللغة، واستخدامها. والدعوى الأكثر طموحاً أن هذه المقاربة قضية مسلمة (بصورة ضمنية في الأقل، وأحياناً برغم الإنكار الصريح لوجودها) في البحث البناء غالباً في هذه المجالات، وأن شيئاً شبيهاً بها صحيح في دراسة الملكات المعرفية الأخرى. كما يجب البرهنة كذلك على أن أنواع النقد الموجهة لهذه المقاربة مصللة، ويشمل ذلك أنواع النقد الشائعة جداً والمؤثرة. وهذا كله معقول جداً، كما أطر. وتحاول الفصول التالية، التي كان أصلها محاضرات ألقيتها خلال السنوات القليلة الماضية، أن تقدم بعض الأسباب التي تقود إلى هذه النتائج، وأن ترسم بشكل أولي بعض الاتجاهات التي تبدو لي ملائمة ومستحق الاستقصاء.



## الفصل الأول أفلق جديدة في دراسة اللغة

نُعَدُّ دراسة اللغة واحدة من أقدم مروج الدراسة المنهجية، فقد بدأت عدد اليهود واليونانيين القدماء، وشهد تاريخها كثيراً من الإنجازات العديدة والمثمرة. لكنها من رلوية مختلفة، ما تزال حديثة جداً، ذلك أن المشاريع البحثية الرئيسة السائدة اليوم لم تأخذ الشكل الذي هي عليه إلا منذ أربعين سنة تقريباً، حين بُعثت بعض الأفكار التقليدية الرئيسة ورُسِّت، وهو ما فتح الطريق أمام ما برهن على أنه دراسة مثمرة جداً.

أما خطوة اللغة يمثل هذا الاهتمام عبر السنين فليست أمراً مفاجئاً. إذ يبدو أن الملكة اللغوية البشرية "خصيصة مقصورة على النوع" حقيقة، ولا يختلف البشر فيها إلا اختلافاً ضئيلاً، وليس لها نظير مهمٌ عند سواهم. وربما كان أقرب النظائر لها ما نجده لدى الحشرات التي يفصلها عن البشر تزيخٌ تطوري يمتد لبلبون سنة. وليس من سبب جوهري اليوم للاعتراض على وجهة النظر الديكارتية التي ترى أن القدرة على استخدام الإشارات اللغوية للتعبير عن الأفكار التي تُكوِّن بصورة حرة هي ما يرسم "الفارق الحقيقي بين البشر والحيوان"، لو الألف، سواء عينا بـ "الألف" تلك "الأتمة" التي ألهبت خيال الناس في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، أم الآلات التي تحفز الفكر والخيال في الوقت الحاضر.

وتسجل الملكة اللغوية، زيادة على ذلك، بشكل جوهري في مظاهر الحياة كلها، وفي الفكر والتفاعل البشريين. وهي مسئولة بشكل كبير عن أن البشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخاً وتطوراً ثقافياً وتنوعاً لا حدود لتعقيد وغماء، بل هي مسئولة كذلك عن النجاح الأحيائي الذي حققه بالمعنى النقفي الذي يعنى أن عددهم كبير جداً. وربما لا يمكن لعالم من المربخ ملاحظ الأحداث العريبة التي تحدث على الأرض ألا يدهشه شوء هذا الشكل

من التنظيم الفكري الفريد الواضح وأهميته. بل إن الأمر الأكثر طبيعية أن يكون هذا الموضوع، بالغازه الكثيرة، مصدراً لإثارة حب الاستطلاع عند أولئك الذين يسمعون لفهم طبيعتهم هم ومكانهم في العالم الأوسع [أي عند البشر].

وتقوم اللغة البشرية على خصيصة أولية، يبدو أنها نفسها معرولة أحياناً، وهي "اللانهاية المتميزة"، التي تتجلى في أنقى أشكالها في الأعداد الطبيعية، أي: ١، ٢، ٣، . . . فالأطفال لا يتعلمون هذه الخصيصة؛ أما إن لم تكن المبادئ الأساسية [لهذه الخصيصة] موجودة بشكل مسبق في الدماغ فلا يمكن لأي قدر من الأدلة أن يوفرها. ولا يلزم أي طفل، كذلك، أن يتعلم أن هناك جملاً تتألف من ثلاث كلمات وجملاً من أربع، لكن ليس هناك جمل من ثلاث كلمات ونصف، وأن عدد الكلمات في الجملة يمكن أن يتزايد بصورة غير نهائية؛ فمن الممكن دائماً تكوين جملة أكثر تعقيداً، لها شكل ومعنى محدّدان. ويجب أن تكون مثل هذه المعرفة قد جاءت إلينا من "اليد الأصلية للطبيعة"، كما تقول عبارة ديفيد هيوم (108: 1748/1975 القسم ٨٥)، بصفتها جزءاً من إعدادنا الأحيائي.

وقد أدمنت هذه الخصيصة جاليليو الذي رأى أن اكتشاف طريقة نستطيع بها إيصال أكثر أفكارنا سرية إلى أي شخص آخر باستخدام أربعة وعشرين شكلاً صغيراً (Galileo 1623/1661, end of the first day) أعظم الاكتشافات البشرية. وينجح هذا الاختراع؛ لأنه يُصور خصيصة اللانهاية المتميزة للغة التي تستخدم هذه الأشكال في تمثيلها. وبعد ذلك بفترة وجيزة ذهب مؤلفو كتاب Port Royal Grammar بذلك "الاختراع للرائع" لوسيلة يمكن بها أن نكون من عدد قليل من الأصوات تعبيرات غير نهائية تمكّننا من أن نطلع الآخرين على ما نفكر فيه وما نتخيله وما نشعر به — وليست هذه "اختراعاً" من وجهة نظر معاصرة، لكنها لا تقل "روعة" بوصفها ثمرة لعملية التطور الأحيائي، التي لا نكاد نعرف عن الدور الذي قامت به شيئاً، في هذه الحالة.

ويمكن أن ننظر إلى الملكة اللغوية بشكل معقول على أنها "عصو اللغة" بالمعنى نفسه الذي يتحدث به العلماء عن نظام الإبصار، أو نظام المناعة، أو نظام الدورة الدموية بوصفها أنظمة للجسد. وإذا فهمنا العصو على هذا النحو فهو ليس شيئاً يمكن نزعها من الجسد، في حين يُترك سائرُه كما هو. فهو نظام فرعي لبيئة أكثر تعقيداً. ونأمل أن نعلم للتعقيد الكامل لهذه البيئة [بتقصي أحرانها التي لها خصائص فارقة، وبتقصي تفاعلاتها. وتسير دراسة الملكة اللغوية بهذه الطريقة نفسها.

ونفترض كذلك أن عصو اللغة شأنه شأن الأعضاء الأخرى من حيث كون طبيعتها الأساسية تعبيراً عن "المورثات". أما الكيفية التي يحدث بها هذا فنستدل هذه بعيداً للبحث العلمي، لكننا نستطيع أن ندرس "الحالة الأولى" للملكة اللغوية المحددة وراثياً بطرق أخرى. فمن الواضح أن أي لغة محصلة للفعل بين عاملين هما: الحالة الأولى، ومسار التجربة. ويمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى على أنها "جهاز" لاكتساب اللغة" يأخذ التجربة "حلاً" ويُعطى اللغة "خرجاً" - أي "خرجاً" يمثل داخلها في الدهن/الدماغ، والدخل والخروج كلاهما موضوعان للبحث: فيمكن أن ندرس مسار التجربة وخصائص اللغات التي اكتسبت، ويمكن لما نتعلمه بهذه الطريقة أن يكشف لنا الكثير عن الحالة الأولى التي تتوسط بين الاثنين.

وهناك سبب قوي - ريادة على ذلك - للاعتقاد بأن الحالة الأولى مشتركة بين أفراد النوع [البشري]؛ فلو نشأ أطفال في طوكيو لاكتسبوا اللغة اليابانية، شأنهم شأن الأطفال هناك. ويعني هذا أن للأدلة عن اليابانية صلة مباشرة بالمسلّمات عن الحالة الأولى للإنجليزية. ويمكن بهذه الطسرق أن نصنع شروطاً علمية اختبارية قوية يجب على نظرية للحالة الأولى أن توضع لها، وأن يحلّق مسائل عديدة لعلم الأحياء الخالص باللغة، مثل: كيف تتحدّ المورثات الحالة الأولى، وما للبات الدماغ التي تدخل في الحالة الأولى والحالات التالية التي تتحدّها؟ وهذه مشكلات صعبة جداً، حتى في الأنظمة



الأكثر بساطة حيث يكون التجريب المباشر ممكناً، لكن بعض هذه المشكلات ربما تقع على أفق البحث.

ونهتم المقاربة التي بيّنت خطوطها العامة هنا بالملكة للعبية، أي: محالّتها الأولى، والحالات التالية التي تتخذها. افترض أن عضو للعبة عدد بيتر كل في الحالة "ل" [من لغة]. ويمكن عندئذ أن نأخذ "ل" على أنها "اللغة التي استبطها" بيتر. وهذا ما أعنيه حين أتحدث عن اللعبة هنا. وإذا فهمت اللعبة بهذه الكيفية فهي أشبه ما تكون بـ: "الطريقة التي نتكلم بها ونفهم"، وهي إحدى التصورات التقليدية لها.

وتسمى النظرية الخاصة بلغة "بيتر"، إذا استخدمنا مصطلحاً تقليدياً في إطار جديد، "نحو" لغته. وتحدّد لغة بيتر عدداً غير نهائي من التعبيرات، لكل منها صوته ومعناه. وتولد لغة بيتر، إذا استخدمنا المصطلحات التقنية، تعبيرات لغته. لذلك تسمى النظرية الخاصة بلغته "نحو توليدياً". وكل تعبير منها مجموع معقد من الخصائص يوفّر "تعليمات" لأنظمة الأداء عنده، أي: لأعضاء بطقه، والطرق التي يتعلم بها أفكاره، وهكذا. وإذا ما اتّخذت لغة بيتر وأنظمة الأداء التي تتصل بها الأوضاع التي تكون عليها، فبمعنى هذا أنه يمتلك معرفة واسعة جداً بصوت تلك التعبيرات ومعناها، وقدرة مماثلة لتأويل ما يسمعه، والتعبير عن آرائه، واستخدام لغته بطرق متنوعة كثيرة أخرى.

وقد نشأ النحو التوليدي في سياق ما يسمى في أكثر الأحيان بـ "الثورة المعرفية" في خمسينيات [القرن العشرين]، وهو الذي كان عاملاً مهماً في تطورها. وينضّر النظر عن أن كان مصطلح "الثورة" ملائماً أم لا [عند إطلاقه على النحو التوليدي]، فقد كان هناك تغيير مهم في المنظور: إذ تحول الاهتمام من ملاحظة السلوك والنتائج المحصّلة منه (كالتخصص)، إلى الآليات الداخلية التي تكمن في التفكير والعمل. فلا يأخذ المنظور المعرفي السلوك وما ينتج عنه موضوعاً للدرس، بل مادة أولية يمكن أن نقمّ لنا أدلة على آليات الدمن الداخلية والطرق التي تتخذ بها هذه الآليات الأفعال وتؤول

بها التجربة. وما يزال هناك مكان للحصائص والأنماط التي كانت محل اهتمام اللسانيات البنائية، لكن بوصفها ظواهر ينبغي تفسيرها مع ظواهر أخرى كثيرة، في ضوء الآليات الداخلية التي تولد التعبيرات. وهذه المقاربة ذهبية، لكن بمعنى ينبغي ألا يكون موضعاً لخلاف. فهي تهتم بـ "المظاهر الذهبية للعالم"، التي توجد جنباً إلى جنب مع مظاهره الآلية والكيميائية والمبائطرية optical، إلخ. وتسعى لأن تدرس موضوعاً واقعياً في العالم الطبيعي — كالدماع وحالاته ووظائفه — وبهذا تدفع بدراسة الدهن نحو التوحيد مع العلوم الأحيائية في نهاية الأمر.

وقد جذبت "الثورة المعرفية" كثيراً من الفهم العميقة والإنجازات والمزق فيما يمكن أن يسمى بـ "الثورة المعرفية الأولى" في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأعلنت صياغتها، وهي التي كانت جزءاً من الثورة العلمية التي غيرت فهمنا للكون بصورة جذرية. فقد أدرك الباحثون في تلك الفترة أن اللغة تتميز بـ "استخدام غير محدود لوسائل محدودة"، كما يقول وليم فون هومبولت؛ لكن لم يكن لهذا الفهم العميق أن يتطور إلا بطرق محدودة، ذلك أن الأفكار الأساسية طلت منشوشة وغامضة. أما في أواسط القرن العشرين فقد وفر التقدم في العلوم الصورية تصورات ملائمة بشكل محدد وواضح جداً، كما يمكن، بشكل جزئي في الأقل، من إعطاء تفسير دقيق للمبادئ الحوسبية التي تولد التعبيرات اللغوية، ومن ثم فهم فكرة "الاستخدام غير المحدود لوسائل محدودة". كما فتحت بعض أوجه التقدم الأخرى الطريق إلى دراسة القضايا التقليدية، مع قدر كبير من الأمل في النجاح. وحققت دراسة التعبير اللغوي إنجازات كبيرة. وقدمت الأنسبة اللغوية فهماً أعلى لطبيعة اللغات وتنوعاتها، وهو ما رزله كثيراً من المقولات المقولبة. وكانت بعض الموضوعات، ومن أبرزها دراسة الأنظمة الصوتية، قد حققت تقدماً كبيراً في إطار اللسانيات البنائية في القرن العشرين.

وسرعان ما كشفت المحاولات المنكرة لتنفيذ برنامج النحو التوليدي أن كثيراً من الحصائص [اللغوية] الأساسية لم تلاحظ حتى في اللغات التي

درست بكتافة، ولأن أكثر الأنحاء التقليدية تفصيلاً وشمولاً والمعاجم التقليدية لم تتجاوز ظاهر اللغة. وظلت خصائص اللغة الأساسية معترضة طوال تلك الفترة، لكنها لم تترك ولم يعبر عنها. وهذا ملائم جداً إلى أن كان الهدف من الدراسة مساعدة الناس على تعلم لغة ثانية، أو اكتشاف المعنى المتواضع عليه للكلمات أو الطريقة التي تنطق بها أو تحصيل فكرة عامة عن الكيفية التي تختلف بها اللغات بعضها عن بعض. أما إن كان الهدف فهم الملكة اللغوية والحالات التي يمكن لها أن تتخذها فلا يمكن أن نعترض صميها 'لكاء الفارسي'. بل إن هذا هو موضوع الدراسة، بدلاً من ذلك.

وتفقد دراسة اكتساب اللغة إلى النتيجة نفسها؛ إذ سرعان ما تكشف العطرة المتأنية لتأويل التعبيرات اللغوية أن الأطفال، منذ الأطوار المبكرة، يعرفون أكثر بكثير مما توفره التجربة. ويصح هذا حتى في الكلمات البسيطة. فيكتسب الطفل الكلمات، في فترات ذروة نمو اللغة، بمعدل كلمة في الساعة، ورغم التعرض المحدود جداً للغة وحدثه في ظروف غامضة جداً. وتفهم الكلمات بطرق دقيقة ومتداخلة بعيدة جداً عن تناول أي معجم، وهي طرق لم تبدأ في دراستها إلا قريباً جداً. وحين نتخطى مستوى الكلمة الواحدة تصبح النتيجة أكثر إثارة. فيبدو اكتساب اللغة قريباً شبيه بنمو الأعضاء عموماً؛ فهو شيء يحدث للطفل، لا شيء يُنجزه، ومع أنه لا جدال في أن البيئة مهمة إلا أن المسار العام للتطور والسمات الرئيسية لما يحدث محدّدان بالحالة الأولى بشكل مسبق. لكن الحالة الأولى مشتركة بين الناس. لذلك يجب أن تكون اللغات، في خصائصها الأساسية بل في تفصيلاتها الدقيقة، مفصلة من قماش واحد. ويمكن للعالم المريح أن يستنتج بصورة معقولة أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، مع بعض الاختلافات الهامشية.

ومع تطور الدرس المتأني للغات انطلاقاً من وجهة نظر النحو التوليدي، صار واضحاً أن تنوعها كان ضحية ليخص متطرف يماثل النطرب في بحس تعقيدها ونخص مدى تحديد الحالة الأولى للملكة اللغوية. إلا أن

نعرف، في الحين نفسه، أن هذا التنوع والتعقيد ليسا إلا مظهرًا سطحيًا.

وكانت هذه النتائج مفاجئة، ومنعازمة لكن لا يمكن نكرانها. وقد أثار ب شكل صارخ ما صار قصية مركزية في الدراسة الحديثة للغة، أي: كيف يمكن أن سنّ أي اللغات جميعها لا تعدو أن تكون تنوعات لشيء واحد، في الحين الذي برصد فيه خصائصها الصوتية والدلالية المتشابهة بصورة دقيقة، وهي التي تبدو مختلفة بشكل لا ليس فيه؟ ويوجب هذا أن نحقق النظرية الدقيقة عن اللغة البشرية شرطين اثنين، هما: "الكفاية الوصفية" و"الكفاية التفسيرية". فيجب أن نحقق نحو لغة ما شرط الكفاية الوصفية لنقدم رصد دقيقًا كاملاً للخصائص التي يعرفها متكلم تلك اللغة. أما تحقيق شرط الكفاية التفسيرية فيوجب أن نبين أية نظرية للغة كيف يمكن أن تنشق أية لغة من الحالة الأولى المتمثلة [عند البشر] تحت شروط الحدود التي تقرصها التجربة، وتوفر - بهذه الطريقة - تفسيرًا لخصائص اللغات في مستوى أكثر عمقا.

وهناك تجاذب خطير بين هذين الهدفين للبحث، إذ يبدو أن البحث عن الكفاية الوصفية يقود إلى مزيد من التعقيد والتنوع في أنظمة القواعد، في حين يتطلب البحث عن الكفاية التفسيرية وجوب أن تكون بنية اللغة متجانسة، إلا في الهوامش. وهذا التجاذب هو ما يرسم الخطوط الموجهة للبحث غالبًا، وتتمثل الطريقة الطبيعية لحل هذا التجاذب في معالجة الفرص التقليدية، التي نقلت إلى السحو التوليدي المبكر، وتقضى بأن اللغة نظام معقد من القواعد، وأن كل واحد منها خاص ببعض اللغات والتركييب النحوية المعينة، كقواعد تكوين حمل الصلة في اللغة الهندية، والعبارات الفعالية في السواحلية، والمبني للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما اعتبارات الكفاية التفسيرية فتشير أن هذا المسار ليس صحيحًا.

وكانت المسألة المركزية أن نجد للخصائص العامة لأنظمة القواعد التي يمكن عروها إلى الملكة اللغوية نفسها، مع الأمل في أن يبرهن ما فصل

عن ذلك أنه أكثر بساطة وتجانسا. وقد تمثلت هذه الجهود، قبل خمس عشرة سنة تقريبا، في مقارنة اللغة كانت مفارقتها للتقاليد البحثية القديمة تعوق في جذريتها مفارقة النحو التوليدي المبكر لتلك التقاليد؛ فقد ركزت هذه المقاربة التي سميت بـ "المبادئ والوسائط" تصور القاعدة والتركيب النحوي رفضا تاما؛ فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة في اللغة الهندية، ولا عبارات فعلية في السواحلية، ولا مبنى للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما التراكييب النحوية المألوفة فنظر إليها على أنها مظاهر تصنيعية، ربما تكون مفيدة في الوصف العام لكن ليس لها أهمية نظرية. ذلك أن وضعها لا ينبع عن وضع أفكار مثل "الحيوانات النكبية الأرضية" أو "الحيوان المنزلي الأليف". ثم خللت القواعد لتكون على صورة مبادئ عامة للملكة اللغوية، وهي للمبادئ التي تتفاعل لتنتج خصائص التعبيرات اللغوية.

ويمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى للملكة اللغوية على أنها شبكة قارة موصولة بلوح مفاتيح؛ وتتكون هذه الشبكة من مبادئ اللغة، أما المفاتيح فتتمثل الخيارات المعينة التي تحددها التجربة. ونحصل حين نوضع المفاتيح في وضع معين على اللغة السواحلية؛ ونحصل على اليابانية حين نوضع بشكل آخر. وينظر إلى أية لغة بشرية على أنها وضع معين للمفاتيح - أي وضع للوسائط، بالمصطلحات التقنية. وينبغي أن يكون باستطاعتنا على وجه الدقة، إن كان برنامج البحث ناجحا، أن نحصل على السواحلية من اختيار معين للمفاتيح، واليابانية من وضع آخر لها، وهكذا عبر اللغات التي يمكن للبشر اكتسابها. وتوجب الشروط الاختيارية على اكتساب اللغة أن يكون من الممكن وضع المفاتيح بناء على ما يتوفر للطفل من معلومات محدودة جدا. لاحظ أنه يمكن لبعض التغيرات البسيطة في وضع المفاتيح أن تقود إلى تنوعات هائلة ظاهريا، تبعا لتكاثر آثار هذا الوضع في تصاعيف النظام. هذه هي الخصائص العامة للغة التي يجب على أية نظرية حقيقية أن تتيبها بطريقة ما.

ولا يعدو هذا بالطبع أن يكون برنامجًا للبحث، فهو أبعد ما يكون عن كونه شحة باجرة. وربما لا يمكن للنتائج التي تُقترح مرحليًا أن تبقى على شكلها الحاضر؛ بل ربما لا يمكن الاطمئنان إلى أن هذه المقاربة بأجمعها تسير في الطريق الصحيح. ومع هذا فقد حُفَّتْ، بوصفها برنامج بحث، قدرًا عالى من النجاح، وفادت إلى توسع حقيقى فى البحث الاختيارى فى لغات ينمى إلى أسس لغوية متنوعة جدًا، وأثارت أسئلة جديدة لم يكن بالإمكان حتى صوغها من قبل، وإلى إجابات عميقة مذهشة كثيرة. واتخذت بعض القضايا، كاكْتِسَاب اللغة وتحليل الجمل وعلاج العيوب اللغوية وقضايا أخرى، أشكالًا جديدة، وبرهنت على أنها أبحاث خصبة جدًا. ويوحى هذا البرنامج، زيادة على ذلك، بعض النظر عما سيؤول إليه، بالكيفية التى يمكن بها أن تتوافق النظرية اللغوية مع الشرطين المتعارضين للكفاية الوصفية والكفاية التفسيرية. فهى ترسم فى الأقل خطوطًا عربية لأية نظرية حقيقية للغة، وهذا ما يحدث لأول مرة، حقيقة.

والمهمة الرئيسة، ضمن هذا البرنامج للبحث، أن يكتشف المبادئ والوسائط والطريقة التى تتفاعل بها ووصفها، وأن توسع الإطار ليشمل بعض المظاهر الأخرى للغة واستخدامها. ومع أن قدرًا عظيمًا من المسائل ما يزال غامضًا، إلا أنه قد تحقق ما يكفى من التقدم الذى جعلنا فى الأقل قادرين على النظر فى بعض القضايا الجديدة ذات المقننات البعيدة جدًا مما يتعلق بتصميم اللغة، وربما بدراستها. ويمكن أن نسأل، على الأخص: ما مدى جودة هذا التصميم؟ وما مدى قرب اللغة مما يمكن لمهندس ماهر جدًا أن يصنمه، حين يأخذ فى الحسبان الظروف التى يجب على الملكة اللغوية أن تتوافق معها؟

ويجب أن تصاغ هذه الأسئلة بصورة أكثر تحديدًا ووضوحًا، وهناك عدد من الطرق للسير فى هذا السبيل. فالملكة اللغوية مدمجة فى البيئة لأوسع للذهن/ الدماغ، وتتفاعل مع الأنظمة الأخرى التى تفرض شروطًا

يجب على اللغة التوافق معها إن كان لها أن تكون صالحة للاستخدام ابتداءً ويمكن أن ننظر إلى هذه الشروط على أنها "شروط للمقرونية" legibility conditions ، بمعنى أنه يجب أن يكون باستطاعة الأنظمة الأخرى أن "تقرأ" تعبيرات اللغة وأن تستخدمها بوصفها "تعليمات" للفكر والعمل. فيجب مثلاً أن يكون باستطاعة الأنظمة العصبية الحركية قراءة التعليمات ذات الصلة بالصوت، أي "التمثيلات الصوتية" التي ولدتها اللغة. ولأعضاء النطق والإدراك تصميم محدد يجعلها قادرة على توليد بعض الخصائص الصوتية المحددة، لا حصائص أخرى. وبهذا تفرض هذه الأنظمة شروطاً للمقرونية على العمليات التوليدية للملكة اللغوية، وهي التي يجب أن توفر للتعبيرات للصورة الصوتية الملائمة. ويصبح الأمر نفسه في الأنظمة التصورية والأنظمة الأخرى التي تعتمد على موارد الملكة اللغوية، فلهذه الأنظمة خصائص ذاتية توجب أن يكون للتعبيرات التي ولدتها اللغة أنواع محددة من "التمثيلات الدلالية"، لا تمثيلات أخرى. لهذا ربما نسال عن الحد الذي تكون اللغة عنده "حلاً جيداً" لشروط المقرونية التي تفرضها الأنظمة الخارجية التي تتفاعل معها. ولم يكن من الممكن لهذا السؤال، إلى وقت قريب جداً، أن يطرح بشكل جاد، أو أن يصاغ بطريقة معقولة كذلك. لكن يبدو الآن أن هذا ممكن، بل هناك ما يدل على أن الملكة اللغوية ربما تكون قريبة جداً من أن تكون نظاماً "مُحكماً" بهذا المعنى؛ وإذا كل هذا صحيحاً فهو نتيجة مفاجئة.

وما اصطلح على تسميته بـ "برنامج الحد الأدنى" جهة موجة نحو تقصى هذه المسائل. ومن المبكر جداً تقديم حكم نهائي على هذا المشروع، أما حكمي الخاص فهو أن من الممكن وضع هذه المسائل بشكل منظم على جدول العمل، وأن نتلجها المبكرة واعدة، ولود هنا أن أتحدث باختصار عن هذه الأفكار والتطلعات، ثم أعود بعد ذلك إلى بعض القضايا التي ما تزال على الأفق.

فيوجب برنامج الحد الأدنى إخضاع الافتراضات التقليدية للتقصي المتأني. ولكن هذه القضايا تبجلاً أن اللغة صوتاً ودلالة، وترجم هذه

العصبية، في المصطلحات الجديدة بشكل طبيعي، إلى الدعوى التي تقضى بأن  
المدكة اللغوية تنفك بالأنظمة الأخرى للذهن/النماع عند "مستويين وجهيين"  
interface levels<sup>(١)</sup> يتصل أحدهما بالصوت والآخر بالدلالة. يحوى أى  
معبر معين وأدته قلعة تمثيلاً صوتياً يمكن أن تقرأه الأنظمة العصبية  
الحركية، وتمثيلاً دلاليًا يمكن أن تقرأه النظام للتصورى والأنظمة الأخرى  
للفكر والفعل.

وأحد الأسئلة السؤال عن إن كان هناك مستويات أخرى غير  
المستويين الوجهيين هذين: أى هل هناك مستويات "داخلية" للغة، وعلى  
الخصوص، مستوى البنية السطحية والبنية العميقة اللذان افترضنا في البحث  
المعاصر<sup>٢</sup> (انظر، مثلاً: تشومسكي ١٩٦٥؛ ١٩٨١؛ ١٩٨٦). ويسعى  
برنامج الحد الأدنى لتبيين أن كل ما حلل بموجب نيك المستويين كان ضحية  
لخطأ في الوصف، ويمكن فهمه بشكل مماثل أو أفضل في ضوء شروط  
المقروئية في المستويين الوجهيين: ويعنى هذا، عند المطلاعين على الأبحاث  
المتخصصة، مبدأ الإسقاط، وبطرية الربط، وبطرية الحالة الإعرابية، وشروط  
السلسلة، وغيرها.

وبحاول كذلك أن نبين أن العمليات الحوسبية الوحيدة هي تلك التي لا  
يمكن تجنبها في ضوء أضعف الافتراضات عن خصائص المستويين  
الوجهيين، ومن هذه الافتراضات أن هناك وحدات شبيهة بالكلمة: أى أنه  
يجب على الأنظمة الخارجية أن تكون قادرة على تأويل وحدات مثل "بيتر"  
و"طويل". والافتراض الآخر أن هذه الوحدات منظمة في تعبيرات أكبر، كـ  
Peter is tall "بيتر طويل". والافتراض الثالث أن لهذه الوحدات خصائص  
صوتية ودلالية: فبدأ الكلمة "بيتر" Peter بإغلاق الشفتين وتستخدم في الإحالة  
إلى أشخاص. لذلك تنقسم اللغة ثلاثة أنواع من العناصر:

- \* خصائص الصوت والمعنى، وتسمى بـ"السمات".
- \* ونُبيّ الوحدات بجمع هذه الخصائص، وتسمى "الوحدات المعجمية".
- \* وتركيب التعبيرات المعقدة بجمع هذه الوحدات "الدرية" بعضها إلى بعض.



ويترتب على هذا أن النظام الحوسبي الذي يولد التعبيرات يقوم  
بمعاليتين: فتجمع الأولى السمات في وحدات معجمية، وتكون للثانية وحدات  
تركيبية أكبر بجمع تلك الوحدات التي سبق تركيبها، بدءاً بالوحدات  
المعجمية.

ويمكن أن ننظر إلى العملية الأولى على أنها قائمة بالوحدات المعجمية  
أساساً. وتحتوي هذه القائمة، أي المعجم، - بالمصطلحات التقليدية،  
الامتثالات<sup>٣</sup>، أي الارتباطات الاعتبارية بين الصوت والمعنى، والاختيارات  
المعينة للخصائص التصريفية التي توفرها الملكة اللغوية التي تحدد الكيفية  
التي يمكن بها أن يعبر عن كون الأسماء والأفعال مفردة أو جمعا، وأن  
الأسماء يمكن أن تكون مرفوعة أو منصوبة، إلخ. ومن الواضح أن هذه  
السمات التصريفية تؤدي دوراً رئيساً في الحوسبة.

ولن ندخل التصميم الأمثل optimal لية سمات جديدة في أثناء  
الحوسبة. لذلك ينبغي ألا تكون هناك إشارات [تُعين العلاقة بين الأسماء]  
indices ولا وحدات مركبة ولا مستويات بشرطة bar levels (ومن هنا ليس  
هناك قواعد للبنية المركبة أو نظرية من - بشرطة! - نظر Chomsky  
1995c)<sup>(١٢)</sup>. كما نحاول أن نبين أنه لا تفرض أية علاقات بنوية عدا تلك  
التي تفرضها شروط المقرونية أو تستدعيها بعض الطرق الطبيعية للحوسبة  
نفسها. ومن الصنف الأول خصائص مثل شرط التجاور adjacency في  
المستوى الصوتي، وعلاقات البنية الموضوعية argument - structure  
وعلاقات السور بالمتغير quantifier-variable في المستوى الدلالي. أما في  
الصنف الثاني فهناك بعض العلاقات المحلية المحض بين السمات، وبعض  
العلاقات الأولية بين موضوعين تركيبيين يوصل أحدهما بالآخر في أثناء  
الحوسبة؛ فالعلاقة التي تقوم بين أحد هذين الموضوعين وبعض أجراء  
الموضوع الآخر هي علاقة التحكم المكوئي c-command؛ وكما أشار

صمويل إيبسنين (١٩٩٩) فهذه فكرة تؤدي دوراً رئيساً عبر تصميم اللغة كله، وكان ينظر إليها على أنها غير طبيعية إلى حد بعيد، إلا أنها تجد مكانها بطريقة طبيعية من هذا المنظور. لكننا منتحلص من "العصل" government وعلاقات الربط الداخلية في اشتقاق التعبيرات، إضافة إلى أنواع أخرى من العلاقات والتفاعلات.

وكما يعرف أي مطلع على الأبحاث التي أنجزت في الملصبي القريب، هناك أدلة احتمالية واحدة تدعم النتيجة المضادة لهذا كله، وأسوأ من هذا أن إحدى المسلمات المركزية في البحث لدى أنجر في إطار نظرية المبادئ والوسائط، والإنجازات الباهرة إلى حد بعيد التي حققتها، تقصى بل كل ما اقترحتُه أنا رائف - وهو ما يعني أن اللغة "عبر محكمة" إلى حد بعيد بهذه المعايير، كما يمكن أن يتوقع؛ فليست مهمة سهلة - إن - أن نبين أنه يمكن التخلص من هذه الوسائل التقنية بوصفها تقنيات وصفية غير مرغوبة؛ وربما أفصل من ذلك، أن القوة الوصفية والتفسيرية مستعظم أن تحلصنا من هذا "الجمل الرائد". لكني أظن، مع ذلك، أن الجهود البحثية التي أنجزت في السنوات القليلة الماضية توحى بأن هذه النتائج، التي كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك، ممكنة في الأقل، بل ربما صحيحة.

ومن الجلي أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ونحن نرغب أن نعرف كيف تختلف، وأحد المعايير التي تختلف فيها اللغات بعضها عن بعض اختياراتها من الأصوات، وهي التي تتنوع تنوعاً محدوداً. والمعيار الثاني أنها تختلف من حيث الارتباط بين الصوت والمعنى، وهو ارتباط اعتباطي أسما. وهذان المعياران واضحان، وينبغي ألا يتوقف عندهما كثيراً. وأكثر من ذلك لفتاً للنظر اختلاف اللغات في الأنظمة الصرفية: كاختلافها في أنظمة الإعراب، مثلاً. فهذه الأنظمة غنية جداً في اللاتينية، وأغنى من ذلك في السمكريتية أو الفينلندية، لكنها محدودة في الإنجليزية وحقيرة في الصينية. أو هكذا تبدو؛ وتوحى اعتبارات الكفاية التفسيرية أن

المظهر ربما يكون مضللاً هنا كذلك، بل تشير الأحداث التي أُنشئت في الماضي القريب (تشومسكي ١٩٩٥ ج: ١٩٩٨) إلى أن هذه الأنظمة تتنوع بقدر أقل مما يوحي به الوصف الذي يبدو من الصيغ المسطحية. فمن المحتمل مثلاً أن يكون نظام الحالة الإعرابية في الصينية والإنجليزية هو نفسه الذي في اللاتينية، لكن تحققه الصوتي مختلف. كما يبدو، ريادة على ذلك، أن من الممكن اختزال أكثر مظاهر التنوع إلى خصائص الأنظمة التصريفية. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فتتوغل اللغات موجود، إذن، في جزء صغير من المعجم.

وتفرض شروطاً مقرونية تقريباً ثلاثاً للسمات التي تُجمع في الوحدات المعجمية:

- \* سمات دلالية، وتؤول عند المستوى الوجيهي الدلالي؛
- \* سمات صوتية، وتؤول عند المستوى الوجيهي الصوتي؛
- \* سمات لا تؤول عند أي من المستويين الوجيهين.

وكل سمة، في اللغة المصنفة نصيماً محكماً، إما دلالية أو صوتية، لا مجرد وسيلة لحلق موضع أو تسهيل حوسبة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا وجود لأية سمات صوتية غير مؤولة. وهذا متطلب قوي جداً، كما يبدو. لذلك ليس هناك تأويل لبعض السمات الصوتية النمطية كالحالة الإعرابية البسيطة — كالرفع والنصب في اللاتينية، مثلاً — في المستوى الوجيهي الدلالي، ولا حاجة للتعبير عنها في المستوى الصوتي كذلك، وهناك أمثلة أخرى في الأنظمة التصريفية.

ويبدو، في الحوسبة التركيبية، أن هناك مظهرًا ثانيًا من عدم الإحكام في تصميم اللغة أكثر إثارة، وهو مظهرٌ سطحي في الأقل، ذلك هو، "تخصيص الإزاحة" وهي من أكثر مظاهر اللغة شيوعاً؛ فتؤول بعض عبارات كما لو أنها تحتل موضعاً مختلفاً [عن الموضع الذي توجد فيه] في جملة، حيث يمكن أن تظهر أحياناً بعض العبارات المعاكسة ثم تؤول في

صوء العلاقات المحلية الطبيعية. انظر إلى الجملة التالية:

Clinton seems to have been elected.

يبدو كلستون كأنه انتُخب.

وحرر بفهم العلاقة بين elect يُنتخب و Clinton بالطريقة التي يفهم بها هذه العلاقة حين تربط الكلمتان ارتباطاً محلياً في الجملة التالية:

It seems that they elected Clinton.

"يبدو أنهم انتخبوا كلينتون".

فنعبره Clinton مفعول ميانر، بالمصطلحات التقليدية، للفعل elect يُنتخب، إلا أنها تُقَلَّتْ إلى موضع فاعل الفعل seems "يبدو"؛ ويتطابق الفاعل والفعل في السمات التصريفية في هذه الحالة، لكن ليس هناك علاقة دلالية بينهما؛ ذلك أن علاقة الفاعل الدلالية مع الفعل البعيد elect يُنتخب.

فلدينا الآن حالتان من "عدم الإحكام": السمات التي لا يمكن تأويلها، وخصيصة الإزاحة. ونتوقع، بحسب مسلمة التصميم الأمثل، أن يكون بينهما صلة، وهذه هي الحال كما يبدو، فالسمات التي لا يمكن تأويلها هي الآلية التي تُنفذ خصيصة الإزاحة.

ولم يسبق أن جعلت خصيصة الإزاحة جزءاً لازماً في الأنظمة الرمزية التي تصمم من أجل بعض الأغراض الخاصة، وتسمى "لغات"، أو "لغات صورية" بمعنى مجازي، كـ "لغات الرياضيات"، و"لغات الحاسوب"، و"لغات العلم". وليس لهذه الأنظمة أنظمة تصريفية كذلك؛ لهذا ليس فيها سمات لا يمكن تأويلها. والإزاحة والتصريف خصيصتان مقصورتان على اللغة البشرية، من بين خصائص كثيرة لا يُلْقَتْ إليها حين تصمم الأنظمة الرمزية لأغراض أخرى، وهي التي يمكن أن نتخاض عن شروط المقرؤية التي تفرضها بنية لادهن/الماغ على اللغة البشرية.

وتُنفذ خصيصة الإزاحة في اللغة البشرية بمقتضى التحويلات البصرية أو وسائل أخرى، لكن لا بد أن تُنفذ بطريقة ما دائماً. أما السبب الذي يوجب

وحدود هذه التخصصية في اللغة فأمر لاقى للنظر، وكان محلاً للنقاش مد السنين ولم يتحقق أى تلاق نهائى بشأنه. ويعود جزء من السبب، كما لطن، إلى الظواهر التى كانت توصف فى ضوء تأويل للبيئة السطحية؛ وكثير منها مألوف فى النحو التقليدى، كالمبتدأ والحبر Topic-Comment، التخصص specificity، والمعلومات الجديدة والقديم، والقوة المنفدة agentive force التى نجدها حتى فى الموضع المنقول إليه، إلج. وإذا كان ذلك صحيحاً، فخصيصية الإزاحة تفرضها شروطاً مقرونية؛ فالدافع لها هو المتطلبات التوليفية المفروضة من الخارج على أنظمة تفكيرنا، وهى التى تتصف بهذه الخصائص الخاصة (كما تبين ذلك دراسة استخدام اللغة). وتناقش هذه المسائل الآن بطرق لاقى للنظر حقاً، وهو ما لا يمكنى الحديث عنه بالتفصيل هنا.

وقد افترض، منذ البدايات الأولى للنحو التوليدى، أن العمليات الحوسبية نوعان:

- قواعد البنية المركبة تؤلف من الوحدات المعجمية قطعاً تركيبية أوسع.
- قواعد تحويلية تتخذ خصيصية الإزاحة.

والعمليتين كليهما جنور تقليدية، لكن سرعان ما اكشفت أنهما تختلفان اختلافاً كبيراً عما كان يفترض من قبل، مع قدر واضح من التنوع والتعقيد. وقد سعى برنامج البحث ليبين أن التعقيد والتنوع عارضان وحسب، وأنه يمكن أن يختزل نوعا القواعد إلى شكل واحد بسيط. فربما يكمن الحل "المحكم" لمشكلة تنوع قواعد البنية المركبة فى التخلي عنها تماماً فى صالح العملية التى لا يمكن اختزالها وتتمثل فى أخذ موضوعين سبق التأليف بينهما وربط أحدهما بالآخر، مما ينتج موضوعاً أكبر يتصف بالخصائص المقصورة على هدف ذلك الربط وحسب، ويمكن أن نسمى هذه العملية بـ "تمج" Merge. ويشير البحث الذى أجز فى السنوات القريبة الماضية أن هذا هدف يمكن تحقيقه.

ويتكون الإجراء الحوسبي الأمثل، إذن، من عملية "الدمج" والعمليات التي تصوغ خصيصة الإزالة، أي: العمليات التحويلية أو عمليات أخرى مماثلها. وقد سعى المنحى الثانى من المشروعين المتوازيين لاختزال المكونات التحويلية إلى أبسط شكل؛ ولا يبدو أن من الممكن التخلي عنه، بعكس قواعد البنية المركبة. وكانت النتيجة النهائية دعوى مفادها أنه فيما يخص مجموعة مركزية من الطواهر، هناك عملية واحدة فقط هي "لقل" Move — وتنصى أساسا، لقل أية وحدة إلى أى مكان، وهي لا تتصف بأية خصيصة مقصورة على لغات أو تركيب معينة. أما كيفية تطبيقها فتحددها مبادئ عامة تتفاعل مع بعض الاختيارات المحددة للوسائط — أى: وضع المفاتيح — الذى يحدد لغة معينة. فتأخذ عملية "الدمج" موضوعين متميزين "س" و"ص" وتدمج "س" بـ "ص". وتأخذ العملية "لقل" موضوعا مفردا "س" وموضوعا آخر "ص" هو جزء من "س"، وتربط "س" إلى "ص".

والمشكلة التالية أن نبين أن السمات التى لا يمكن توليدها هي، حقا، الآلية التى تنفذ خصيصة الإزالة، وهو ما يعنى اختزال النوعين الأساسيين من "عدم الإحكام" فى النظام الحوسبي إلى نوع واحد. وإذا تبين أن الدافع وراء خصيصة الإزالة هو شروط المقروئية التى تفرضها الأنظمة الخارجية للتفكير، كما اقترحت أنفا، فيعنى هذا أننا نخلصنا من أنواع "عدم الإحكام" كلها وأن تصميم اللغة أمثل، فى نهاية الأمر، ذلك أن الغرض من اشتراط وجود السمات غير المؤولة أن تكون آلية لإرضاء شروط المقروئية التى يفرضها المعيار العام للدهن/الدماغ.

والطريقة التى يسير بها هذا التوحيد بسيطة جدا، لكن تصيرها بمشكل متمسك سيأخذنا بعيدا عن مدى هذه الملحوظات. والفكرة الحتمية الأساسية انه يجب أن تحذف السمات التى لا يمكن توليدها لإرضاء شرط المعنوى الوجبهى، ويتطلب هذا الحذف علاقة محلية بين السمة والمحلفة offending وسمة أخرى مشابهة لها يمكن أن تحذفها. وهاتان السمتان فى العادة

متباعداً لأسباب تتعلق بالطريقة التي يعمل بها التأويل الدلالي. كما في الجملة:

Clinton seems to have been elected.

لذا يتطلب التمثيل الدلالي أن يكون الفعل elect "يُنتخب" والاسم Clinton مرتبطين محلياً في العبارة: elect Clinton كي يؤوّل التركيب تأويلاً ملائماً، كما لو أن الجملة في الواقع:

seems to have been elect Clinton.

ويظهر الفعل الرئيس في الجملة seems "يبدو" بسمات تصريعية لا يمكن تأويلها؛ فهو متصرف للمفرد العائب، وهي خصائص لا تضيف شيئاً مستقلاً إلى معنى الجملة، ذلك أنها موجودة في العبارة الاسمية [كلينتون] التي تتطابق معها، ولا يمكن حذفها هناك. ويوجب هذا أن تُحذف هذه السمات المخالفة في الفعل seems حين يكون في علاقة محلية، وهذا مُكلّ صريح لمقولة "التطابق" الوصفية التقليدية. وإنجاز ذلك تجذب السمات المخالفة في الفعل الرئيس seems السمات المماثلة لها في العبارة المطابقة Clinton، ثم تُحذف بعد ذلك في ضوء التماثل المحلي. لكن العبارة Clinton نُقلت الآن.

لاحظ أن سمات "كلينتون" وحدها هي التي جذبت؛ أما العبارة بكاملها فتنتقل لأسباب تتعلق بالنظام العصبي الحركي، الذي لا يمكنه أن "ينطق" أو "يسمع" السمات المفردة معزولة عن العبارة التي تنتمي إليها. أما إذا لم ينشط النظام العصبي الحركي - لأسباب معينة - فالسمات وحدها تُرفع، ونحصل من ثم، بالإضافة إلى جمل مثل:

an unpopular candidate seems to have been elected

"يبدو أن مرشحاً غير محبوب انتخب".

التي تعرضت لـ "ثقل" ظاهر، على جمل مثل الجملة التالية:

seems to have been elected an unpopular candidate.

"يبدو انتخب مرشح غير محبوب" [يبدو أنه انتخب مرشح غير محبوب].

ونسابق العبارة البعيدة an unpopular candidate ، في هذه الجملة،  
مع الفعل seems ، وهو ما يعنى أن سمات هذه العبارة حُتبت إلى علاقة  
محبة مع الفعل seem أما عبائر العبارة فترك في مكانه. ويسمى عدم تنشيط  
النظام الحسى الحركى بـ "الإزاحة الخفية" covert movement ، وهى  
ح هرد نسم بخصائص لافتة للنظر. وتوجد مثل هذه الجمل في بعض اللغات  
ـ ومنها الإسبانية مثلا. وفي الإنجليزية كذلك، وإن كانت بعض الأسباب  
الأخرى توجب إدخال عنصر فارغ دلاليًا هو there "هناك" لتحصل على  
الجمه:

there seems to have been elected an unpopular candidate.

كما توجب أسباب أخرى لافتة للنظر أن يُعكس الترتيب بين مكونات  
الجملة لتظهر على الشكل التالى:

there seems to have been an unpopular candidate elected

وتترتب هذه الخصائص على بعض الاختبارات المحسنة للوسائط،  
وهى التى تحدث بعض الآثار في اللغات عموما وتتفاعل لتعطى طيفا معقدا  
من الطواهر التى لا يتميز بعضها عن بعض إلا ظاهريًا. ويمكن فى الحالة  
التى نناقشها هنا احتزال الأمور كلها إلى حقيقة بسيطة تتمثل فى أنه يجب  
حذف السمات الصورية التى لا يمكن تأويلها حين تكون فى علاقة محلية مع  
علاقة ممتدة، مما يشأ عنه حصصة الإزاحة الضرورية للتمثيل الدالى فى  
المستوى الوجداني.

وهناك قدر من الإجمال فى هذا الوصف المختصر. أما التعديل  
الكامل فيكشف لنا عن صورة أكثر اعتدًا للنظر، وتتركب عليها مقننات  
كثيرة فى لغات مختلفة من حيث التصنيف النسي. لكن الاستمرار فى هذا  
مبدأنا بعيدا عما نتسع له هذه الملحوظات.

وأود أن أحتتم بضرورة مختصرة فى الأقل إلى بعض القضايا الأخرى،



وهي قضايا تتعلق بالطرق التي تتصل بها الدراسة "الدلالية" internalist للغة بالعالم الخارجي. والتبسيط دعنا لا نتجاوز الكلمات البسيطة. احرص أن الكلمة book "كتاب" تنتمي إلى معجم "بيتر". وتقال هذه الكلمة من مجموع معقد من الخصائص، الصوتية والدلالية. فتستعمل الأنظمة الحسية الحركية الخصائص الصوتية من أجل النطق والإدراك، وتصلهما بالأحداث الخارجية، كحركات الحزبات، مثلاً. وتستعمل الأنظمة الأخرى للذهن للخصائص الدلالية للكلمة حين يتكلم بيتر عن العالم، وحين يؤوّل ما يقوله الآخرون عنه.

وليس هناك خلاف بعيد الأثر عن كيف تقارب الأمر على الجانب للصوتي، أما على جانب المعنى فهناك خلافات عميقة جداً. فيبدو لي أن الدراسات الاختبارية تقارب قضايا المعنى بطريقة لا تبعد كثيراً عن الطريقة التي تدرس بها الصوت، كما في الصوتية وعلم الأصوات. فتبحث هذه الدراسات عن الخصائص الدلالية لكلمة book: أي كونها اسمية لا فعلية، وتستخدم في الإحالة إلى شيء مادي مصنوع لا إلى جوهر طبيعي كالماء أو إلى شيء مجرد كالصحة، إلخ. وربما صح لسائل أن يسأل إن كانت هذه الخصائص جزءاً من معنى الكلمة book أم أنها جزء من التصور الذي يرتبط بها؛ وليس هناك - في الفهم السائد الآن - طريقة معقولة للتمييز بين هذين الاقتراحين، لكن ربما أمكن في المستقبل اكتشاف أن هناك قضية اختبارية. وبغض النظر عن أي الاقتراحين تبنيناه فبعض السمات الداخلية للوحدة المعجمية book تحدد طريقة التأويل من النوع الذي أشرنا إليه هنا.

ونجد، حين نستقصى استخدام اللغة، أن الكلمات تؤوّل في ضوء عوامل كالتركيب المادي، والصياغة، والاستخدام المقصود أو المؤلف عادة، والوظيفة المؤسسية، إلخ. فتصنف الأشياء وتخرى إلى المقولات في ضوء هذه الخصائص - التي أعدها سمات دلالية - بشكل مماثل للسمات الصوتية التي تحدد صوتها. ويمكن لاستخدام اللغة أن يتعامل مع هذه السمات الدلالية

بطرق شتى. افترض أن مكتبة تحوى نسختين من رواية تولستوى "الحرب والسلام"، ثم أخذ بيتر واحدة وجون الأخرى. فهل أخذ بيتر وجون الكتاب نفسه، أم أحدا كتابين مختلفين؟ فإذا وجهنا اهتمامنا إلى العامل المادى لهذه الوحدة المعجمية فقد أحدا كتابين مختلفين؛ أما إذا وجهنا الاهتمام إلى العامل المجرد فقد أحدا الكتاب نفسه. ويمكن أن توجه الاهتمام إلى العاملين المادى والمجرد فى وقت واحد، حين نقول، مثلا:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"الكتاب الذى يخطط لتأليفه سوف يزن خمسة أرطال فى الأقل إن  
ألفه".  
أو:

His book is in every store in the country

"يوجد كتابه فى كل ثور بيع الكتب فى البلاد".

ويمكن، بالمثل، أن يصيغ الباب بلور أبيض ثم نمشى عبره،  
مستخدمين الضمير it "هو" فى الإشارة بشكل غامض إلى الباب نفسه أو إلى  
المدخل. وستطيع أن تروى الخبر التالى:

The bank was blown up after it raised the interest rate.

"نُسف المصرف بعد أن رفع نسبة الفائدة".

أو:

It raised the rate to keep from being blown up.

"رفع الفائدة خوفا من أن يُنسف".

ويمكن أن يزول الصمير it هنا و"المفعولة للعارغة" التى هى فاعل

العبارة being blown up بالعاملين المادى والمؤسسى، بشكل متراس.

والحقائق عن مثل هذه الأمور واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة لهذا نحترم العاصِرَ التي تعتمد بعضها على بعض إحصائياً، حتى أكثرها تقييداً، بعض التمييزات وتتجاهل بعضها الآخر، بطرق تتنوع بحسب تنوع أنماط مختلفة من الكلمات بطرق لافتة للنظر. ويمكن أن يدرس هذه الخصائص بطرق كثيرة، كأن ندرسها من حيث الاكتساب اللغوي، والشبوع بين اللغات، والكلمات المصطنعة، إلخ. وما يكتشفه معقد بصورة معجزة، ويُعرف، بصورة غير معجزة، بشكل مثير على أي دليل، ومن هنا فهو مشترك بين اللغات. وليس هناك ما يلزمنا بأن نتوقع وجود مثل هذه الخصائص في اللغة البشرية؛ وربما تكون لغة سكان كوكب المريخ مختلفة. أما الأنظمة الرمزية للعلم والرياضيات فمختلفة بكل تأكيد. ولا يعلم أحد إلى أي مدى تكون الخصائص المحددة للغة البشرية نتيجةً لبعض القوانين الكيميائية الأحيائية العامة التي تنطبق على أشياء لها السمات العامة للدماغ، وهذه قضية مهمة أخرى ما تزال على ألق أبعد.

وقد طوّرت إحدى مقاربات التأويل الدلالي بأشكال مماثلة لهذه في فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر بطرق لافتة للنظر، مستخدمة في الغالب مبدأ هيوم الذي مفاده أن "الهوة التي نعزوها" إلى الأشياء "لا تعدو أن تكون خرافة" (Hume 1740: section 27)، لبتدعها الفهم البشري. وهذه النتيجة التي وصل إليها هيوم مقبولة جداً. فلا يتضمن الكتاب الذي أماسي على المكتب هذه الخصائص العربية في ضوء تكوينه الداخلي بل في ضوء الطرق التي يعكس بها الناس، ومعاني الكلمات التي يصوغون بها هذه الأفكار. فتستعمل الخصائص الدلالية للكلمات للتفكير في العالم والكلام عنه في ضوء المنظورات التي توفرها موارد الدهن، بشكل لا يبعد كثيراً عن الطرق التي يستخدمها التأويل الصوتي فيما يبدو.

أما الفلسفة المعاصرة للغة فتتجه مساراً مختلفاً. فهي تسأل عن ما الذي تحيل إليه الكلمة، وتقدم أجوبة متنوعة. لكن ليس هناك معنى واضح

لهذا السؤال. ومثال "الكتاب" نموذجي. فلا يعنى شيئاً مهماً أن تسأل عن ما  
الشيء الذى يُحيل إليه التعبير :

*Tolstoy's War and Peace.*

«كتاب تولستوى "الحرب والسلام».

حين يأخذ جور وبيتر بسختين متماثلتين من المكتبة. فتعتمد الإجابة  
على كيفية استخدام السمات الدلالية حين يفكر ويتكلم، بأي واحد من  
الطريقتين. وعلى العموم، فلا تُعَيَّن كلمة ما، حتى أبسط أنواع الكلمات، شيئاً  
معيناً فى العالم، أو فى "حيزيا الاعتقادي". وتبدو الافتراضات المتواضع  
عليها عن هذه الأمور مشكوكاً فيها إلى حد بعيد.

وقد ذكرت أن النحو التوليدي المعاصر سعى لتناول الاهتمامات التي  
شغلت أقطار التوجهات التقليدية، ومنها على وجه الخصوص الفكرة  
الديكارتيّة التي مفادها أن "الفارق الحقيقي" (Descartes 1649/1927 360)  
بين البشر والمخلوقات الأخرى أو الآلات هو قدرة البشر على التصرف  
بالطريقة التي يرون أوضح تمثيل لها في الاستخدام العادي للغة، الذي  
يتصف بأنه: لا تحدّه حدود نهائية، وتؤثر فيه الحالة الداخلية، لكنها لا تحدّه،  
ويتوافق مع المقامات من غير أن يكون نتيجة لها، ومتجانسٌ وبشر الأفكار  
التي ربما أمكن للسامع التعبير عنها، إلخ. ويتمثل هدف البحث الذي أُنشئ  
هنا في أن يكتشف بعض العوامل التي تدخل في مثل هذه الممارسة المألوفة.  
ومع ذلك فهي "بعض" العوامل وحسب.

ويسمى النحو التوليدي إلى اكتشاف الآليات التي تُستخدم في هذه  
الممارسة، لذلك يسعى إلى الإسهام في دراسة "كيف" تُستخدم هذه الآليات  
بالطريقة الخلاقة للحياة العادية. أما كيف تُستخدم قصصيةً شغلت أقطار  
الديكارتيين، وهي التي ما تزال تمثل لغزاً لنا كما كانت لغزاً عديداً، ذلك مع  
أنّ أهم اليوم عن تلك الآليات التي تدخل في هذه الممارسة أكثر مما كانوا  
يهمونه عنها.

ونشبه دراسة اللغة من هذا الوجه، مرة أخرى، دراسة الأعصاب الأخرى؛ فقد كشفت دراسة الأنظمة الإبصارية والحركية الآليات التي يؤوّل بها الدماغ المثيرات المشتتة على أنها مكعب ولذراع التي تمتد لنمساك بكتاب على المكتب. لكن فروع العلوم هذه لا تتير أسئلة عن كيف يقرّر الناس النظر إلى كتاب على طاولة أو الإمساك به، وليس من فائدة، كذلك، للتحريصات عن استيعال الأنظمة الإبصارية والحركية، لو الأنظمة الأخرى. إلى هذه القدرات، التي تتمثل بأجلى مظاهرها في استخدام اللغة، هي لب الاهتمامات التقليدية: فهي عند ديكارت في الفترة المبكرة من القرن السابع عشر أكثر الأشياء التي يمكن أن نمتلكها نبلاً وهي ما نمتلكه حقاً. كما لاحظ الفيلسوف الطبيب الإسباني خوان هوارتي، قبل نصف قرن من ديكارت، أن هذه الملكة التوليدية للفهم والفعل البشريين العاديين غريبة عند "الوحوش والنباتات" (Huarte/ 1575 3 1698: 1698؛ انظر كذلك Chomsky 78: 1966 الهامش) مع أنها شكل متواضع من الفهم يقصر عن الممارسة الحقيقية للخيال الخلاق. بل إلى هذا الشكل المتواضع نفسه يقع خارج قدرتنا النظرية، إذا استثنينا دراسة الآليات التي تدخل فيها.

وقد تعلمنا في السنوات القليلة الماضية، في عدد من المجالات، ومن بينها اللغة، الكثير عن هذه الآليات. والمشكلات التي يمكننا الآن أن نواجهها صعبة ومتحدية، لكن كثيراً من الأعمال ما تزال بعيدة عن متناول شكل النفسى البشرى الذي نسميه "عظماً"، وهذه نتيجة ينبغي ألا نتعجبنا إن نظربا إلى البشر على أنهم جزء من العالم العضوى، وربما ينبغي ألا نجد لها محيطاً كذلك.

## هوامش الفصل الأول

- (١) والمصطلح interface مأخوذ من لغة الحاسوب، ويعني الحد المشترك بين نظامين مختلفين. ويعرف محمد غاليم هذه القوالب "الوجيهية" بأنها "هي التي تضمن التواصل بين مستويات الترميز عن طريق ترجمة جرائية للمعلومات من صورتها في مستوى معين إلى صورة موافقة في مستوى آخر، أو أن القالب الوجيهي يقيم تشاكلا جرائيًا بين مستويين للمعلومات. فنصبح ملكة مثل ملكة اللعبة قائمة على تفاعل عدد من القوالب التمثيلية والقوالب الوجيهية" (محمد غاليم. المعنى والتوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. ص ٤٢٩). (المترجم)
- (٢) انظر مقدمة المترجم عن هذه المصطلحات والمصطلحات الأخرى التي ترد في الكتاب. (المترجم)



## الفصل الثاني تفسير استخدام اللغة

يجادل هيلاري تننام، في [سلسلة المحاضرات التي ألقاها بعنوان] "محاضرات جون لوك"، أن بعض القدرات البشرية — والمثال النموذجي لها "تكلم اللغة" — ربما ينبغي تفسيرها نظريًا حين تؤخذ منفردة، إلا أن أحدث صمم نموذج كامل للتنظيم الوظيفي البشري الذي ربما يستعصى على تفهم البشري حين يُنظر بأي قدر من التفصيل. ونكرر المشكلة في أننا لن نستطيع، واقعياً، الطفر بمودج تفسيري مفصل للنوع الطبيعي natural kind "بشر"، لا بسبب "التعقيد وحسب"، بل "لأننا محجوبون جزئياً عن أنفسنا، أي أنه يتعذر أن نفهم أحدنا الآخر بالطريقة التي نفهم بها ذرات الهيدروجين". وهذه "حقيقة تكوينية" عن "البشر في الفترة الحاضرة"، مع احتمال ألا تكون كذلك بعد مئات قليلة من السنين (Putnam 1978).

فيطلب "النوعان الطبيعيان": "بشر" و"ذرة الهيدروجين"، إذن، نوعين مختلفين من البحث، يقود أحدهما إلى "نماذج تفسيرية مفصلة"، أما الآخر فلا، في الوقت الحاضر في الأقل، والصنف الأول "بحث علمي"، نسعى عن طريقه إلى الوصول إلى نظريات تفسيرية يمكن فهمها ونفطع إلى دمجها في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية الصرفة؛ ونسمي هذا المنحى من البحث بـ "البحث العلمي الطبيعي"، مركّبين على ما لهذا النشاط من خصائص وأهداف معقولة، بمعزل عن الإنجازات العقلية التي حققها. ويقع وراء ما يمكن أن يشمل "التنظيم الوظيفي البشري" للكامل قضايا تتعلق بالمدى الذي يصل إليه. وبسر هذا المدى موضوعاً جاداً للبحث العلمي الطبيعي (في الوقت الراهن) فهو أكثر شيهاً — دراسة كل شيء؟ — إذ يصعب محاولات الإجابة عن أسئلة أربعة مثل: "كيف تعمل الأميبيات؟" أو "لماذا نحدث؟" ويمكن الادعاء بأن أسئلة كثيرة — ومنها بعض الأسئلة المهمة جداً للبشر — لا تدخل في إطار البحث



العلمى الطبيعى؛ وهو ما يجعلنا نقاربها بطرق أخرى. وليست هذه الفوارق صارمة، كما يؤكد بتنام، لكنها مفيدة، مع ذلك.

ويصيف بتنام، فى نقاش نقدى للنزعة الذهبية المُحسَّنة من النوع الذى يُنتج فى جامعة إم. آى. تى" (ويستلها كتاب جيرى فودور: "لغة التفكير"؛ Fodor 1975، تحديداً) بعض الملحوظات المتممة عن البحث النطرى الذى ربما "ن" يساعدنا فى تفسير تكلم اللغة. ومنها احتمال اكتشاف العلوم المتخصصة فى دراسة الدماغ أنه حين "تفكر بالكلمة cat 'قطعة'" (أو حين يفكر منكلم اللغة الفنلندية بما يقابلها) تتكون الصورة C [الصوت الذى تبدأ به كلمة Cat] فى الدماغ. ويخلص إلى القول بـ "أن هذا شيء مثير إلى كان صحيحاً"، بل ربما يكون إضافة مهمة لعلم النفس وعلوم الدماغ، "تكن" ما الصلة بين هذا و"معنى قطعة" (أو ما يناظرها فى اللغة الفنلندية، أو الصوت C)؟ — ومقتضى قوله أن ليس هناك صلة (Putnam 1988a).

فلدينا الآن دعويان مترابطتان. الأولى: أن "تكلم للغة" والقدرات البشرية الأخرى لا تدخل فى الوقت الراهن فى البحث العلمى الطبيعى. والثانية: أنه ليس هناك ما يمكن أن نتعلمه عن المعنى (وهو ما يعنى أنه لا يمكن أن نتعلم شيئاً عن أحد المظاهر الأساسية لتكلم اللغة) من دراسة التكوينات فى الدماغ والعمليات التى ينفذها (من النوع الذى تكلم عنه، فى الأقل). ويبدو لى أن تعبيره عن النتيجة الأولى ليس كافياً ولم يصفها بشكل ملائم؛ أما الثانية فتقوية جداً. فدعنا نتفحصهما بالترتيب.

والتصور "بشر" جزء من فهمنا البديهي، وله خصائص مثل: الفردية، والنبات النفسى، إلخ، مما يُصور بعض اهتمامات البشر المعينة، وتوجهاتهم، ومطوراتهم. والشئ نفسه صحيح عن تصور "تكلم للغة". ولئن تدخل مثل هذه التصورات، إذا غضضنا النظر عن الصنف غير المتوقعة، صممن النظريات التفسيرية التى تنتمى إلى البحث العلمى الطبيعى؛ ليس الآن وحسب، بل إلى الأبد. ولا يعود ذلك لبعض الموانع الثقافية أو حتى لأنواع

الفصور البشرى الدلالية (مع أن مثل هذه موجودة فعلاً)، بل لطبيعتها. وربما يمكن أن نقول أشياء كثيرة عن الناس، حين نتصورهم بهذا الشكل؛ بل أن نأتى كذلك ببعض التعليلات التى تقم بعض التفسيرات للصعوبة. لكن لا يمكن لمثل هذه التعليلات أن تدمج فى العلوم الطبيعية إلى جانب المصادر التفسيرية لدراسات الهايدروجين، والخلايا، أو الوحدات الأخرى التى يفترضها فى سعيها نحو صياغة نموذج تفسيري متماسك معقول ينمى إلى التفسيرات العلمية الطبيعية. ومن هنا ليس هناك سبب لافتراض وجود "النوع الطبيعى" "بشر"؛ إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعاً موجودة فى الطبيعة، فى الأقل، أى تلك الأصناف التى نكتشفها عن طريق البحث العلمى الطبيعى.

وليس السؤال عن إن كان من الممكن أن ندرس تصورات الفهم البديهي نفسها فى هرع من هروع البحث العلمى الطبيعى؛ فربما يكون ذلك ممكناً. بل السؤال عن إن كنا ننظر إلى العالم الطبيعى حين ندرسه (وفى دراستك لهذه التصورات بوصفها جزءاً من العالم الطبيعى كذلك) من الزاوية التى توفرها لنا مثل هذه التصورات، والأمر ليس كذلك بالتأكيد، فربما يكون هناك دراسات علمية لبعض مظاهر ماهية الناس وما يفعلونه، لكنها لن تستخدم الفكرتين البديهييتين "بشر" أو "كلمة للغة" فى صياغتها لمبادئ التفسيرية — بما لهما من دور خاص فى حياة البشر وفكرهم.

والشئ نفسه صحيح عن التصورات البديهية عموماً. فلا تلائم بعض الأفكار كـ "مكتب" أو "كتاب" أو "بيت"، ماهيك عن معنى الأفكار الأكثر "تجريباً"، البحث العلمى الطبيعى؛ ذلك أن وصف شئ ما وصفاً ملائماً بأنه "مكتب"، بدلاً من كونه "طاولة" أو "سريراً صلباً"، يعتمد على قصد مصممه وعلى الطرق التى "نقصد"، نحن والآخرين، أن نستعمله بها، من بين عوامل أخرى. فالكتب أشياء مادية. ويمكن أن نحيل إليها على أنها كذلك بجمال مثل:

The book weighs five bounds.

"يزن الكتاب خمسة أرطال".

أو نتكلم عنه من منظور تجريدي:

Who wrote the book?

"من ألف الكتاب؟"

و:

He wrote the book in his head, but then forgot about it.

"ألف الكتاب في ذهنه، لكنه نحلّى عنه."

أو من المنظورين كليهما في وقت واحد:

The book he wrote weighed five bounds.

"يُزن الكتاب الذي ألفه خمسة أرطال."

و:

the book he is writing will weigh at least five pounds if it is ever published.

"سوف يزن الكتاب الذي يؤلفه الآن خمسة أرطال في الأقل إن سُهر."

وإذا قلت:

That deck of cards, which is missing a Queen, is too worn to use.

"تلك المجموعة من ورق اللعب، التي فُتّت منها 'الملكة'، بالية جداً حتى إنها لا تصلح للاستعمال."

فستؤخذ هذه المجموعة في أن واحد على أنها مجموعة معيبة وأنها "شيء مادي" غريب مشنّت، ومن المؤكد أنها ليست مجموع أعدادها. ونُستعمل الكلمة house "بيت" في الإحالة إلى أشياء محسوسة، انطلاقاً من منظور الاهتمامات البشرية والأهداف الخاصة مع بعض الخصائص اللافتة للنظر. ويمكن أن يُدمّر "بيت" ويُننى، شأنه شأن مدينة؛ فيمكن أن تُدمّر مدينة نسر تكميراً كاملاً ثم يُعاد بناؤها على ضفة نهر التيمز بعد ألف سنة لكنها

مستطَل هي لندن، تحت ظروف معينة. ومن الصعب أن يتخيل كيف يمكن لهذه الأمثلة أن تكون تصورات ملائمة للدراسة النظرية للأشياء والأحداث والعمليات في العالم الطبيعي. ولا خلاف على أن الأمر نفسه صحيح عن أفكار مثل "مادة" و"حركة" و"طاقة" و"عمل" و"سائل"، وغيرها من الأفكار التديهيّة التي يتحلّى بها حين يقام بالبحث العلمي الطبيعي؛ فحين يسأل عالم فيزياء إن كان "كوكب" من الرمل جمادًا، أو سائلًا، أو غازًا — أو نوعًا آخر من المادة — فهو لا يَضِيع وقته في السؤال عن كيفية استخدام هذه الكلمات في الخطاب العادي، ولن يتوقع أن تكون للإجابة عن السؤال الأخير علاقة بالأنواع الطبيعية، بل كانت هذه أنواعًا في الطبيعة (Jaeger and Nagel 1992).

ولا يعدو المعقول أن نتوقع أن هذا الأمر سيكون صحيحًا عن أفكار مثل "اعتد" و"رغبة" و"معنى" و"صوت" للكلمات، و"قصد"، إلخ، بقدر ما تكون مظاهر الفكر والفعل للبشريين صالحة لتكون موضوعًا للبحث العلمي الطبيعي. ويبدو أن كون المرء يقول بواقعية القصد 'Intentional Realist' يكاد يسوي في معقوليته كونه يقول بواقعية المكتب، أو يقول بواقعية صوت اللغة، أو يقول بواقعية القطعة، أو يقول بواقعية المادة؛ ليس لأنه لا توجد أشياء مثل "مكتب"، إلخ، بل لأن الأشياء، في المجال الذي تثار فيه أسئلة "الواقعية" بشكل جذي، أي في سياق البحث عن قوانين الطبيعة، لا تتصور اعتمادًا على المسطورات الغربية التي توفرها تصورات التديهيّة. ومن لأراه الشئعة جدًا أنه يجب أن يتحلّى الكلام ذو السرعة الذهنية والوحدات الذهنية عن مكانها في نهاية الأمر في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره (Burge 1992). وهذا صحيح إلى حد بعيد، لكنه يصعب أن نرى كيف يكون هذا الموقف مهمًا، إذ لا خلاف على أن الشيء نفسه صحيح عن "النقاش العبريائي" والوحدات العبريائية (يقدر ما يكون التمييز بين "ذهني" و"عبريائي" مفهومًا).

بل إن بعض الأفكار المعقدة كـ "لفاعلية البشرية" human agency لسجل بشكل جوهري حتى في أكثر الأفكار لوائية كـ "الشيء القابل للتسمية".

ذلك أن ما ننظر إليه على أنه "شيء"، والكيفية التي نحيل بها إليها وكيفية وصفها لها، وأنواع الخصائص التي نسيغها عليها، تعتمد كلها على الموقع الذي تحتله في مصوفاً للفعل النحوي والاهتمامات والمقاصد البشرية في ضوء معايير تقع بعيداً وراء المدى المحتمل للبحث العلمي الطبيعي. كما يمكن لكلمات اللغة أن تُعين مواضع معينة في أنظمة الاعتقاد، وهو ما يُسمى مريدًا من المعنى على المنظورات التي توفرها هذه الكلمات من أجل النظر إلى العالم، وإن بطرق لا تلائم أهداف البحث العلمي الطبيعي. وربما لا يمكن لبعض الكلمات — خاصة ما يفتقر منها إلى "البنية العلائقية الداخلية" internal relational structure (ومن أبرزها ما يُطلق عليه: "مصطلحات الأنواع الطبيعية") — أن تفعل أكثر من ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بمعجم اللغة الطبيعية. (انظر، من بين آخرين، Chomsky + Moravcsik 1975 + 1975b + 1990 + Bromberger 1992a). وأعني بـ "البنية العلائقية الداخلية" الخصائص الانتقائية selectional properties لكلمات مثل "أعطى" (التي تأخذ فاعلاً مفعلاً، ومفعولاً محورياً theme ومفعولاً غير مباشر هتفاً)، وهي خصائص لا تتوفر في كلمات مثل "قطعة" و"سائل"، وغيرهما، فلا تبلغ تصورات اللغة الطبيعية — والتصورات البديهية عموماً — حتى أن تكون موضوعاً مرشحاً للنظريات العلمية الطبيعية.

ويوسّع بنجامن نتانج لتشمّل دعوى برينتانو Brentano التي مفادها أن "القصدية لا يمكن اختزالها وإن تحققت" (1)، فيقول: إنه ليس هناك حصيدة يمكن وصفها علمياً تشترك فيها الحالات كلها لأية ظاهرة قصدية معينة (كالتمكير في القطة، مثلاً) (Putnam 1988a). ذلك أن الظواهر القصدية، على وجه أعم، تتعلق بالناس وبما يفعلونه حين يُنظر إليها من زاوية الاهتمامات البشرية والتفكير العفوي، لهذا لن تقع (إذا نظر إليها هكذا) ضمن النظرية العلمية الطبيعية التي تسعى إلى تتحية مثل هذه العوامل جانباً. ويمكن أن ترتبط 'إحدى الظواهر القصدية المحددة' بمنطقة المطابقة في

قصاء معقد جدًا ومتحول للفنور والاهتمامات البشرية، شأنها شأن الأجساد التي تهوى إلى أسفل أو السماء أو السواقل. لكنها ليست تصورات ملائمة للبحث العلمي الطبيعي.

ويمكن أن يفترض أن إحدى مكونات الذهب (سمها ملكة صياغة العلم، إن شئنا الجهل بنق) تدخل في البحث العلمي الطبيعي، بالطريقة نفسها تقريباً التي تدخل بها الملكة الغوية (التي نعرف عنها قدرًا لا بأس به) هي اكتساب اللغة واستخدامها. وما تنتجه ملكة صياغة العلم شذرات من الفهم انطوري، أي نظريات علمية طبيعية على درجات متفاوتة من القوة والمعولية تتضمن بعض التصورات التي تصاغ وينسج عليها معنى بطريقة مضبطة ومحددة، قدر الإمكان، مع لنية في صقلها أو، إن تعذر ذلك، تعديلها كلما حققنا مزيداً من الفهم. وتنتج ملكات الذهب الأخرى تصورات الفهم البديهي، وهي التي تدخل في دلالة اللغة الطبيعية وأنظمة الاعتقاد. وتتمو [هذه الملكات] في الذهب بشكل لا يبعد كثيراً عن الطريقة التي يسمو بها الحبر كي يصير شحفاً، أما السؤال عن درجة الدقة التي تكون عليها هذه الفوارق [بين الملكات] فربما كان سؤالاً مفتوحاً، لكنها تبدو واقعية، مع ذلك.

وهناك تشابه أحياناً بين التصورات التي تنشأ بهذه الطرق المختلفة؛ إذ ربما أمكن للبحث العلمي الطبيعي أن يصوغ نظيراً للفكرة البديهية "بشر"، مثلاً يشبه الرمز الكيميائي  $H_2O$  تقريباً "ماء" (وإن كانت "أرض" و"هواء" و"نار"، التي كانت تصنف مع الماء عند القدماء، ليس لها مثل هذه النظائر). ومن المعلوم أنه لا يترتب على أي تشابه مع الأفكار البديهية أية مقتضيات للعلم، فليس مطلوباً من الكيمياء الأحيائية، مثلاً، أن تحدد النقطة التي يجد عندها "جوهر الحياة" essence of life، في سلم الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا؛ أما إن فرض مثل هذا التصنيف عليها فلن يكون التشابه بينها وبين فكرة بديهية ما أكثر من التشابه في حالة أشياء كـ "جوار" (المكنى)، أو "طاقة"، أو "سمك".

ولا يُعنى البحثُ في نفسية الأحياء العضوية وبنيتها الأحيائية، كذلك،  
 يتناول بعض الأفكار للنقدية في الخطابات الفلسفي، كمفهوم "المصمور  
 الإدراكي"، بخصائصه المفترضة (ويعرَى أحياناً بشكل مشكوك فيه إلى "علم  
 النفس الشعبي"، وهو مصطلح يبدو أنه مشتق جريئاً من الأعصراف الثقافية  
 الصبغة وتقاليد الخطاب الأكاديمي). ولا يلزم هذين النوعين من البحث،  
 كذلك، أن يُحددا وصفاً خاصاً للإدراك الحقيقي "veridical perception" تحت  
 الشروط "العادية". لهذا فليس من المهم، في دراسة تحديد البنية من خلال  
 الحركة، أن كل الحدث الخارجي الذي أنتج التجربة البصرية لمكعب يتأرجع  
 في الفضاء حزمة من الأشعة الواضحة المتتالية تسقط على شاشة عرض  
 tachistoscope، أو مكعباً فعلياً يتأرجح، أو حفزاً للشبكة البصرية، أو  
 للعصب البصري، أو للفترة المحيطة البصرية. فتعنى الدراسة الحوسبية،  
 في أية حال، بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستخدمها نظام الإبصار  
 والعمليات التي تتفق بها" (Ullman 1979: 3)، كما تفعل تلك دراسة  
 الحوارزميات والأليات في هذا البحث وغيره بالطرق التي رآها ديفيد مار  
 (David Marr, 1982). وليس مهماً كذلك أن كان الناس يقبلون حالات الرؤية  
 غير الحقيقية على أنها "رؤية مكعب" (إذا أخذنا كلمة "رؤية" لتعني المرور  
 بتجربة، سواء أكانت "وهمية" أم حقيقية)؛ لو أن عُنى البحث باهتمامات  
 النظرية العلمية الخاصة بالعرزو القصدي أم لا. ولن يكون "علم النفس" الذي  
 يشغل بالاهتمامات الأخيرة معيلاً بدراسة الحالات الفردية، كما يجادل مارتن  
 ديفز (Martin Davies 1991)، لكنه ربما يفارق البحث العلمي الطبيعي فيما  
 يحصر طبيعة الكائنات العضوية كذلك، وربما يفارق علم النفس الشعبي بشكله  
 المعروف<sup>(١)</sup>. وإذا أخذنا مثالاً نموذجياً آخر، انطلاقاً من التسليم (غير المعقول  
 إلى حد بعيد) بأن المقاربة العلمية للطبيعية للخبرة، مثلاً، ممكنة، سيجد أنه  
 ربما لا يكون محتملاً أن تميز هذه المقاربة بين الحالات التي تدخل فيها  
 أشياء حقيقية أو متخيلة. وإذا نظرنا إلى "علم المعرفة" على أنه علم يعنى  
 بالعرزو القصدي فربما يكون اهتماماً لاقتا للنظر (كما هي حال الأدب)، لكنه  
 ربما لن يوفر لنا نظرية تفسيرية يمكن دمجها بالعلوم الطبيعية.

ويبدو مسار البحث العلمي الطبيعي، مع التقدم في الفهم وتحديد  
التصورات تحديدًا صارمًا، نحو اقتراح نظريات تخلص فيها الكلمات من  
شعاب المصئلة للفهم البدهي، ثم تقام الصلة بينها وبين بعض الوجدات  
المعترضة، يعين لها مكان في مصفوفة من المبادئ، كالأعداد الحقيقية،  
والأكثر، إلخ. ومعارفها للغة الطبيعية من جهتين: فتحرر هذه الكلمات  
المصطنعة من الخصائص المتشبكة للتعبيرات اللغوية الطبيعية؛ وتعطي  
خصائص دلالية ربما لا تصبح في اللغة الطبيعية، كـ"الإحالة" (ويبدو أن  
بذر مما سماه سترلوسون مرة بـ "حرافة اسم العلم المنطقي"، في اللغة  
الطبيعية، والخرافات ذات الصلة به التي تعني بإشارات التوافق والصمان؛  
(P. Strawson, 1952: 216). وتتزايد المفارقة، مع التقدم في هذه المقاربة؛  
وتتزايد معها المفارقة بين الطرق التي نفهم بها ذرة الهابيدروجين، من جهة،  
و"بشر" (و"مكتب" و"سانل"، و"السماعات"، و"يقع"، و"بُرد"، و"لندن"، و"هذا"،  
إلخ)، من جهة أخرى.

لكن لا نستطيع، وإن بوجه مقوى من دعوى بنام الأولى، أن ننقل  
إلى -عواء الثانية، وبشكل أعم، أن نستنتج أنه لا صلة للنظريات العلمية  
الطبيعية عن الدماغ بفهم ما يفعله الناس. فالناس يرون، تحت شروط معينة،  
العروض على شاشة لوحة tachistoscopic إما مكعبًا يتأرجح أو شعاعًا من  
الصوء يتحرك في خط مستقيم. وربما أمكن لدراسة القشرة البصرية للدماغ  
أن تُعينا على فهم سبب حدوث هذا، أو لماذا يسير الإدراك بالكيفية التي  
يعمل بها في الظروف العادية. كما يمكن للأبحاث المماثلة أن تقول أشياء  
كثيرة عن "تكلم للغة" والنشاطات البشرية الأخرى.

انظر الآن إلى المثال الذي أوردته بننام: أي اكتشاف أن التفكير في cats  
"تقطيع" يثير الصوت C. فمن المؤكد أنه ربما يكون هذا الاكتشاف ذا صلة  
ببحث فيما يعنيه بيتر (أو يحيل إليه، أو يفكر به) حين يستعمل كلمة cat.  
ومن هنا، ببعض "النقاش عن معنى كلمة cat". هذا كان هناك نقاش، مثلاً -



كان يتنام طرفاً فيه — عن الخصائص الإحالية لـ cat إن اكتُشف أن cats "المطط" أجهزة آلية يتحكم بها من المريخ. قرص أنه بعد أن صار بيتر يعتقد هذا، أخذ دماغه يكون، أو لا يكون، الصوت C حين يُحيل إلى cats (أو يفكر بها، إلخ). وربما يكون لهذا صلة بالحوار. أو، إذا أخذنا مثلاً واقعياً: أن الأبحاث التي أُجريت مؤخراً عن النشاط الكهربائي للدماغ ("الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" event-related potentials) تكشف عن استجابات متميزة للتعبيرات اللغوية الصحيحة والمخالفة، ومن الأخيرة، محالقات:

- ١- التوقعات عن معنى الكلمة؛
- ٢- قواعد البنية المركبية؛
- ٣- قدرة تحديد الإحالة بعد "استخراج الروابط" operators' extraction
- ٤- قيود المطلوبة على النقل (Neville et al. 1991).

ومن المؤكد أنه ربما يكون لهذه النتائج صلة بدراسة استخدام اللغة، وبدراسة المعنى خاصة.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، فنربط أنماط النشاط الكهربائي للدماغ بأنصاف البنية الخمسة التي أشرنا إليها، أي: البنية القياسية، وأنواع المسألة الأربعة. لكن دراسة هذه الأنصاف دراسة للدماغ كذلك، فهي دراسة لحالاته وخصائصه، مثلما أن دراسة الخوارزميات التي تدخل في رؤية خط مستقيم أو القيام بعملية طرح حسابية طويلة دراسة للدماغ. ويمكن أن يُدرس الدماغ، شأنه شأن الأنظمة المعقدة الأخرى، في مستويات متعددة، كالنرات، والحلأ، ومجموعات الخلايا، والشبكات العصبية، والأنظمة التمثيلية الحوسبية، إلخ. وتصل دراسة "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" بين مستويين من هذه المستويات: أي بين النشاط الكهربائي للدماغ والأنظمة التمثيلية الحوسبية. ودراسة أي من المستويين دراسة علمية طبيعية من حيث طبيعة البحث ومن حيث أن توحيدها مع العلوم الطبيعية الصّرف مَطْمَحٌ

يمكن السعي إليه بشكل معقول. وتتماثل الاكتشافات عن الدماغ في مثل هذه المستويات، في سياق صائفة بنام، مع التكوّن (المتخيل) للصوت C، حين يفكر بينر في cats.

وتتمتع نظريات التمثيلات الحوسبية، في حال اللغة، بقدر أعلى من التأييد الاحتمالي يفوق أي شيء متوفر في المستويات الأخرى، وهي أكثر نفوقاً من حيث القوة التفسيرية؛ وتقع ضمن العلوم الطبيعية إلى حد لا يُلغىه دراسة "تكلّم اللغة" في المستويات الأخرى. بل إن الأهمية للراية لدراسات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" تقع في المقام الأول في التلزم بينها وبين نظريات التمثيلات الحوسبية التي تقوم على أسس أكثر غنى وصلابة. وتنبؤاً الأصناف الخمسة مكاناً في إطار نظريات التمثيلات الحوسبية، وتتمتع تبعاً لذلك بمدى واسع من التأييد الاحتمالي غير المباشر؛ أما حين تكون ملحوظات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" معرولة عن نظريات التمثيلات الحوسبية فلا تريد عن كونها مجموعة من الغرائب وحسب، وتنفّر إلى مصوغة نظرية. وبالمثل، سيكون اكتشاف أن الصوت C يرتبط باستخدام cat، حين يكون حقيقة معرولة، مجرد اكتشاف عن C بدلاً من كونه اكتشافاً عن معنى cat — ولهذا السبب وحده لن يُلقي [هذا الاكتشاف] إلا صوماً باهتاً على الخلاف بشأن الأجهزة الآلية المتحكم بها من المريخ. وإذا أخذنا حالة أخرى، فلا يعدو اكتشاف الإزاحة الإدراكية لـ "القطقات" checks إلى حدود المركبات، في الوقت الحاضر، أن يكون اكتشاف عن صحة التجربة أكثر من كونه اكتشافاً عن حدود المركبات. والسبب أن أنواعاً أخرى من الأدلة عن حدود العبارات — التي تسمى أحياناً أدلة "لعوية" لا "تفسيرية" (وهو مصطلح مضلل جداً) — أكثر إقناعاً بكثير ومدمجة في بنية تفسيرية أكثر غنى. وإذا وُجد أنه من الممكن الاعتماد بشكل مُرضٍ على تجارب القطقات في تعيين الوحدات التي تُفرض في نظريات التمثيلات الحوسبية، وإذا ما عُمّقت أطرها النظرية، ربما يمكن الاعتماد

عليها في حالات لا تكون فيها "الأداة اللغوية" حاسمة؛ بل ربما يكون ذلك شكل أكبر، مع التقدم في البحث. (انظر، بشأن بعض حالات سوء الفهم لهذه القضايا، الفصل الثالث في هذا الكتاب، و Chomsky 1991a; 1991b).

ونظريات التمثيلات الحوسبية أفضل النظريات العلمية الطبيعية للغة واستخدامها تأسيسيًا، في الوقت الراهن. ونحن نهتصم، بناءً على الاعتقاد الأساسي، أن هناك نوعًا من الوصف في ضوء الذرات والجزيئات، وإن كان لا يتوقع أن يكون من اليسير تبين مبادئ اللغة العاملة وبنى اللغة والتفكير في هذه المستويات. كما نميل، بقبولة أعلى من اليقين، إلى افتراض أن هناك تفسيرًا في ضوء المصطلحات العصبية (بدلاً منه في ضوء الخلايا أو الأوعية الدموية glial and vascular، مثلاً، مع أن فحص الدماغ يكشف عن أن هناك خلايا وأوعية دموية glial cells إلى جانب العصبونات)<sup>(٣)</sup>. وربما يوحي هذا بأن العناصر والمبادئ ذات الصلة في بنية الدماغ لم تكتشف بعد، وربما ستوفر نظريات التمثيلات الحوسبية بعض الإرشادات للبحث في مثل هذه الآليات بشكل لا يعد عسيرًا وفرضه الكيمياء في القرن التاسع عشر من شروط اختبارية حاسمة للمراجعة التجريبية للفرضيات الأساسية. ويصعب الشعار المؤلف: "إن الذهني هو العنصر العصبي" في مستوى أعلى" - حيث تجمع نظريات التمثيلات الحوسبية في "الذهني" - الأمور بشكل معكوس؛ إذ يجب أن تعاد صياغة هذا الشعار، ليصير افتراضًا يقضي باحتمال أن يُكتشف أن العنصر العصبي "ذهني" في مستوى أدنى" - أي الافتراض بأنه ربما نجد، في المستقبل، أن لعلم وظائف الأعصاب بعضًا من الاهتمام بـ "الطواهر الذهنية" التي تدرسها نظريات التمثيلات الحوسبية. أما فيما يخص المصاعب الأخرى لسد الإقصائية المادية<sup>(٤)</sup>، فيظل هذا الموقف لعمري حتى يُقدم تحليل لطبيعة "المادي"؛ وإذا ما قُدم ذلك التحليل، فيجب أن تقدم بعض الأسباب التي توجب الاحتفاء أو الاهتمام بما نقوله إن كانت النظريات الناجحة تقع وراء حدودها المفروضة.

ونُفِثَ مقارباتُ التمثيلات الحوسبية، وفي الوقت الراهن، أُفصل  
 التفسيرات العلمية الطبيعية وأكثرها على المظاهر الأساسية لاستخدام  
 النوع هناك بصور أعمق، في هذه النظريات، شبيهة بالفكرة البديهية  
 "لغة"، وهو: "الإجراء التوليدي" الذي يكوّن "الأوصاف البنيوية"  
 (SDs) Structural Descriptions، حيث يكون كل منها مجموعاً معقداً من  
 الخصائص الصوتية والدلالية والبنيوية. دعنا نسمّ هذا الإجراء بـ "اللغة -  
 د" I-language، وهو مصطلح احتراي لتبين أن هذا الإجراء "داخلي"،  
 و"فردى"، و"مفهومى"<sup>(١٠)</sup> (ليكون من المحتمل أن تولّد "اللغات - د" I-  
 languages المتمايزة، من حيث المبدأ، المجموعة نفسها من الأوصاف  
 البنيوية، مع أن من المحتمل أن يترك خصائص الملكة اللغوية النظرية  
 المقيدة بقيّد صارماً هذه الخصيصة من غير تحقق). ويمكن أن ينظر إلى  
 التعبيرات اللغوية في "لغة - د" ما على أنها الأوصاف البنيوية التي ولّدتها  
 [هذه اللغة - د]. فالتعبير اللغوي، إذن، مجموع معقد من الخصائص  
 الصوتية والدلالية، وخصائص أخرى. ويشبه امتلاك "لغة - د" امتلاك  
 طريقة للتكلم والفهم، وهذه إحدى الصور التقليدية للغة. وهناك ما يدعو  
 للاعتقاد بأن "اللغات - د" (أي "المعرفة النحوية") متميزة عن التنظيم  
 التصوري و"المعرفة الذريعية"، وأنه يمكن أن تتعطل أية واحدة من الثلاث  
 بشكل منفرد وأن تنفصل في أثناء فترة النمو (انظر: Yamada 1990, John  
 Marshall 1990).

وتُعبّر "اللغة - د" أشكال بعض العناصر المعجمية مثل: "مكتب"،  
 و"عمل"، و"يقع"، ومعانيها، بقدر ما تكون هذه العناصر محدّدة بالملكة اللغوية  
 نفسها، وبحسب المثل، أن تُعبّر [اللغة - د] خصائص تعبيرات أكثر تعقيداً،  
 نحو: أن الحملة:

John rudely departed.

"غادر جون بصفاء".

تعني إما أنه غادر بطريقة صالحة أو أنه كان صالفاً منه أن يعادر،  
 وأنه، في الحالتين كليهما، غادر (الآنك ربما يحسن اقتراح "دلالة الحدث"  
 event semantics لتكون إحدى مستويات التمثيل لكي يمكن التعامل مع حقائق  
 كهذه، انظر Higginbotham 1985; 1989). كما ينبغي أن تُفسر [اللغة - د]  
 أن الفاعل المفهوم [المستتر] للفعل expect "يتوقع" في (١) يعتمد على هل X  
 "م" صبر أم أنه Bill، مع ما يصحب ذلك من أنواع أخرى من المقصديات  
 الدلالية:

1- John is too clever to expect anyone to talk to X

"جون أنكى من أن يتوقع أن أحداً يتكلم مع 'م'".

وإن كلمة ladder "سلم"، في لهجتي، تسجّع مع matter "أمر" أما  
 madder "أكثر جنونا" فلا. وهناك بعض التفسيرات غير النافذة الممكنة لكثير  
 من هذه الحالات. وتلقى أنظمة التمثيلات الحوسبية قدراً غير قليل من الضوء  
 على كيفية التي يعبر بها الناس عن أفكارهم ويؤوّلون بها ما يسمعون، مع  
 أنها لا تقل - ولا تزيد، بالطبع، في كونها دراسة لهذه الأحداث عن كون  
 دراسة العمليات العصبية والنفسية للإبصار دراسات للبشر وهم يرون  
 الأشياء.

وميسعى البحث الأكثر عمقا للغات - د" إلى تفسير حقيقة أن بيتر  
 يمتلك "اللغة - د": "ب" [لغة بيتر] أما خوان ف يمتلك "اللغة - د": "لخ" [لغة  
 خوان] - وهذان حكمان تجريديان إلى حد بعيد جداً، ذلك أن أهمية ما في  
 رأسي بيتر وخوان للبحث العلمي الطبيعي لا تزيد، حقيقة، عن أهمية مسار  
 ريشة في يوم عاصف، ومن هنا يجب أن يتمثل التفسير الأساس للمثل هذه  
 الحقائق في خصائص الملكة اللغوية للدماغ. فتمثل الحالة الأولى للغة  
 المحددة أحياناً عند بيتر وخوان وغيرهما من البشر، إلى حد بعيد. ولا تسمح  
 إلا لنوع محدد من "اللغات - د" أن يتطور تحت تأثير التجربة الفادح  
 للمشكل. ويمكن أن نفترض بقدر من المعقولة، في ضوء فهمنا الراهن، أن

الحالة الأولى تحدد النظام الحوسبي للغة بشكل فريد، بالإضافة إلى تحديد مدى الاحتمالات المعجمية محددًا تحديدًا بنويًا دقيقًا وبعض الخيارات من "العناصر النحوية" الوظيفية التي لا معنى لها في ذاتها. أما وراء هذه الاحتمالات، فربما يمكن اختزال تنوع "اللغات - د" إلى خصيصة الاعتباطية التي اقترحها دي سوسور (أي الارتباط بين التصورات والتمثيلات المجردة للصوت) وإلى بعض أجزاء النظام الصوتي التي يمكن نقلها إليها، وهو ما يعنى "إمكان تعلمها" (إن استعملنا مصطلحًا ذا إيحاءات دلالية مضملة). ويمكن للاختلافات الضئيلة في نظام معقد، بالطبع، أن تؤدي إلى اختلافات طواهرية ضخمة، لكن ربما لا نجد عالم مريض واع يدرس البشر المختلف بين الإنجليزية ولغة النفاهو [لدى لغات الأمريكيين الأصليين] لاقًا للنظر.

و"اللغة - د" خصيصة للدماغ (حين توصف وصفًا دقيقًا محددًا)، وهي عنصر قار نسبيًا للحالات المتحركة للملكة اللغوية. ويتضمن أي تعبير لغوي (أي كل "وصف بنوي") مما تولده "اللغة - د" تعليمات لأنظمة الأداء التي تسمح "اللغة - د" فيها، ولا تتأهل حالة الدماغ هذه لتكون لغة إلا بسبب اندماجها في أنظمة الأداء هذه، فربما تملك بعض الكائنات العضوية، من حيث المبدأ، "اللغة - د" نفسها (أي حالة الدماغ) التي لدى البشر، لكنها مُنمجة في أنظمة أداء تستعملها [أي اللغة - د] من أجل الحركة. فما ندرسه، إذن، موضوع حقيقي، أي الملكة اللغوية للدماغ، يتخذ صورة لغة - د كاملة ومُدمجة في أنظمة أداء تؤدي دورًا في النطق والتلويل والتعبير عن الاعتقادات والرغبات والإحالة ومرد الحكايات، إلخ. فموضوع البحث، لهذه الأسباب، هو دراسة اللغة البشرية.

ويبدو أن أنظمة الأداء تتبع نمطين علميين: الأول يُطلق - إدراكى؛ والثاني تصوّري - قصدي<sup>(٢)</sup>. وإذا كان الأمر كذلك فمن المعقول افتراض أن للتعبير المولد يشتمل على "مستويين وظيفيين"، يوفر أحدهما معلومات وتعليمات للأنظمة النطقية - الإدراكية، ويوفر الآخر معلومات وتعليمات

للأنظمة التصورية - القصدية. ويُفترض عموماً أن أحد المستويين الوجيهين هو التمثيل الصوتي: أي: "الصورة الصوتية" (ص ص). أما طبيعة المستوى الثاني فموضوع لحلاف أكبر؛ وانسمه بـ "الصورة المنطقية" (ص م).

وحصائص هذه الأنظمة، أو وجودها، من أمور الحقائق الاختبارية. ويجب ألا يُصلَّل أحدٌ بالإحاعات غير المقصودة لمصطلحي "صورة منطقية" و"تمثيل" اللذين اجتلبا من الاستخدام الاصطلاحي في أنواع أخرى مختلفة من البحث. وبالمثل، فمع أن هناك ما يوحي بفكرتي "النحو العميق" و"النحو السطحي" في التحليل الفلسفي، إلا أن هذه التصورات لا تتماثل تماماً. فما يُعدُّ "سطحياً" من وجهة نظر "اللغة - د"، إن كان هناك شيء من ذلك، ليس إلا "الصورة الصوتية"، على أبعد تقدير، أي المستوى الوجيه مع الأنظمة المنطقية والإدراكية. وكل شيء غير ذلك "عميق". ولا يتمتع النحو السطحي في التحليل الفلسفي بوضع خاص في الدراسة الاختبارية للغة؛ فهو أشبه ما يكون بالأحكام الظواهرية، ويكتسب عن طريق التعليم وتقرضه السلطات التقليدية والمواضع، والوسائل الثقافية، إلخ. وتبرز أسئلة مماثلة عما يسمى، بصورة عامة جداً، بـ "علم النص الشعبي"، كما لشرنا من قبل. لهذا يجب أن يُنظر إلى مثل هذه الأفكار بحذر؛ ذلك أنه من الممكن أن تختفي أشياء كثيرة وراء الموضوع الظواهرى للحلاف.

ويدخل المجموع المعقد المؤلف من "اللغة - د" والأنظمة الأداء في الفعل البشري. وهو موضوع صالح للنظريات العلمية الطبيعية التي يمكن أن تأخذاً إلى موقع متقدم جداً نحو فهم الكيفية التي يفعل الناس بها ما يعطونه ولماذا، مع أنها تُقصر دائماً عن أن تكون تفسيراً كاملاً، وهو ما يُشبه تماماً احتمال إحقاق النظريات العلمية الطبيعية التي تدرس الجسد في أن تفسر تفسيراً كاملاً الأحداث أو الإنجازات البشرية مثل رؤية شجرة أو المشي.

لذلك ربما يكون مضللاً، أو أسوأ من ذلك، أن نقول في جزءاً معيهاً من

السماع أو نموذجًا مجردًا له (بحو: شبكة عصبية أو حاسوب مبرمج) يرى شجرة أو يستنتج الجذور التربيعية. ذلك أن الناس ينطقون الكلمات تحت عدد من الظروف النموذجية غير الواضحة أو يحيلون إلى القطط أو يعبرون عن أفكارهم أو يفهمون ما يقوله الآخرون أو يلعبون الشطرنج، إلخ؛ لما أدمعهم فلا تقوم بشيء من ذلك ولا تفعل ذلك البرامج الحاسوبية - مع أنه يمكن لدراسة الأدمعة، التي ربما تستعين بنمذجة مجردة لبعض خصائصها، أن توفر لنا فهمًا أكثر عمقًا لما يفعله الناس في مثل هذه الحالات. فيمكن أن يُقَمَّ حوارهم بصاع في ضوء نظرية التمثيلات الحوسبية تفسيرًا صحيحًا لما يحدث في دماغ بيتر وهو يرى خطأ مستقيمًا أو حين ينفذ عملية طرح حسابية طويلة أو يفهم اللغة الصينية<sup>(١٢)</sup>، ويمكن لهذا الحوار أن يدمج دمجًا خالصًا في نظرية تقوم على أسس قوية في مستوى آخر من التفسير (كمستوى "الحلية"، مثلاً). أما الحوار، أو الآلة التي تنفذه، فربما لا يُفقدان هذه الأحداث، مع أنه يمكن لنا أن نقرر تعديل الاستخدامات اللغوية، كما هي قولنا إن الطائرات تطير والعواصم تبجر (لكنها لا تسبح). وليس لشيء من هذا أهمية. ومثل ذلك أنه مع أن الناس ربما ينفذون الحدث لأن أدمعهم تنفذ الخوارزم، فإن هؤلاء أنفسهم ربما لا ينفذون الحدث إن كانوا ينفذون التعليمات بصورة آلية، بطريقة تشبه عمل الآلة (أو عمل أدمعهم). فربما أرى خطأ مستقيمًا (أو أقوم بعملية طرح حسابية طويلة، أو أفهم اللغة الإنجليزية، إلخ) لأن دماغي ينفذ خوارزماً معيناً؛ لكن إن كنت، أنا الشخص، أنفذ التعليمات بصورة آلية، مُحَوَّلًا تمثيلاً رمزياً معيناً للنخل إلى تمثيل معين للخرج، فإني لا أرى، ولا يرى المجموع المكوّن مني والحوار والذاكرة الخارجية خطأ مستقيمًا (إلخ)، وذلك مرة أخرى، لأسباب غير مهمة<sup>(١٣)</sup>.

وسيكون من الخطأ كذلك، حين ننظر في طبيعة أنظمة الأداء، أن تنتقل سريعًا إلى "دراسة كل شيء" الفارغة. وكمثال على ذلك، انظر إلى مناقشة دويال ديفيدسون لـ"بيتر" بوصفه "مؤولاً" يحاول أن يخمن ما هي ذهن "توم"



حين يتكلم. ملاحظ ديفيدسون أن بيتر ربما يستخدم أية معلومات أو معلومات سابقة أو تخمين، أو غير ذلك، ليصوغ نظرية عابرة ثلاثم المقام؛ لهذا ينفك النظر في فكرة "المؤول" إلى نماذج كاملة للتنظيم الوظيفي للبشرى الكامل. ويسنتج ديفيدسون أنه لا حاجة لتصوير اللغة الذى يعمل كـ "آلة تأويلية" جاهزة تعمل على تحليل أى تعبير لاعتصار معناه؛ ويفقدنا هذا "لا إلى التحلى . . . عن المفهوم المؤلف للغة وحسب، بل إلى المعاء الحى بين معرفة لغة ما ومعرفة الطرق التى نتعامل بها مع الأشياء فى العالم عموماً". ولعدم وجود قواعد للوصول إلى نظريات عابرة، يجب علينا أن نتحلى عن فكرة وجود بنية مشتركة محددة تحديداً واضحاً يكتسبها مستعملو اللغة ثم يطبقونها على الحالات" (Davidson 1986b: 446). وتبدأ إحدى الدراسات التى أنجزت حديثاً عن فلسفة ديفيدسون بالقول إنه ليس هناك شىء يمكن أن يسمى لغة، وهو قول حظى بموافقة (Davidson: 1986b; Ramberg 1989).

والملاحظة الأولى عن النظريات العابرة صحيحة، لكن للنتائج التى انتهى إليها [ديفيدسون] لا تترتب على تلك الملاحظة. فأحد الأجوبة المعقولة عنها — إن كان معنا فهم البشر وما يفعلونه — أن نحاول عزل الأنظمة المتماسكة التى تقبل الخضوع للبحث العلمى الطبيعى، وتلك التى تتفاعل لتنتج مظاهر التعقيد كلها. وسيؤدى ذلك، إن اتبعنا هذا المسار، إلى أن نفترض وجود إجراء توليدى يعمل على "تحليل" التعبيرات اللغوية بما تتصف به من خصائص المستويات الوجيهية، وتبين أنظمة الأداء التى تنفذ إلى هذه التعليمات وتستخدم فى توليد أفكار المتكلم والتعبير عنها.

والآن ماذا عن فكرة البنية المشتركة المحددة تحديداً واضحاً ويكتسبها مستخدمو اللغة ويطبقونها من ثم على الحالات؟ أوجب هذا أن نقرص كذلك وجود "بنى مشتركة"، إضافة إلى اللغة — د' وأنظمة الأداء؟ وكثيراً ما يُجادل بأن بعض المفاهيم الشائعة كـ "الغة المشتركة" أو "المعاني المشتركة" ضرورية لتفسير إمكان التواصل أو إمكان وجود كنز الأفكار المشترك،

بمعناه عدد غوتليب فريجه (Frege 1892/1965: 71). لهذا، فإذا لم يمتلك بيتر ومارى لغة مشتركة، بـ "معان مشتركة" وإحالة مشتركة، فكيف يمكن لبيتر أن يفهم ما تقوله مارى؟ (ومن اللافت للنظر أنه لم يستخلص أحد النتيجة المماثلة عن "طريقة النطق المشتركة"). وتجرى إحدى الدراسات الحديثة أنه لا يمكن للسانيين أن يقولوا بـ "اللعنة - د" إلا بـ "إنكار أن الوظيفة الأساسية للغة الطبيعية أنها وسيلة للاتصال بين المتكلمين"، ويشمل ذلك مسألة "التواصل بين الفترات الزمنية في اكتساب لهجة فردية" (وهو ما يسمى بـ "التعلم التكرّجى"؛ (Fodor and Lepore 1992)<sup>(١)</sup>.

ولا تقوم وجهات النظر هذه على أسس قوية. فلا يلزم عن التواصل الداجح بين بيتر ومارى وجود معان مشتركة أو طرائق نطق مشتركة في لغة مشتركة معينة (أو كنز أفكار مشترك أو كفاءات مشتركة للتعبير عنها) إلا بقدر ما أنه يلزم عن التشابه في الشكل بين بيتر ومارى وجود شكل عام يشتركان فيه. أما فكرة أن "وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية أن تكون وسيلة للتواصل"، فليس من الواضح ما المعنى الذي يمكن أن يُسبغ على فكرة خالصة "الوظيفة الأساسية" في أى نظام أحيائي؛ وإذا أمكن التغلب على هذه المشكلة فربما نسأل عن سبب كون "التواصل" هو "الوظيفة الأساس" [لغة]؟. كما يبدو أن مشكلة الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى في لقاء اكتساب الطفل للغة ليست أكثر غموضاً من مشكلة كيف يمكن لبيتر أن يكون هو الشخص نفسه، إذا نظرنا إلى الأطوار التي مر بها؛ لذلك فليس الأمر أن منظور "اللعنة - د" وحده المنظور الملائم للتعامل مع المشكلة التي بين أيدينا، بل أنه يصعب أن نتخيل بديلاً متمسكاً له.

وربما يكون الأمر أن بيتر حين يستمع إلى مارى وهي تتكلم يتعامل مع هذا الحدث مفترضاً أنها تماثله، مع بعض الاختلافات التقريبية، وهو ما يوجب أن يُجرى بعض التعديلات. وهذه مهمة سهلة أحياناً، وصعبة في بعض الأحيان، ومستحيلة أحياناً أخرى. ويستعمل بيتر، لكي يتعامل مع هذه

الاختلافات، أية وسيلة تتوهر له، وإن كان معظم هذا العمل يحدث، من غير شك، بشكل آلي و عفو الخاطر<sup>(١٠)</sup>. وسيستخدم حين يكشف هذه الاختلافات وبشكل معادل أية وسيلة ليصوغ نظرية عابرة - بل حتى إن لم يكن هناك اختلافات. وبقدر نجاحه في هذه المهمات فإنه يفهم ما تقوله ماري على أنه هو ما يعنيه بتعبير المشابهة. فـ "النسبة المشتركة" (العقلية) الوحيدة بين البشر عموماً هي للحالة الأولى للملكة للوعي. أما وراء ذلك فلا يتوقع أن نجد أكثر من مقاربات، وهو ما يماثل ما نجده في حالة الأشياء الطبيعية الأخرى التي تنمو وتتطور.

ويقتم النقاش عن اللغة واستخدامها دائماً أنواعاً أخرى من النسبة المشتركة، كالجتماعات بلغاتها، واللغات المشتركة عبر ثقافة أوسع، إلخ. وهذه الممارسات نموذجية في النقاش اليومي العام كذلك. لهذا نقول إن بينر ونوم يتكلمان اللغة نفسها، لكن حول يتكلم لغة أخرى مختلفة. ونقول، بالمثل، إن بوسطن قريبة من نيويورك، لكنها ليست قريبة من لندن، أو إن بينر ونوم يتشابهان، لكن أيًا منهما لا يشبه جون. أو ربما نرفض هذه المزاعم كلها. وليس هناك اختيار بين الصواب والخطأ حين نجرّد من الاهتمامات التي ربما تنتزع بطرق لا حصر لها. ولا توجد كذلك أصناف طبيعية ولا تجريدات مثالية. ويتشابه تكلم اللغة نفسها، بهذه الاعتبارات، مع القرب المكاني أو التشابه في المظهر. والملاحظة المونجية في الدرس الأول لمادة اللسانيات في المستوى الأول من الدراسة الجامعية هي قول [اللساني الأمريكي المعاصر] ماكس فون براخ الساخر إن اللغة لهجة بحريش وسلاح بحرية [لهجة تتبناها دولة ونجعلها لغة رسمية لها]، و"اللهجات" معاهيم غير لغوية كذلك، ويمكن أن نتحدّد بأية طريقة، بناء على بعض الاهتمامات والأهداف المعينة. ويمكن لبعض العوامل كالحدود الطبيعية (مثل المحيطات والجبال) والتغايير الوطني، وغير ذلك، أن يؤسّس بعض الصور الحادثة في هذا الشأن، لكن أحياناً لم يصع إلى الآن مفهومًا للغة المشتركة بأية طريقة

مفيدة أو متماسكة، ولا يدعو المستقبل إلى التعلل كذلك، كما يبدو. ومن هنا غاية مقارنة لدراسة اللغة أو للمعنى تعتمد على مثل هذه المفاهيم مشكوك فيها إلى أبعاد الحدود.

الحرص مثلاً أن مفهوم "اتباع القاعدة" حُلَّ في ضوء الجماعات، أي: أن جوبز يتبع قاعدة ما إن كانت ممارستها تتطابق مع ممارسة الجماعة التي ينتمي إليها أو مع معاييرها. وإذا كانت "الجماعة" متجانسة فالإحالة إليها لا تفقد شيئاً (وتنثر مفاهيم: "المعيار"، و"الممارسة" و"العرف"، وغيرها أمثلة أخرى). أما إن كانت "الجماعة" غير متجانسة – بغض النظر عن العذر الكبير من عدم الوضوح في مفهوم "المعايير" (والممارسة، وغيرها) في هذه الحالة – فيبرر عندئذٍ من المشكلات. وإحداها أن التحليل المقترح غير صحيح وصفيًا. ذلك أنا نسيب في العادة اتباع القاعدة على الحالة لبيئة لعدم "التطابق" مع الممارسة الاتباعية أو المعايير المزعومة. لهذا ربما نقول إن جوبز، ذو الثلاث سنوات، يتبع القاعدة الخاصة به حين يقول *brang* بدلاً من *brought* [الصيغة المألوفة لخاصة الفعل *bring* "يُحضِرُ"]؛ أو أن والده يترتب "القاعدة الخطأ" ("يخالف القواعد") حين يستعمل *disinterested* ليعني *uninterested* "غير مهتم" (كما يفعل أكثر الناس). لكن اللسان وحده هو الذي يمكن أن يقول إن جوبز وبيتر يحترمان للشرط "ب" في نظرية الربط العاملي (Chomsky 1981a: 188)، وهو ما تفعله "الجماعة" عموماً (بل جماعة متكلمي اللغات كلها، على أكثر الاحتمالات). والاعتراض الأكثر خطراً أنه ليس لمفهوم "الجماعة" أو "اللغة المشتركة" من المعنى أكثر مما لمفهوم "المدينة القريبة" أو "التشابه في المظهر"، في غياب مريد من التحديد للاهتمامات، وهو ما يجعل للتحليل فارغاً<sup>(١١)</sup>.

ولا يوحى شيء في هذا الاقتراح، لأسباب مألوفة، بأي مشكل في الاستخدام العام، أكثر مما يوحى به الاستخدام العادي لتعبيرات مثل: *Boston is near New York* "يوسطن قريبة من نيويورك" أو *John is almost home*

تكاد جوں يصل إلى منزله". مغاية الأمر أننا لا نتوقع أن تحل هذه الأفكار في الخطاب النظري التفسيري. إذ ربما تكون ملائمة في مناقشة عامة لما يفعله الناس، بناءً على بعض الافتراضات الضمنية التي يقوم عليها النقاش العادي في ظروف معينة؛ أو حتى في النقاش التقني، حيث تكون التحديدات ذات الصلة معهومة صممت. فليس لهذه الأفكار منزلة أبعد من هذه في البحث العلمي الطبيعي، أو في أية محاولة للوصول إلى فهم أدق.

والعوامل الاجتماعية المزعومة في استخدام اللغة تأويل فردي طبيعي غالباً — أي، تأويل داخلي. فإذا كان بيتر يحاول إجادة اللغة الإيطالية التي يتعلمها، أو كان "جيانى" يتعلم لغته [الإيطالية] فيمكن أن نقول إنهما في طريقهما إلى التشابه (بطريقتين مختلفتين إلى حد بعيد) مع طيف واسع من الناس؛ مع تنوع طريقتيهما للاقتراب من النموذج واختيار لهما للفردية بشكل يتماشى مع اهتماماتنا، ولن يزداد فهمنا عمقاً بما يعكسه إن افترضنا أن هناك وحدة قارة بحلولان الوصول إليها، حتى إن استطعنا أن نضع على هذه الفكرة العامضة شيئاً من المعنى، فإذا لشكى "بيتر" من التهاب المفاصل في كعبه وفخذه، وأخبره طبيبه بأنه مخطئ في شكايته من كليهما، فيمكنه (أو لا يمكنه)، وبطرق مختلفة، أن يختار تعبير استخدامه اللغوي ليتوافق مع استخدام الطبيب. وبغض النظر عن التفاصيل الأكثر توسعاً، وهي التي ربما تتفاوت نفلوتاً واسعاً تبعاً لتغير الاحتمالات والاهتمامات، لا يبدو أننا فقدنا شيئاً نتيجة لهذا التفسير. ولا يتطلب الكلام العادي، كذلك، التساؤل عن إن كان شخصاً قد اكتسب تصوراً معيناً فكرة اللغة المشتركة. فلا يعدو القول بأن سرت لم يكتسب تصوراً "التهاب المفاصل" أو "الزكام" قولنا إن استخدامه [اللغوي] لا يتعامل تماماً مع استخدام الذين تلجأ إليهم ليعالجوا — وهذا وصعّ مألوف. فإذا حكى لى جارى "بيتر" عن التهاب المفاصل الذي يشكى منه، فيكون افتراضى الأول أنه يعانقنى في هذا الاستخدام. ومباحول إبحال بعض التعديلات من أجل تأويل استخدامه في ضوء ما تتطلبه الظروف؛ لكن

الإحالة إلى "لغة مشتركة" مفترضة ذات "مضمون حقيقي" لـ "النهاب المعاصل" لن تلقى مزيداً من الضوء على ما يحدث بيننا، حتى إن لم يكن بساع معنى واضح على الأفكار الضمنية المفترضة. وإذا كنت لا أعرف شيئاً عن أشجار الدردار والزاي يتجاوز كونهما نوعين من الأشجار الصحمة، ربما لا يمكن لشيء وراء هذه المعلومات أن يمثل في معجمي الذهني (وربما لا يكون حتى هذا، كما أثرتنا من قبل)؛ إذ ربما يكون الاختلاف المفهوم في الخصائص الإحالية ناتجاً عن وضع نصيح عن المعجم بصورة عامة؛ ربما يوحد غياب الدليل على وجود علاقة دلالية دليلاً على عدم وجودها<sup>(١٦)</sup>.

وتبقى بعض الأسئلة - وهي أسئلة عن الحقائق، في رأيي - عن أنواع المعلومات التي توجد في المعجم على وجه الدقة، بوصفها متميزة عن الأنظمة الاعتقادية. وربما تكون التعبيرات في الاستخدام، كما في الحسابات التي أوردناها، تغييرات هامشية في "اللغة - د"، حقيقة، لو تغييرات في أنظمة الاعتقاد، التي نفهمها هنا على أنها (إن وصفت وصفاً دقيقاً) أنظمة لتمثيلات الحوسبية للدماغ، وهي التي نعي للمنظورات ورواها النظر للفكر والتأويل واستخدام اللغة والأحداث الأخرى (ولسمها "أنظمة الاعتقاد - د"، وهي بظائر للاعتقادات يمكن اكتشافها بالبحث العلمي الطبيعي). ويقدم البحث في علم الدلالة المعجمي، إن اقتصرنا على الإطار الفردي الداخلي، أساساً لحل اختباري في بعض الحالات (خاصة في نظام الأفعال، التي تتصف ببينة علانية أكثر غنى).

ولا يهم الباحثون إلا قليلاً عن المعامل العلم للذهن/الدماغ، وراء عدد قليل جداً من المناطق المتفرقة [فيه]، ولا تشمل هذه المناطق التي طُلست مركز الانتباه لأكثر الاهتمامات العلمية لما يسمى بـ "علم المعرفة". فقد كان هناك، مثلاً، قدر كبير من النقاش المهم عن نظرية للاعتقاد وعن موصفها المحتمل في الجهود التي تتغيا تفسير الفكر والفعل، إلا أنه لا يوجد إلا قدر

محدود من البحث الاختياري المنظم الذي ربما يساعد في فحص هذه الأفكار، وصقلها، واختيارها. فيبدو من المعقول في الأقل، أن نفترض أن "الاعتقادات — د" لا تكون مجموعة متجانسة؛ ذلك أن للنظام مزيداً من البنية يمكن أن يوفر بعض المواءمة الضرورية لاتخاذ القرار عما يكون اعتقادات زائفة وخطأ في التعيين. افترض أن بعض "الاعتقادات — د" اعتقادات "تعيين" وبعضها غير ذلك، أو أنها تتوزع على طول مثل هذا الطيف، حيث يمكن أن تكون الأخيرة (أو الأقل) أكثر عرضة للتزك من غير أن تؤثر على شروط الإحالة. افترض، مثلاً، أن معلومات بيتر عن "مارتن فان بيرن" يستغرقها الاعتقاد بأنه كان (١) رئيساً للولايات المتحدة و(٢) أنه كان الرئيس السادس عشر، حيث يكون الاعتقاد (١) أكثر اتصافاً بأنه اعتقاداً تعيين من (٢). فإذا تعلم بيتر أن ليسكون كان الرئيس السادس عشر فقد يتخلى عن "الاعتقاد — د" غير المُعَيَّن في حين يستمر في استخدام العبارة في الإحالة. لما إذا أكد له أن كتب التاريخ كلها خاطئة وأن "فان بيرن" لم يكن رئيساً قط، فسيختار كيف يتصرف. وتبدو هذه خطوة معقولة أولى نحو ما يصلح أن يكون تحليلاً يمكن أن يوفره منظورٌ داخلي، وأن يكون واضحاً من حيث الواقع. ويمكن إطلاق مزيد من الأحكام أحياناً في بعض الظروف المعينة، وبطرق متنوعة ومتعارضة<sup>(١٣)</sup>.

وربما كان سبب ذلك وجود خصيصة عامة (أو مشتركة بين الناس) للفكر والمعنى تنتج عن التماثل في الإعداد [الأحيائي] الأولى، وهي التي لا تسمح إلا بـ "اللغات — د" التي تتشابه من حيث بعض المعايير المهمة، ومن هنا توفر بعض الأساليب الاختيارية لتبني إحدى صيغ مبدأ فريجه الذي يقول: "إنه لا يمكن إنكار أن البشر يمتلكون كنزاً مشتركاً من الفكر يُنقل من جيل إلى جيل" (Frege 1892/1965: 71). وربما تقرّب الصباغات المعينة لملكة صباغة العلم أيضاً من كونها خصيصة عامة (وهذا أكثر أهمية، لاهتمامات فريجه المحددة). لكن طبيعة الفكر والمعنى، فيما يخص الأنظمة التي ننمو

بصورة طبيعية في الدماغ، بعد تشخيص الإعداد الأولى على صورة لغة —  
د" (وربما "اعتقد — د" والأنظمة ذات الصلة، كذلك)، تتنوع تبعاً لتنوع  
الاهتمامات والظروف، مع عدم وجود طريق واضح لوضع تصنيفات  
أخرى، حتى على المستوى المثالي. لذلك يبدو اللجوء إلى التفسير بالأصل  
المشترك للغة أو بالتحريصات عن مبدأ الانتقاء الطبيعي، وهو ما يشيع في  
الأبحاث المتخصصة، غير مفيد.

انظر إلى الحالة الأولى المشتركة لمملكة اللغة في الدماغ، وإلى المدى  
المحدود لـ "اللغات — د" التي يمكن تحصيلها في أثناء تطورها في السنوات  
الأولى من حياة الطفل. فنجد، حين نبحث الخصائص المعجمية، سيجاً غنياً  
من الدلالة الداخلية الصرفة مع خصائص عامة لافتة للنظر، وبعض الأنسبة  
على وجود علاقات دلالية صورية (ويشمل تلك العلاقات التحليلية، انظر  
المراجع في ص). كما يبدو، ريادة على هذا، أن جزءاً كبيراً من هذه البيئة  
الدلالية مشتق من طبيعتنا الداخلية، وتحدده الحالة الأولى لمكتسبات اللغوية،  
ومن هنا فهو غير متعلم وكلي في "اللغات — د"، وبصبح الشيء نفسه تقريباً  
عن الخصائص الصوتية والخصائص الأخرى، ويبدو، باختصار، أن "اللغة  
— د" (ويشمل ذلك الدلالة الداخلية) تشبه الأجزاء الأخرى من العالم  
الحياتي.

ويمكن أن يأخذ هذا كله على أنه شكل من التركيب، أي أنه دراسة  
للأنظمة الرمزية لنظريات التمثيل الحوسبي ("التمثيل الذهني"). وتتفق  
المصطلحات نفسها ملائمة أن طورنا هذه الوسائل النظرية لتشمل النماذج  
الذهنية، وتمثيلات الخطاب، والقيم الدلالية، والعوامل الممكنة على الوجه الذي  
نعمهم به عادة، وتركيبات نظرية أخرى يجب النظر إليها على أنها ترتبط  
بشكل ما بالأشياء في العالم؛ أو بالوحدات التي تفرصها ملكة صياغة العلم  
لناس، أو تصوغها مكات أخرى من ملكات الدماغ.



ويمكن أن نصل خصائص التعبيرات اللغوية المحددة داخليًا إلى أمداء بعيدة جدًا، حتى في أبسط الحالات البسيطة. انظر مرة أخرى إلى الكلمة house "بيت" في التعبير التالي، مثلاً:

John is painting the house brown.

"يصنع جون البيت بنيًا".

وهو تعبير يتصف بأنه مجموع معين من الخصائص البيوية والصوتية والدلالية، ولا يمكن أن نقول إن هذا التعبير هو نفسه عند بئر وتوم إلا بالمعنى الذي يمكن أن نعنيه حين نقول إن نظام دورتهما اللغوية أو نظام الإبصار عندهما متماثلان، أي أنهما متماثلان إلى درجة كافية للأغراض التي نعينها. وإحدى الخصائص البيوية لهذا التعبير أنه يتكون من ست كلمات [في الإنجليزية]. وتتميز خصائص بيوية أخرى هذا التعبير عن التعبير التالي:

John is painting the brown house.

"يصنع جون البيت البني".

وهو يتصف بشروط مختلفة للاستخدام. وإحدى الخصائص الصوتية أن الكلمتين الأخيرتين فيه house "بيت" و brown "بني" تشتركان في الحركة نفسها؛ فهما في علاقة صوتية للتجانس الصوتي، أما كلمتا: house و mouse فهما في علاقة صوتية للسجع، وهاتان علاقتان بين التعبيرات اللغوية يمكن تعيينهما في ضوء سماتهما الصوتية<sup>(١)</sup>. وإحدى الخصائص الدلالية أن إحدى الكلمتين الأخيرتين يمكن استخدامها في الإحالة إلى أنواع محددة من الأشياء، وتعبّر الأخرى عن حصيصة أخرى لـ [هذه الأشياء]. ونجد هنا، مرة أخرى، علاقات صوتية يمكن للتعبير عنها في ضوء بعض سمات الكلمات، مثل ما بين house و building "مبنى"، مثلاً. أو، إن أخذنا حصيصة أكثر لغياً للنظر، إن كان جون يصنع البيت بنيًا، فهو يصنع السطح الخارجي للبيت، لا السطح الداخلي؛ وهي علاقة "انتماء" تلزم بين التعبيرات اللغوية.

وحيث ننظر في علاقات الانقضاء صوريًا نجد أن لها المنزلة نفسها تقريبًا التي للسجع؛ فهي علاقات صورية بين التعبيرات، ويمكن وصفها في ضوء سماتها اللغوية. وبعض العلاقات مهمة، يوصفها متميزة عن علاقات أخرى كثيرة ليست كذلك، وذلك للطرق التي تُدمج بها "اللغات" — د" في أنظمة الأداء التي تستخدم هذه التعليمات من أجل أنشطة بشرية مختلفة.

وبعض خصائص هذا التعبير كلية، وبعضها خاص بلغة معينة. فمِن الخصائص الصوتية الكلية أن الحركة في house تقصر من الحركة في brown ومن الخصائص الخاصة أن هذه الحركة في "لغتي" — د" أمامية لا متوسطة، كما في بعض "لغات" — د" النيبية بلغتي. ويبدو أن كون البيت البني يتصف بأن سطحه الخارجي بني، لا داخله، حقيقة لغوية كلية، تصدق على الكلمات التي تدل على "الاحتواء"، ويشمل ذلك الكلمات التي يمكن أن نحترعها، مثل: box "صندوق"، و airplane "طائرة"، igloo "كروغ من الأكوخ عند الإسكيمو"، و lean-to "ملحق بالبيت له سطح منحدر"، إلخ. فإن تصبغ معنا كرويًا بلون بني يعني أن تجعل له سطحًا خارجيًا بنيًا. وتمييزُ house "بيت" في الإنجليزية عن home "منزل" سمة خاصة في "اللغة" — د". فأنا أعود، في اللغة الإنجليزية، إلى "منزلي" home بعد العمل؛ أما في العبرية فأنا أعود إلى "بيتي" house<sup>(١٤)</sup>.

وإذا تجاوزنا البنية المعجمية، نتلقى النتائج عن غنى الحائسة الأولى للملكة اللغوية، وبنيتها المقصورة عليها فيما يبدو، دعمًا أقوى. ننظر إلى تعبيرات كالتي في المثال رقم (٢):

أ — He thinks the young man is a genius.

"يظن أن الفتى عبقري".

ب — The young man thinks he is a genius.

"يظن الفتى أنه عبقري".

ج — His mother thinks the young man is a genius.

"تظن أمه أن الفتى عبقري".

فيمكن أن يعتمد للصمير في (٢ب) أو (٢ح) إichاليًا على the young man ؛ أما في (١٢) فذلك غير ممكن (مع إمكان استخدامه في الإحالة إلى المعنى المتحدث عنه هنا، وهو أمر لا صلة له بها). فيبدو أن المبادئ التي تقوم عليها هذه الحقائق كلية، إلى حد بعيد في الأقل<sup>(١٦)</sup>؛ كما ينتج عنها شروط غنية على التأويل للدلالى، والارتباطات الذاتية للمعنى بين التعبيرات، ومن ذلك الارتباطات التحليلية. يضاف إلى ذلك أن لدينا في هذا المجال نتائج نظرية على درجة بعيدة من العمق، ولها مقتضيات مفاجئة. فيبدو - ليلىك - أن هذه المبادئ نفسها تنتج الخصائص الدلالية للتعبيرات التي تماثل من حيث الشكل المثال رقم (١)، في ص.

ويعرض التمثيل في المستوى الوجهي "ص ص"، في ضوء أنظمة الأداء، شروطاً تقيدية على الاستخدام (أى على النطق والإدراك، في هذه الحالة). ويصح الشيء نفسه عن التمثيل "ص م"، كما يوضح المثالان (١) و(٢)، أو كما يتمثل، في المستوى المعجمى، في الوضع الحاصل للسطح الخارجى في الكلمات التي تدل على "الاحتواء". ويبين الفحص المنطقى مزيداً من التعقيد. فيميز السطح الخارجى بطرق أخرى ضمن دلالة "اللمعة - د". وإذا كنت أرى البيت فأنى أرى سطحه الخارجى؛ أما رؤية سطحه الداخلى فلا تكفى. وإذا كنت داخل طائرة فلا أرى سطحها الخارجى إلا إذا نظرت عبر النافذة لأرى سطح الجناح، أو إذا كانت هناك مرآة في الخارج تعكس سطح الطائرة الخارجى. لكن البيت ليس سطحه الخارجى وحسب، فهو وحدة هندسية. فإذا كان بيتى ومارى على مسافة متساوية من السطح - حيث يكون بيتى داخل البيت ومارى خارجه - فلا يكون بيتى قريباً من البيت، أما مارى فربما تكون، تبعاً للظروف الحالية للقرب، ويمكن أن يحوى البيت كراسى في داخله أو في خارجه، وهو ما يتماشى مع اعتباره سطحاً. ومع أنه يمكن أن تكون الكراسى التي في خارج البيت قريبة منه، إلا أن التي في داخله ليست كذلك بالضرورة. لذلك يدخل في البيت سطحه الخارجى وسطحه الداخلى. لكن داخله يترك بشكل تجريدى؛ فسيظل البيت نفسه إن ملأته بالخشب أو

أرلت جدرانه — مع أنى إن نظَّفت البيتَ فربما لتعامل مع الأشياء التي فى  
 حيزه الداخلى فقط، ولما أحيل إلى هذه الأشياء وحدها حين أقول إن البيت  
 غير مرتَّب أو أنه بحاجة إلى رخصته من جديد. فترك البيت على أنه سطح  
 خارجى وحيز داخلى (بخصائص معقدة). صحيح أن البيت نفسه شيء مادي  
 محسوس؛ إذ يمكن أن يبنى بالطوب أو الخشب، كما أن البيت الخشبي ليس  
 مكوبا من سطح خارجى حصي فقط. والبيت الخشبي البنى له سطح خارجى  
 بى (بالم منظور المجرد) وهو مبنى من الخشب (بالم منظور الحسى). وإذا كان  
 بيتى my house فى فيلادلفيا لكنه الآن فى بوسطن، فهذا يعنى أن شيئاً مادياً  
 انتقل. وبالمقابل، فإذا كان منزلى my home فى فيلادلفيا لكنه الآن فى  
 بوسطن فلا يعنى هذا بالضرورة أن شيئاً مادياً انتقل، مع أن منزلى my home  
 شيء مادي كذلك — وإن كان بطرق أخرى مجردة كذلك، سواء أفهم أنه  
 البيت الذى أعيش فيه أم المدينة أم البلاد أم الكون؛ والبيت مادي حصي بمعنى  
 مختلف جداً. والتمييز بين house-home بيت — منزل\* مقتضيات كثيرة؛  
 فاذ:

I can go home.

"أستطيع العودة إلى منزلى".

لكن:

I can not go house.

"لا أستطيع العودة إلى بيتى".

I can live in a brown house.

و:

"يمكن أن أعيش فى بيت بنى".

I can not live in a brown home.

لكن:

"لا يمكن أن أعيش فى منزل بنى".

وتأتى الكلمة المماثلة لـ home "ظرفاً" فى كثير من اللغات، كما هى

الحال فى الإنجليزية جرثياً.

فحين نرى [من هذا] أن الشروط الداخلية على المعنى، حتى في هذا المثال البسيط، غنية ومعقدة ولا تلتفت النظر؛ بل لا تكاد تُعرف. ولا نحلم أكثرُ المعالج تفصيلاً أن تبيّن مثل هذه التفصيلات الدقيقة؛ فهي لا توفر إلا بعض الإبحامات التي ربما تساعد الذين يعرفون التصور المقصود (من حيث بعض الاعتبارات الأساسية، في الأقل) على اكتشافه. لذلك يعمل "الوُغ - د" بعد فريجه بطرق متدلّحة غريبة.

ويبدو للنظر الأول أن هناك شيئاً متدلّحاً في هذه التوصيفات، ذلك أن houses "البيوت"، و homes "المنازل" أشياء مادية، لكنه يُنظر إليها، من زاوية أخرى، على أنها مجردة إلى حد بعيد، وإن كانت مجردة بطرق مختلفة جداً؛ كذلك الكتب ومجموعة أوراق اللعب والتميز، إلخ. ولا يعني ذلك أن لدينا أفكاراً مشوشة - أو اعتقادات غير مطردة - عن البيوت أو المنازل أو الصناديق أو الطائرات أو الكهوف أو المكعبات المكورة، إلخ. بل يعني أن الوحدة المعجمية تمنأ بعدد من الروايات للنظر إلى ما نعده أشياء في هذا العالم، أو ما ندركه بطرق أخرى؛ ونشبه هذه الوحدات المصنّفة أو العدسات، فهي توفر لنا طرقاً للنظر إلى الأشياء وطرقاً للتفكير فيما تنتجه عقولنا. والكلمات نصّها لا تحيل، إن استخدمنا الكلمة "تحيل" بمعناها في اللغة الطبيعية، في الأقل، لكن الناس يمكن أن يستعملوها في الإحالة إلى الأشياء حين ينظرون إليها من رواية معينة - وهي رواية بعيدة جداً عن طرق العلوم الطبيعية، كما أشرنا.

وبصيح الشيء نفسه في أي جانب مدرّسه من اللغسة - د، فليست لندن حرافة، لكن حين ننظر إليها على أنها لندن - أي من خلال منظور اسم مدينة، وهو نوع خاص من التعبير اللغوي - فإننا نسيغ عليها بعض الخصائص العربية: هسمح، كما لاحظنا سابقاً، بأنه يمكن في بعض الظروف أن تدمّر تدميراً تاماً ثم يعاد بناؤها في مكان آخر، بعد سنين بل بعد آلاف السنين، لكنها تظل هي لندن، أي للمدينة نفسها. وقد وصف شارلر ديكنز

مدينة واشطن بأنها "مدينة ذات مقاصد عظيمة"، فهي تتميز بـ "طرق واسعة، تبدأ من لا شيء، وتؤدي إلى لا مكان؛ وبشوارع طول الواحد منها ميل، لكنها لا تحتاج إلا إلى بيوت وجواري وسكان ومبان حكومية، لا تحتاج إلا إلى أساس لتكون كلمة لينتج ديكر بكلمة public في عبارة public buildings "مكاتب حكومية"، و public "الناس"؛ وأتية في الشوارع، لكنها لا تحتاج إلا لشوارع عظيمة ذات أبهة" — ومع ذلك تظل هي واشطن. ويمكن أن ينظر إلى لندن باعتبار سكانها أو من غير اعتبار لهم؛ فهي، من جهة، المدينة نفسها حتى لو هجرها سكانها؛ وتستطيع أن تقول، من جهة أخرى، إن لندن صارت ذات شعور فقط لأن رئاسة مارجريت ثاتشر للحكومة، وهو تعليق يتصل بالكهبة التي يتصرف فيها الناس ويعيشون. وربما كنا نتحدث، في إحالتنا إلى لندن، عن موقع أو منطقة أو أساس يعيشون هناك أحياناً، أو عن الهواء في سماتها (لكن يجب أن يكون الهواء القريب من سطح أرضها فقط)، أو عن مبان أو مؤسسات، إلخ، وبطرق كثيرة للجمع بين هذه الأشياء (كما في: "لندن تعيسة جداً، وفيحة وملوثة إلى درجة توجب تدميرها وإعادة بنائها على بعد مائة ميل من موقعها الحالي"، لكنها تظل هي المدينة نفسها). فتمتثل كلمات مثل "لندن" للحديث عن العالم الواقعي، لكن ليس هناك "أشياء في العالم" تتصف بالخصائص المعقدة لطرق الإحالة التي يلخصها اسم مدينة ولا يعتقد أحد أن هناك شيئاً مثل ذلك. ويمكن أن يدخل مبطوران من مثل هذه المنظورات بشككين مختلفين في نظام الاعتقاد عند بيتر، كم في الاختبار المحير عند سول كريبك Kripke's puzzle. (الاطلاع على نقاش مستفيض من وجهة نظر مماثلة تقريباً، انظر Bilgrami 1992).

وحتى بصوغ، من أجل أهداف البحث العلمي الطبيعي، صورة للعالم معصولة عن هذه المنظورات "البديهية" (ولو أن يكون هذا الاتصال تآمراً بالطبع؛ إذ لا يمكن أن يكون إلا للكانتات التي هي نحن)<sup>(١٧)</sup>. أما إذا مرجحنا بين هذين الصريحين المختلفين للتفكير عن العالم فربما نكتشف أننا نعزو إلى الناس

اعتقادات غريبة بل متعارضة أحياناً عن أشياء ينبغي أن يُنظر إليها بمعزل عن قوَسائل التي توفرها "اللغة - د" وأنظمة "الاعتقاد - د" التي تُصيف مزبداً من التعقيد للتأويل. وسيبدو الوضع أكثر غموضاً إن قُنبنا الفكرة العامصة التي مفادها أن لبعض الكلمات علاقة بالأشياء (أي: "إحالة") محددة في لغة عامة مشتركة ما، وهي التي ربما توجد "بمستقلال عن أي متكلمين معيَّنين" يمتلكون "تفهماً جزئياً باللغة، وربما يكون وعياً جزئياً حاطناً" (Dummett 1986)؛ ولأن هذه الكلمات في لغة عامة "تحيل في اللغة المشتركة (بمعنى ما يزال بحاجة إلى تفسير) إلى أشياء مثل "لبن" منطورياً إليها على أنها شيء منفصل عن الخصائص التي يوفرها اسم المدينة (أو بعض الطرق الأخرى للتعيين) في لغة - د ما، ومنفصل عن العوامل الأخرى التي تدخل في الطريقة التي يحيل بها بيتز إلى "لبن". وسيبدو كأن المشكلات تتعمق بشكل أكبر حين نجرّد من حلقات الاعتقادات الفردية أو المشتركة التي تقع وراء الاستخدام المألوف للغة. وتذهب هذه المحاولات جميعها وراء حدود أية مقارنة علمية طبيعية، بل ربما يكون بعضها وراء أي نقاش معقول.

كما تذهب هذه المحاولات وراء حدود المقاربة الذاتية، وهو أمر مختلف. فلا تفرض المقاربة العلمية الطبيعية حدوداً داخلية فردية. ومن هنا، فإذا درسنا (بعض الأشياء المتناظرة) للأشخاص بصفتها أطواراً في تاريخ بعض الخلايا الجرثومية التي لا تبقى في الحالات المثالية، أو بصفتها مراحل في تحول الأكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، فإننا بذلك نتخطى هذه الحدود. أما إن كنا نهتم بتفسير ما يفعله الناس، وبمعرفة السبب الذي يجعلهم يفعلون ما يفعلون، بقدر ما يكون ذلك ممكناً عن طريق البحث العلمي الطبيعي، مستندو الحجة التي يُحتج بها لعدم تجلوز هذه الحدود مفعلة<sup>(١٤)</sup>.

وكنا بدأنا بالنظر في الاكتشاف (الافتراضي) أن دماغ بيتز يُستج الصورة C حين يفكر بالقطط. ثم انتقلنا إلى المثال الأكثر واقعية وهو

"الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" ERP ، وانتقلنا بعد ذلك إلى مثال معروف من سفسه واقعية (من وجهة نظر علمية) وهو "نظمية التمثيلات الحوسبية"؛ ويمكن النظر إلى عناصرها على أنها نسخية C، لكنها الآن عناصر واقعية، لا افتراضية، كما توحى بذلك الأدلة المتوفرة. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا عن مقارنة طبيعية علمية تتجاوز هذه الحدود الداخلية، باطرة إلى دماغ بيتر بوصفه جزءًا من نظام أوسع للتفاعلات. لذلك ربما لا يكون التشابه الآن مع الصورة C التي تتكون في دماغ بيتر حين يفكر بالفضاء، بل مع صورة ماثية ما C' تتضمن C إلى جانب أشياء أخرى، وربما يكون هذا الشيء عن القطع. ونحن الآن في مجال الافتراض - ولا أعرب بديلاً جاداً آخر. لكن افترض أنه صار من الممكن صياغة مثل هذا البديل، وبرهن على أنه يؤدي إلى فهم أعمق للأسئلة المتعلقة باستخدام اللغة. وإذا كان الأمر كذلك فربما يعدك هذا الطريق التي ندرس بها اللغة وعلم النفس، لكنه لن يقودنا إلى تفسير للناس وما يفعلونه.

ويلزم أن يميز بين مقارنة علمية طبيعية خارجية افتراضية من النوع الذي يبناه باختصار أنا ومقارنة خارجية غير طبيعية تحول لن تعامل الفعل البشري (كالإحالة إلى القطة أو التفكير عنها، إلخ) في سياق الجماعات، سواء أكانت أشياء حقيقية في العالم أم متخيلة، إلخ. ويجب الحكم على هذه الأنواع من المقاربات انطلاقاً من طبيعتها، بوصفها جهوداً لإصفاء معنى على الأسئلة التي تقع خارج البحث العلمي الطبيعي - كالأسئلة عن الطاقة والأحجار الساقطة والسماء، إلخ - بالمعنى المألوف لهذه الكلمات. وقد سكرت بعض الأسباب التي تشكل في اللجوء إلى الجماعات وممارستها، أو اللغات العامة بما لها من معان عامة. لكن دعنا نوجه أنظارنا إلى وجه آخر من المقارنة الخارجية، وهو العلاقة المزعومة بين الكلمات والأشياء.

فهناك نظريات تفسيرية مهمة جداً صممت علم الدلالة الداخلى طوّرت حسب علاقة "ح" R (من refer) [يُحيل] يفترض أنها موجودة بين التعبيرات



اللغوية وأشباه أخرى، أى وحدات تُستخلص من مجال "م" D [Domain] معترض ما (وربما يكون "القيم الدلالية")<sup>(١٩)</sup>.

فتلزم العلاقة "ح" R ، مثلاً، بين تعبيرات مثل "لندن" ("بيت"، إلح) ووحدات المجال "م" D التى يفترض أن لها علاقة بما يحيل الناس إليه حين يستخدمون كلمة "لندن" ("بيت"، إلح)، مع أن تلك العلاقة المدعاة ما تزال غامضة. وكما لاحظنا من قبل، ينبغي، كما أظن، أن يُنظر إلى هذه النظريات على أنها نوع من التركيب. ذلك أن العناصر التى يفترضها شبيهة، من حيث الاعتبارات ذات الصلة هنا، بالتمثيلات الصوتية أو تمثيلات البنية المركبة، أو الصورة المفترضة C فى الدماغ؛ وربما صبح لنا دمج "ح" و"م" (D و R) فى الوصف البنيوي SD (أى التعبير اللغوي)، بوصفهما جزأين من مستوى وجيهى ما.

وبصاغ تفسير الطواهر التى فى المثال (٢) (ص ١٣٢-١٣٣) عادةً فى ضوء العلاقة "ح". ويمكن أن نطبق عليها نظريات الربط وعود الصمائر نفسها من غير تغيير جذرى إن استبدلنا بـ young فى المثال (٢) صفات كـ average "متوسط"، أو typical "تمطى"، أو استبدلنا John Doe بـ the young man ، إذا أخذنا على أنه الرجل المتوسط من أجل أغراض خطاب معين<sup>(٢٠)</sup>. ويمكن أن نتطرق للنظريات نفسها على خصائص عود الصمائر فى الأمثلة (٣) و(٤):

أ٣ — It brings good health's rewards.

"إنها تلتى بفوائد للصحة الجيدة".

ب٣ — Good health brings its rewards.

"الصحة الجيدة تلتى بفوائدها".

ج٣ — Its rewards are what make good health worth striving for.

"إن فوائدها هى ما يجعل للصحة الجيدة تستأهل السعى لها".

١٤ أ — [There is a flaw in the argument], but it was quickly found.

"[هناك عيب في الحجة]، لكنه اكتُشف بسرعة."

١٤ ب — [The argument is flawed], but it was quickly found.

"[الحجة معيبة] لكنه مر على ما اكتُشف."

فيحس يستطيع في ضوء العلاقة "ح" التي تقرص بين the average  
man و John Doe, good health, flaw ، والوحدات المستحصلة من "م"، أن  
يعلل السلوك المختلف للضمير بالطريقة نفسها التي يمكن أن تفسر بها حالة  
the young man, Peter, fly (كما في الجملة there is a fly in the coffee  
"هناك دبابه في القهوة"). فختلف علاقات الضميرين العائدين في (١٤ أ، و  
١٤ ب)، مع أنه ليس هناك اختلاف في المعنى بين العبارتين المحصورتين بين  
الأقواس المعقوفة. وربما نكتشف أن هذه التعبيرات، إلى جانب تعبيرات  
أخرى مثل the argument has a flaw في الحجة عيب (مع اختيارات عود  
الصمائر في (١٤))، ما تزال تشترك في بعض الخصائص النحوية الأكثر  
عمقا، بل ربما تشترك حتى في التمثيل الببوي نفسه في المستوى ذي الصلة  
بالدلالة الداخلية للعبارات، وهو احتمال كان مجالاً للبحث منذ سنوات عدة  
(الظر 1991 Tremblay) (١٤) ويصح الشيء نفسه في حالات أكثر غرابة.  
ربما يبدو نوعاً من الخلق أن نبحث عن علاقة بين بعض الوحدات في "م"  
والأشياء الموجودة في العالم — سواء كانت تلك الأشياء حقيقية أم متخيلة، أم  
غير ذلك — أي علاقة تتصف بأي قدر من الصومية، في الأقل، وربما بتخيل  
أحد أن علاقة العناصر في "م" بالأشياء في العالم أكثر "شعافية" مما هي في  
حالة التمثيلات التركيبية الأخرى، مثلما أن علاقة لموجات الصوتية أكثر  
"شعافية" لأصوات منها بالتمثيلات الصوتية؛ لكن حتى إن كان الأمر كذلك،  
ولا يتجاوز هذه الدراسات حدود تركيب التمثيلات الذهبية. أما العلاقة "ح"  
والمركب "م" فيجب تفسيرهما بالأسباب نفسها التي تسوّغ الأفكار التركيبية  
النفسية الأخرى، أي الأفكار الصوتية، أو أصناف المقولات الفارغة في

التركيب. ومن هنا فليس للتشابه العارض بين العلاقة "ح" R والمصطلح refer "تحيل" في اللغة العادية من الأهمية ما يريد عن الأهمية التي ربما تكون له في حل المصطلحين [الفيزيائيين النقييين] momentum "الزخم"، و undecidability "اللايقين".

نحن لا نملك، على وجه التحديد، أي حدس عن "ح" إلا بقدر ما نملكه من حدس عن كلمات مثل momentum أو undecidability بمعنييهما النقييين، أو عن c-command "التحكم المكوئي" أو [autosegmental] "المستوى القطعي المستقل" في (الأجراء الأخرى) من النظريات الحوسبية للتركيب<sup>(٢٢)</sup>؛ إذ تأخذ هذه المصطلحات المعاني التي ننبغها عليها. ونحن نملك أحكاماً حدسية عن الفكرة المستخدمة في تعبيرات مثل:

Mary often refers to the young man as a friend.

(to the average man as John Doe, to good health as life's highest goal)

"تحيل ماري غالباً إلى الفتى بوصفه صديقاً (والرجل المتوسط بوصفه جون دو، والصحة الجيدة بوصفها أسمى هدف للحياة)"

لكننا لا نملك مثل هذه الأحكام عن العلاقة "ح" الموجودة بين Mary (أو: the average man, John Doe, good health, flaw: المعترضة) و "م". ذلك أن "ح" و "م" هما ما يحدد أنه هما، ضمن إطار معين للتفسير النظري. ويمكن أن نقارن "ح" و "م" بـ P "ص" و PF "ص ص"، حيث تكون "ص" P علاقة بين تعبير ما والتمثيل الصوتي "ص ص" PF له (وربما بين الكلمة took وكيفية نطقها، أي: [thuk])، مع أن التصورات في الحالة الأخيرة تدخل ضمن نظرية أقوى تأسيماً وأكثر شغى للعلاقات الوجيهة.

هنا أننا نستطعن تسوية افتراض وجود "ح" و "م" بفجاجة التفسير ص ضمن نظرية التمثيلات الحوسبية للغة — د، إلى جانب "ص" و "ص ص" و "التحكم المكوئي" c-command و "المستوى القطعي المستقل"

autosegmental. لكن هذه النتيجة لن تعزز الاعتقاد بأن هناك علاقة شبيهة بالعلاقة "ح"، ولسمها العلاقة  $R^-$  "ح"، تقوم بين الكلمات والأشياء، أو بينها وبين الأشياء كما تتحيل أن تكون، أو كما تتصور بدلاً من ذلك. فيجب أن يسوغ افتراض مثل هذه العلاقة على أساس ما، كما هي الحال في أية فكرة تقنية محترقة أخرى. ثم لنا أن صغنا علاقة  $R^-$  "ح" تلزم بين التعبيرات اللغوية و"الأشياء" التي نفهم بشكل ما، قل نمثلك حدثاً عنها؛ إذ لا تريد الأمور إلا عمومًا أن توسلنا ببعض الأفكار التي لم تُقسمر "للجماعة" أو "اللغة العامة"، حين نأخذها بمعنى خالص ما. ومع ذلك فنحن نمثلك بالفعل أحكاماً حدسية عن التعبيرات اللغوية والمنطورات وزولنا للنظر المعينة التي توفرها للتأويل والتفكير. ويمكن كذلك أن ندرس كيف تتحل هذه التعبيرات والمنطورات في النشاطات الإنسانية المختلفة، كالأحالة. أما وراء ذلك، فندخل في مجال النقاش التقني، محرومين من الأحكام الحدسية.

انظر مثلاً إلى التجربة الذهبية المشهورة توعم الأرض\* عند بتنام (Putnam 1975). فهي تبين أنه لا يمكن الحدس بما إن كان لـ water "ماء" "المرجع" نفسه عند أوسكار وتوعم أوسكار: إذ الحكم في هذا من أمور القرار بشأن المصطلح التقني الجديد "إحالة" (أو هو اختيار معين لـ "ح"  $R^-$ ). لكننا يمكن أن نصدر بعض الأحكام عن الشيء الذي ربما كان أوسكار وتوعم أوسكار يحيلان إليه، وهي أحكام يبدو أنها تتنوع بشكل كبير، تبعاً لتنوع الظروف. وتبدو اقتراحات بتنام عن "المسائل نفسها"، وهي فكرة (ربما لا تكون معروفة) في العلوم الطبيعية معقولة جداً، في بعض الظروف المعينة؛ كما يبدو أن فكرتي "التماثل" و"التشابه" المأخوذتين من الفهم البديهي أكثر ملاءمة، في بعض الظروف الأخرى، ويمكن أن يقودا إلى أحكام مختلفة. ولا يبدو لي واضحاً أنه يمكن أن نقول شيئاً عاماً عن هذه الأمور، أو أنه يمكن أن ننبغ معنى عاماً أو مهيئاً على أفكار تقنية كـ "المضمون القواسم" (أو أية فكرة أخرى لتحديد "الإحالة") في أي تأويل خارجي.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يثير عدداً من الأسئلة عن وضع ما يسميه Putnam، في محاضرات لسوك (Putnam 1988a: Chapter 2)، بـ "التعاون الاجتماعي مضافاً إليه إسهام النظرية البيئية في تحديد الإحالة"، وهو وجهة أكثر كمالاً للنظرية المسببة للإحالة التي طوّرت في بحثه: "معنى 'المعنى'" (Putnam 1975) وفي بحث سول كريبيك: "الانتمائية والضرورة" (Kripke 1972)، وهما البحثان اللذان صاروا الآن من المعالم البارزة في هذا المجال.

ويتعلق "التعاون الاجتماعي" بـ "تقسيم العمل اللغوي": أي بدور الخبراء [اللغويين] في تحديد ما تحيل إليه الكلمات: Elm "شجر الدرار" و beech "شجر الراس"، في لهجتى، مثلاً. ويقدم Putnam تفسيراً مقبلاً لبعض الظروف المحددة. فيمكن لى في بعض الظروف أن نوافق، حقيقةً، على أن ما أحيل إليه حين استخدم كلمة Elm هو المعنى الذى يعنيه أحد الخبراء، وربما كان هذا التعبير بمثابة إيطالي لا تشترك معه إلا فى المصطلحات اللاتينية (مع أنه ليس هناك معنى حقيقى يكون لنا وهو فى صوته منتمين إلى "الجماعة اللغوية" نفسها أو نكلم لغة مشتركة)؛ أما فى ظروف أخرى، فربما لا أتفق معه، لكن هذا متوقع فى بحث يتوسع ليشمل "التنظيم الوظيفى البشرى" الكامل، وهو ما يكاد يكون دراسة لكل شيء. وكما ذكرنا من قبل، فليس واضحاً إن كان هذا السؤال يتعلق بـ "اللغة - د" أم بـ "الاعتقاد - د"، إن افترضنا صحة الصياغة النظرية.

أما "نظرية البيئة" فربما لا نستطيع الإسهام فى تعيين الإحالة إلا بوجود فكرة متماسكة للإحالة ("ح" R) تلزم بين التعبيرات اللغوية والأشياء، وهو أمر غير واضح تماماً، وإن كان الناس يستخدمون، حقيقةً، هذه التعبيرات (بطرق مختلفة) فى الإحالة إلى الأشياء، متبئين وجهات النظر التى توفرها هذه التعبيرات. فهناك ظروف يمكن فيها أن تكون بعض النتائج المعينة التى نستخلص عادة ملائمة، وهى التى تساعد فيها أفكار مثل "النوع نفسه" و"السمات نفسه"، إلخ، فى تحديد الأشياء التى أحيل إليها؛ كما أن هناك

بعض الظروف الأخرى التي لا يتحقق فيها ذلك<sup>(١١٦)</sup>.

ولا يبدو واضحاً كذلك إن كانت بعض القضايا الغيبية metaphysical  
يبرر في هذا السياق. ولا شك أن هناك اختلافاً حاداً، حين ننظر في بعض  
الأمثلة التي جاء بها كريبك، بين الحكم باحتمال أن يكون نيكسون "الشخص  
نفسه" إن لم يكن قد انتُخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٩٦٨، في حين أنه  
ربما لن يكون الشخص نفسه إن لم يكن شخصاً أصلاً (كأن يكون تمثالاً له  
مصنوعاً من مادة السليكون، مثلاً). لكن هذا يترتب على كون "نيكسون" اسم  
علم، وهو ما يوفر طريقة للإحالة إلى نيكسون بوصفه شخصاً؛ وليس لهذا  
أهمية غيبية. أما حين نجرّد من المنظور الذي توفره اللغة الطبيعية التي لا  
يبدو أنها تحوي أسماء خالصة بالمعنى الذي عند المناطقة (وبصح الشيء،  
نفسه عن "المتغيرات"، إن عُدَّت الضمائر متغيرات، في الأقل، وعن  
الإشارات indexicals، إن نظرنا إلى الشروط الفعلية لاستخدامها في  
الإحالة)، فإن هذه الحدوس تنهلوي حينئذ: فربما يكون نيكسون، كما افترض،  
"وحدة" مختلفة، إن رُجِّل شعره بطريقة مختلفة، وليس الشيء الذي أمامي  
مكتباً أو طاولة أساساً؛ إذ ربما يكون ذلك الشيء على وجه الدقة عدداً من  
الاشياء المختلفة، تبعاً لتنوع الاهتمامات والوظائف ومقاصد مخترعه، إلخ.  
ومما يمكن الاستشهاد به البحث الذي أنجزه جوزيف ألوج مؤخرًا ويتضمن  
أنه يمكن فهم الحكم بأن جبل Nanga Parbat جبل "أساساً" في ظروف معينة؛  
إلا أنه يبدو لي أن "اختبار التجريد المتمسك" الذي اقترحه، وخلافاً لما  
يقترضه، يسمح لنا، في ظروف أخرى، أن نحرم Nanga Parbat من هذه  
الخصيصة، ومع هذا يظل الشيء نفسه؛ كأن يرتفع البحر إلى مستوى كاف  
لتصير قمته جزيرة، وهي الحالة التي لن يكون عندها جبلاً أكثر من كون  
برطانيا جبلاً؛ أو إن تجمع التراب حوله حتى لم يبق بارزاً من قمته إلا  
مليمتر واحد، وهي حالة لن يكون عندها جبلاً، بل جزءاً من هضبة يحيط بها  
مبحر، ومع هذا يظل هو الشيء نفسه تماماً (Almog 1991).

ولتأخير ما قلناه، فمن المشكوك فيه أن نستطيع للتأنيخ النموذجية الصمود في وجه تحليل مدقق للفكرتين التقنيتين لـ "إحالة" (بأحد المعاني الشبيهة بـ "ح" R) أو تحديد الإحالة. وربما يكون هناك مسوّع للفكرة "ح" R في نظريات التمثيل الحوسبية (وهي فكرة تركيبية أساساً، بالرغم من المظاهر التي تظهر بها). لكن لا يبدو أن هناك مسيلاً قوياً للافتراض بأنه يمكن أن تصاغ فكرة شبيهة بـ "ح" R بصورة متمسكة ومفيدة بوصفها علاقة تلزم بين للتعبيرات وبعض أنواع الأسماء، بمعزل عن بعض الشروط والظروف الخاصة بالإحالة. وإذا كان الأمر كذلك فإن يكون هناك أيضاً بحثٌ معقول في فكرة لـ "معنى" أو لـ "مضمون" نعمل على تثبيت الإحالة ("ح" R)، في اللغة الطبيعية في الأكل، مع أن هناك بحثاً (تركيبياً) واعدداً عن الشروط التي تحكم استخدام اللغة (ويشمل ذلك الإحالة).

وكما ناقشنا من قبل، فربما يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى إيجاد أشباه للغة تزداد على "اللغة" — د؛ وربما تكون هذه الفكرة الشبيهة بـ R ملائمة لهذه؛ ذلك أن الكلمات تجرد الآن من خصائص "اللغة" — د التي توفر منظورات تأويلية وعلاقات دلالية، وبذلك لارتباطها بـ "الاعتقاد" — د، ويسبغ عليها خصائص لا توجد في اللغة الطبيعية. وربما تستخدم هذه الأنظمة الاصطناعية موارد "اللغة" — د (كطريقة النطق والصرف وبنية الجملة، إلخ)، أو تتجاوزها (باستخدام بعض الصياغات الرياضية للصورية، مثلاً). و"اللغة" — د نتاج للملكة اللغوية، وهي مجردة عن المكونات الأخرى للذهن؛ وهذه أمانة بالطبع، لذلك يجب تسويتها أو رفضها اعتماداً على الدور الذي تقوم به في إطار تصيري. ويمكن توسيع هذه الصورة، بشكل معقول كما يبدو، بالتمييز بين نظام الاعتقاد البديهي وما تنتجه ملكة صياغة العلم. ولا ينتمي ما تنتجه ملكة صياغة العلم إلى أنظمة "اللغات" — د ولا لأنظمة "الاعتقاد" — د، لهذا ربما يكون من العلامات لقرائن علاقة "ح" R' لها.

ونأتي بعض الدوافع للمقاربات الخارجية من الانشغال بإصغاء معسى

على تاريخ العلم. لهذا، يرى بيتام أنه ينبغي أن يأخذ نتائج أبحاث نيلز بور Neils Bohr المنكورة على أنها تحيل إلى الإلكترونات بمعناها في النظرية الكمية، وإلا ربما يلزمنا "أن ننظر إلى اعتقاداته كلها التي كان يعتقد أنها في سنة ١٩٠٠م على أنها حاطنة تماماً" (Putnam 1988a)، وهي التي ربما كانت شبيهة بالاعتقاد بالملائكة [أي بأشياء غيبية]، وهذه نتيجة رائعة بكل صروح. وبصبح الأمر نفسه عن حديث علماء الكيمياء قبل دالتون Dalton عن الذرات. فربما نقول أيضاً، تأمينا على الأسباب نفسها، إن علماء الكيمياء قبل أفوجادرو Avogadro كانوا يحيلون إلى ما نسميه ذرات أو جزيئات، مع أنهم كانوا يستخدمون هذه المصطلحات بعضها مكان بعض، كما يبدو.

ونفترض هذه المناقشة أن مصطلحات كـ "الإلكترون" تنتمي إلى النظام نفسه الذي تنتمي إليه كلمات مثل "بيت" و"ماء" والصمامات العائدة، لذلك يمكن "تطبيق" النتائج عن "الإلكترون" بحدودها على الأفكار من الصنف الثاني. وتبدو تلك الفرضية صميّة في اقتراح بيتام الذي معناه أنه "لكي نكتشف التعقيد الذاتي لمهمة ما ينبغي أن نسأل: How hard is it in the hardest case? ما مبلغ صعوبة هذه المهمة في أصعب حالة؟"، حيث تمثل بعض التصورات مثل momentum "الرحم"، أو electron "الكثرون" في الفيزياء "أصعب حالة" لـ "المرجع نفسه" أو "المعنى نفسه". لكن هذه الفرضية مشكوك فيها، إذ يجب أن تسعى دراسة اللغة إلى الوصول إلى صورة أكثر تبييناً للعوارق، ثم إن ما يصح في الصياغات التقنية التي تنتجها ملكة صياغة العلم ربما لا يصح عن معجم اللغة الطبيعية، لكن افترض أننا سلما بهذه البقعة مع ذلك، ثم وافقنا كذلك على أن الاهتمام بالمعقولية intelligibility في الحساب العلمي عبر الزمن اهتمام مقبول، فإن هذا ما يزال غير صالح ليكون أساساً لنظرية عامة عن المعنى؛ فهو اهتمام واحد من بين اهتمامات كثر، كما أنه لا يمثل اهتماماً مركزياً في دراسة النصية البشرية. رد على ذلك أن هناك طرقاً تفسيرية داخلية بديلة. لهذا ربما نقول إن بور عثر، في



استخدامه المبكر، عن اعتقادات كانت رائعة تماماً، إذ لم يكن هناك شيء من النوع الذي كان في ذهنه حين كان يحيل إلى الألكترون؛ لكن صورة العالم هي ذهنية والتفسير عنه كانا تشبهان ببيوياً إلى حد بعيد للتصورات اللاحقة، وهو ما يجعلنا نستطيع التمييز بين اعتقاداته عن الألكترون واعتقاداته عن الملائكة. وأكثر من ذلك أن هذا يبدو طريقاً معقولاً في البحث.

وإذا أخذنا مثالاً أبسط من ذلك بكثير من دراسة اللغة، لنظر إلى النقاش الذي كان يجري قبل ثلاثين عاماً عن طبيعة الوحدات الصوتية، فقد افترض الصوتيون البنويون وحدات صوتية (أي: الصوتيات phonemes) وسمات صوتية تتصف بمجموعة معينة من الخصائص. وقد جادل الصوتانيون التوليديون أن مثل هذه الوحدات غير موجودة، وأن للعناصر الموجودة فعلاً خصائص مختلفة نوعاً ما. افترض الآن أن إحدى هاتين المقاربتين تبدو صحيحة (ولنقل الأخيرة). فهل يعني هذا أن الصوتيين البنويين كانوا يحلون طوال الوقت إلى الوحدات الصوتية والسمات بمعانيها في الصوتيات التوليدية؟ ومن المؤكد أن الأمر ليس كذلك؛ فقد كان الصوتانيون البنويون ينكرون ذلك بصورة حاسمة، وكانوا محقّقين في هذا الإنكار. أيعنى هذا أنهم كانوا يتكلمون كلاماً فارغاً؟ ومرة أخرى نقول إن الأمر لم يكن كذلك بكل تأكيد. ذلك أن الصوتية البنوية معقولة؛ بل إن من الممكن، إن أخذنا التراص وجود الوحدات التي افترضتها، إعادة تأويل أكثر تلك النظرية صمم الصوتيات التوليدية، مع التطبيق في النتائج إلى حد بعيد. ولا يوجد طريق مقنن لتحديد الكيفية التي يُجز بها هذا، أو لتحديد التشابه في الاعتقاد بين المدرستين الفكريتين أو لتحديد ما الأفكار والاعتقادات التي تشتركان فيها. ومن المفيد أحياناً الإشارة إلى أوجه التشابه وإعادة صياغة الأفكار، وأحياناً لا. ويسصح الشيء نفسه عن الأفكار المبكرة والتالية عدد يور. ولا يتطلب الأمر تحديثاً أكثر من هذا كي نحافظ على كرامة البحث العلمي، أو المحافظة على الفكرة المحترمة للتقدم باتجاه كشف ما هو صحيح عن العالم، بقدر ما يقع [البحث العلمي] في حدود القدرة للمعرفة البشرية.

ومن الجدير بالملاحظة أن تحليلاً في ضوء هذه الطرق، إن عضمتنا النظر عن المسلمات الخارجية الخاصة بتحديد المرجع، يتوافق مع حدوس العلماء البارزين. ويلفت النقاش عن معنى الألفاظ والماء وغيرها إلى المصعب. لكننا يمكن أن نوجه أظنارنا نحو المستقبل كذلك. انظر إلى السؤال عن إن كانت الآلات تفكر (أو تفهم أو تخطط أو تحل مشكلات، إلخ). فتقصي الحجج الخارجية النموذجية بأن جواب هذا السؤال ينبغي أن يقرر بموجب الحقيقة عن التفكير، أي: ما معنى أن يفكر بيتر بأطفاله، أو يحل معادلة من الدرجة الثانية، أو يلعب الشطرنج، أو يؤول جملة، أو يقرر أن يرتدي معطفاً أو لا؟ لكن المسألة لا تبدو بهذه الشكل عند فتحيشتاين وألان تيرنج، إن أخذنا مثالين مشهورين. أما عند فتحيشتاين فلا يمكن أن يكون السؤال عن إن كانت الآلات تفكر سؤالاً جاداً، ذلك "لأنه لا يمكن أن نعزو التفكير إلا لمن ينتمي إلى بني البشر أو من يشبهه" (Wittgenstein 1958: 113)، ويمكن أن يدخل في ذلك الدمى والأرواح [الجن والملائكة]؛ فذلك هي الطريقة التي تستعمل بها الآلة. أما تيرنج فقد كتب في بحثه الكلاسيكي الذي نشره سنة ١٩٥٠م أن السؤال عن إن كان يمكن للآلة أن تفكر:

"ربما يكون سؤالاً لا معنى له حتى إنه لا يستحق النقاش، ومع هذا فأعتقد أن استخدام الكلمات والرأي العام المتقف سيكونان قد تغيرا عند نهاية القرن [العشرين] إلى حد يجعل من الممكن لقرد أن يتكلم عن إن الآلات تفكر من غير أن يتوقع أن يعترض عليه أحد" (Turing 1950: 442).

فلا ينبغي فتحيشتاين وتيرنج للتفسير الخارجي النموذجي. أما عند فتحيشتاين فهذه الأسئلة ساذجة وحسب؛ ذلك أن الآلات تستعمل في ضوء طبيعتها التي تكون عليها؛ أما إذا تغير الاستعمال فيسمى هذا أن اللغة تغيرت؛ إذ لا نريد اللغة عن كونها الطريقة التي تستعمل بها الآلات. كما يتحدث تيرنج عن التغير الذي يطرأ على اللغة "الرأي العام المتقف" تبعاً لتغير الاهتمامات والانشغالات. سوف يحدث، بحسب مصطلحاتنا، تحول من

"اللغات - د" التي يصفها فتجينشتاين إلى لغات - د" جديدة مستحقة منها للكلمة القديمة "يفكر" لتحل مكانها كلمة جديدة يمكن استخدامها عن الآلات بالصورة التي تستخدم بها عن الناس. فيتمثل السؤال في سنة ١٩٥٠ عن إن كانت الآلات تفكر في احتمال أن يكون له معنى أن تسأل عن إن كانت الطائرات تطير فعلاً وكذلك الناس (كهواة القفز العالي، مثلاً)؛ فالطائرات في اللغة الإنجليزية تطير أما هواة القفز العالي فلا (إلا بمعنى محاري)، أما في اللغة العبرية فالأثنان لا يطيران، ويطير كلاهما في اللغة اليابانية. ولا تفيد هذه الحقائق شيئاً عن السؤال (غير المعيد) الذي أثير، إذ لا تفيدنا إلا عن بعض التوقعات الهامشية والعشوائية إلى حد كبير لغة - د". ويبدو أنه يمكن أن يقارن السؤال عما كان يحبه مصطلح "كرة قبل التسور"، أو مصطلح "الكثرون" عند بور سنة ١٩٠٠م، في بعض الاعتبارات، بالسؤال عما كانت تعنيه كلمة "يفكر" عند فتجينشتاين وتيرنج؛ لكنها مقارنة غير تامة؛ ذلك أنه ربما ينبغي ألا يُنظر لكلمات "يفكر" و"كرة" و"الكثرون" على أنها تنتمي إلى لغة - د" متجاسة. ويبدو أن المنظور الداخلي، في هذه الحالات كلها، كاف، لا لحدوس فتجينشتاين وتيرنج وحسب، بل لتفسير ما هو واضح أو ما يمكن أن يحدث تبعاً لتتبع الظروف والاهتمات.

وربما صح لأحد أن يحتج بأن النظريات الدلالية التي اقترحت في الفترة الأخيرة تتجاوز حدوس فتجينشتاين وتيرنج بسبب النجاح التفسيري الذي حققته. لكن هذا لا يبدو فكرة واعدة؛ إذ ربما لا يمكن للنجاح التفسيري أن يدعي ذلك. ويبدو أن لدينا الآن، على العموم، من الأساليب ما يجعلنا نعتقد أن لدينا الآن قدرًا يفوق الأشياء المعينة التي كان ينظر إليها فتجينشتاين وتيرنج وراء حدود البحث العلمي الداخلي الذي ينصف بأنه أكثر غنى وأكثر دلالة مما يعترضه فتجينشتاين وحون أوستن (١٩٦٢) وآخرون.

وسوف يقصر البحث العلمي الطبيعي دائماً عن [التناول] القصدي؛ ذلك أن القصدي أن يمكن اختزالها وأن تحقّق، كما يقول بتنام، بحسب هذه الشروط في

الأقل، وسبيل تكلم للغة "عصيًا على التنظير" (Putnam 1988a.1). وتبدو دراسة أنظمة التمثيل الحوسبي الآن، ويشمل ذلك "الدلالة الدلالية"، أكثر أشكال البحث العلمي الطبيعي وعذاء، بما يبرمج البحث الداجح لها إلى حد معقول، أما فهم أنظمة الأداء فما يزال في بداياته، لكنه يدخل في حدود هذا البحث، من زوايا معينة في الأقل. وتثير هذه المقاربات مشكلات من النوع المألوف في أنواع البحث العلمي الطبيعي كلها، لكن لا يبدو شيء منها مختلفاً من حيث النوع. ونحن نأمل، في تقصينا لها، أن نتعلم شيئاً كثيراً عن الوسائل التي تستخدم في التعبير عن الأفكار، والتأويل، إلخ. ولا نلتمس هذه المقاربات عدداً كبيراً من الأسئلة، لكن يبقى أن نبين أن هذه الأسئلة حقيقية، لا زائفة، ونشير إلى بعض مواضع البحث التي يود المرء أن يبحثها، ولا شيء غير ذلك.

## هوامش الفصل الثاني

(١) تعني "القصدية" عند بريتناو أن الظواهر الذهنية . . . تتجه إلى موضوع معين. فإذا رأينا رأينا موضوعا، وإذا سمعنا وشمعنا، فإننا نسمع ونشم ونذوق موضوعا. وإذا افترضنا وعرفنا أو اعتقدنا، فإننا نفترض ونعرف ونبعث موضوعا. وبصفت بريتناو هذه الخاصية التي تميز، في نظره، لظواهر النفسية من كل الظواهر الأخرى، باعتبارها "علاقة بمحتوى" أو "اتجاهها إلى موضوع" ليس واقع بالضرورة، أو باعتبارها أيضا "موضوعية ملزمة" (محمد عالىم، هامش (٤١)، ص ٢٩٤. (المترجم)

(٢) ويقل ديفر موقف بيرج الذي يرى أن البحث الذي يتسبب إلى مدرسة مار إنما يهتم بالتمثيلات "المعلوماتية" ذات المحتوى القصدى (ومن هنا فهو يهتم بالسوابق السببية الفعلية)، لكن لا يبدو ممكنا أن يتماشى ذلك الموقف مع الممارسة الاحتمالية الفعلية أو النتائج النظرية (كـ "مبدأ الصلابة" عند أولمان، مثلا)؛ بل من الصعب أن يرى كيف يمكن أن يكون هذا الموقف صحيحا، وإن لم يكن لذلك من مسبب — كما يؤكد ديفر — إلا أن أبحاث مار لا تقارب أن تكون من نموذج التمثيل ثلاثى الأبعاد 3D أبدا. ويقدر ما تبلغ دراسة الإدراك البصرى هذا الحد (كما فى أبحاث أيزابيث سبيك عن تماسك الشيء فى مرحلة الطفولة المبكرة، مثلا؛ Spelke 1990)، فإنها تقف عند حدود التجربة البصرية، لا المحتوى الإدراكى بالمعنى التقنى فى الخطاب الفلسفى (Ullman 1979; Davis 1991).

(٣) يلاحظ ريتشارد ليونتن أن مما يشهد بمثل هذا المعنى فى نظام الأوعية الدموية أنه يمكن أن نضيف إلى تلك القصص المبهجة التى تُلقَى عن تطور المعرفة لتحريصات التى تقول إن الدماغ تطور بوصفه منظما

حرارياً، يعمل على تبريد الدم كما كل أرمسطو يظن وهو يُنتج البطشام المعرفى البشرى بوصفه ناتجاً ثانوياً (Lewontin 1990).

(٤) الإقصائية المادية eliminative materialism هي وجهة النظر التى يرى أن تصوراتنا الذهنية، كالاعتقاد والرغبة، ليست ملائمة للتعبير العلمى الجاد للبشر، لذلك ينبغي إهمالها. (المترجم)

(٥) هى "داخلية" internal لأنها تدرس الحالة للوعي الداخلية عند فرد معين باستقلال عن العوامل الأخرى الموجودة فى الكون، وهى "فردية" individual لأنها تعنى بدراسة فرد معين، ولا تعنى بدراسة "الجماعة" للوعي" التى ينتمى إليها الفرد إلا بصورة ثانوية، وهى "مفهومية" intensional بمعنى أنها تتشغل باللمعة "تشغلاً ذهبياً" مفهوماً بالأساس، وليس تشغلاً بالمظهرات السلوكية أو المنتوج، لو بمجموع العبارات التى تنتجها جماعة لوعي معينة، أى ما يمكن أن نتعته بأنه لتشغال خارجى ماصنفى" (عبد القادر القاسى المهرى، البناء المولزى، ص ١٨) كما تشغل بتخصيص الإمكانيات الذهنية التى تجعل المعرفة للوعي أمراً ممكناً" (محمد غالى، ص ٧٠). (المترجم)

(٦) ومرة أخرى، فهذا لا يعنى أن أنظمة الأداء الفعلية مستقلة إلى حد بعيد مع المصطلحات التى يستخدمها غير المتخصصين، لو فى الخطاب الفلسفى أو فى الأنواع الأخرى من الخطاب التقنى.

(٧) بل أقل من ذلك بكثير، حتى إن لمكن إعطاء العبارة معنى إلى حد من الوضوح يجعل من الممكن إثارة السؤال بشكل أكثر معقولة.

(٨) وقد طر هذا الموضوع مجالاً للنقاش منذ مقال جون سيرل: Minds, Brains, and Programs "الأنهاس، والأدمغة، والبرامج" (Searle 1980). وليس من الواضح إن كان هذا النقاش قد أدى إلى صياغة أية قضية جوهرية حتى الآن.

(٩) ويُعتقد أن مشكلة الانتقال بين أطوار [الاكتساب] لا تبرز إلا عند النظر إلى "الشككية الدلالية" semantic holism .

(١٠) ويجب عدم الخلط بين هذه الإجراءات ومبادئ النصِّقُ charity وأنداهها، إن كان التمييز بين "اللغة والاعتقاد" صحيحاً؛ انظر أدناه في هذا الفصل. ولكي نحقق أقل قدر ممكن من الواقعية يجب علينا أن نميز بين حالات كثيرة. لذا، فما يفعله بيتر حين نتكلم ماري لغة قريبة جداً [من لغته] ربما لا يكون له إلا علاقة واهية بالإجراء الذي يقوم به حين نتكلم لغة لا يعرفها؛ لذلك فجمع هذه الأحداث جميع تحت مسمى "التأويل" أو "الترجمة" لا يعد خطة جيدة للبحث.

(١١) فطر، عن تطوير سول كريك لهذا التأويل، والنتائج التي وصل إليها عن صلة [هذا التأويل] باللسانيات: Chomsky 1986a: chapter 4.1 .

(١٢) يجادل بتنام في كتابه Representation and Reality "التمثيل والواقعية" (Putnam 1988a) ضد افتراض أن المدخل المعجمي يتضمن إحالة محددة لأحكام الحبير. وتقوم هذه الحجة على بعض الافتراضات الصمنية عن اللغة العالمة المشتركة والترجمة يصعب الدفاع عنها، أو حتى صياغتها، كما يبدو. ومع ذلك ربما نقبل هذه النتيجة أخدين الاعتماد على حكم الحبير (من بين خيارات أخرى) خصيصاً عامة لعدد كبير من المداخل المعجمية، وهو ما يتصل بالطرق التي تدخل بها [هذه المداخل] في أنظمة الاعتقاد.

(١٣) انظر Stich 1983. وتوضح المشكلة الأساسية — التي تتمثل في أن أي إجراء نقرحه يمكن أن يكون مباشرة قوياً جداً وضعيفاً جداً — فيما كتبه شيفلر Scheffler 1955 .

(١٤) وينبغي أن نتكلم هنا، تفصيلاً، عن "المجمع — د"، إلخ.

(١٥) لا يبدو أن في اللغة العربية تمييزاً يماثل التمييز الذي في الإنجليزية بين الكلمتين. فهناك كلمات كثيرة يمكن أن تطلق على أي من المعنيين، نحو: "بيت"، و"دار"، و"منزل"، وسوف أستخدم "منزل"

ترجمة لـ home ، و "بيت" لـ house من أجل تبيين المعنيين في الإنجليزية فقط. (المترجم)

(١٦) انظر Lasnik 1989 : خاصة الفصل التاسع. وتبرر أسئلة مهمة في حالة (٢ح) (أي في حالة "عود الصمير على متأخر") عن أمور كالاستخدام الإحالي للأوصاف المحيطة [للمعرفة] والمعلومات القديمة والجديدة.

(١٧) يؤكد بنجام دائما أن المعايير التي تُستخدم في الاستدلال على الاعتقاد وتسويغه ترتبط بالاهتمام ارتباطاً لازماً. زيادة على ذلك، تُعرض الطبيعة الخاصة للفهم البشري (وحدودها، من ثم) بعض الاختيارات النظرية التي ربما لا تكون ملائمة على النظرية، وبذلك تترك المصطلح المشكلة التي تتصف بأنها الفار حقيقية للبشر (وهذه حصصة عامة للعصوبات). انظر Chomsky 1975; McGinn (1991).

(١٨) واعتماد ما يفعله الناس على بعض الأحداث التي توجد في مكان و زمان مختلفين ليس موضع شك، بالطبع؛ أما السؤال فهو: هل سيكون البحث العلمي الطبيعي "ماركوفياً" أم لا (انظر Miller and Chomsky 1963: 422)، حيث نأخذ الحالة الناتجة للعصوبات فقط لتدخل في عملية الأداء المحلية الحالية. لهذا فقد نصمط الذاكرة أو نُعمل، لكننا نسأل، من أجل أن نفهم ما يفعله شخص هنا والأخر، عما يمثل "محلياً"، لا ما يمكن أن يكون قد حدث في الماضي. وبالمثل، يعتمد نمو محلية ما لتصبح إصبغاً أو عظماً في الذراع على ما يقضي من وقت، أما دراسة هذه العملية فتتوقف عند بعض المؤشرات كالمكونات الحالية للتركز الكيميائي التي تُرود الحلية بهذه الحقائق. وهذا إجراء نموذجي، ويبدو معقولاً جداً.



(١٩) أما السؤال عن وجوب تطوير النظريات بحسب هذه الكيفيات فأمر مختلف. أما ما يعينني توصيحه هنا فهو ببساطة أنه إن كانت هذه النظريات تعتمد على أفكار الإحالة المفصولة، أو الاعتماد الإحالي، إلح، بصفتها تمثل شيئاً أكثر من مظاهر للكلام façon de parler فذلك يعنى أن شيئاً آخر من النوع الذى بينته هنا يبدو معترصاً — لا أنه إحالة إلى أشياء فى الكون (أو ما يعتقد أنها فيه).

(٢٠) وهناك بعض الاختلافات فى عود الصعير على متأخر، انظر الهامش ١٦.

(٢١) والنقطة الأساسية عن "التعبيرات المضللة باطراد" بالمعنى عند رايل Ryle يمكن إرجاعها فى الأقل إلى النقد الذى وجه فى القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار عند دو مارسى وبعد ذلك عند توماس ريد؛ انظر (Chomsky 1965: 199-200).

(٢٢) أو عن "المضمون الإدراكي" بالمعنى التقنى الحاصل فى الخطاب الفلسفى؛ انظر الهامش (١) والمتن. والفارق الذى يرمسه ديفر بين "التأويل" "المحافظ" والتأويل "المراجع" لهذه الفكرة التقنية ليس واضحاً، وأكثر من الفارق الذى يمكن أن نرسمه بين التأويل للمحافظ والتأويل للمراجع لمصطلح electromagnetic force "القوة الكهرومغناطيسية".

(٢٣) انظر ملحوظات منك (١٩٨٣) عن عدم قدرة "أكثر الأسماع التى لم تتلوث بالنظرية الطبيعية" عن الوصول إلى أى حكم فى كثير من هذه الحالات. وليست هذه الملحوظة مقبولة بالضرورة؛ فربما لا يمكن الوصول إلى حقائق علم للنص الشعبي إلا عن طريق الحس المدرب أو الموجه. وربما كانت هذه الملحوظة نتيجة معقولة فى سياق نظرى أغنى، لكن لا يوجد سياق نظرى، بشكل يكاد يكون نهائياً، ومن هنا ربما لا يكون هناك سبب يجتنبنا ننظر إلى الأحكام المعرولة كأنها تعنى شيئاً كبيراً.

### الفصل الثالث اللغة والتأويل: التأملات الفلسفية والبحث الاختباري

ظهر في الكتابات الفلسفية خلال الأربعين سنة الماضية عددٌ من التيارات المؤثرة التي تبدو لي مثيرةً للإشكال من بعض الزوايا المهمة بل الأساسية. وأقصد هنا، في المقام الأول، المقاربات التي تنطلق من بعض التصورات للكيفية التي يدرس بها العالمُ الاختباري — أو "اللساني الميداني"، بمصطلحات برنامج البحث المؤلف عند ويلارد كوين، اللغة، أو ينبغي له أن يدرسها بها. ويمكن أن ننكر هنا كوين ودونالد ديفيدسون وآخرين ممن اتجهوا نحو شكل من الذرية و"الإستيمولوجية العلمية الطبيعية"، يتضمن بعض القضايا التي يُظن أن لها أهمية فلسفية ضمن تصورهم للعلم الاختباري، ويمكن أن نضيف إليهم آخرين ينطلقون من منطلق مختلف: مثل: مايكل دوميت، وكثير من الذين تأثروا بفيجينشاين وفلسفة اللغة العادية، مثلاً.

وللتمثيل على مذاق هذه الأفكار، انظر إلى بعض تطبيقات رورتي في كتاب ليور (1986) عن ديفيدسون. فهو يقول إن "ديفيدسون مُحق بالتأكيد في قوله إن كوين "أخذ فلسفة اللغة بوصفها موضوعاً جاداً" بتخليصها من التمييز بين التحليل والتأليف. وكانت أفضل حجج كوين في عمله ذلك أن هذا التمييز غير مفيد لللساني الميداني" (Rorty 1986: 339).

أما "اللساني الميداني" فكل ما يجب أن يتشغل به أن يلاحظ الطريقة التي يتألف بها السلوك اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلي مع بيئته، وهو التفاعل الذي ينظر إليه [اللساني] على أنه موجه بقواعد الحث. . .، وعلي وجه أحص بـ"العدا التنطيمى" الذي يوص على "أن أكثر القواعد التي يتبعها متكلم اللغة مماثلة

للفواعد التي تتبعها نحن، وهو ما يعني أن أكثرها صحيح" (ص ٣٤٠، وربما يشير مصطلح "فواعد" هنا إلى الاعتقادات). وينبغي ألا ننشغل بـ "حطة" تصوُّرية، أو بطريقة النظر إلى الأشياء، أو بمنظور (أو... بلعة، أو بتقليد تعاقبي)، [لأن] اللساني الميداني لا يحتاج إلى شيء من ذلك، [ومن هنا] والفلسفة ليست بحاجة لها أيضاً" (ص ٣٤٤). ويوافق كوين وديفيدسون على أن "نظرية المعنى للغة ما هي ما يتحصّل من البحث الاختياري في السلوك اللغوي"، حين يقام به بطريقة ملائمة، وبما يتوافق مع مبادئ "شبكة المعنى holism والسلوكية" (ص ٣٥٢).

ونعني رورتي قائلًا إن هذا الخط من التفكير يقود إلى شكل من الذريعة التي يعتقها هو وينسبها إلى [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] جيمس وديوي، وتتضمن بصورة جزئية نفي أية علاقة من نوع "أن يجعل صادقًا" [يرهن على صدقه] being made true التي تلزم بين الاعتقادات والعالم. وبدلاً من ذلك "قائنا نفهم كل ما يلزم فهمه عن علاقة الاعتقادات بالعالم حين نفهم علاقتها السببية بالعالم" (ص ٣٣٥).

وإذا نحينا النتائج التي انتهى إليها رورتي جانباً<sup>(١)</sup>، دعنا ننظر في مسلماته. فإذا كانت أفضل حجة للتخلي عن التمييز بين التحليل والتأليف أن هذا التمييز لا يعيد اللساني الميداني فيجب، إذن، أن يكون كل من يشتمل بعلم الدلالة الوصفي تقريباً، أو حدث أن اشتمل به، مخطئاً خطأ كبيراً، لأن مثل هذا البحث محمّل بالمسلمات عن ارتباطات المعنى، وهي التي ستستدعي (على التحديد) أمثلة من التمييز بين التحليل والتأليف. فمن الصعوبة بمكان أن نجد أية دراسة للغة لا تعيّن بنى وتصف معنى للفعل kill والأداة so، إلخ، بطرق توضح أن هناك تمييزاً نوعياً – متخذاً للغة نفسها – بين الجملتين:

John killed Bill, so Bill is dead.

قتل جون بيل، لذلك بيل ميت.

John killed Bill, so John is dead.

قتل جون بيل، لذلك فجون ميت.

أو ربما يصعب، إن أخذنا حالة أخرى، أن نجد دراسة للاعتماد  
الإحالي في اللغة الطبيعية لا تستنتج أن اللغة نفسها تحدد وجود علاقة لازمة  
بين Mary و herself في (١)، لكنها لا توجد حين يكون التعبير نفسه  
مُدمجاً في سياق جملة رئيسة من نوع آيت شعري مَن. . . "I wonder  
who... وهو ما يُنتج الجملة في (٢):

Mary expects to feed herself. -١

تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

I wonder who Mary expects to feed herself. -٢

آيت شعري مَن تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

فستفرض مثل هذه الخصائص التركيبية — الدلالية حالات من التمييز  
بين التحليل والتأليف؛ لهذا سيبتج عنها تمييز بين:

Mary expects to feed herself, so Mary expects to feed Mary.

"تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك تتوقع ماري أن تطعم ماري".

(وهي تحليلية، حيث تؤخذ الحالات الثلاث التي ظهرت بها ماري على  
أنها "شريكة إحالتي")،

و:

I wonder who Mary expects to feed herself, so I wonder who Mary  
expects to feed Mary

آيت شعري مَن تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك آيت شعري مَن  
تتوقع ماري أن تطعم ماري.

(وهي غير تحليلية، في ضوء التأويل نفسه). لكن ما يزعم أن كسوين  
برهن عليه يتجاوز مسألة التحليل، إذ يصل إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك  
ارتباطات دلالية يمكن أن تُعزى إلى الملكة اللغوية تحديداً بوصفها متميزة  
عن الأنظمة العامة للاعتقاد لدينا، ويأخذ رورتى، في بحث آخر، هذه النتيجة  
على أنها أحد اكتشافين جوهريين يهددان صورة العالم التقليدية.

وقدّم كوين وآخرون، كما هو مشهور، تفسيراتهم الخاصة لهذه  
التميزات. وسأعود إلى هذه الاقتراحات، وإلى الكيفية التي يمكن أن تقوم بها  
في ضوء معايير البحث في العلوم الطبيعية، لكنني سأكتفي هنا بملاحظة أن  
من المؤكد أنه لا يمكن أن نفهم الإحالة إلى "اللساني الميداني" على أنها إحالة  
إلى أولئك الذين يقومون بالبحث اللساني فعلاً. فهي تتصف، بدلاً من ذلك،  
بطعم معياري، إذ تشير إلى الطريقة التي ينبغي لمثل هذا البحث أن يتجزأ  
بها، مع المحافظة على شروط "الشبكة الدلالية والسلوكية" التي يفرضها  
الفيلسوف، ويخالفها العلماء الغاطلون حين يبحثون. ومع أن البحث ربما  
يكشف لنا احتمال أن يكون هذا الموقف مسوّغاً، إلا أنه ربما ينبغي التسامح  
مع أولئك الذين يقررون تاريخ [دراسة اللغة] إن عبروا عن بعض التشكك  
الأولي.

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين طعم هذه النقاشات، انظر إلى حجة  
دوميت في الكتاب نفسه (Dummet 1986) وهي أن "المعنى الأساس" الذي  
يجب علينا أن نفهم به تصوّر اللغة هو ذلك الذي تكون به اللغة الهولندية  
واللغة الألمانية لغتين مختلفتين (وهو يعطى مثالاً مختلفاً، لكن المسألة هي  
نفسها)، وكل واحدة منهما ممارسة اجتماعية خاصة يُنخرط فيها الناس،  
وهي ممارسة تُتعلّم من الآخرين وتقوم على قواعد تتصف بأنها جزء من  
الممارسة الاجتماعية التي يلزم اتباعها (ص 173). فتوجد اللغتان الهولندية  
والألمانية بهذا "المعنى الأساس"، باستقلال عن أي متكلم لهما؛ و"يمتلك" كل  
متكلم مثل هذه اللغة، لكنه لا يمتلك عادةً إلا معرفة جزئية بها، وهي معرفة  
حاطنة جزئياً. وتذهب الأهمية المقصودة لاقتراح دوميت إلى مدى أبعد. فهو

يُبين لنا مفهوم "اللغة" الذي يُحدّد أساسيًا للأغراض الفلسفية، والنظرية المعنوية خاصة؛ ويبين لنا مجلاء أيضًا، أن هذا التصور للغة ضروري في رأيه لتفسير استخدام اللغة، وعلى وجه التحصر، لفهم "ما النظرية البعيدة المدى التي يأتي بها شخص ما في أول لقاء لغوي له مع شخص آخر". فلهذا الاقتراح إذن - صلة وثقى بالدراسة الاختبارية للغة، وبالناس، وبما يعرفونه ويفعلونه. وربما يقصد أنه يمكن السماح للسائين بأن يتجهجوا معارًا مختلفًا من أجل اهتماماتهم الخاصة، لكن الواضح أن لهذه الاقتراحات علاقة وثقى بالممارسة الملائمة في الدراسة الاختبارية للغة واستخدامها.

ويتمى الطعم التناقضى هنا إلى رتبة مختلفة شيئًا ما. فهو يتمثل في التصارب بين اقتراح دوميت والمسلمة المألوفة في الممارسة الاختبارية التي تقضى بانتفاء وجود معنى عامّ معيّن من خلال وصف "اللغة" بطريقة تكون بها اللغة الهولندية واللغة الألمانية لغتين مختلفتين لا يعرفهما الناس إلا "جزئيًا" وبصورة "خاطئة". وهذه هي الحال سواء كما ندرس بنية اللغة، أم اللسانيات النفسية، أم التغير اللغوي، أم التصنيف اللغوي، أم مشكلات التواصل، إلخ. فيمكن للمتكلمين الذين يعيشون قريبًا من الحدود الهولندية أن يتواصلوا بشكل جيد مع الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لكنهم يتكلمون لغتين مختلفتين بالمصطلح الذي يدعى دوميت أنه "أساسي". كما أن الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لا يستطيعون، بـ "معرفة الجزئية" "لغة الألمانية"، فهم شيء مما يقوله الذين يعيشون في أقاليم أخرى [من ألمانيا] وهم الذين "يمتلكون" "معرفة جزئية" أخرى بـ "اللغة الألمانية"، بالمعنى الذي يقصده دوميت. ولأسباب كهذه تحديدًا لا يوجد تصور مثل هذا يمكن أن يؤدي دورًا في البحث الاختباري للغة أو علم النفس. وتستخدم مصطلحات مثل مصطلح "اللغة الإنجليزية" أو "اللغة اليابانية" في الدراسات العلمية للغة، لكنّ هذا مصحوبٌ بفهم مؤداه أن هذا الاستخدام البديهي لها، وهو الذي يعتقه دوميت من غير معاملة، ينبغي أن يُستعنى عنه حين نتوجه إلى الدراسة الفعلية للغة، والسلوك والتواصل (٢).

وإذا كان تصورُ دوميت أسسياً للبحث الاختباري ولأغراض الفلسفة حقاً،  
فالفلسفة أو البحث العلمي للغة والسلوك، أو لكليهما، يولجها مشكلات جمّة،  
لأسباب ينبغي أن تكون واضحة. ذلك أن تصور اللغة الذي يراه دوميت  
أسسياً يتضمن عناصر اجتماعية - ميسية، وتاريخية، وثقافية، ومعارية -  
غائية معقدة وغامضة. وربما تكون هذه العناصر مهمة لعلم اجتماع  
الإنتماء identification دخل مختلف الجماعات الاجتماعية والسياسية  
ولدراسة بنية السلطة، لكن الواضح أنها تقع بعيداً خارج متناول أي بحث  
مجرد عن طبيعة اللغة أو علم نفس مستعملها.

ولكى نأخذ مثلاً آخر، انظر إلى دراسة لكتساب اللغة. فحين نقول، في  
الاستخدام العادي، لي الطفل ذا السنوات الخمس والبالغ الأجنبي يسيران نحو  
اكتساب اللغة الإنجليزية، لكننا لا نملك وسيلة لوصف ذلك الشيء الذي  
يملكه. ذلك أن الطفل سوف ينتهي إلى "امتلاك" الإنجليزية، في المسار  
المألوف للأحداث (جزئياً في الأكل وبشكل خاطئ)، أما البالغ الأجنبي فربما  
أن يحقق ذلك. ولو حدث أن مات البالغون كلهم فجأة وتمكن الأطفال من  
البقاء أحياء بطريقة ما، فسيكون أي شيء يتكلمه الأطفال - إن - لغة  
إنسانية، مع أنها لغة لا توجد الآن. ولا يوفر الاستخدام العادي طريقة مفيدة  
لوصف شيء من هذا، فهو يتضمن قدرًا كبيراً جداً من الاهتمامات  
والانشغالات المتصارعة الغامضة، وهذا أحد الأسباب التي تجعل تصور اللغة  
الذي يراه دوميت غير مفيد لأغراض البحث العلمي الفطري. ولهذا الأمر  
أهمية خاصة حين ننظر في الاعتماد على أفكار "الخطأ في استخدام اللغة"،  
و"معايير الجماعة"، و"الممارسة الاجتماعية"، و"اتباع القاعدة" التي تستعمل  
كأنها واضحة إلى حد كاف؛ مع أنها ليست كذلك<sup>(٣)</sup>.

وربما يكون مفيداً، في هذا المجال، أن نتذكر بعض الحقائق البديهية  
الأخرى؛ ومنها أنه لا يوجد، في البحث المنضبط والعلوم الطبيعية أو  
غيرها، موضوعات مثل "دراسة كل شيء". فليس جزءاً من العيزاء أن نتحدث

بدقة كيف يتحرك جسم ما تحت تأثير أى جسم لو قوة فى الكون، مع تكحل بشرى محتمل، إلخ. فليس هذا موضوعاً [صالحاً للبحث]. فما نقوم به عادة، بدلاً من ذلك، أسا فى البحث المنهجي تؤمّل من أجل أن تنتقى بعض المجالات المحددة بطريقة تمكّنا (كما نأمل) من اكتشاف السمات المهمة للعالم. فتتصف المواد الأولية والملاحظات، فى العلوم، بأنها أدوات ذات خصائص أدائية. فهي غير مهمة بنفسها، لكنها مهمة بقدر ما تكون دليلاً يسمح بتحديد السمات الأساسية للعالم الواقعي، فى معيار للبحث يُجرى دائماً تحت أمثلة صارمة، ضمنية غالباً وتمثل فهماً مشتركاً، لكنها حاصرة دائماً. أما دراسة "اللغة" بالمعنى الذى يراه دوميت فلا تبد أن تكون دراسة لكل شيء، ومن هنا ليست موضوعاً معيذاً للبحث، وإن كنا نأمل، ربما، أنها ستتطور لتصبح دراسة لبعض المظاهر لفضايا مثل هذه فى ضوء ما سينتشر فهمه عن بعض المكونات المحددة لهذا المجموع المستحيل.

ويثير تصوّر اللغة بوصفها "ممارسة اجتماعية" الذى يقترحه دوميت وآخرون مزيداً من الأسئلة، كما سيوضح حين يطبق على بعض الأمثلة الواقعية. انظر مرة أخرى إلى المثالين (١) و(٢) أعلاه (ص ١٥٩). فتؤخذ عبارة feed herself فى المثال (١) على أنها ترتبط بمارى، أما فى المثال (٢) فتربط بشخص (أنثى) مختلفة عن ماري؛ لهذا يرتب على المثال (٢) أننى أتساءل عن من الأنثى التى تتوقع ماري أن تطعم [هى] تلك الأنثى تحديداً، لا من الأنثى ماري التى تتوقع ماري أن تطعم ماري نفسها. ويثير المثال عدداً من الأسئلة ذات الصلة، ومنها: كيف نعرف هذه الحقائق. والإجابة، كما يبدو، أن الحالة الأولى للملكة اللغوية المشتركة تتضمن بعض العنادى عن الاعتماد الإحالي (أى نظرية الربط العاطلي)، وحين تثبت بعض الخيارات المعينة عن طريق التجربة الأولية وهى التى تركت من غير تحديد فى الحالة الأولى، لا يبقى لنا حيلر بشأن الكيفية التى ينبغى أن نؤول بها المثالين (١) و(٢) نكر من الخيار المتوفر لنا عن إدراك شيء ما على أنه



إما مثلت لخطر أو شخص. ولا يبدو أن للممارسة الاجتماعية أثرًا في مثل هذه الحالات، مع أن التجربة المبكرة تساعد، فيها جميعاء، على تحديد بعض التفاصيل المعينة لآليات الذهن/الدماغ غير المتنوعة المحددة أحيانًا. ويبدو أن الأمر نفسه صحيح بشكل عام. أما إذا أخذنا اقتراحات دوميت واحريين عن "الممارسة الاجتماعية"، حرفيًا في الأكل، فلنبدأ زائفة، كأمر من أمور الحقائق الاختيارية. إذ يجب، في الأكل، تقديم بعض الحجج لتفسير السبب الذي يوجب أن نأخذ هذه الاقتراحات بجد.

ومن المغري - حين نفهم اللغة على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصورُها هذه المناقشات - أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة المتعلمة من أجل القيام بمثل هذه الممارسات، كما يقترح دوميت لو - على وجه أعم - كأنها قدرة يمكن ممارستها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس، إلخ: أي أن "معرفة لغة ما لا تعدو لمثل تلك القدرة على القيام بهذه الأمور وأمور أخرى مماثلة" (Kenny: 1984: 138)<sup>(4)</sup>. ويقوى هذا الإغراء بالفهم الشائع للمعرفة بشكل عام على أنها قدرة. وتتقابل وجهة النظر هذه مع تصور اللغة بوصفها إجراء توليديًا يعين الأوصاف البنيوية للتعبيرات اللغوية، حيث تكون معرفة اللغة التمثيل الداخلي لمثل هذا الإجراء في الدماغ (في الدهن، كما يحتمل أن نقول حين نتكلم عن الدماغ في مستوى معين من التجريد). فتميز قدرة شخص ما على استخدام لغة (أي استخدامه لمعرفة) بشكل حاسم، من وجهة النظر هذه، عن امتلاكه مثل هذه المعرفة. وللصور الأخير ميزتان أساسيتان:

١- يبدو أن هذا التصور هو الطريق الصحيح لدراسة المعرفة البشرية - ومعرفة اللغة بشكل خاص - ضمن الإطار العام للعلوم الطبيعية، كما برهن على أنه تقوّل مثير إلى أبعد الحدود.

٢- وهو يتوافق إلى درجة بعيدة مع الاستخدام [اللغوي] المؤلف السابق على التحليل، وهذا أمر تقوى لكنه ليس خطأ من الأهمية تمامًا.

وهي مقابل هذا، فقد برهنت المقاربة في ضوء القدرة العملية أنها غير مثمرة أبدًا وأنه لا يمكن التمسك بها إلا حين نفهم "القدرة" بطريقة مفارقة للاستخدام اللغوي اليومي بشكل حاسم.

ولكي يتضح السبب الذي يجعل الأمر على هذا الوجه، نحرص أن جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه "اللغة الإنجليزية" في الاستخدام اللغوي اليومي، حسن من قدرته على تكلم لغته بالتحلقه بدرن للخطبة، أو أنه قد هذه القدرة بسبب جرح أو مرض (ثم استرد هذه القدرة نتيجة لأخذه علاجًا، مثلًا). لاحظ أن متكلم اللغة "اليابانية"، في الظروف نفسها، سوف يستعيد "اليابانية"، لا الإنجليزية، حين يستعمل العلاج نفسه، ثم إن الاستعادة في مثل هذه الحالات تختلف اختلافًا جذريًا عن الاكتساب؛ ذلك أن الطفل لا يمكن أن يكتسب الإنجليزية أو اليابانية في غياب أي دليل. وفي هذه الحالات جميعها، فإن شيئًا ما ظل ثابتًا، ونقل "الخصيصة" م، مثلًا، في الوقت الذي تتنوع فيه القدرة على الكلام والفهم، إلخ. فنحن نقول، في الاستخدام اليومي، إن الخصيصة "م" هي المعرفة اللغوية؛ لهذا بقيت معرفة جونز ثابتة في الوقت الذي تحسنت فيه قدرته على استخدام معرفته، أو تضاعفت، أو استعبدت، إلخ. ويتوافق التفسير في ضوء التمثيل الداخلي للإجراء التوليدي مع الاستخدام [اللغوي] اليومي في هذه الحال. ثم لاحظ أنه ربما نقودنا الأدلة الأخرى (من التشريح، مثلًا، أو كنا نعرف ما يكفي عن العلوم المتخصصة بالدماع) إلى استخلاص أن سميت، الذي لم يستعد لغته الإنجليزية، لعدم تناوله العلاج، احتفظ مع ذلك بمعرفته باللغة الإنجليزية كاملة بعد أن فقد قدرته على تكلمها وفهمها فقدًا كليًا. (ولمزيد من النقاش المفصل لهذه الأمور والتفسيرات البديلة الممكنة، انظر Chomsky 1980; 1986).

فيجب إذن، إن كانت المعرفة هي القدرة، أن تكون الخصيصة "م" نوعًا من القدرة، وإن لم تكن، بجلاء، قدرة بالمعنى المفيد جدًا للكلمة، ذلك أن القدرة تنوعت أما الخصيصة "م" فظلت ثابتة. لهذا يجب علينا أن نحلق معنى

تقريباً جديداً للكلمة "قدرة"، واسمها بـ "القدرة" — "م". ويعني هذا أن "القدرة" — "م" ظلت ثابتة في الوقت الذي تنوعت فيه القدرة<sup>(٤)</sup>. ومن الواضح أن "القدرة" — "م" معزولة تماماً عن القدرة، وتتصف بخصائص النصور القديم للمعرفة؛ بل ربما أمكن تسميتها بـ "المعرفة"، حين نتحلى عن المواقف المذهبية.

ومن المفارقة، كما يبدو، أن يجرؤ أحدٌ على تقديم هذه المحاولات كأنها تنطلق من روح آراء فتجيشيين الأخير، وهو الذي كان يجادل باطراد ضد الممارسة التي تسعى لصياغة تصورات لصطناعية، معزولة عن الاستخدام اليومي، من أجل الدفاع عن بعض الاعتقادات الفلسفية المعينة. بل يبدو أن فهم موقف فتجيشيين عن المعرفة كأنها نوع من القدرة مثالٌ نموذجي للممارسة التي كان فتجيشيين ينظر إليها على أنها مصدر رئيس للأخطاء الفلسفية.

لاحظ أن بعض الاعتبارات المعاملة تبيّن أن "الثروة" — أي معرفة كيف تركيب الدراجة، مثلاً — لا يمكن أن تُحلّ في ضوء القدرات، أو الاستعدادات، إلخ؛ إذ يبدو جلياً أنه يدخل فيها عنصر إدراكي لا يمكن اختزاله. لاحظ أخيراً أن من الواضح أن أي تفسير للمعرفة بأنها قدرة، إن أُنحت بأي معنى مماثل لمضاهي المألوف، غيرٌ مثير إطلاقاً. وربما كان من الممكن أن نحاول تفسير المثالين البسيطين في (١) و (٢) أعلاه في ضوء قدرات جونز، مثلاً. لكن لم يمسق لأحد أن حاول ملوك مثل هذا المنحى، ثم إن نظرة فاحصة لهذه القضايا ستسهم إسهاماً بيّناً في إيضاح السبب الذي يجعل النجاح في هذا المنحى مستحيلاً.

ويُصبح للتناقض بين الأفكار في المدى الذي لورنت أُنته منه هذا أكثر وضوحاً حين نتفحص بعض الشروط المحددة، فنظر مرة أخرى إلى ملاحظة رورتي، التي تؤخذ على أنها أمر واضح لا يحتاج إلى نقاش، وهي أن كل ما يجب أن ينشغل به [اللساني الميداني] أن يلاحظ الطريقة التي

يتألف بها السلوك اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في إنشاء تفاعل متكامل للغة الأصلية مع بيئته" (Rorty 1986: 339)، بغض النظر عن "المبدأ التنطيمي" الذي يقضى بأن اللغوية [اللغوي] صادق في روليتة عموماً. ويلاحظ أن هذا للتصور مبني على آراء كوين وديفيدسون. لهذا يجب على "اللسانيين الميدانيين" الذين يدرسون جونز، في ضوء نموذج كوين للمألوف لترجمة الحدوية" (Quine 1960; 1987)، أن يؤيدوا فرضياتهم بشكل "مطلق" عن طريق ملاحظتهم لسلوك جونز (أو في ضوء سلوك أعضائه "جماعة العابة"، التي تُصنف بأنها متجانسة؛ وإذا كانت غير متجانسة، فلن يُصلح شيء من هذه الحجج، أما إن كانت متجانسة فربما نلحق الجماعة في مقابل الاعتداد بجونز من غير أن نقد شيئاً ذا بال لهذه الأهداف، كما سأفعل أنا). وينبغي أن ألاحظ هنا أن بعض القضايا النصية تبرز، حين الإحالة إلى كوين، ذلك أنه يعطى — في إجابته عن بعض التساؤلات والنقد الذي يوجه إليه — عدداً كبيراً من الوجوه المختلفة لنموذجيه، وهذه الوجوه غير مطردة (انظر Chomsky 1975: 187f, 198ff). ومع ذلك فالحجة التي لورنتها أنفاً، وهي التي يتبناها ديفيدسون ورورتي، ضرورية إن كان لنا أن نستخلص من النموذج الكويني شيئاً من النتائج التي تعدُّ مهمة.

وقبل أن نبدأ النقاش دعنا نلاحظ مرة أخرى أن هذه الوصفات المعيارية تختلف اختلافاً جذرياً عن الممارسة الفعلية للسانى الميدانى. وهي غريبة تماماً عن المناهج النموذجية في العلوم الطبيعية كذلك. أما في الكتابات الفلسفية فتناقش هذه القضايا عموماً من حيث صلتها بنظرية المعنى، خصوصاً من حيث صلتها ببعض مظاهر نظرية المعنى التي لا نعرف عنها إلا القليل (لا من حيث صلتها، مثلاً، بما يتعلق بأمور كالاعتماد الإحصائي، الذي نعرف شيئاً كثيراً عنه). وهذه ممارسة مثكوك فيها، لأنها تعنى أن صيغ التحريصات عن طريق المعرفة الاختبارية والفهم النظرى محدود جداً. أما إن كان لهذا المذهب نصيب من الصحة، فيجب أن يلزم في كل ما يتصل

بما معروفه للمعرفة اللغوية، كما كان كوين، في الأقل، واصفاً في أن هذا صحيح. لذلك يجادل بشكل صريح أن الاعتبارات نفسها تُلزم حين يسرع اسميّه الميداني " أن الجملة:

John contemplated the problem.

تمعن جون في المشكلة.

تتضمن مركبين:

John المركب الاسمي:

contemplated the problem والمركب الفعلي:

John contemplated لا المركبين:

the problem و:

John contemp أو:

lated the problem و:

مثلاً. ويجب، تبعاً لكوين، حين يكون وفقاً للمسلّمات التي تتطلبها نتائج المشهورة لتكون صحيحة، في الأقل، أن يؤسّس هذا العزو لبعض الخصائص (سما معرفة أو ما شئت) إلى الراوية جونز على الألية عن "ملوك جونز" بصورة خالصة؛ وهي أدلة تستعمل في ضوء الممايير الصارمة التي يبنها. وربما يكون الأمر نفسه صحيحاً في دراسة البنية الصوتية، والعلاقات بين الضمان العائدة ومفترقاتها، لو أي شيء آخر<sup>(١)</sup>.

ونجد الإشارة إلى أنه لن يقل أي اسمي، لو أي عالم احتتاري عموماً أن يُحدّ بهذه القيود. وربما تكون المسلمة في علم الأحياء التي يمكن مقارنتها بهذه المسلمة أنه لا يمكن، في اختيارنا للفرصيات عن التطور الجيني البشري، أن نستأنس بأي دليل يأتي من دراسة "الحمج" *E. coli* أو دباب

العكسة أو الفروود أو التقيزياء. وإحدى الحالات الجوهرية، في الممارسة الفعلية، أن أي لسانى يتناول دراسة لغة معينة إنما ينطلق من مسلمة استخلصت من دراسة لغات أخرى. لهذا أن يتردد أى لسانى، يعمل فى ضوء المعايير التى نحصع لها العلوم، فى استعمال الأدلة التى وُصل إليها من دراسة اللغة اليابانية لكى تساعد فى إرساء فرضياته عن معرفة جونز للغة الإنجليزية. وهذا المنطق واضح، وهو صحيح إلى حد بعيد. فهناك أدلة احتمالية مقبولة جداً على أن الناس ليسوا "مهيئين" وراثيًا لاكتساب لغة ما بدلاً من لغة أخرى؛ بل يمكن الافتراض بدلاً من ذلك أن "الحالة الأولى" لملكاتهم اللغوية متماثلة إلى حد بعيد. فإذا قُدم للطفل كم من الأدلة فإنه يكتسب لغة معينة، مستفيداً من موارد الحالة الأولى التى تحدّد قدرًا عاليًا من المعرفة (القدرة) التى اكتسبها؛ ويمكن عدّ الحالة الأولى دالةً function ثابتةً محدّدة أحيانًا تحول الأدلة المتوفرة إلى معرفة مكتسبة، وبشكل متماثل فى اللغات جميعها<sup>(١٧)</sup>. وربما توفر دراسة اليابانية لنا دليلاً، وقد يكون دليلاً قوياً، عن الحالة الأولى، أى عن طريق مقارنة ما سيُعرف بما يقم، حيث تتوسط موارد الحالة الأولى بين الطورين، فإذا استُخدم منكلمو اليابانية إحدى الخصائص الصورية لبنية اللغة (كخصيصة: "التحكم المكوّن" c-command، مثلاً) فى تأويلهم الاعتماد الإحالى، ولم يُلزم "الدليل المتوفر للطفل اليابانى بشكل ما بهذه النتيجة المتماثلة أو لا يصلح حتى أن يكون سبباً فيها فسكون محققين فى أن نعرّو للحالة الأولى وجهًا من أوجه نظرية الربط العامل، التى تشمل على هذه الخصيصة والمبادئ ذات الصلة التى تدخل فيها، وهو ما يقود إلى تفسير الحقائق الملاحظة. لكن منكلم الإنجليزية جونز يشترك لسمع منكلم اليابانية فى الحالة الأولى، وسيترتب على فرضياته عن الحالة الأولى بالطبع بعض المقتضيات عن الوصف الملائم للحالة المعرفية التى حصلت لها. وربما تكون النتائج المحصلة من اليابانية عن معرفة جونز للإنجليزية بعيدة المدى. لهذا ربما يُبرهن الدليل عن الاعتماد الإحالى فى اليابانية أنه ذو صلة

بتحديد موضع حدود المركبات في الإنجليزية<sup>(٨)</sup>.

وهذا كله نموذجي في الممارسة العلمية، ولم يكن يوماً موصفاً للتشكك في العلوم الطبيعية — أو النقاش، ذلك أنه واضح إلى حد لا يجعله موصفاً للخلاف. ومع ذلك نجد كوين والمتأثرين بنموجه يلزمون "اللسانيين الميدانيين" بالمخالفة الجذرية للإجراءات المتبعة في العلوم، وقصر عملهم على جزء ضئيل من الدليل ذي الصلة، يفتقر في ضوء معايير المذهب السلوكية؛ ولما يرفضوا الإجراءات النموذجية التي تستخدم في بناء النظرية في العلوم كذلك. وليست هذه مسألة نظرية؛ ذلك أن ممارسة اللسانيين الوصفيين المألوفة تعتمد على هذه المسلمات اعتماداً حاسماً، مع أنها ينبغي أن تكون أوضح الحقائق البديهية.

ويمكن أن نصوغ هذه المسألة بشكل مختلف. فواجه اللساني والطفل مهمتين مختلفتين اختلافاً جذرياً. فيكتسب الطفل، المزود ببعض القدرات الفطرية المعينة، معرفته اللغوية بلغة ما — بصورة آلية، ولا يتوفر له إلا خيارات محدودة جداً من هذا الأمر، إن كان هناك خيار أصلاً. أما اللساني فيحاول أن يكتشف ما المعرفة التي اكتسبها الطفل، وما خصائص للذهن/الدماغ الفطرية المسؤولة عن هذه العملية لنمو المعرفة (فهو يحاول أن يكتشف ما يعرفه الطفل قبل التجربة، إن استعملنا التعبير الذي يبدو ملائماً جداً). وسيستعمل اللساني بصورة ملائمة إلى حد بعيد النتائج ذات الصلة بالخصائص الفطرية، بغض النظر عن المصدر الذي جاءت منه، لوصف المعرفة المعصّلة، في دراسة المعنى خاصة، حيث يكون لهذا المجال المنزلة التي لغيره.

بل إن إلزامات كوين، إن طبقت تطبيقاً مطرداً، ستكون أكثر تطرفاً مما يوحي به هذا المثال. لذلك سوف ينظر أي عالم إلى الأدلة التي تأتي من الأمراض اللغوية أو التنوعات اللغوية بين الأمر اللغوية أو البنية العصبية أو الكيمياء الأحيائية، بل من أي دليل مهما كان مصدره، على أنها ذات صلة

محتمله من حيث المدى بتحديد طبيعة الحالة الأولى أو حالة المعرفة المحصلة، لأن هذه الحالات ببساطة عناصر للعالم الأحيائي الطبيعي. ويؤكد كوين نفسه هذه النقطة فيما يخص دراسة العالم الطبيعي، باستثناء دراسة البشر في "ما فوق الرقبة" حين يقوم بها "اللسانيون"، بمعنى هذا المصطلح عنده. وإذا أمكن بيان أن بعض الحقائق عن البنية العصبية للدماغ توفر تحققاتاً طبيعياً لأنظمة الفواعل من نوع معين (ونقل عن تصميم الجملة:

John contemplated the problem.

إلى مركبين هما: John و contemplated the problem ) بدلاً من تقسيمات أخرى، فيكون هذه الطريقة في النقاش مقبولة - إذن - في العلوم للوصول إلى قرار بشأن الوصف الصحيح لمعرفة جونز - أي الحالة المعرفية التي حصلها جونز (وتعني هنا قضية اختبار بنية المركبات). ويصبح الأمر نفسه عن نظرية المعنى، أو عن أي بحث اختباري آخر. لكن هذه الطرق كلها، المألوفة في العلوم الطبيعية، مرفوضة رفضاً قاطعاً في ضوء القيود التي يضعها كوين على عمل "اللساني" تبعاً للنموذج المستخدم استخداماً واسعاً في النقاش الفلسفي.

ويقيد كوين هذه المذاهب بطرق تلفت النظر. وتكشف النظرة الفاحصة لهذه القيود بجلاء الطبيعة الاعتبارية للافتراضات التي يصدر عنها، وعدم فهمه المستمر للفضايا الاختبارية، وكمثال على اعتبارية هذه الافتراضات، انظر إلى نقاشه للدليل الذي ربما يقودنا إلى تعيين بنية مركبة أو أخرى لجمل جونز الإنجليزية (Quine 1986). فإذا جاء هذا الدليل من التجارب اللسانية النفسية عن إدراك إزاحة الطقطقات<sup>(1)</sup>، فهو مقبول، أما إن جاء من القيود على الاعتماد الإحالي في البيانات أو على صياغة التركيبات الحسية في عدد لا يحصى من اللغات فخير مقبول - إذن - مع أنه دليل يمس أن يؤول بالكيفية المألوفة في العلوم الطبيعية، في ضوء الطرق التي تاقدها قبل قليل. وربما تؤول لراة كوين على أنه يرى أن الدليل من النوع الأول



(الذى يسمى "الدليل النفسى") أقوى وربما أكثر إقناعاً مما يسمى بـ "الدليل اللغوى"؛ وإذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا ببساطة خطأ آخر، ذلك أن الأمر بخلاف ذلك، فى الوقت الحاضر فى الأقل. بل يبدو كأن كوين يرى أن الدليل يختلف من حيث طبيعته الإستمولوجية، وهذه فكرة مستحيلة. ذلك أن الأدلة لا تلقى معهورة بأنها "صالحة لإثبات النظريات" ("الدليل النفسى") أو "صالحة من أجل البساطة وقبولها للترجمة" ("الدليل اللغوى")، فهى أدلة وحسب، وربما تكون جيدة أو رديئة، مقنعة أو غير مقنعة، فى ضوء الأطر النظرية التى يمكن أن تؤوّل فى ضوءها لتحديد العرضيات تحديداً صارماً أو تأكيداً.

ومن أمثلة عدم فهم كوين للقضايا الاختبارية، مناقشته لما يسمى بـ "القيّد على بنية العطف"، وهو تعميم وصفى يشمل، مثلاً، الفارق الجذرى من حيث المكانة بين التعبيرين الاستفهاميين اللذين يُشتقان عن طريق السؤال عن مارى فى الجملتين التاليتين:

John saw Bill and Mary.

"رأى جون بيل ومارى".

و:

John saw Bill with Mary .

"رأى جون بيل مع مارى".

أى الاختلاف بين:

Who did John see Bill and?

Who did John see Bill with?

لحيث لا يمكن السؤال عن أحد المتعاطفين وترك الآخر (فى المثال الأول)، وإمكان السؤال عن أحد الاسمين المتعاطفين فى غير هذه النسبة (المثال الثانى).]

وبستنتج كوين أن "التمائل اللافت للنظر" [بين اللغات] الذي يبييه هذا  
 العيد "لا يوحي بأنه ممة موحدة في اللغات كلها"، بل "هو إشارة إلى صلة  
 مسببة بين اللغات من القواضح أنها تحولت إلى خصيصة نحوية بهذه  
 الأشكال"<sup>(١٠)</sup>. لكن هذه النتيجة تقوم على سوء فهم خطير للتصايا الاختبارية  
 ذات الصلة هنا. إذ تكمن المشكلة في أن نقرر كيف يعرف الأطفال جميعاً  
 العارق ذا الصلة بين:

Who did John see Bill and?

[وهي خاطئة]

و:

Who did John see Bill with?

[وهي صحيحة]

ولا يمكن القول هنا إن الطفل يعتمد على دليل يستقيه من تاريخ اللغة،  
 وهو لا يمتلك في العادة تجربة ذات صلة لكي يُحدّد (بـ "الاستقراء"، أو  
 غيره) أن القاعدة البسيطة "قدم عبارة — wh" مُبعت من العمل بصورة ما في  
 الجملة:

John saw Bill and who.

"رأى جون بيل ومن".

لكنها لم تمنع في الجملة:

John saw Bill with who.

"رأى جون بيل مع من".

(في العامية الإنجليزية). فلا يُنتج الأطفال، مثلاً، جملاً مثل:

Who did John see Bill and?

ثم يُرشدهم أهلهم إلى أن هذه ليست الطريقة التي تُنتج بها هذه  
 الجملة؛ كذلك فاللغات لم تُنتج نحو هذا "التبسيط" في قاعدة الاستفهام عبر  
 آلاف السنين<sup>(١١)</sup>. فتكمن المشكلة، باختصار، في تقرر المنته، كما أنه ليس

للتحرصات عن الصلة النسبية بين اللغات صلةً بها إطلاقاً، في هذه الحالة وفي حالات أخرى مماثلة لا حصر لها<sup>(١٢)</sup>.

وتُبين حالات أخرى عن نوع مماثل من رفض السماح لدراسة اللغة بأن تسير بالكيفية التي تسير بها العلوم الطبيعية. انظر مقال ديفيدسون بعنوان: A Nice Derangement of Epitaphs "تحريف بسيط في شاهد قبر" في الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل (Lepore 1986). فينظر ديفيدسون في الدعوى التي مفادها أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن يصوغ "نظرية صريحة" تكون نموذجاً لمعرفة المؤول اللغوية، أي "نظرية تكرارية من نوع ما"، وأنها لا تستطيع "وصف ما يقوم به المؤول" إلا باللجوء إلى مثل هذه النظرية. ثم يمضي قائلاً إنه: "لا يُصيف شيئاً إلى هذه الدعوى أن نقول إنه إذا وصفت النظرية المعرفة اللغوية عند مؤول ما وصفاً صحيحاً، فيلزم أن يكون عند المؤول بعض الآليات التي تتماثل مع النظرية" (Davidson 1986b, 438). وقد اقترح دوميت وآخرون مثل هذه النقاط كذلك<sup>(١٣)</sup>.

وسيجد من يقارب هذه المماثل من منظور العلوم الطبيعية أن التعليق الأخير الذي أوردناه حاطي تماماء إذ لو كان صحيحاً لكان التعليق المماثل صالحاً في دراسة الإدراك أو الكيمياء. وكما هو الأمر في العلوم كلها، فقد يضيف إلى الدعوى إصافات مهمة أن يقال إن "بعض الآليات عند المؤول". يوجد ما يماثلها في النظرية، أي إن علماء العلوم الطبيعية الذين يصوغون نظرية "تصف ما يمكن أن يفعله مؤول" سيستمرون ليعرّوا إلى الشخص الذي يدرسه بعض الآليات الثابتة الصريحة التي ستُصف بالخصائص التي نعتزص في هذا التعبير الوصفي، لا في غيره. وربما يكون هذا العزو في مستوى مجرد، في ضوء أنظمة قواعد مستقلة في الدهن، أو في ضوء وحدات مجردة أخرى كالشبكات العصبية، أو في ضوء بنية الخلايا، إلخ؛ وهذا كله نموذجي في العلوم الطبيعية. وبعد أن يعزو المشتغل بالعلوم الطبيعية بيئة معينة وبعض الآليات المحددة لذهن/لماغ شخص ما — وغالباً ما يكون ذلك

في مستوى مفارق جداً للآليات الفيزيائية الأكثر أولية غير المعروفة - سيكون عندئذ قادراً على اختبار النظرية في ضوء مجموعة من الأدلة الكثيرة، ومنها مثلاً، الدليل الذي يؤخذ من لغات أخرى بالطريقة التي يتأها اناء، والدليل من الأمراض التي تصيب الدماغ أو من العلوم المتخصصة في الدماغ أو للكيمياء الأحيائية. لكن اشتراط ديفيدسون يمنع هذه الجهود التي نستخدم مباحث البحث المضبط في العلوم لتحديد إن كان التطيل المقترص للمزول صحيحاً حقاً، وأن نعدله إن لم يكن كذلك (كما هو المحتمل).

وتبرر المشكلة نفسها حين يعترض كوين وديفيد لوبس (١٩٨٣) ودوميت، وكثير غيرهم بأن هناك مشكلة تبرز حين يعزو اللسانيون إلى متكلم - سامع معين نظام قواعد دلخلاً محدداً، ثم يسعى هؤلاء إلى استقصاء صدق هذه النظرية عن الشخص مستخدمين المباحث النموذجية التي نستخدم في العلوم. بل يجادل كوين (Quine 1972: 447)، أن هذا المحي ربما لا يزيد عن "حمافة" خائصة، وينبغي التغلب عليها بالتأمل الملائم عن المنهجية. وتكمن المشكلة للملاحظة في أن من الممكن أن نصوص لأي مجموع من السلوك للملاحظ، أو أي مجموع غير نهائي من الأقوال نختاره اعتماداً على بعض الأسس الغامضة وبأحذه الفيلسوف على أنه "اللغة"، عدداً كبيراً غير نهائي من النظريات التي تتوافق مع هذا الدليل (وتسمى أحياناً: "نصاء") لذلك ينظر إلى الافتراض بأن واحدة من هذه النظريات "صحيحة" والأخرى "زائفة" على أنه توجه غير مسوغ - إلا، كما يرى كوين أحياناً، أن كان هناك "دليل نفسي" - بخصائصه الغامضة التي يفتقر إليها "الدليل اللغوي" - يؤيد فرضية معينة أو أخرى. وتدعم هذه الحجة في الغالب بالقبول على دراسة اللغات الصورية، التي ليس لها صلة البتة ومضلة إلى حد بعيد، ولو كانت هذه الحجة صحيحة لكان المتوقع أن تصح في العلوم كلها؛ لكنها ليست إلا شكلاً من التشكك الذي لا يحمله أحد على محمل الجد في دراسة العالم الطبيعي لأسباب أصبحت في القرن السابع عشر، كما يلاحظ

بوبكين (Popkin 1979)<sup>(٩٠)</sup>. وسيعزو المشتغل بالعلوم الطبيعية إلى الشخص الذي يدرسه نظامًا محددًا، بدلاً من نظام آخر (أي: نحوًا، إلى استعمالنا المصطلح المصطلح)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكيد من صحة هذه الفرضية عن طريق البحث عن أدلة متعددة بقدر الإمكان، ويشمل ذلك بصورة خاصة الأدلة من لغات أخرى، بالمعايير التي ناقشناها أعلاه. ومن الطبيعي أنه سيظل هناك دائمًا شيء من عدم التحديد الاختياري، لأن هذا علم اختياري، لا رياضيات، لكن هذا هو كل ما يمكن قوله عن هذا الأمر. وهناك أبحاث كثيرة جدًا تجادل بأن العكس هو الصحيح، إلا أنها تقوم على احتجاجات واهمة جدًا<sup>(٩١)</sup>. ومن هذه الأوهام الفرضيات الخاطئة التي ناقشناها أنفاً: أي أنه لا يمكن أن يأتي الدليل عن معرفة جونز اللغوية إلا من سلوك جونز (حين يزول في ضوء المبدأ التنظيمي عن الصدق)، وأنه لا يضيف إلى وصف سلوك جونز شيئاً أن نعزو إليه آلية داخلية محددة، وربما كانت هذه نظاماً معيناً من القواعد أو شكلاً ما من التنظيم العصبي الذي نتحقق به. ويمكن إيضاح هذه النقطة، مرة أخرى، بالنظر في مسألة حدود البنية المركبية. الفرض أن لدينا نوعين من الأدلة لوضع الحد الأكبر [للمركبات] بعد الفاعل في:

John -- contemplated the problem

ويأتي النوع الأول من الاعتماد الإحالي في اليابانية ("الدليل اللغوي") والثاني من الإراحة الإدراكية للطقطقات ("الدليل النفسي"). ويخضع السدليل الأول للنوع المؤلف من عدم القدرة على التحديد. وكذلك الثاني. الفرض أن الطقطقات، في ضوء الشروط الاختيارية التي وضعت للحصول على النتائج الصحيحة (بعد عدد كبير من المحاولات التي تنتهي بالخطأ، كما هو المعهود)، مستراح إدراكياً إلى الحد بين الفاعل والمفعول، لا إلى الحد بين الفعل والمفعول. ويمكن تأويل هذه النتائج على أنها تؤيد النتيجة التي معادها أن شبة هذا المثال هي:

NP - V NP

[مركب اسمي - فعل مركب اسمي]  
لا:

[NP V - NP]

[مركب اسمي فعل - مركب اسمي]  
أو:

[NP - V NP]

[مركب اسمي - فعل - مركب اسمي]

لكن من السهل أن نستخدم حجة كوين لتبيين أنه ليس هناك أمر من أمور الحقيقة في هذه الحالة (Quine 1960: 303؛ وانظر Chomsky 1980: 15). فمن الواضح أن هناك تأويلات أخرى كثيرة لهذه النتائج الاختبارية. فيمكن تأويلها بأن القطعقات أزيحت إبراكياً إلى وسط "تكون ماء"، لا إلى حذاء؛ أو ربما كان المجرب عليه يجيب بتعيين حدود المكون الذي يلي المكون الأكبر مباشرة. ويمكن أن تؤوّل التجارب الأخرى ذات الصلة كلها بطرق مماثلة، كما يمكن القيام بذلك من حيث المبدأ بكل تأكيد - وإن لم يكن بسيطاً من حيث الممارسة، سواء في حالة الدليل "النصي" أو الدليل "اللغوي". فالتضايح هي نفسها في الحالتين كليهما؛ بل لا توجد تضايح خاصة هنا، ذلك أنها تصح في البحث الاختباري بصورة عامة.

ويتردد كوين في قبول النتائج حين تُستخلص عن حدود المركبات أو عن المظاهر الأخرى للغة اعتماداً على "الدليل اللغوي"، أي لم يصحب ذلك مريد من الواضح عن الآلة المفترضة<sup>(١٦)</sup>، لكنه لا يثير هذه الاعتراضات حين تستنتج هذه النتائج نفسها اعتماداً على "الدليل الانعكاسي". وليس لهذه الدّنية الإستيمولوجية من معنى البتة؛ وهي خطوة واسعة إلى الحلف من الثنائية الميتافيزيقية التقليدية، التي كانت ردّاً فعل معقولاً على مشكلات اجترارية ملحوظة، تتطوّل من مسلمات نعرف الآن أنها كانت خاطئة<sup>(١٧)</sup>.

وهذه الاعتراضات، على الوجه الذى هى عليه، متماثلة من حيث المبدأ، مهما كان الدليل الذى تقوم النتائج عليه، وهى لا تريد عن كونها سمات للبحث الاحتمارى. أما فيما يخص "الألة المفترضة" فلا تثير مشكلة مبدئية تختلف عن تلك المشكلات المعهودة فى الأنواع كلها لصياغة النظرية فى العلوم الاحتمالية.

ومع ذلك فهناك نوع آخر من التناقض يبرز فى هذا الإطار، فيجادل كوين بأنه من غير المسموح للسانيين أن يعزوا نظاماً لغوياً محدثاً، بدلاً من أنظمة أخرى، للفرد أو الجماعة المؤمنة التى يدرسونها<sup>(١٨)</sup>؛ ولا يُسمح لهم أن يتفحصوا ما يكون صحيحاً عن الدماغ، حين يوصف فى المستوى الذى يصوغ فيه أنظمة القواعد وما يشبهها. لكنّ هناك شيئاً صحيحاً عن الدماغ؛ فهناك شيء معين عن دماغى يكون فيه مماثلاً تقريباً لدماغك ومختلفاً اختلافاً مهماً عن دماغ متكلم اللغة السواحلية. لهذا يجب أن يُسمح لأحد ما أن يدرس مظاهر العالم الواقعى هذه، لكن ليس اللسانيين، الذين يُقصرُونَ على بحث سلوك جونز، وربما لا يمكنهم أن يعزوا بعض الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز أو أن يستخدموا أدلة من اللغات الأخرى (أو من أى مجال آخر، من حيث المبدأ) لكى يختبروا دقة نتائجهم عن هذه الآليات، وستكون الخطوة المنطقية - إن قبلنا بهذه القيود المصطلحية على ما يجب أن يفعله اللسانى - أن نهجر اللسانيات (وبشمل ذلك دراسة المعنى فى ضوء الشروط المفروضة فى نموذج البحث عند كوين). أما حين نتخلى عن هذه الممارسات غير المفيدة، يمكن لما الآن أن نلقت إلى هذا الموضوع الآخر حيث يُسمح لما بأن نعزو بعض الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز وأن نتفحص هذه الفرصيات مستخدمين المناهج التى تتبعها العلوم، مستعينين بأى دليل ممكن؛ والحق أن هذه الممارسة هى ما يقوم به اللسانيون، وهى التى أُبينت فى هذا التقليد العريب، وإن كان تقليداً مؤثراً جداً فى الفلسفة الحديثة، وهو الذى يتباهى، وهذه معارقة، بالتمثلة إلى النزعة الطبيعية وبالترامه بالمناهج العلمية.

ويقدم كوين، في أحدث جهوده لتسوية القيود التي يفرضها (Quine 1987) الحجة التالية. فهو يجادل بأن "المنهج السلوكي لازم" للسان؛ ذلك أنما في اكتساب اللغة تعتمد حصراً على السلوك الظاهر في السياقات الملاحظة. . . . لذلك لا يتضمن المعنى اللغوي شيئاً وراء ما يلتقط من السلوك في الظروف الملاحظة" (Quine 1987: 5)، ويصح الشيء نفسه، اعتماداً على تماثل الحجة، في دراسة طريقة النطق، أو للبنية المركبية، أو غيرها من مظاهر اللغة. زيادة على ذلك، وكما بين كوين بجلاء مرة أخرى، فالسلوك الذي يهتم به اللسان إنما هو سلوك متكلمي للغة الذين يعزو إليهم معرفة لغة؛ فإذا اختلف المترجمون في ترجمة جملة من لغة سكان غابة ولا يمكن لأي سلوك عند هؤلاء [الذين يسمون ضمناً بأنهم متجاسرون] أن يقرر أمر هذا الاختلاف، فيعني هذا أنه ليس هناك، ببساطة، شيء يمكن عدّه أمراً من أمور الحقيقة" (Quine 1990: 38)، وأن اللساني الذي يعتقد أن هناك حقائق يمكن اكتشافها، وأن بعض النظريات (الأنحاء) صحيح وبعضها غير صحيح، يرتكب خطأ منهجياً خطيراً لو هو صحيحة لـ "حقوق" خالص (التذكر أن "المترجم" يمثل متعلم اللغة كذلك) (19) وأن الحجة نفسها تطبق على طريقة النطق، والبنية المركبية، وغير ذلك).

انظر الآن إلى الحجة التشبيهية التالية، فيعتمد الكائن العضوي بشكل خالص، في مساره من الحالة الجنينية إلى الحالة الناضجة ليصل إلى بنيتة المادية النهائية، على التغذية التي يستمدّها من الخارج (ويشمل ذلك الأوكسجين، إلخ). فلا يوجد شيء في البنية المادية للكائن العضوي الناضج - إن - وراء ما يمكن أن يلتقط من الدخول الغذائية. لهذا يجب على دارس التطور البشري وما يؤول إليه، إن، أن يقصر انتباهه على هذه الدخول وحدها؛ وهو ما يعني أن "المقاربة الغذائية لازمة" عند عالم الأحياء، وتماثل هذه الحجة حجة كوين، وهو ما يجعلنا نرى سبب عدم إمكانها فوراً. فصحيح أن الجبر "يعتمد" على البيئة الغذائية مثلما "يعتمد" متعلم اللغة على السلوك



الظاهرى. لكن ما الذى يتضمنه مصطلح "يَعتمد"؟ وها نلقت إلى بنية الكائن العضوى التى يمكن أن تنتظر إليها بشكل مجرد بوصفها تحويلاً لدحول خارجية إلى حالة تاضجة. وفى غياب مثل هذه البنية لن يؤدى السلوك للملاحظ إلى معرفة اللغة، ولن تعود التغذية إلى نمو. وكوين يعرف هذا بالطبع. لهذا يربط "اللسانى الميدانى" فى عَرَف كوين، فى تتبعه مسارَ متعلم للغة، "بشكل مؤقت أقوال المتكلم بالسباق للملاحظ المصاحب"، كما يُسمح له أن يستفيد من الفرضيات الأخرى التى يُزعم أنها تمثل القدرات التى زود بها متعلم اللغة، وربما أمكن لهذه الفرضيات، إذا ما وضحت، أن تكون أساساً لنظرية عن البنية الفطرية للكائن العضوى والتحويل.

وكما يتفق الجميع، فليس هناك لُزْ للبيئة الخارجية على نمو اللغة (أو غيرها) فى غياب البنية الفطرية؛ ولن يمكن لجوز، على وجه الخصوص، فى غياب البنية الفطرية، أن يتطور بطريق محددة من جنين إلى شخص، ولا يمكن أن تصل ملكته اللغوية إلى حالة المعرفة الناضجة التى تؤسس لسلوكه وتفسره. لكن الطفل مزودٌ بهذه البنية الفطرية، لهذا ينمو ليصل حدّ النضج بحسب مسارٍ موجهٍ داخلياً بشكل كبير؛ ومهمة العالم أن يكتشف طبيعة هذا الإعداد الداخلى وطبيعة الحالة التى حصلت. وأفضل نظرية - الآن - أن الحالة الأولى للملكة اللغوية تتضمن بعض المبادئ العامة لبنية اللغة، ويشمل ذلك المبادئ الصوتية والدالية، وأن الحالة الناضجة للمعرفة اللغوية إجراء توليدى يعين الأوصاف البنيوية للتعبيرات اللغوية وتفاعلاتها مع النظام الحركى والنظام الإدراكى والأنظمة الإدراكية الأخرى للذهن/الدماغ؛ لتعطى تأويلات دلالية وصوتية لقول ما. وهناك أنواع كثيرة جداً من الأنظمة الاحتشائية ذات الصلة العبدئية بتحديد الكيفية الدقيقة التى يجب أن يبنى بها هذا الاقتراح بالتفصيل. ومرة أخرى، لا يدعو هذا كله أن يكون علماً نموذجياً، وهو يؤدى إلى نظريات إما صحيحة أو زائفة (٢٠) عن المعرفة اللغوية لجوز وحالاته الأولى، التى هى جزء من الإعداد الأحيائى المستمرى.

وربما يجب التحلي عن هذا الاقتراح في ضوء بعض التصورات الأخرى التي لا توجد الآن، لكن الوصول إلى هذه النتيجة لا يكفي لأن نطلب من اللساني هجر المناهج العلمية.

وكما هي الحال في صياغات كوين المبكرة لهذه الأفكار، فتقريراته المحددة عن البنية العنصرية (ومن هنا عن "التحويل") اعتباطية خالصة، وليس لها صلة بما، بعض النظر عن موانعها التاريخية. فليس هناك من سبب لأن نقبلها في حال اللغة، مثلما أن شبيهتها المذهبية عن "الاعتماد" مترخص فوراً في دراسة للمظاهر الأخرى لنمو الكائنات العضوية. وهناك أدلة مقنعة، ريادة على ذلك، على أنها زائفة، على حد ما صيغت به من وضوح. وكما هي الحال في دراسة لتطور المادى عموماً، سوف يضرب الباحث المنهجي صفحاً عن هذه المسلمات المذهبية عن طبيعة "الاعتماد" (الذي يتعلق بطبيعة البنية العنصرية) مع الاعتقادات الأخرى، كذلك التي أشرنا إليها آنفاً، وسيستعمل أى دليل متوفر يتيسر وجوده عن بنية الكائن العضوي والتحويل وطبيعة الحالات المحصلة في حالات معينة. وتبقى النتائج التي استخلصها كوين وديفيدسون ورورتي وكثير غيرهم معتقدة إلى الحجة. وليس هناك ما يمكن بعثه من الصورة التي يرسمها كوين لهذه الأمور، على حد ما لرى، مع أن بعض نتائجها — خاصة ما يتعلق منها بـ "شبكة المعنى" — ربما يثبت أنها صحيحة، إلى حد كبير في الأكل.

لنعد الآن إلى التمييز بين "التحليل والتأليف"، وإلى حجة ديفيدسون (Davidson 1986a: 312) التي مفادها أن كوين استطاع "بالخلاص" من هذا التمييز [إفاداً فلسفة اللغة بوصفها موضوعاً جاداً]. لننتكر أن موضوع النقاش هنا ليس هذا التمييز ببساطة، بل مسألة الارتباطات الدلالية التي تحدد اللغة عموماً. ونحن لا نستطيع، كما تكرت، الاحتجاج بحجة رورتي، المنسوبة إلى كوين، ومفادها أن "اللساني المبدئي" يجد هذا التمييز "غير مفيد". أما من حيث الممارسة فتعري البنية الدلالية دائماً إلى الوحدات المعجمية في الأبحاث

الوصفية والدراسات النظرية لدلالة اللغة الطبيعية، ثم تُشتق الارتباطات الدلالية المختلفة الأنواع من هذه الخصائص البنوية وغيرها، ويشمل ذلك الارتباطات التحليلية، وهناك أساليب وجيهة وراء هذه المسلمات النموذجية عن البنية المعجمية. ذلك أن اكتساب الوحدات المعجمية يثير ما يسمى أحياناً بـ "مشكلة أفلاطون" بشكل أكثر حلا. فكما يعي كل من حاول جمع معجم أو اشتغل بالوصف الدلالي أن من الصعب أن نصيب معنى أية كلمة، ثم إن مثل هذه المعاني تبلغ حدّاً عالياً جداً من التعقيد، وتشتمل على أكثر المسلمات لغماً للنظر، حتى في حالة أبسط التصورات، كما هي حالة الشيء الذي يمكن أن يكون قابلاً للتسمية. ويكتسب الأطفال ("يتعلمون")، في ذروة فترة اكتسابهم للغة، عدداً كبيراً من الكلمات يومياً، ربما يصل عدد هذه الكلمات أكثر من عشر، وهو ما يعني أنهم يكتسبون الكلمات في سياق عدد قليل جداً من مرّات التعرّض [للغة]، بل ربما لا يتعرضون لها إلا مرة واحدة. وربما يوحي هذا بأن التصورات متوفرة [في دماغ الطفل] بشكل مسبق، مع تحديد الجزء الأكبر من تعقيدها وبسببها بشكل مسبق، إن لم يكن تحديد ذلك كله، وأن مهمة الطفل لا تعدو أن تكون إعطاء أوصاف لهذه التصورات، وهو ما يمكن أن يُنجز بناء على عدد محدود من الأدلة في وجود بنية فطرية غنية بشكل كاف. كما يبدو أن هذه البنى التصورية تعمل على إنتاج ارتباطات دلالية من النوع الذي سيسمح - بصفة خاصة - بوجود تمييز تحليلي - تألفي، بوصفه حقيقة اختبارية.

ويبدو أن الوحدات المعجمية وطبيعتها، على حد ما يُعرف عنها، مؤسسة على بنى تصورية من نوع محدد ومتناسك جداً. وتكحل التصورات ذات الطبيعة الموضوعية بصورة واسعة في البنية المعجمية، وبطرق محدودة إلى حد بعيد غالباً، كما يجادل بصورة معقولة أن بعض التصورات ذات الطبيعة المحلية - ويشمل ذلك هدف الحدث ومصدره، والشيء الذي حرك، إلخ - تكحل فيها كذلك وبالكيفية نفسها. يضاف إلى ذلك أن معاهيم كالمفرد

وهدف الحدث، و آلة التنفيذ، والحدث والقصد والتسبب وغيرها عناصر لازمة في البنية المعجمية، بخصائصها وعلاقاتها الدلالية المحددة، خذ مثلا كلمات مثل chase "يطرد" أو persuade "يقنع". فيدخل في هاتين الكلمتين بوصوح الإحالة إلى القصد البشري، فلا يعني أن تطرد جوتز أنك تتبعه وحسب، بل أن تتبعه بقصد أن تسلك الطريق التي يسلكها، ربما لتمسك به. ويعني أن تقنع سميت أن تفعل شيئا بقطه يقرر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء، فإذا لم يقرر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء فيحني هذا أننا لم ننجح في إقناعه. ويجب، زيادة على ذلك، أن يقرر هو أو يقصد برغبته هو، لا بسبب إرامه بذلك، فإذا قلنا إن الشرطة أقيمت سميت، باستخدام التعديب، أن يعترف فإننا نستعمل الكلمة حينئذ للمفارقة. وبما أن هذه الحقائق معروفة أساسا من غير دليل فلا بد أن نستنتج أن الطفل يقارب اللغة مزودا بفهم حدسي عن التصورات التي تشتمل على القصد والتسبب والحدث وهدف الحدث إلخ، وأكثر من ذلك، لابد أن الطفل يضع الكلمات التي يسمعها في سلسلة تسمح بها مبادئ النحو الكلي، وهي التي توفر الإطار للفكر واللغة، وتكون مشتركة بين اللغات البشرية بوصفها المبادئ التي تدخل في مختلف مظاهر الحياة البشرية. كما يبدو أن هذه العناصر تدخل في "خطة تصورية" متماسكة، وهي إحدى مكونات الحالة الأولى للملكة اللغوية التي تتخذ شكلها النهائي بطرق محددة، ولها مدى وحدود محددة مسبقة، في أثناء نمو اللغة، وهذا واحد من مظاهر التطور الإدراكي. وربما تصحح هذه الخطط التصورية لبعض التنقيحات وإعادة البناء (انظر Carey 1985)، لكن يجب أن ندقق في التمييز بين العوامل المختلفة التي تدخل في مسار التطور، ويشمل ذلك، إلى حد بعيد من المعقولة، النصيح المحدد وراثيا الذي يؤدي إلى بعض المؤثرات التي لا نلاحظ إلا في المراحل المتأخرة من النمو الإدراكي.

لاحظ مرة أخرى أنه يبدو أن هناك ارتباطات للمعنى في حالات مثل هذه؛ فلدنيا فارق واضح إلى حد بعيد بين صدق المعنى وصدق الوقائع. لهذا

فإذا قلّنا جونُ بيلٌ بأن يذهب إلى الجامعة فيعني هذا أن بيل قرّر عسّد حد معين أن يذهب إلى الجامعة أو قصد أن يذهب إليها وقام بذلك من غير إرغام؛ أما إذا لم يكن الأمر كذلك فجون لم يَفْعَ بيل بالذهاب إلى الجامعة. وبالمثل، فإذا قلّنا جونُ بيلٌ، فيعني هذا "أن بيل مات" (مع أنه يمكن أن لا يمكن أن يكون جون مات، تبعاً للوقائع). وهذه أمثلة لصدق المعنى لا صدق الوقائع. ويؤمّر الإطارُ المسبق للفكر للنشوي، الذي تكتسب اللغة صيغته، بعض الارتباطات الضرورية بين التصورات، وهي التي تبيّن ارتباطات المعنى بين الكلمات، وعلى نطاق أوسع، بين التعبيرات التي تظهر فيها هذه الكلمات، كما في مثال الاعتماد الإحالي الذي لشرنا إليه سابقاً. وتوفّر العلاقات التركيبية مجموعة غنية من الأمثلة الأخرى. ومن ذلك، أنه يبدو أن هناك فرقاً واضحاً بين الجملة:

Everyone who lives upstairs lives upstairs.

"كلُّ إنسان يعيش في الطابق الأعلى يعيش في الطابق الأعلى".  
والجملة:

Everyone who lives upstairs is happy

"كلُّ إنسان يعيش في الطابق الأعلى سعيد".

ويبدو أن كوين يعتقد أن هذا الفرق أكثر إشكالاً وعموضاً من التمييز الذي وضعه بين "صحيح نحويّاً" و"غير صحيح نحويّاً"، الذي يعبّئه حاسماً شيئاً ما للاستقصاءات التي يقوم بها اللساني<sup>(١١)</sup>. لكن العكس هو الصحيح. ذلك أنه يبدو أن ليس للفرق المطلق بين "صحيح نحويّاً" و"غير صحيح نحويّاً" إلا أهمية ضئيلة - إن كان له من أهمية أصلاً - فهو فارق يعكس رسمه بأية طريقة لو، ربما بشكل أفضل، ألا يرسم إطلاقاً، ذلك أن من المشكوك فيه أن يؤدي هذا التصور، بمعناه عند كوين، أي دور في أية نظرية عن اللغة. وقد نوقشت أسباب ذلك في الأبحاث المبكرة في النحو

التوليدى؛ بل إنها الأبحاث الوحيدة التى سعت لتطوير مثل هذا التصور بطرق ربما تكون دلت صلة بالنظرية اللسانية، وإن كان ذلك بمعايير تُطر إليها منذ زمن بعيد أنها غير ملائمة<sup>(١٢)</sup>.

فيظهر، إنى، أن إحدى النتائج المركزية فى الفلسفة الحديثة مشكوك فيها إلى حد بعيد، وهى: الاعتقاد — الذى يؤخذ غالباً على أنه قد بُرهن عليه فى أبحاث كوين وأخرين — بأنه لا يمكن لأحد أن يرسم فارقاً مبدئياً بين مسائل الوقائع ومسائل المعنى، فلا يدعو التمييز بينهما أن يكون من أمور الاعتقاد العميقة إلى حد ما، وقد دُعيت هذه النتيجة بالتأمل فى صنف محدود من الأمثلة السطحية؛ ومنها بعض التصورات التى إما أن لها بنية علائقية محدودة أو ليس لها مثل هذه البنية إطلاقاً. فليس من السهولة العثورُ فى جمل مثل:

Cats are animals

مثلاً، على دليل يقرّر أن كانت هذه الجملة صحيحة بحسب المعنى أم بحسب الوقائع، أو إن كانت هناك إجابة عن السؤال فى هذه الحالة، كما كان هناك خلاف واسع لم يؤدّ إلى نتيجة محدّدة فى هذا الشأن، أما إن وجّهنا أنظارنا إلى تصورات ذات بنية علائقية لازمة مثل persuade أو chase أو إلى عبارات ذات تركيب معقد كالعبارات التى تنشئ بالاعتماد الإحالي أو السببية أو عبارات الصلة، فيبدو أنه من الممكن حينئذ اكتشاف العلاقات الدلالية فوراً. وعلى عكس ما يدعى رورتنى وآخرون، فهذه مسألة عامة من مسلمات البحث الاختيارى فى دراسة الدلالة اللغوية، وهى، زيادة على ذلك، فرضية معقولة، كما يبدو.

ولا يمكن تقرير أن كان حكم ما ينتمى إلى صدق المعنى أم أنه حقيقة اختيارية إلا بالبحث الاختيارى، وربما يكون هناك صلة لاعتبارات من مختلف الأنواع بهذه المسألة؛ كالبحث فى اكتساب اللغة والتنوع بين اللغات،

مثلاً. فمسألة وجود الصدق التحليلي والارتباطات الدلالية بصورة أعم مسألة اختيارية، ويجب تقريرها عن طريق البحث الذي يذهب إلى حد بعيد حدًا وراء الأدلة التي يُحتج بها عادة في الأبحاث التي تتناول هذه القضايا. احرص أن شخصين يختلفان في حكميهما الحتميين عن أن كان باستطاعتي إقناع جون بأن يذهب إلى الجامعة من غير أن يقرر هو أو يقصد أن يفعل ذلك (انظر 1980 Harman). ولا تواجه هنا طريقاً مسدوداً أبداً. بل إن بإمكاننا أن نصوغ نظريات متعارضة ثم نخبرها. فسيعمد من يرى أن العلاقة بين persuade "يقنع" و decide "يقرر" أو intend "يقصد" علاقة تصورية إلى تفصيل بنية هذه التصورات، كبيان عناصرها الأولية، والمبادئ التي تلحقها ببعض الأنظمة الإدراكية الأخرى وتصلها بها، إلخ؛ ثم يسعى لبيان أنه يمكن تفسير الخصائص الأخرى للغة والمظاهر الأخرى لاكتسابها واستخدامها في ضوء المسلمات نفسها عن البنية العنصرية للملكة اللغوية، في اللغة نفسها وفي اللغات الأخرى، وأن التصورات نفسها تؤدي دوراً في المظاهر الأخرى للفكر والفهم. أما من يرى أن العلاقة علاقة اعتقاد عميق يُعتقد لا علاقة ارتباط معنى فتكون مهمته أن يطور نظرية عامة لتثبيت الاعتقاد من النوع الذي سيؤدي إلى العلاقات الملائمة في هذه الحالات وحالات أخرى كثيرة. هب أننا افترضنا - مع بول تشيرشلاند مثلاً - أن الارتباط يقوم على "الأهمية الدلالية" للجمل التي تصل: persuade و decide أو intend (أي أن هذه الجمل تؤدي دوراً مهماً في الاستدلال، لو أنها تُستخدم لتقديم الكلمة persuade لرصيد الطفل من المفردات؛ ولهذا فهي أكثر أهمية من الكلمات الأخرى من أجل التواصل (Paul Churchland 1979: 51f)). ويواجه الباحث حينئذ مهمة تبين أن هذه المزاعم الاختيارية حقيقية في الواقع. ويبدو الطريق الأول - الذي يقوم على البنية التصورية العنصرية - أكثر وعذاً كما أظن، وهو المقاربة للوحيدة التي تؤدي إلى نتائج بل إلى بعض الاقتراحات التي نحمد له؛ لكن هذا من أمور البحث الاختباري، لا من أمور الادعاء

الذى لا يقوم على دليل تقريبا. وبصورة أكثر تحديداً فالحجج التى يؤتى بها لمعارضة المفارقة الأولى (التصورية)، بناء على بعض الأسباب مثل عدم التحديد وعدم الوضوح والفضايا التى لا حل لها، إلخ، لا تثبت شيئا إلا إن ثبث أن المفاربات البديلة التى تقوم على نظريات (لا توجد الآن) لتثبيت الاعتقاد أو الأهمية الدلالية ليست عرضة لهذه المشكلات.

ويتطلب الأمر كله إعادة تفكير واسعة، كما يبدو أن أكثر ما نحرص عموما فى العقود القليلة الماضية عن هذه المسائل مشكوك فيه على أفضل تقدير. فهناك، كما يبدو واضحا، بنية تصورية غنية تحدد الحالة الأولى للملكة اللعوبة (وربما تعتمد على موارد ملكات أخرى للدهن محددة أحيانا)، تنتظر أن توقفها التجربة، ويتوافق هذا كله مع التصورات العقلانية التقليدية، بل يتوافق كذلك - بمعايير أخرى - مع ما يسمى بالتفكير "التجريبي" عند جيمس هاريس وديفيد هوم، وآخرين.

ويجد كثير من الناس أن هذه النتائج لا يمكن قبولها إطلاقا، بل هى سحيفة؛ ذلك أن فكرة وجود ما يشبه أن يكون مجموعة من التصورات الفطرية وأن الأمر لا يبدو "وتم" هذه التصورات بعلامة فى أثناء اكتساب اللغة - كما يوحي الدليل الاختبارى - تحالف جنوياً بكل تأكيد كثيرا من المسلمات الشائعة. فيجادل بعض الباحثين، ومنهم هيلارى بقتام مثلا، أنه ليس من المعقول أبدا افتراض أننا نمتلك "رصيدا فطريا من الأفكار" يشمل كلمة carburetor "آلة احتراق الوقود فى الآلات" وكلمة bureaucrat "موظف حكومى" (Putnam 1988a: 15). لكن حتى إن صح رأيه هذا فن يكون دقيقا؛ إذ تبرز المشكلة بطريقة أكثر جدّا عن كلمات بسيطة مثل: table و person، و chase، و persuade، و kill، وغيرها. ومع هذا فحجته عن المثاليين اللذين أوردتهما ليست مقنعة. فتعنى هذه الحجة أنه لكى نعدنا عملية التطور الأحيائى برصيد فطرى من الأفكار "لا بد أنها كانت قادرة على توقع الاحتمالات كلها التى ستحدث نتيجة لتأثير البيئات المادية والثقافية فى



المستقبل. ومن الواضح أنها لم تفعل ذلك ولا تستطيعه" (ص ١٥).

لاحظ أن هذه الحجة غير صحيحة ابتداءً؛ ذلك أن افتراض أن اكتساب البشر في مسار التطور رصيداً فطرياً من الأفكار يشمل كلمات مثل: carburetor و bureaucrat لا يعنى أن عملية التطور تستطيع توقع "كل" احتمال مادي لو تلقى في المستقبل - وهذه الاحتمالات فقط، وإذا تركنا هذا جانباً، لاحظ أن هناك حجة تكاد تكون مماثلة لهذه الحجة كانت مقبولة منذ زمن طويل في علم المناعة: وهي أن عدد المستضدات antigens كبير جداً، ويشمل ذلك حتى المواد المصنوعة التي لم توجد من قبل في العالم، وكان بعدُ أمراً سخيفاً أن نفترض أن عملية التطور وفرت رصيداً فطرياً من المضادات antibodies؛ فوجب، بدلاً من ذلك، أن يكون تخلق المضادات نوعاً من "عملية التعلم" تؤدي فيها المستضدات دوراً توجيهياً. لكن هذا الافتراض ربما يكون زائفاً؛ فقد نال نيلز كاج جيرن جائزة نوبل عن أبحاثه التي تحدى بها هذه الفكرة، وعن تمسكه بتصوره الخاص الذي يقضى بأنه "لا يمكن أن بحث حيوان لكي ينتج نوعاً محدثاً من المضادات، إلا إن كان قد أنتج مضادات من هذا النوع المحدد، قبل وجود المستضد" (Jerne 1985: 1059)، فتخلق المضادات - إذن - عملية انتقائية يؤدي فيها المستضد دوراً انتقائياً توسيعياً<sup>(٣٦)</sup>. وبغض النظر عن إن كان رأى جيرن صحيحاً أم لا، وربما يكون صحيحاً بكل تأكيد، فالشيء نفسه ربما يكون صحيحاً فيما يخص معنى الكلمة؛ ذلك أن الحجة مماثلة إلى حد بعيد.

وهناك سبب وجيه، زيادة على ذلك، لافتراض أن هذه الحجة صحيحة إلى حد بعيد في الأقل حتى عن كلمات مثل carburetor و bureaucrat، وهي التي تثير المشكلة المعروفة لقر المتبني إن تأملنا بعناية الفجوة الواسعة جداً بين ما نعرفه والنيل الذي تمتد إليه هذه المعرفة. والشيء نفسه صحيح غالباً عن المصطلحات التقنية في العلوم والرياضيات، وهذه هي الحال فيما يبدو مؤكداً عن مصطلحات الخطاب العادي. ومهما كانت درجة المفاجأة في

القول بأن الطبيعة أمنتنا برصيد فطري من التصورات، وأن مهمة الطفل أن يكتشف علاماتها، فلا تترك الحقائق الاختبارية لنا فيما يبدو إلا لاحتمالات قليلة أخرى. أما هذه الاحتمالات الأخرى (بومتها الاحتمالات التي تصاع في صوء "آليات التعلم المعنوية"، مثلاً) فما نزال بانتظار أن تصاغ بشكل متماسك، وإذا نجح أحد في صياغتها مستقبلاً، فربما يسهم ذلك في حل هذه المسألة المتحيلة.

وليس واصحاً ما الفرضية التي يقترحها بتنام والأخرون الذين يرفضون ما يدعونه بـ "الفرضية الفطرية"؛ وينبغي أن أضيف هنا أنه مع أنني أتهم بأى من اللاتين بهذه الفرضية، بل ربما المجرم الرئيس، إلا أنه لم يسبق أن دافعت عنها ولا أعرف الوجه الذي يفترض أن تكون عليه. ومهما كانت الحقيقة عن تخلق المضادات فهي تعتمد على الموارد الفطرية للجسد ونظامه المناعي، ومهمة العالم أن يكتشف ماهية تلك الموارد. وهذا الأمر صحيح تماماً عن تكون التصورات واكتساب اللغة. وهذا هو السبب الذي يجعل أولئك الذين يفترض أنهم المدافعون عن "الفرضية الفطرية" لا يدافعون عنها، بل لا يستخدمون هذه العبارة، إذ لا توجد فرضية عامة كهذه، لما ما يوجد بفرضيات محددة عن الموارد الفطرية للذهن، وعن ملكته اللغوية على وجه الخصوص. وليس للحجج العامة التي لم تُصاغ ضد "فرضية فطرية" صلة بالفرضيات الفعلية عن مفهوم "الفطرية"، في حالة نمو اللغة والأنظمة التصورية أو الأشكال الأخرى للنمو المادي.

ويقدم بتنام حجة مصادرة للحجة التي أوضحت معالمها العامة آنفاً قياساً على نظام المناعة. فيشير إلى أن التصورات كثيراً ما تنشأ عن "الطريات"، وأن عدد النظريات الممكنة (وربما "أنواع" النظريات) كبير جداً، حتى في النظريات "القصيرة"، وهو ما يجعل فكرة استغراق عملية التطور للاحتمالات كلها بشكل مسبق غير معقولة إلى حد بعيد (Putnam 128 1988a). وهذه حجة صحيحة، لكن لا صلة لها - مرة أخرى - بما

بناؤه. ذلك أننا معنيون، في المقام الأول، بما يمكن أن يكتسبه البشر، وليس هناك سبب لأن نعتقد بأن البشر يستطيعون تعلّم "الطريات كلها" لو أن بصوغها، بل إن مغزى تلك الأطروحة ليس واصحاً<sup>(٢٤)</sup>. كما يفترض أن حاجة بتنام الأساسية صلة بالكلمتين المحذرتين: carburator و bureaucrat ، وأنه ليس لأية حجة مبدئية صلة بهما، أو بأية فرصة احتمالية جوهرية أخرى عن البنية العظرية. وبكلمات أخرى، فحجته للنسب معادها أن "عملية التطور لا يمكنها أن تقوم بذلك" لا تصح في الحالات التي قدّمها من أجلها. أما الاحتجاج بأنه لا يمكن أن تكون عملية التطور قد أجزت كل شيء - حتى ما يقع خارج القدرة البشرية - فيمكن أن تكون صحيحة إلى استطاعا لإصغاء معنى عليها؛ وليس لهذه الحجة صلة هنا، حتى إن كان من الممكن صياغتها بشكل متماسك.

ونجادل بتنام، في السياق نفسه، أن دعوى "شبكة المعنى" مصحوبة بمبدأ كوين القائل بأن "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان"، تسهم في تقويض بعض النتائج المحددة عن البنية العظرية للأنظمة التصورية واللغة عموماً. لكن هذا النهج من الاحتجاج لا يستقيم. هب أن دعوى "شبكة المعنى" صحيحة بمعنى أنه "ليس هناك، كما يقول بتنام، وحدات "واقعية" فعلياً" تتحلّى بما يكفي من الخصائص التي نسبها على "المعاني" قبل التحليل من أجل أن تكون صالحة للتعيين، وأن الإحالة تُحدّد مجدداً خالصاً اعتماداً على أسس شبكية فقط. لكن لا يترتب على هذا أن الارتباطات الدلالية لا يمكن أن تكون مثبتة وقارة بشكل خالص نتيجة للإعداد الأحيائي. لهذا ربما نطل بعض العلاقات المحددة قارة في الوقت الذي نقود فيه بعض الاعتبارات الأخرى إلى اختبارات أخرى مختلفة فيما يخص تثبيت الإحالة، إضافة إلى ذلك، فاعتبارات الاختبارية من النوع الذي ناقشناه من قبل صلة بالسؤال عن إن كان صحيحاً حقاً أن "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان". ولا يمكن أن تقوم هذه الفكرة عن اللغة الطبيعية بالإحالة إلى الممارسة في العلوم

الطبيعية التي يأخذ بتنام منها كثيراً من أسئلته؛ تلك أن هذه الحجج، إن اقتصنا صحتها، لا تكفي لتبين عدم وجود بنية دلالية وتصورية ذاتية تقوم على خصائص قارة للذهن البشري. وربما كانت دعوى "مسيكية المعنى" صحيحة بمعيار معين أو شكل ما، لكن مسائل الارتباطات الدلالية في اللعبة الطبيعية ما تزال تنتظر أن تحل عن طريق الدراسة الاختبارية، كما يبدو أن الدليل يؤيد وجودها - في الوقت الحاضر في الأقل - بل يؤيده بشكل قوي، كما يبدو لي.

دعنا نستمر في استقصاء حجة ديفيدسون في بحثه: A Derangement of Epitaphs (1986b)، تحريف بسيط في شاهد قبر \* الذي قصد به أن يبين أن دراسة التواصل الفعلي تقوض "التفسير الشائع للمعرفة اللغوية والتواصل" وأنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى لغة، إن كانت اللغة شيئاً يشبه ما يفترضه كثير من الفلاسفة واللغويين. لهذا فليس هناك شيء يمكن أن يتعلم، أو يُجاد، أو نولد به" (Davidson 1986b: 446). ويقوم تصور اللغة هذا، الذي يحقده ديفيدسون أنه أثبت خطأ، على ثلاث معلمات أساسية عما يسميه بـ "اللغة الأولى" أو "النظرية المسبقة"، أي نظام معتد أو نظرية "يشارك فيها المتكلم والسامع تقريبا (ص 436). والمعاملات هي:

١- أن النظرية المسبقة "منقثة" systematic بمعنى أن "المؤول" الذي يمتلك هذه النظرية يستطيع أن يؤول الأقوال انطلاقاً من خصائص الأجزاء المكونة لهذه الأقوال وبنيتها.

٢- أن منهج التأويل هذا مشتركة.

٣- أن العناصر المكونة للنظام محكومة بالمواضعات المتعلمة أو الاطلاقات.

والمعلمة الثالثة غير ممكنة لأسباب أخرى، لكن بدلاً من الانشغال بها دعنا نقدمها بالشكل الذي توجبه حجة ديفيدسون: فالعنصر المكون للنظام

متوفرة، كما يقول، "بشكل سابق على مناسبات التأويل"؛ فهي عنصر قار في السياقات التواصلية، عند مؤوكين في حالة قارة من المعرفة اللغوية.

ويلاحظ ديفيدسون، ليبين خطأ هذا التصور، أن المؤول يستعمل في المعاملات التواصلية العادية أنواعاً كثيرة من الحدود والمسلّمات عما يمكن أن يكون في رأس المتكلم، معتمداً على خصائص السياق، والقصد المعترض للمتكلم، إلخ. لهذا فالمؤول "يكيف نظريته"، ويعمل "النظرية المسبقة" لتصير "نظرية عابرة" "مناسبة للمقام". لكن هذه النظرية العابرة لا يمكن في العموم أن تكون متوافقة مع المعرفة اللغوية عند المؤول. ذلك أن هذه النظرية العابرة ليست نظرية عما يمكن لأحد (باستثناء الفيلسوف، ربما) أن يسميه لغة طبيعية حقيقة" (Davidson 1986b: 443)، ويستمر قائلاً، و: "ربما لا تكون 'إجادة' مثل هذه اللغة مفيدة؛ ذلك أن معرفة نظرية عابرة لا تعدو أن تكون معرفة بكيفية تأويل قول ما في مناسبة معينة" (ص ٤٤٣). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن للتواصل أن يحدث بصورة جيدة إلى حد بعيد في حال لا تكون النظرية المسبقة فيه مشتركة بين المتكلم والسامع، كما أن النظرية المسبقة نفسها ليست ما يمكن أن نسميه عادة لغة" ذلك أنها خصيصة نفسية، مقصورة على المتكلم - السامع وسماتها ليست مشتركة بين أفراد "الجماعة". فبملاك المؤول نوعاً من "الحطة"، أي "عملية غامضة يمكن أن يستخدم المتكلم أو السامع بواسطتها ما يعرفه من قبل بالإضافة إلى المادة الحاضرة ليصوغ نظرية عابرة"، أما ما يحتاجه شخص لإتجاز التواصل، فهو "القدرة على الوصول إلى نظريات عابرة لكل قول على حدة". وفي ضوء هذه الحقائق ليس هناك مكان لـ "تصور اللغة"، أو لـ "نحو مشترك" أو قواعد مشتركة، أو "آلة خفية مؤوكة لاغتصار المعنى من قول ما"؛ فما نحتاجه، بدلاً من ذلك، شيء أقل وضوحاً، وأكثر غموضاً وأكثر اتصافاً بـ "شمولية المعنى"، وهو "قدرة الاتفاق على الوصول إلى نظرية عابرة من حين إلى آخر" (ص ٤٤٥). ويقودنا هذا إلى "لا إلى التخلي... عن المفهوم العادي

للمع وحسب، بل إلى إلغاء الحدّ بين معرفة اللغة ومعرفة كيفية التعامل مع العالم بصفة عامة . . . لهذا ليس هناك شيء في التواصل اللغوي يمكن أن يتماثل مع أية معرفة لغوية" (ص ٤٤٥ - ٤٤٦) تقوم على المبادئ الثلاثة التي أوردناها لنفاء إدّليس هناك قواعد للوصول إلى النظريات العابرة. ويؤكد ديفيدسون، في ختام النقاش، مع ذلك، أنه يمكن أن تُشتق نظرية عابرة بشكل ما "من المعرّفات والبحر عند فرد معين" أي من "نظرية مسبقة" تتوافق مع الشرط الأول وربما مع إحدى صيغ الشرط الثالث، لكنها قد لا تكون مشتركة بين أفراد "الجماعة"؛ فهناك إذن، "نظرية مسبقة" وهناك على اليقين بعض الطرق المعينة، بدلاً من طرق أخرى، للوصول إلى نظريات عابرة، سواء أردنا تسمية هذه الطرق "قواعد" أم لا (ص ٤٤٦).

والأقسام المتعددة للحجة صحيحة عموماً، لكن لا يبدو أنها تكشف عن شيء كثير. فلم يقم، على الأخص، أي سبب للتشكيك في وجود "نظرية مسبقة" بالمعنى المألوف في دراسة اللغة ومعرفة اللغة؛ أي إجراء توليدي محدّد مدمج في حالة الملكة اللغوية تتصف بأنها ناصجة محدّدة. وستكون هذه "النظرية المسبقة" بالطبع، مختلفة جداً عما يسمى لغة" في الاستخدام العادي، لكن هذا يعود إلى أن أي تصور مثل هذا لا يؤدي دوراً في البحث الاختباري في اللغة والذهن، كما لاحظنا من قبل.

ويمكن لنا، في مواجهة حجج ديفيدسون، أن نستمر في افتراض أن هناك، إلى حد بعيد من التقريب، ملكة لغوية ثابتة غير متوّعة تُحوّل الدليل المقدم إلى نظام من القواعد والمبادئ (أو أي شيء يثبت أنه صحيح عن الحالة الإدراكية المخصّلة) التي تعطي تأويلات للتعبيرات. دعنا نسمّ هذا النظام المكتسب "إجراء توليدياً". فيعني أن تعرف لغة ما أن يكون لديك تمثيل داخلي لهذا الإجراء التوليدي، وهو الذي سنعبّر عنه في مستويات متعددة من التجريد عن الآليات "الأكثر أولية" وسنسمي لربطه بمثل هذه الآليات، بالطرق المعهودة في العلوم الطبيعية<sup>(١٥)</sup>. كما يمكن أن نسعى إلى اتباعنا الممارسة

المعروفة إلى صياغة "محلّ" - وهو آلة تعزى إلى الدهن/الدماغ كذلك -  
بدخل فيه الإجراء التوليدي الذي حصل مع البنى والخصائص المحددة  
الأخرى<sup>(٢٦)</sup>، ويحول الأفعال المقّمة إلى أوصاف بيوية تؤكدها المكونات  
الأخرى للذهن. وإلى هنا نحن نتعامل مع الأسئلة الممكنة على البحث  
الاحتمالي.

وهناك مشكلة أخرى، يمكن أن نصوغها بطريقة تقريبية لكن لا يمكن  
دراستها عملياً: وهي أن نصوغ "مؤولاً" يشتمل على المحلّ بوصفه أحد  
مكوناته إلى جانب القدرات الذهنية الأخرى كلها - لئلا كانت - وقبل  
الدخول العلوية إلى جانب الدخول غير العلوية. ويعطى هذا المؤول، حين  
يقدم له قول ومقام، تأويلاً معيناً لما قاله شخص ما في هذا المقام. ودراسة  
التواصل في عالم التجربة الفعلية دراسة للمؤول، لكن هذا ليس موضوعاً  
للبحث العلمي؛ للأسباب المعهودة: وأهمها أنه لا يوجد موضوع يتصف بأنه  
دراسة كل شيء. كذلك لا يدرس العلم المظاهر الأخرى للعالم كما تقدم لنا  
في التجربة اليومية. فيشتمل المؤول - كما يلاحظ ديفيدسون بحق - على  
أي شيء يستطيع الناس فعله، وهذا ما يمنعه أن يكون موضوعاً للبحث  
الاحتمالي، وهو ما يمدحنا أن نقول أي شيء ذا معنى عنه. وربما نأمل أن  
نتعلم شيئاً عن عناصر المؤول المتعددة، مؤسّسين بالمناهج المعهودة في  
العلوم، بادئين بـ "المعردات والنحو عند فرد ما" وهذا ما يكون اللغة  
المعصّلة، ثم ننتقل إلى المحلّ، ثم نلتفت، ربما - بأقصى ما يمكن من  
الوضوح - إلى العناصر الأخرى للدهن والمقدمات التي تدخل في الحياة  
البشرية العادية. ومع ذلك، فإننا بدأنا بالمطالبة بنظرية لكل شيء، هل نحصل  
على شيء؟ وليس ضرورياً هنا صياغة حجج معصّلة لتأكيد هذه النقطة<sup>(٢٧)</sup>.  
ولا يختلف هذا الوضع عنه في العلوم التي حققت تقدراً كبيراً من التقدم. ولا  
تتمثل النتيجة الملائمة في وجوب أن نتخطى عن تصورات اللغة التي يمكن  
أن تدرس بطريقة مثمرة، بل في أن موضوع التواصل الناجح في العالم

الفعلى للتجربة معقد جدًا و غامض مما يجعله لا يستحق الدرس فى البحث  
الاحتمالى، (إلا بوصفه دليلًا على الحدوس فى أثناء اشتغالنا بالبحث الذى  
يصنم لكى يفود إلى قدر من فهم العالم الواقعى، ويشمل ذلك التواصل. وليس  
لهذه الملحوظات أهمية لوجود "نظرية مسبقة" أو عدم وجودها، أى لوجود أو  
عدم وجود إجراء توليدى مستطن، بالمعنى المألوف فى الممارسة  
الاحتمالية.

و"النظرية العابرة" عند ديفيدسون فكرة غير مفيدة؛ وكلامه عن هذا  
الأمر صحيح بالتأكيد. فصيغ المؤول "نظريات عابرة" كثيرة (لكن ليس  
"أى" نوع منها، وهذا أمر مهم)، وهى تتغير من لحظة إلى أخرى، ذلك أن  
المؤول كما يرى ديفيدسون يشتمل على أى شىء متاح للدكاء البشرى؛ ومع  
هذا، ليس هناك معنى لأن نسمى حالاتها الانشائية "نظريات" أو نعدّها  
موضوعًا للبحث المباشر. وليس لحجة ديفيدسون، من ناحية جوهرية، صلة  
بمسألة أن "النظرية المسبقة" (مع فهمها بطريقة معاصرة شيئًا ما لفهمه هو)  
تظل عنصرًا قاريًا غير متنوع لـ "المؤول" (والمحلل المؤمل المحدّد تحديدًا  
أصيق)، وأنها تتخلل فى الطريقة التى يقوم بها المؤول بوظيفته.

ويركز ديفيدسون انتباهه، فى هذا النقاش، على ظاهرة سبق اللسان فى  
نطق الأصوات malapropisms وعلى ما يسمى بـ "الخطأ فى استخدام  
اللغة" بصفة عامة. وينبغى الاحتراس شيئًا ما هنا. لنأخذ مرة أخرى جونز،  
وهو متكلم لنوع مما نسميه عمومًا بـ "الإنجليزية". قد أجاد جونز إجراء  
توليدى يربط الأقوال بأوصاف بنيوية، ويشمل ذلك الخصائص الدلالية،  
ويمتلك قدرات ذهنية أخرى تسمح له بإنتاج بعض التعبيرات اللغوية وتأويلها  
ساء على هذه الأوصاف البنيوية. ونسمّى هذا الإجراء التوليدى بـ "اللغة - د"  
لجونز، حيث توحى "د" بـ "داخلي" (فى الذهن/الدماغ) و"مفهومي" (بمعنى  
أن الإجراء دالة تحدّد الأوصاف البنيوية، منظورًا إليه على أنه مفهوم يرتبط  
بوصف حاصر به)<sup>(٢٨)</sup>. ونحن نشير هنا إلى آليات معترضة معبّنة



للذهن/الدماغ، منظوراً إليه بشكل مجرد..

ويمكن لجونز أن يتكلم بطريقة لا تتوافق مع لغته - د\* أو يُصدر أحكاماً لا تتوافق معها؛ وربما تكون أحكاماً عن أنفسنا، كالأحرار، عاطفة، وربما يدخل في السلوك ما هو أكثر من "اللغة - د\*". وهذه حالة من الخطأ في استخدام اللغة لا تلفت النظر؛ ولنسمها بـ "المعنى العردي".

افترض أن جونز، شأنه شأن كثير منا، يقول عادةً جملاً مثل:

Hopefully, we'll be able to solve that problem.

"أملًا، سوف نتمكن من حل تلك المشكلة"

أو يستخدم كلمة مثل disinterested ليعني uninterested "غير مهتم". ويقول لنا كثير من المهتمين بالتصحيح اللغوي في هذه الاستخدامات "غير صحيحة" أو "خطأ"، أو لا تتوافق مع قواعد اللغة الإنجليزية، فجونز "مخطئ" في استخدام لغته، أي الإنجليزية، ولا يملك إلا معرفة جزئية بها وربما تكون معرفة مشوشة، كما في مفهوم "المعنى الأساس" للغة عند نوميت. بل حتى إن تكلم ٩٥ بالمائة من متكلمي الإنجليزية - أو متكلموها جميعاً باستثناء وليم سافير - هو صحفي أمريكي يكتب عموداً أسبوعياً بعنوان "عن اللغة" في مجلة نيويورك تايمز التي تصدر مع عدد يوم الأحد وعدد قليل آخر - بالطريقة التي يتكلم بها جونز، فستظل هذه الحالات تمثل "خطأ" في استخدام اللغة. وربما كان جونز يحاول التكيف مع ممارسة جماعة ما لأسباب معينة، أو لغير ما سبب، وربما يُخفق في هذا التكيف، وهي حالة ربما يصفها الذين يلاحظون جونز من غير المتخصصين بأنها خطأ في استخدام لغة هذه الجماعة. وقد تكون هذه التصورات للخطأ في استخدام اللغة، وهو ما يمكن أن نسميه "معنى الجماعة"، مهمة لدراسة اجتماع التماهي مع الجماعة، وبنية السلطة، وما أشبه ذلك، لكن ليس لغنى منها صلة مهمة بدراسة اللغة، على حد ما نطمح. ونحن نفهم هذا الأمر فهمًا جيدًا

في مسألة طريقة النطق. لهذا ليس القول بأن نوعية معينة من الإنجليزية "صحيحة" وأخرى "خاطئة" من المعنى إلا ما للقول بأن الأسبانية صحيحة والإنجليزية خطأ؛ والأمر نفسه صحيح عن المظاهر الأخرى للغة - وإن كنت هذه النقطة، لبعض الأسباب، أكثر غموضاً.

ويأتي أحد المعاني المحتملة لفكرة "الخطأ في استخدام للغة" من فكرة هيلاري بيتام عن "تقسيم العمل اللغوي". لهذا ربما تشتمل كلمات: elm و beech أو mass "كتلة" و kinetic energy "الطاقة الحركية" في المعجم الممثل في ذهني/دماغي على الإيحاء بأن المعال إليه في هذه الكلمات يجب أن يحدده الخبراء الذين أرجع إلى أحكامهم. وربما استخدمت هذه الكلمات استخداماً غير دقيق، بمعنى أن المعال إليه لا يتوافق مع التحديدات التي يراها هؤلاء الخبراء. وفي هذه الحالة، ربما يقال عني إنني "مخطئ في استخدام لغتي"<sup>(١٠)</sup>. دعنا نسم هذا بـ "المعنى عند الخبير" للخطأ في استخدام اللغة. ومرة أخرى، لا يبدو أن شيئاً مهماً يترتب على هذا، ومن المؤكد أنه لن يترتب شيء له صلة بمقاربة اللغة في إطار علم النص الفردي الذي أشرنا إليه باقتضاب فيما مضى، وهو الذي يتبع في الممارسة عادة<sup>(١١)</sup>. لاحظ أنه لا ينتج عن هذه الاعتبارات أي تصور مفيد لـ "اللغة" أو "الجماعة". لهذا ربما يكون الخبير الذي ألقده بشأن كلمتي elm و beech بستانياً إيطالياً لا يعرف كلمة من اللغة الإنجليزية، وهو الذي يصحح لي استخدامي بالإحالة إلى الأسماء اللاتينية التقنية التي تشترك أنا وهو فيها، وربما يكون الخبير الذي ألقده بشأن كلمتي mass و kinetic energy عالم فيزياء ألماني لا يتكلم إلا الألمانية. لكن لا يمكن لنا أن نستنتج من هذا أن الألمانية والإيطالية دخلتان في الإنجليزية، أو أننا جميعاً نسمى إلى "جماعة" واحدة بأي معنى مفيد للمصطلح.

فهل هناك تصور آخر لمفهوم "الخطأ في استخدام للغة"؟ أما أنا فلا أعرف تصوراً كهذا. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يؤدي هذا التصور أي دور

مهم في دراسة اللغة أو المعنى أو التواصل أو غير ذلك. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأمثلة من النوع الذي نقله تيلور بيرج، افترض أن جونز يستخدم مصطلح "التهاب المفاصل" في الإحالة إلى ألم في العنق. ثم افترض أن هذا هو الاستخدام في قريته، لكنه ليس الاستخدام خارج تلك الجماعة. ويعني هذا أن جونز ليس مخطئاً في استخدام لفظه بالمعنى الفردي؛ إذ إن استخدامه صحيح في "لغته - د". وهو ليس مخطئاً في استخدام لفظه في قريته بمعنى الجماعة، أما خارج حدود قريته فمخطئ. ويحدّد كون استخدام جونز للغة خاطئاً أم لا بـ "المعنى عند الخبير" اعتماداً على الكيفية التي يمثل بها مصطلح "التهاب المفاصل" في معجمه الذهني. لكن كيف ينبغي لنا أن نعزو الاعتقاد عن التهاب المفاصل إلى جونز؟ وهنا تختلف الحدوس، وربما يكون السبب أن الدليل الذي يمكن أن يحلّ هذا الإشكال بطريقة مرصية ضئيل في هذه اللحظة. دعنا نفحّ "المعنى عند الخبير" جانباً، ثم نقرص أننا استخدمنا مصطلح "الاعتقاد - د" في الإحالة إلى تصور يشبه الاعتقاد، باستثناء أن جونز يمتلك الاعتقاد نفسه في قريته وفي الجماعة الأوسع، أي الاعتقاد الذي يمكن أن نعبر عنه في "لغتنا - د"، بالقول بأن لديه نوعاً من الألم الجسدي<sup>(31)</sup>. وربما يكون هذا مماثلاً لتصور الاعتقاد في لغتنا العادية أو لا يكون، لكنه هو التصور الذي يبدو ضرورياً لدراسة ما يسمى خطأ بـ "تسبيب السلوك" - ويقول "يسمى خطأ" لأنه ليس واضحاً إلى كان السلوك أمراً "يتسبب في حدوثه" بأي معنى مفيد لهذا المصطلح. ومن الواضح أنه لن يكون هناك سبب للافتراض بأن تصورات علم النفس العام سوف تكون هي نفسها في الاستخدام العادي، مثلما أن الأمر في تصورات الفيزياء، أو في علم النفس الفرعي الذي يسمى "السماتيات"، ليس كذلك، بصفة عامة. كما لا يبدو لي واضحاً إطلاقاً أن هناك فرعاً معقولاً للطب (أو بصورة أدق، للعلم البشري وهو ما يعني نوعاً من البحث العلمي الذي يستطيع البشر، بقدراتهم المعرفية الخاصة، أن يقوموا به) يشغل بأسئلة من هذا النوع.

ولم يُثبت أحدٌ، كما أُظن، أن هناك ما يمكن قوله أكثر من هذا عن هذا الأمر. ويبدو، على وجه الخصوص، أن الإحالة إلى "الخطأ في استخدام اللغة"، وإلى "المعايير"، وإلى "الجماعات" إلخ، تتطلب مزيداً من العناية يفوق العناية التي نتناول بها هذه القضايا عادة. ذلك أن هذه التصورات غامضة، ولا يبدو واضحاً أنها مفيدة في مجال البحث في اللغة والسلوك البشري. وتستحق أية حجة تعتمد على مثل هذه الأفكار استقصاء أدق، وربما لا يمكن أن تصمد الحجج المألوفة [عن هذه القضية] أمام هذا الاستقصاء؛ ذلك أن الجماعات تتألف بطرق عديدة جداً ومتداخلة، وسرعان ما تتحول دراسة الجماعات لتصبح دراسة لكل شيء. أما الحقيقة الباقية فهي أن جونز يتكلم ويفهم بالطريقة التي هو عليها معتمداً على "اللغة - د" التي اكتسبها في أثناء نمو لغته، وإذا أتبع جونز أو لم يتبع ما يمكن أن نسميه، من أجل بعض الأغراض العابرة، بـ "معايير الجماعة" أو "الممارسة الاجتماعية"، فهو يقوم بذلك انطلاقاً من هذه "اللغة - د" المستبطنة (إلى جانب أشياء كثيرة). أما بورس، الذي لا يتكلم إلا اللغة الروسية، فيمتلك لغة - د" مختلفة، ويتبع "معايير" مختلفة. وقد أفهم ما يقوله جونز، إلى حد ما، لأن لغتي - د" لا تختلف كثيراً عن لغته؛ ولأننا نتشارك تقريباً في الخصائص الأخرى غير المعروفة التي يتضمنها المؤول الكامل، لكن هذا لا يصلح أن يكون موضوعاً للبحث الاختباري على الحال التي هو عليها، أي على حالة المعقدة قبل أن يحل. ويبدو لي أن هذا هو الطريق الواجب اتباعه في مقاربة هذه المسائل.

ويمكن أن نطور، بمقتضى هذه الطرق، تصوراً لـ "المعرفة اللغوية" يكون ملائماً للبحث في اللغة والذهن؛ وهو إجابة لغة - د" معينة وتمثيلاتها الداخلية. والنحو الذي يصوغه اللساني نظرية عن "اللغة - د"، كما أن النحو الكلي نظرية للحالة الأولى للملكة اللغوية. وتمثل "اللغة - د" عند جونز حالة معينة باصحة - أو خرج، إذا نظرنا إلى الملكة اللغوية على أنها دالة تحول الدليل إلى لغة - د". لكن ماذا عن تصور اللغة؟ وربما نعهم اللغات ببساطة

على أنها "لغات - د"، أى أن ننظر إلى اللغة على أنها تشبه أن تكون "طريقة في الكلام"، أى "لوساتل للمتناهية" التي تمكن من "الاستخدام غير المناهية"، كما يحدّد وليم هوم هوبولت اللغة ( von Humboldt 1836: 122, paragraph 91: 1988: 13؛ انظر Chomsky 1964: 17)، كما أنها جهد للإحاطة بتصوّره اللغة على أنها "عملية توليد" بدلاً من كونها "وحدات مولدة". لهذا بأحد اللغة على أنها في نهاية الأمر "فكرة للنسبة" توجه المتكلم عند صياغته للتعبيرات الحرة، كما يقول أوتو جيسرمن (1924: 19) وانظر Chomsky 1977). وهذا قرار ملائم لعرض البحث العلمي، في ظني، وإن لم يكن كذلك في الخطاب العادي. وربما كنا نرغب، بدلاً من ذلك، في أن نصوغ تصوراً للغة مفصلاً عن الحالات الإدراكية، وقد يكون ذلك بشكل يشبه اقتراح جيمس هيجينبوثم (James Higginbotham 1989). وإذا نظرنا إلى معرفة اللغة على أنها حالة إدراكية فربما نفهم "الغة" على أنها شيء مجرد، أى "موضوعاً للمعرفة"، أى نظاماً مجرداً يتألف من قواعد ومبادئ (أو أي شيء نكتشف أنه صحيح) يمثل صورة للإجراء التوليدي، أى "الغة - د"، التي تمثل في ذهن، ومن ثم في الدماغ بالذات "أكثر أولية" لا نعرفها الآن، ولما كانت اللغة بهذا المعنى تحدّد تحديداً كاملاً بـ "الغة - د"، وإن كانت مجردة عنها، فمن غير الواضح تماماً إن كانت هذه الخطوة الإضافية ضرورية؛ إلا أنها ربما تكون، مع ذلك، كذلك.

ويبدو، مع ذلك، أن صياغة الأسئلة التي يمكن أن تكون موضوعاً للبحث الاختباري عن اللغة واستخدامها ممكنة بهذه الطرق، وأن هذه الطرق هي الأفضل لمقاربتها، على حد ما نطمح. وربما يكون هناك مزيد من الأسئلة التي لا تصلح أن تكون موضوعاً للبحث الاختباري بالطرق المستخدمة في العلوم - وقد لا تحصص لها أبداً - إن كان للبشر أنفسهم جزءاً من العالم الطبيعي، وهو ما يعنى أنهم يمتلكون بعض القدرات الأحيائية المحددة التي تتصف بمدى وحدود خاصة بها، كالكتينات العضوية الأخرى جميعها. ويجب

علينا بدل مرید من العناية كي لا تقع فريسة لبعض التخيلات السرابية عن  
عمله التطور ومعجزاتها التكيفية. ولا تتضمن نظرية التطور شيئاً يوحى بأنه  
ينبغي أن يكون بإمكاننا الإجابة عن بعض الأسئلة التي نستطيع إثارتها، حتى  
من حيث المبدأ، بل حتى لو كان من الممكن الإجابة عنها، أو إن كنا نستطيع  
إثارة الأسئلة الصحيحة. وبقدر ما لدينا من قدرة فإننا نمتلك العلم الاختباري،  
وهو نوع من التلاقى المنطقي بين خصائص للذهن وخصائص للعالم غير  
الذهنية. وليس هناك شيء مفاجئ في هذا؛ ذلك أننا نراه أمراً مسلماً أن شيئاً  
شبهها صحيح عن الفئران والسمك، ويجب ألا نفاجأ حين نكتشف أن البشر  
كائنات عسوية أحادية، لا ملائكة. ويبدو لي مع ذلك، وفي حدود العلم  
البشري، أن أفضل تخمين في الوقت الحاضر هو أن الإطار الذي بنيت  
سلامحه العريضة باحتصار أنما ملائم للبحث في الأسئلة الاختبارية عن اللغة  
والذهن؛ وقد تحقق، في إطاره، قدر عظيم من النجاح وكثير من المنظورات  
العميقة.

### هوامش الفصل الثالث

(١) لهذا يترتب على النص الأخير الذي أوردها، أنى إن اعتقدت أن السماء تمطر؛ لأنى سمعت ذلك من المذيع، أى أن هذا التفاعل هو التفسير لتنام العلاقة السببية بين اعتقادى والعالم، فمن نكون بحاجة، إن، إلى أن نعرف أى شيء آخر عن علاقة اعتقادى بأن السماء تمطر بحقيقة كونها تمطر أو لا تمطر؛ فليس هناك حاجة إلى مزيد من الأمثلة بخصوص علاقة اعتقادى بالعالم.

(٢) ومع هذا ربما يختار باحث، بالطبع، أن يتجاهل فارقاً لو آخر من أجل بعض الأغراض فى نوع معين من البحث. أما النقطة الأساس هنا فهي أنه ليس هناك تأويل عام لـ "المعنى الأساس" عند دوميت (ليس له تأويل ضيق، مثلاً) يمكن أن يتغلب على مشكلات من النوع الذى أشرنا إليه، وليس من طريق معروف لصياغة تصور عام كهذا بوصفه أمثلة معبدة، أو أى سبب لمحاولة القيام بذلك، لاحظ أنه ليست كل أمثلة تستحق أن تصاغ، أما هذه الأمثلة فيبدو أنها ليست كذلك، بغض النظر عن المقصود بها.

(٣) ولا أعرف إلا محاولة واحدة نجحت فى فهم هذه القضايا (Pateman 1987). فقد طور باتيمان فكرة للغة بوصفها "حقيقة اجتماعية" بطريقة تبدو معقولة، لكنها لا تتصل بأى من القضايا التى ناقشها هنا. فمبتكلم الشخص الذى يعنى بعض الحقائق الأولية عن اللغة والمجتمع، بالمعنى الذى يقصده باتيمان، عددًا كبيراً من اللغات يختير من لحظة إلى أخرى، اعتماداً على الكيفية التى يختارها للتماهى مع هذه الجماعة أو تلك، أما الذى لا يعنى هذه الحقائق فسيكون لديه مدى واسع جداً من الاعتقادات (والتخيلات، كالعادة) عما يفعل، وهى اعتقادات يمكن أن تؤدي دوراً اجتماعياً معيناً فى بعض الجماعات.

- (٤) وعن خطأ كيني في فهم رفضي لهذه الآراء، والنتائج المترتبة على عدم صلة رده على ذلك للرفض، انظر (Chomsky 1988b).
- (٥) وهذا هو المنحى تحديداً الذي اتخذته كيني (Kenny 1984) ضد بعض الاعتبارات التصورية من هذا النوع، مع أنه لم يكن واعياً بأن تغييراً جوهرياً حدث عن فهم التمييز بين "القدرة" أو "الطاقة"، انظر (Chomsky 1988h).
- (٦) سأعود مباشرة إلى بعض التقييدات التي وضعها كوين، فيما يخص هذه المذاهب الغريبة.
- (٧) ولتركيز المناقشة سوف أترك جانباً كثيراً من التقييدات؛ ومن ذلك مثلاً، حقيقة أن موارد الحالة الأولى تؤدي دوراً في تحديد ما يُعدُّ دليلاً وكيف يُستعمل (أو يُهمل)، وسيؤدي النظر في مثل هذه العوامل الإضافية إلى دعم النتائج هنا.
- (٨) وهذا المثال حقيقي، في الواقع، انظر (Chomsky 1986: 61).
- (٩) وهو يقترح كذلك دراسات للنماثل في اكتساب اللغة؛ وتطبق الاعتبارات نفسها في هذه الحالة.
- (١٠) ويمكن لنا أن نلاحظ، عرصة، أن العبارة الأخيرة ليست ملائمة إلا إن أمكن رفض الكلام عن النظريات بأنها صحيحة في الفيزياء، أي حين تكون مفيدة لبعض الأغراض في مجال من الطواهر؛ وربما رفض كوين هذه النتيجة انطلاقاً من شروطه الخاصة بدراسة "السماني" للدهن/الدماغ، وهي الحال التي تُعدُّ فيها المعايير السائدة في العلوم الطبيعية (بصورة ضمنية) غير مقبولة، كما ناقشنا ذلك في النص.
- (١١) وأنا أصعب كلمة "التبسيط" بين مزدوجات؛ لأن هذا التصور مضلل جداً، فستكون قاعدة قنم عبارة "who-؛ لأنها ليست موضوعاً لتقييد



البنية على العطف" والشروط المحيطة الأخرى، أبسط بالتأكيد من لقاعدة الحقيقة، التي تخضع لهذه الشروط، عدد كائن عصى يفتر لهذه الشروط (أو بشكل أكثر ملاءمة، للمبادئ التي تشتق منها) بوصفها جزءاً من بنيتها العنصرية؛ أما عند البشر، فالعكس صحيح. وبعض النظر عن معنى تصور "البساطة المطلقة"، باستقلال عن بنية النظام المناقش، فليس له صلة هنا. للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر (Chomsky 1955/1975)).

(١٢) ويفترض كوين أن قيد البنية على العطف مربوط بالقابلية للترجمة، مسلماً بأننا يجب، إن أردنا تحديد إن كان صحيحاً في بعض اللغات، أن نحدد التعبيرات التي تصلح أن تكون نظائر لعبارة العطف في الإنجليزية. ولهذا القيد صلة بالبنية، باستقلال عن علاقتها الدلالية بعبارات العطف في بعض اللغات، وربما أمكن اشتقاقها، في جزء مهم، في الأقل، من بعض الشروط الأكثر عمومية على محطبة العنصرية للنوعية المستقلة تماماً عن الارتباط بأي تعبير معين، ومن المؤكد أن كثيراً من أمثلة القيود التي تثير لفضائياً نفسها تنتم بهذه الصفة، وربما كلها.

(١٣) ولمناقشة وجه هذا الرأي عند دوميت، انظر تشومسكي ١٩٨٦، لاحظ أنه يبدو أن ديفيدسون يقصر صليته هنا على ما يسمى بـ "كفاية الملاحظة"، لا كفاية الوصف، في الأبحاث اللسانية؛ وإذا صح أن تفهم نظرية المعرفة اللغوية بالمعنى الأخير فربما تعزو بمض الآليات المحددة (وسيكون ذلك، في مستوى مجرد، بكل تأكيد).

(١٤) انظر تشومسكي (Chomsky 1986: 240) للاطلاع على مناقشة هذه المسألة، وينسب روجر جيمسون إلى الاعتقاد بأنه ليس في علم الفيزياء واللسانيات حقائق (Gibson 1986: 141)، وهي نتيجة لا لقبها ولا توحى بها الحجة، التي يشير إليها، وهي أن دراسة اللغة لا

تواجه مشكلة من عدم التحديد لا نجدها في العلوم الطبيعية. ويُخفق  
 جهده الآخر لرسم فارق يقوم على أسس وجودية، وهو الفارق الذي  
 واقع عليه كوين في إجابته إياه، وذلك لأسباب أشار إليها في  
 المراجع التي أوردتها. ويمكن أن تؤكد بكل ثقة، ونصوت عالٍ إلى  
 أردنا، أنه لا توجد إلا عناصر كيميائية وتكوينات مادية (غير  
 معروفة) تعمل على تحديد مسار النضج الجنسي، وأنه ليس هناك  
 معانٍ معجمية إطلاقاً، ولا ارتباطات للاعتماد الإحالي، ولا مكونات،  
 وربما سيظهر في المستقبل أن هذه النتيجة مقولة؛ أما ما نحن  
 بحاجة إليه هنا فإن نجد حجة على هذا، أما القول بأنه "يمكن لكتابين  
 تعليميين في الترجمة متعارضين أن يغيّا بتحويل الميول إلى سلوك"  
 وأنها "يتماشيان مع التوزيعات نفسها للحالات والعلاقات في  
 الجسيمات الأولية كلها" (Quine 1981: 23) - فليس له من المعنى  
 أكثر من معنى قول الشيء نفسه عن نظريتين في الكيمياء أو النضج  
 المادي؛ وربما كان بإمكان أحد أن يضيف في القرن التاسع عشر،  
 بقدر مماثل من عدم الصلة، أنه لا يمكن كذلك دمج النظرية الكيميائية  
 في "نظرية طبيعية - مادية مقولة" (Gibson 1986: 143)، إن كنا  
 نعني بالنظرية الأخيرة "علم الفيزياء الأساسية" الذي يجب أن يُعدّل  
 بطريقة مهمة لكي يكون صالحاً ليشمل اكتشافات الكيمياء، وليس  
 شيء من هذه الاعتبارات مقتضيات سواء أكانت إستمولوجية أو  
 وجودية، على اللغة أو أي شيء آخر.

(١٥) للاطلاع على بعض النقاش، انظر (Chomsky 1987) - ومنه أخذنا  
 بعض هذه الملحوظات، وفيه توجد المراجع.

(١٦) يصف كوين (Quine 1986: 186) "آلة المفترضة" بأنها "لحاء  
 ميكانيكية نظرية" ويوحى هذا بأنه يخطط بين بنية الحالة الأولى للملكة  
 اللعوية والحالات الناضجة المحصلة لها.

(١٧) وكانت الفرضية الأساس أن نظرية الجسد يمكن أن تُحدّد حدود صارمة، وهي أساساً حدود آليات التماس عند ديكارت، وقد هُدم إسحاق نيوتن هذه الحدود، ولم يعد من الممكن - مننذ - صياغة مشكلة متماسكة للذهن - الجسد عن طريق أي شيء يشبه المصطلحات الديكارتية، أو أية مصطلحات أخرى، على حد ما أرى، ذلك أنه لا يوجد أي تصور ثابت للجسد.

(١٨) وتختلف الأتجاه، عند كوين، "ماصديقاً" extensionally إلى تمايزت في الخرج المحصل" (Quine 1986). وهذا التعبير للمألوف مصطل، ذلك أنه قرن بالاشتراطات عما يكون "الخرج المحصل" لنحو ما. لنذكر مرة أخرى أن كوين ليس مشعولاً بالتصور المهم اختبارياً، وهو: "التوليد القوي" للأوصاف البنيوية، بل بـ "التوليد الضعيف" لفصيولة "م" من التعبيرات تختار على أساس يبدو اعتباطياً إلى حد بعيد. فالفصيولة "م" هي "الخرج الخالص"؛ لكن بغض النظر عن الطريقة التي احتيرت بها لفصيولة "م"، لا يبدو أن لخصائصها أهمية اختبارية. انظر عن هذه الأمور (Chomsky (1955/1975); 1965) وقد دأب كوين على أحد "الصحة النحوية" لتعني "وجود معنى"، ويعتقد أن هذا التصور "بغض النظر عن لوجه للتصور فيه أفضل درجة بكثير من تصور: "التشابه في المعنى" (Quine 1986). لكن "الصحة النحوية"، على حد ما نفهمها، ربما لا تكون ذات صلة بـ "وجود معنى" كما يبدو، ثم إنه ليس لتصورى "الصحة النحوية" و"وجود معنى" كما يراهما، أي معنى واضح بشكل مقبول، أو أية منزلة في دراسة اللغة.

(١٩) وهذه فرضية خاطئة؛ ذلك أن مهمة الطفل ومهمة اللغائي، كما أشرنا من قبل، مختلفتان اختلافاً جدياً.

(٢٠) إلى الحد الذي تستحق عنده أية نظرية علمية هذا اللقب. وربما صح

لنا أن نحى هذا أي سؤال يمكن أن ينطبق على البحث العلمي بصفة عامة. ولا يكاد يكون هناك من معنى لإثارة مثل هذه الأسئلة بخصوص "العلوم الهشة" soft sciences. وإذا كان هناك من يهتم بالوصول إلى أجوبة عن بعض الأسئلة، بدلاً من أن يكون مُغرمًا بالتعويض على العلوم الناشئة، فيمكنه أن ينظر إلى المجالات التي يمكن أن توجد فيها إجابات؛ وهي في هذه الحالة، تلك المجالات التي تتصف بعمق كاف من المعرفة والفهم الصالحين لتوجيه البحث بطريقة جادة.

(٢١) للاطلاع على تكرار كوين لهذه الفكرة مؤخرًا، انظر (Quine 1986). وهو يصف هنا "فكرة بارعة" اقترحها هاس W. Hass تتصل بطريقة لرسم الفارق الذي يراه، هما يبدو، لكن هذه الطريقة، بشكلها هذا، لا توفر (إلا فارقًا لا قيمة له في دراسة اللغة. ويقوم الاعتقاد المضاد الشائع جدًا جزئيًا على قياس خاطئ على اللغات الصورية، حيث القضايا هناك مختلفة جدًا، وربما نال هذا الاعتقاد بعض الدعم من بعض الفترات التي ظهرت في الأدبيات المبكرة في النحو التوليدي التي يبدو جليًا أنها مضللة، وإن كان الباحثون قد بينوا بعض التحفظات الملائمة.

(٢٢) انظر تشومسكي (Chomsky (1955/1975) حيث نوقشت هذه القضايا بطرق يبدو لي أنها ما تزال دقيقة، وكان هناك محاولة لتعريف هذا التصور بموجب المبادئ التي تقوم بتعيين بنية المكونات المشتقة.

(٢٣) للاطلاع على مناقشة في سياق لغوي — إيراكسي، انظر (Jeme, 1985) ومناقشة مستفيضة انظر (Pittelli Palmarini (1986).

(٢٤) وليس ضروريًا أن تكون "النظريات القصيرة" هي تلك التي يمكن للبشر أن يكتسبوها، أو يدركوها كنظريات مفهومة، إذا أخذنا في

الحصيان قرائتهم الفكرية المعيّنة المحددة أحيانًا.

(٢٥) ونفترض هنا، مرة أخرى، الأمثلة المعهودة، كما ناقشنا ذلك في مكان آخر.

(٢٦) كالخطط وبنية الذاكرة، إلخ. لاحظ أن المحلل، كما يُنظر إليه في البحث الحالي، يُفترض، صوابًا أو خطأ، أنه مكون واقعي للذهن/الدماغ، أي أنه نظام فرعي متماسك من نوع ما يتضمن بعض العناصر المحددة للمحلل الكامل، بدلاً من عناصر أخرى. وهذه الافتراضات موضوع لتلك الأسئلة العامة التي تبرز في البحث الاحتمالي. ويُنظر إلى دراسة المحلل دائمًا على أنها ليست عريضة بوجاهة للمشكلات العامة التي تبرز في دراسة المعرفة اللغوية (أي: دراسة الإجراء التوليدي الذي يؤخذ كأحد مكونات المحلل)، لكن هذا خطأ. ويُعترض أحيانًا بأنه لما كان الدليل يؤخذ دائمًا من الأداء فلا يحق لنا استخدامه لتحديد طبيعة المعرفة اللغوية العميقة. ويمكن أن نستنتج، بناءً على هذه الحجج (الرائفة) نفسها أننا لسنا محققين في استخدام مثل هذا الدليل لتحديد طبيعة المحلل المُؤمِّل، مثلما أنه لن يكون لدينا أي أساس لافتراض أن التعزيباء دراسة كل شيء يتجاوز قراءة العداد. لكن المادة الأولية لا تأتي معلومة بأنها دليل صالح لـ "ن"، لا لـ "ص".

(٢٧) وتساعد بعض الافتراضات ذات الصلة في تفسير السبب الذي يجعل الجهود في مجال النكاه الاصطناعي الذي يتحسس له دانيال دينيت كثيرًا فقيرة من حيث المقصديات (انظر Putnam 1988b; Dennett 1988). ويعتقد دينيت أن هناك، أو ربما يكون هناك، نتائج جوهرية تحت ما يسميه بـ "الهندسة"، لكن ليس من الواضح ما الذي يعنيه؛ كما يبدو لي أيضًا أن روايته للنقاش العام الذي جرى قبل سنوات، وهو الذي يقوم تفسيره جزئيًا عليه، خاطئة إلى حد بعيد، إن لم أقل أكثر من ذلك.

(٢٨) لاحظ مرة أخرى أنه ليس هناك سبب لافتراض أن "اللغة - د" تولد توليداً صاعقاً بعض المجموعات المركبة تركيباً صحيحاً من التفسيرات، وهو ما يجعلها تعطى معنى للكلام عن "اللغات - د" (أي: "الأنحاء") بوصفها "متماثلة ماصداقاً" لو لا، بمصطلحات كوين؛ وحتى لو اكتشف أن لهذا التصور معنى أو أنه مهم، وهو ما لا نعرفه الآن، فليس هناك سبب لافتراض أنه ستكون للخصائص الصورية لهذه المجموعة أهمية في دراسة بنية اللغة أو المعنى أو التعلم أو التواصل أو التحليل، أو غير ذلك. انظر (Chomsky 1965). وقد حدث ليس كبير جداً عن هذه الأمور، لكنني نأ أتحدث عنه هنا.

(٢٩) بمعنى غريب، مع ذلك. ولما في هذه الحالة أستحتم كلمة تفكر إلى دليل له علاقة باستخدامها، كما يحدده معجمي الداخلي. وربما لن نقول إن جونز مخطئ في استخدام لغته حين يشير إلى شيء آمنه بأنه شيء مكور، حين لا يعرف أن للجرء المحتق منه شكلاً مختلفاً.

(٣٠) ويشمل هذا المتخصصين في اللسانيات الاجتماعية والآخرين الذين يزعمون أنهم لا يتبعون هذه الممارسة. انظر عن هذا الموضوع (Chomsky 1986: 17-18).

(٣١) لنفرض أن معجم جونز يتضمن تقليداً لحبير ماء، ونقل متكلماً للغة الألمانية، في مدخل معجمي لـ "مرض التهاب المفاصل". وحينها ربما اشتمل سبب "اعتقاد" لجونز تفصيلاً أكثر، أو ربما يرغب في إهمال هذا التصور؛ بوصفه غير مفيد بأي معنى من معانيه المألوفة في علم النفس. ولا يبدو أن هناك شيئاً مهماً هنا. للاطلاع على تفصيل أكثر عن المسائل التي أثيرت هنا باختصار انظر (Bulgram 1987; Segal 1987).



## الفصل الرابع للمقاربة الطبيعية والمقاربة الشُّقّية في دراسة اللغة والذهن

يمكن فهم المصطلحات في عنوان هذا الفصل بطرق شتى، هي والأطر التي تُدمج فيها. ولأود هنا أن أتيّن الخطوط العريضة لتأويلات أراها معبّدة وملائمة، وأن أقترح دعوى أكثر عمومية، ربما تتطلب حجة أكثر شمولاً، وهي أنه ليس هناك بديل متماسك للبحث في ضوء هذه الطريقة لنقاش القضايا المتعددة المنظورة هنا، وأن المشاريع الأخرى في المجال نفسه تقريباً ستكون أكثر وضوحاً وأسهل تناولاً، إن فهمناها على أنها توسّعات للمقاربة التي نرسم خطوطها العامة هنا.

### للتهوين من شأن المصطلحات

دعنا ننحّ مصطلح "اللة" جانباً الآن وبدأ النظر في المصطلحات الأخرى في العنوان بطرق بريئة من بعض المقتضيات بعيدة المدى، وعلى الأخص، بمعزل عن أية إحياءات دلالية غريبة. خذ مصطلح "ذهن" لو، بدايةً، مصطلح "ذهني". انظر الآن إلى الكيفية التي نستخدم بها مصطلحات مثل "كيميائي" أو "مناطيري" أو "كهربائي". فنسمى بعض الظواهر والأحداث والعمليات والحالات "كيميائية" (إلخ)، لكن هذا الاستخدام لا يعنى أى مُميّز غريب؛ فلا تزيد هذه الظواهر والعمليات والأحداث والحالات عن كونها مظاهر متنوعة للعالم نختارها لتكون محوراً نوجّه إليه الانتباه لأغراض البحث والتبيين. وسوف أفهم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها تقريباً، أى بما يُشبه ما يعنيه في الاستخدام التقليدي، لكن مجرداً من أية أهمية غريبة ومن غير إحياء بأنه ربما يكون مهماً أن نحاول تعيين المعيار الصحيح لما يكون ذهنيًا أو ما يكون علامة عليه. وأعني بـ "ذهن" المظاهر الذهنية للعالم، من



غير أن أثبتت لتعريف هذه الفكرة تعريفاً أكثر دقة أو أن نتوقع اتصافها بنوع  
لافت للسطر من الوحدة أو الحدود، يزيد عما في المجالات الأخرى؛ فلا أحد  
يلبه بتبيين حدود [ما يسمى] كيميائياً تبييناً صارماً.

وأقصر اهتمامي هنا على الذهن البشري (أي على نظام الإبصار،  
والتعليل، واللغة، إلخ). ذلك أنه لا يسعى أحد إلى تأسيس علم موحد للحركة،  
بدءاً من الأميبيا وانتهاء بالنسر، فالسفن الفضائية في روايات الخيال العلمي؛  
أو [تأسيس علم موحد] للتواصل بدءاً من الحية وانتهاء بالحطاب الشجري،  
ثم إلى الكائنات غير الأرضية المتخيلة. فيدرس علماء الأحياء، بدلاً من ذلك،  
كيف تسبح الدلافين وكيف تتواصل النمل، بلانين بتعليل "داخلي" و"فردى"  
(بالمصطلحات المعاصرة). ولا يهتمون كثيراً، حين يعملون بهذه الطريقة،  
بالكيفية التي تستخدم بها كلمات "لفين" و"يتواصل"، إلخ، في الخطاب العام  
الذي أثرت فيه هذه المسائل للمرة الأولى. فهم يعملون، بدلاً من ذلك، على  
تطوير بعض التصورات الملائمة لأغراض التفسير والفهم التي يسعون إليها،  
ولا يقلل هذا الإجراء من شأن الخطاب العام والتفكير البديهي بحال؛ بل إن  
ذلك مما يحررهما من بعض المتطلبات الخطيرة غير الملائمة. والشئ نفسه  
صحيح في أنواع البحث العلمي الأخرى ذات الاهتمامات الأوسع (كدراسة  
جماعات النمل، مثلاً)<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن ننقل هذه الملاحظات — وهي بديهيات، كما أظن — إلى  
دراسة اللغة البشرية والذهن البشري. ولكون الدماغ، أو بعض عناصره،  
يتدخل بشكل مهم جداً في الطواهر اللغوية والطواهر الذهنية الأخرى، فيمكن  
أن نستخدم مصطلح "ذهن" — بصورة تقريبية لكن واضحة — في كلامنا عن  
الدماغ، منظوراً إليه من زاوية مخصوصة طُوِّرت في مسار البحث في  
بعض المظاهر المحددة للطبيعة البشرية وتحققاتها. ولدينا هنا مسلمات  
احتبارية — منها أن الذهن، لا القدم، هو العضو الذي له صلة بـ [اللغة]،  
وأن البشر يتشابهون إلى درجة كافية في القدرة اللغوية وهو ما يسمح بعدد

اللغة البشرية موضوعًا طبيعيًا، إلخ. لكن ينبغي ألا نشغلنا هذه المسلمات كثيرًا.

دعنا كذلك نفهم مصطلح "المقاربة الطبيعية" بمعزل عن الإحياءات العبيية: فتبحث "المقاربة الطبيعية" للذهن المظاهر الذهنية للعالم بالكيفية التي يمكن أن يبحث بها مظاهره الأخرى، ساعين إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، مع الأمل بدمجها في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية "الصرف". ويمكن أن تقابل هذه "المقاربة الطبيعية المنهجية"، بما يمكن أن يسمى بـ "المقاربة الثنائية المنهجية"، التي توجب التخلي عن المنهجية العلمية حين ندرس البشر "ما فوق الرقبة" (مجازًا)، أي أن نتحول إلى متصيدي غرائب في هذا المجال الفريد، وأن نعرض بعض المصادرات الاعتباطية والمتطلبات "المسبقة" من أنواع لا يمكن أن ترد على ذهنان المشتغلين بالعلوم، لو أنها تفارق، بطرق أخرى، المعايير المألوفة الموجهة للبحث العلمي.

وهناك أسئلة مهمة عن الكيفية التي ينبغي أن يسير البحث العلمي الطبيعي بها، لكن يمكن تجنبها جانبًا هنا، إلا أن قنم سببًا يبين أن لها صلة هريدة بهذا البحث تحديدًا. ولم يقم أحد سببًا كهذا، على حد ما أعلم، بل يمكن على وجه التعيين أطراح الحجج المتشككة في هذا السياق. فيمكن ببساطة أن نشي المنظور النموي السائد للعلم المعاصر، وهو، أساسًا، رد فعل علماء القرن السابع عشر المتمثل في معارضة النزعة الأسسِيَّة anti-foundationalism<sup>(1)</sup> على أزمة المنك الديكارتيّة، التي كانت تتمثل، كما يقول ريتشارد بوبكين، في "إدراك أن من المستحيل إعطاء أسباب نهائية محدّدة لتفسير معرفتنا، ومع هذا فنحن نمتلك معايير نموذجية نقوم بها مدى تقننا بما اكتشفناه عن العالم ومدى تطبيقه عليه"، وهو ما يعني قبولنا بالمعرفة نفسها وزياتتها في الوقت الذي ندرك فيه أن "أسرار الطبيعة، وطبيعة الأشياء الداتية، محجوبة عنا إلى الأبد" (Popkin 1979: 139ff). وربما يكون مهمًا أن نذهب إلى أبعد من هذا، لكن المكان الذي ينبغي أن

نوجه أنصارنا إليه بحثاً عن إجابات، إن كان الأمر كذلك، هو حيث يحتمل أن نجد فيها: أي العلوم للصرف، حيث يمدنا غنى الفهم وعمقه بعدد من الأمل في تحصيل معرفة أعمق بهذه المسائل. أما إثارة هذه الأسئلة عن مبادئ بحث ما تزال في بدايتها الأولى فغير معيدة، وربما لا تريد عن كونها شكلاً من التفتيش على هذه العلوم الناشئة.

ويبغى ألا تكون المقاربة العلمية للطبيعية، حين نفهم على هذا الوجه، موضع خلاف، وإن كان المدى الذي يمكن أن تصل إليه لم يحدد بعد، أما البديل الثاني لها فوينبغي أن يكون موضع خلاف كبير جداً. ومع ذلك فبالعكس هو السائد الآن، كما نظن، وهذه سمة غريبة لتاريخ الفكر المعاصر. فقد اقترحت بعض النظريات التفسيرية للدهن، وفي دراسة اللغة خاصة. لكنها قوبلت بمعارضة قوية، لا لأنها تخالف معايير المقاربة الطبيعية المنهجية (التي يبدو أنها تتبعها، إلى حد بعيد)، بل انطلاقاً من بعض الاعتبارات الأخرى، كـ "الاعتبارات الفلسفية"، التي يُزعم أنها تشهد بأن هذه النظريات مريبة، وربما متطرفة، على الرغم من النجاح الذي حققته بمقاييس النجاح المألوفة في العلوم؛ أو ربما تكون ناجحة، لكنها لا تعالج [مفهومياً] "دهن" و"دهن". وسأقترح أن هذا النقد غالباً ما يكون شكلاً من أشكال النزعة الثانية المنهجية، وأن تبني هذا الموقف (أو قبوله صمناً) كان أحد المواقف البارزة في أكثر الأبحاث لغتاً للنظر في الفلسفة المعاصرة للدهن واللغة.

ومن الواضح أن المقاربة الطبيعية لا تلغي الطرق الأخرى لمحاولة تفهم العالم. إذ يمكن لمن يتبنى [هذه المقاربة] أن يعتقد باطراد (كما أفعل أنا) أن بإمكاننا أن نعرف عن اهتمامات البشر بالكيفية التي يفكر بها الناس ويشعرون ويتصرفون من قراءتنا للروايات أو دراسة للتاريخ أو النسيطات اليومية العادية أكثر مما نعرفه عنها من مجمل النتائج التي حصلها من علم النفس الذي يقوم على المقاربة العلمية الطبيعية، وربما سيظل الأمر كذلك دائماً كما يمكن بالمثل أن تقدم الفنون مستوى عالياً من التقدير لأسرار

السماء يعوق ما نحلم علوم الفضاء الفيزيائية بالوصول إليه. ونحن نتحدث  
هنا عن الفهم النظري، وهو نوع خاص من الفهم. ويتحمل أى انحراف عن  
هذه المقاربة، في هذا المجال، عبء التسويغ لهذا الانحراف. وربما لمكن  
تقديم تسويغ ما، لكنى لا أعرف تسويغاً واحداً.

### اللغة في البحث العلمى الطبيعى:

ولنأطير النقاش دعماً ننظر بإيجاز إلى المسار الذى تقودنا إليه المقاربة  
المنهجية الطبيعية في دراسة الذهن، واللغة خاصة. إنها تقودنا، كما لطن،  
إلى شيء يشبه الوضع التالى، على حد ما نفهمه فى الوقت الحاضر.

ليحوى الدماغ مكوناً — سمة "الملكة اللغوية" — مقصوراً على اللغة  
واستخدامها. وللملكة اللغوية، عند أى فرد، حالة أولى، يحددها الإعداد  
الأحيائى. وتتشابه هذه الحالات، إذا استثنينا الحالات المرضية، عند أفراد  
النوع إلى حد بعيد حتى ليمكن أن نجرّد "الحالة الأولى" للملكة اللغوية، وهى  
خصيصة مشتركة بين البشر. ونقدح البيئة مسار النمو الموجّه داخلياً وتشكّله  
شيئاً ما، وهو الذى يستقر عند سن البلوغ تقريباً. وستحاول أية دراسة جادة  
تحديد ماهية الحالات "الخالصة" للملكة اللغوية تحت الظروف المثالية، بتجريد  
عن كثير من الاستثناءات والتدخلات التى تنتج عن عدد كبير من الظروف  
المعقّدة للحياة اليومية، ونأمل بهذا أن نحدّد الطبيعة الحقة للملكة اللغوية  
وتحققاتها؛ وهذا ما تمثله معايير المنهجية الطبيعية، فى الأقل. ونعدّ وجهة  
النظر هذه، التى تؤخذ فى البحث العلمى الطبيعى أمراً مسلماً، مثيرة للخلاف  
دائماً، أو ربما أسوأ من ذلك، فى مجال اللغة والذهن، وهو ما يبرهن على  
الزعة الثنائية التى أشرت إلى مدى شيوعها وصررها.

ونحدّد حالة الملكة اللغوية المحصلة فصيلة غير نهائية من التعبيرات  
اللغوية، يتألف كل منها من مجموع محدّد من الخصائص الصوتية والبصرية

والدلالة. فتحدد هذه الحالة عندى خصائص الجملة السابقة [هـ]؛ وتمثل حالتك حالتى إلى حد يستطيع ذهنك عنده (أحياناً) اكتشاف شبيه ملائم للجملة التى قلتها، وهو ما يعنى أنك تمتلك وسائل معينة تعينك على تحديد ما قصدته (ولا يمثل التعبير الذى سمعته إلا جزءاً من الدليل لديك، أما التواصل فأمر "تقريبى"). والحالة المحصلة نظام حوسبى (توليدى). ويمكن أن نسمى تلك الحالة لغة "ل"؛ لكى نتجنب خلاف المصطلحات، language - لغة - د، وقد اخترت "ل" للإيحاء بأن هذا التصور داخلى، وفردى، ومفهومى (بالمعنى التقنى؛ أى أنه تحديد لدالة فى الفهم). فبمعنى لمثل ذلك جوبر لغة - (د)، أى "ل" [لغة]، أن تكون لغة فى الحالة "ل". وتمثل الإشارات المعينة تحقيقات للتعبيرات اللغوية (المتكلمة والمكتوبة والمؤشرة، إلخ)؛ والأفعال الكلامية تحقيقات للتعبيرات اللغوية بمعنى أوسع، ويمكن أن نفهم التعبيرات على أنها تعليمات للأنظمة الأخرى فى الذهن/الدماغ تتبعها فى استخدام اللغة.

وانطلاقاً من المسلمات الاحتمالية (الضعيفة جداً) لهذه الملحوظات فإن فكرة لغة - د" واضحة جداً؛ أى لا خلاف على أن الدماغ نظام معقد يتصف ببعض الحالات والخصائص. ويبقى بعد ذلك أن يفصل تصور "حالة الدماغ" وأن نكتشف خصائصها. وتتطلب الأفكار الأخرى "لغة" مزيداً من التسوية - الذى ربما لا يكون سهلاً، كما لظن.

ويجب عدم الخلط بين فصيلة التعبيرات التى تولدها "اللغة" (د) "ل" وفصيلة الجمل الصحيحة صورياً، وهى فكرة ليس لها مكان معروف فى النظرية اللغوية، وإن تسببت بعض الكتابات غير المتخصصة أحياناً فى غموض هذه النقطة، وهو ما أدى إلى كثير من اللغط والجهد للصانع. لهذا ربما نعين لغة جونز "ل" خصائص محددة لما يسمى بالتعبيرات "الشادة" إلى حد بعيد؛ وربما تعطى تأويلاً محدداً لأية إشارة ممكنة، حيث نحدد خصائص الحالة الأولى هذا الفكرة الأخيرة.

وربما يكون للنظام الحوسبي نفسه غير متنوع (أساسًا)، ومثبتًا بالإعداد  
الأحيائي الفطري، حيث تقتصر التنوعات بين اللغات وأنماط اللغات على  
بعض الخيارات المعجبة؛ وهي خيارات محدودة إلى حد بعيد. وربما تؤدي  
بعض التعيرات الصنيلة في نظام معقد إلى ما يبدو كأنه لاختلافات مثيرة  
كبرى؛ لهذا، يبدو كأن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافًا  
جذريًا، مع أنه لا يختلف بعضها عن بعض إلا بأشكال هامشية جدًا، كما يبدو.  
وهذا ما يمكن أن يتوقعه أي عالم منهجي يلاحظ للبشر؛ أما لو لم يكن الأمر  
كذلك، ربما لن يتيسر لنا تحليل ما تتصف به الحالة المحصلة من تحديد دقيق  
غنى وتعقيد بناء على معلومات محدودة جدًا توفرها البيئة. وتؤخذ بعض  
الافتراضات المماثلة أمرًا مسلمًا في دراسة النمو والتطور عامة؛ لذلك لا نميز  
المقاربة الطبيعية الحالة الفريدة للعمليات الذهنية [عن غيرها].

ولا توجد خصائص الحالة الأولى والحالات المحصلة، حتى أكثر  
أشكالها بدائية، على حد ما نعلم، عند الكائنات العصبية الأخرى لو في العالم  
الأحيائي، باستثناء ما يتعلق منها بنقاط الالتقاء بينها وبين الملاءمة غير  
العصبية. ولا توجد إلا علاقات ضعيفة جدًا بينها وبين ما لكشفته العلوم  
المتخصصة بالدماغ. وينشأ عن هذا أننا نواجه مشكلات التوحيد المألوفة في  
تاريخ العلم، ونحن لا نعرف كيف سنحل هذه المشكلات - لو إن كانت قابلة  
للحل ابتداءً.

وسأوقف هنا عن إيراد مزيد من التحليل لنتائج البحث العلمي  
الطبيعي؛ وأعود إلى قضايا المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية بصورة أكثر  
عمومية.

#### أنواع من المقاربة الطبيعية:

ينبغي ألا نحيط بين المقاربة الطبيعية المنهجية وبعض التنوعات  
الأخرى [للمقاربة الطبيعية]. ولإيضاح ما أعنيه وما لا أعنيه، دعني أورد

أخذ التفسيرات المفيدة لتصوّر المقاربة الطبيعية، وهو ما كتبه بولدوين مؤخراً (Baldwin 1993: 171). فيبدأ بولدوين بحثه بملاحظة أن "أحد أبرز الموضوعات في الفلسفة المعاصرة هو 'إحصاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية' [تطبيع الفلسفة]. فقد كتب ديفيد دينيت أن 'أحد أسعد التوجهات الفلسفية في العشرين سنة الماضية كان 'إحصاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية'" (ص ١٧١). أما كون ذلك التوجه بارزاً فصحيح، لكن وصفه بأنه سعيد يبدو أمراً خلافياً، وهو يختلف، على أية حال، عن المقاربة الطبيعية التي أتبناها هنا.

ويجد بولدوين "مطين مختلفين من المقاربة الطبيعية في الفلسفة المعاصرة"، ويُسميهما المقاربة الطبيعية "الغريبة" والمقاربة "المعرفية" epistemic. والنمط الأول هو "ما كان يعنيه دينيت حين يحتق بـ 'إحصاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية': أي الفكرة التي مفادها، كما يقول دينيت، 'أنه يجب أن تكون التفسيرات الفلسفية لعقولنا ومعرفتنا ولغتنا متمشية، في نهاية الأمر، مع العلوم الطبيعية ومتناغمة معها'" (ص ١٧٢) - خلاف للمقاربة الفرجية الأفلاطونية، مثلاً، التي لا تتماشى مع الفرضيات "التي طوّرتها العلوم الطبيعية"، كما يزعم.

وتشتق المقاربة الطبيعية للمعرفة المعاصرة من "علم المعرفة epistemology المخضع للمقاربة الطبيعية" عند ويلارد كوين، وهي تشترط وجوب أن تلحق دراسة المعرفة والاعتقاد بعرض صيغ من علم النفس السلوكي الذي ليس له أهمية علمية معروفة، وهذا تصرف غريب بداته، ومن المدهش أنه لم يثر إلا اعتراضاً قليلاً، ويلاحظ بولدوين أن توجهها أوسع [منها] يعنى بالنظر في "العلاقات الطبيعية" بين الأوضاع الخارجية والحالات الذهنية بعيداً عن أية قيود اعتباطية، ويمكن عدّ هذا الوجه الأوسع شكلاً متطوراً من علم النفس الذهني في القرن السابع عشر الميلادي، الذي كان يرى، كما يقول لورد هيربرت، أن هناك "مبادئ أو أفكاراً مخروسة في الذهن" وهي التي "تضفيها على الأشياء من دخليها... [بوصفها]... هبة

مباشرة من الطبيعة، وتمليها الغريزة الطبيعية" أي "أفكاراً مشتركة" و"حقائق فكرية" "طبعها على الروح إكراهات الطبيعة نفسها"، وهي التي، وإن كانت "الأشياء تحفزها"، إلا أنه لا يُعبر عنها عن طريق [هذه الأشياء] (Herbert 1624 1937: 133). ويورد يولدين [الفيلسوف] توماس ريد بوصفه مصنفًا لأحد أشكال "علم المعرفة المُخصَّص للمقاربة الطبيعية"، حيث يعبر عن وجهة نظر مشابهة لكنها "محررة من قترام هيوم بنظرية الأفكار" [أو أي النرام مبكر آخر] (Baldwin 1993: 181)؛ أي محررة من المحاولات المبكرة التي سمعت إلى بيان ما يسميه ريد بـ "الأحكام الأصلية والطبيعية" التي "رؤيت الطبيعة بها الفهم البشري" بوصفها "جزءاً من كينونتنا"، وهي ما يكون "البديهية البشرية" (Reid 1785: 600-601). ولما لم يوت ببديل للخطوط العريضة للنظرية التي تخلى عنها، فمن الصعب أن نرى كيف يتقدم هذا "الإحضاع للمقاربة الطبيعية" إلى ما يتجاوز الأشكال المبكرة. لكن الأمر بعكس ذلك، فتطبيقات الفلاسفة الديكارتيين وفلاسفة كامبردج الأفلاطونيين أكثر تقدماً [من تلك النظرية] من وجوه عدة، كما نرى. وقد اقترح تشارلز ساندرز بيرس في فترة لاحقة (Peirce 1957: 253) أن الفكر الإنساني موجه بمبدأ "القياس الاحتمالي" abduction الذي "يصع قبولاً على ما يمكن قبوله من الفرضيات" وهو فطري فينا، ويؤود ذهن البشري بـ "تكيف طبيعي لينحيل النظريات الصحيحة من نوع معين" (ص ٢٣٨) وهو (مع قليل من المعقولة) نتيجة لمبدأ الانتقاء الطبيعي. وهناك مقتضيات أخرى كثيرة، ومنها "علم المعرفة التطوري" الذي ظهر في السنوات الأخيرة. (للاطلاع على بعض النفاش، انظر: Chomsky 1966: Chapter 4; 1968/1972, 1975 Chapter 1).

ومشروع المقاربة الطبيعية المعرفية غير حلقى، باستثناء المصطلح، وهو [مصطلح] مصطلح بطريقة معاصرة غريبة. فقد كانت المقاربة الطبيعية المعرفية علماً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي أنها محاولة لصياغة نظرية احتمالية عن ذهن؛ وكان هيوم، مثلاً، يقارن مشروعه



ممشروع إسحاق نيوتن. أما المقاربة الطبيعية المعرفية [الآن] فقد قُضمت، بالمقابل، على أنها "موقف فلسفي"، وهو أمر مختلف، كما يبدو. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفهم الآن ما كتب في فترات متقدمة على أنه معادل للتمييز المعاصر بين العلم والفلسفة الذي طوّر في فترة لاحقة. وربما لا يمكننا إطلاق مصطلح "المقاربة الطبيعية الإبصارية" على الدراسة الاحتيارية لنمو النظام الإبصاري ووظيفته (الذي كان موضوعاً لاهتمام علم النفس السدهي في فترة مبكرة، كذلك)، قاصدين بذلك أنه كان هناك بديل متعاضد لدراسة المشكلات نفسها. ويبدو لي أن مصطلح "المقاربة الطبيعية المعرفية" مضلل بالطريقة نفسها تقريباً، هذا إن لم نذكر بعض أوجهها المعينة المشتقة من مصطلح كوين: "علم المعرفة الخاضع للمقاربة الطبيعية".

والمقاربة المعرفية الطبيعية التقليدية عند المشتغل بالمنهجية الطبيعية نوع من العلم العادي normal science (انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب)<sup>(٣)</sup>، بغض النظر عن الكيفية التي نعوّم بها بعض تطبيقاتها المحددة، فالبحث العلمي في الحالة الأولى للملكة اللغوية، مثلاً، محاولة لاكتشاف "المبادئ والأفكار المغروسة في ذهن" التي هي "هبة مباشرة" من الطبيعة، أي إعدادنا الأحيائي. ويطلق البحث، كما في المجالات الأخرى، من الصياغات البديهية. انظر الجملة التالية، مثلاً:

Jones knows (speaks, understands, has) English.

"يعرف جونز (يتكلم، يفهم، يمتلك) اللغة الإنجليزية".

فتوجه هذه الملاحظة الانتباه إلى حالة معينة للمعالم، ومنها إحدى حالات دماغ جونز، وهي حالة إدراكية، تقوم عليها معرفة جونز بأشياء معينة كثيرة، نحوه: معرفته بكيفية تأويل الإشارات اللغوية، أو أن بعض التعبيرات اللغوية تعني ما تعنيه، إلخ. ونحن نود أن نعرف كيف وصل دماغ جونز إلى هذه الحالة الإدراكية. ويقود البحث في هذا الأمر إلى بعض

الفرصيات الاحتمالية عن الإعدادات الأحيائية، والتفاعلات مع البيئة، وطبيعة الحالات المحصلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى للذهن (كأنظمة البطنية والإدراكية والتصورية والقصدية، إلخ). وتسمى النظريات التي تصل إليها عن نمو اللغة أحياناً بنظريات "جهاز اكتساب اللغة" Language Acquisition Device (LAD)، وهي التي تحدث تحولاً لحالة الملكة اللغوية الأولى إلى حالات نائية، أي تحول التجربة إلى الحالة المحصلة؛ وتسمى النظرية عن الحالة الأولى أحياناً بـ "النحو الكلي"، وهو استخدام [معاصر] لمعهوم تقليدي في سياق مختلف شيئاً ما. (ولان أعرض فيما يأتي للفروق بين نظريتي "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي"). وهذه دراسة للذهن، كما أرى؛ وهناك آخرون يخالفونني، لأسباب سأعود إليها فيما بعد.

وتبدو المقاربة الطبيعية الفيزيائية أكثر إشكالاً من المقاربة الطبيعية المعرفية التقليدية. فأحد الأسئلة التي يثيرها بولدوين هو: "ما العلوم الطبيعية؟" ومن الإجابات الممكنة: إنها أي شيء يُنجز بالعمل بانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية. لكن لا يبدو أن هذا هو المقصود؛ فلو جُل هذا السؤال قليلاً، ومن القضايا ذات الصلة أن نقرر ما "التعليقات الطبيعية لمقولنا، ومعرفتنا ونفقتا"، وكيف تختلف عن "التعليقات العلمية"، خاصة إن كانت تتماشى مع العلوم الطبيعية" (Baldwin 1993: 172). فهل يعني هذا الاعتقاد أنه ينبغي أن تكون أية نظرية عن الذهن "متماشية" و"متناغمة" مع الفيزياء في الوقت الحاضر؟ ومن المؤكد أن هذا غير مقبول؛ إذ يحتمل ألا تتوافق فيزياء المستقبل مع هذا الشرط. أم ينبغي أن تتوافق مع أحد أشكال المثال البيروني (نسبة إلى بيرس) لما سيكون عليه العلم في "الحدود القصوى"؟ لكن هذا ليس بمساعدنا كثيراً، حتى إن كان له معنى. ذلك أنه ربما تتضمن فيزياء المستقبل وجهاً من التعليقات الممكنة في الوقت الحاضر (سواء سميت "فلسفية" أم لا)، حتى إن لم تتماشى هذه التعليقات مع الفيزياء في الوقت الحاضر.

وإذا كان الأمر كذلك فإن يكون هذا جديداً في تاريخ العلوم؛ فقد ظل

توحيد النظريات المختلفة عن العالم هدفًا دائمًا للعلوم، لكن السعي نحو هذا الهدف اتخذ مسارات مختلفة عديدة. ولم يكن الاختزال الشامل النمط المعهود [نحو هذا التوحيد]؛ ويجب ألا نخدعنا بعض الأمثلة المثيرة كاختزال كثير من علم الأحياء إلى علم الكيمياء الأحيائية في أواخر القرن العشرين. أما ما يحدث دائمًا فهو أن العلم الأكثر "أساسية" هو الذي اضطرر لأن يحصص للمراجعة، وبشكل جذري أحيانًا، من أجل أن يتجزأ التوحيد. هب لن فليسوفًا في القرن التاسع عشر أصر على أنه "يجب أن تتماشى التحليلات الكيميائية للجزيئات، والتفاعلات، وخصائص العناصر، وحالات المادة، إلخ مع العلوم الطبيعية وأن تتأغم معها، في نهاية الأمر"، حيث يقصد بالعلوم الطبيعية الفيزياء كما كانت تفهم حينذاك. لكن تلك التحليلات لم تكن تتماشى مع الفيزياء آنذاك؛ لأن الفيزياء في تلك الفترة لم تكن قد تطورت بما يكفي. وقد تعبرت الفيزياء في ثلاثينيات القرن العشرين تغيرًا جوهريًا، ثم أصبحت التحليلات (التي عُدَّت هي نفسها) "متماشية" مع الفيزياء الكمية الجديدة و"متأغمة" معها. افترض أن عالمًا في القرن السابع عشر لوجب الشرط نفسه على آلية الأجرام السماوية celestial mechanics، مشيرًا إلى "الفلسفة الآلية" السائدة [آنذاك] ورافعًا نظرية نيوتن للغامضة (كما فعل لايبنتز وهويجينز)، لأنها لم تكن تتوافق مع "قوانين الآلية" Laws of Mechanics (انظر Dijksterhuis 1986: 479f). ومع احتمال أن يكون رد الفعل هذا مفهومًا إلا أنه كان سيكون (وقد كان) حاسمًا؛ ذلك أنه لزم أن تتغير الفيزياء الأساسية تغيرًا جذريًا لكي تبدأ عملية التوحيد.

ونحن لا نعرف إلى أين ستقودنا تلك العملية، بل لا نعرف حتى المدى الذي يمكن أن يصل إليه الذكاء البشري في تحصيله مثل هذا الفهم للعالم الطبيعي؛ ذلك أننا لسنا إلا عضويات أحيائية، لا ملائكة. ونوحى للملاحظة الأخيرة، وهي، مرة أخرى، غير خلاقية، بطريقة أحرر للإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية؟". فمن مظاهر الذهن المظاهر التي تدخل في البحث العلمي الطبيعي؛ ونسميها "ملكة صياغة العلم". فيواجه الناس، المزوَّنون بـ "ملكة

صياغة العلم، "أوضاعاً مشكلة" تتكون من بعض الحالات الإدراكية المحنّدة (للاعتقاد والفهم أو عدم الفهم)، والأسئلة التي تتلّو، إلخ (وهي، أساساً، ما سماه سيلفين برومبيرجر "معضلة ح" p-predicament؛ انظر كتابه الذي يحوي مقالاته Bromberger 1992b) وترمز "ح" لكلمة "حيرة". ولا تؤدي "ملكة صياغة العلم" غالباً إلا إلى طريق مسدود. وتوفّر أحياناً بعض الأفكار عن الكيفية التي يمكن بها أن يجلب عن بعض الأسئلة أو كيف تعاد صياغتها، أو عن الحالة الإدراكية التي تعتل، وهي أفكار يمكن تقويمها بعد ذلك بالطرق التي توفّرها "ملكة صياغة العلم" (كالفحص الاختباري، والتناغم مع الأجزاء الأخرى للعلم، ومعايير المعقولة والأناقة، إلخ). ولـ "ملكة صياغة العلم"، كالأنظمة الاحتمالية الأخرى، مدى ممكن وحدود، ويمكن أن يميّز بين "مشكلات" تقع في مداها من حيث المبدأ، و"أحاج" لا تقع ضمن هذا المدى. وهذا التمييز مقصور على البشر؛ أما القران وسكان المريخ فلهم مشكلاتهم المختلفة وأحاجهم، بل إننا نعرف، في حال القران، قدراً لا بأس به عن تلك المشكلات والأحاجي، وليس هناك حاجة لأن يكون هذا التمييز صارماً، وإن كنا نتوقع وجوده بكل تأكيد، عند أية عضوية وأية ملكة إدراكية. فنقع العلوم الطبيعية الناجحة، إن، داخل منطقة تماس المدى الذي تصل إليه "ملكة صياغة العلم" مع طبيعة العالم؛ وهي تتعامل مع مظاهر العالم (المشتتة والمحدودة) التي يمكن أن نضبط بها ونفهمها عن طريق البحث العلمي الطبيعي، من حيث المبدأ. وهذا التماس نتيجة صحتية للطبيعة البشرية. وليس في نظرية التطور، أو في أي مصدر آخر مما يمكن لنا فهمه، على الضد من بعض التخرصات منذ بيرس، ما يوحي بأنه ينبغي أن تتضمن إجابات عن بعض الأسئلة المهمة التي نثيرها، أو حتى أن يكون قادرين على صياغة الأسئلة صياغة ملائمة في بعض المجالات المحيرة.

وبحسب لا نعرف، تحديداً، إن كانت مظاهر النظرية عن الذهن كالأسئلة عن الشعور consciousness، مثلاً - مشكلات عند البشر أم أحاج، مع أننا ربما نستطيع من حيث المبدأ اكتشاف الإجابة [عن هذا السؤال]، بل

أن نكتشف أنها أحاج؛ فليس هناك تناقض في الاعتقاد بأن "ملكة صياغة العلم" ربما تسمح لنا بأن نتعلم شيئاً عن حدودها. (انظر Chomsky 1968 ch. 3; 1975, ch. 4. وانظر عن مسألة الحدود الممكنة، وصلتها بالبحث الفلسفي خاصة 1993; McGinn 1991).

فيمكن الإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية"، إن، بشكل أكثر تحديداً، بالسؤال عن ما الذي أجزته؛ أو بصورة أعم، بالبحث في إحدى ملكات الدهن (البشرى) المعينة، بخصائصه المحددة. لكن يبدو مع ذلك أننا بحاجة إلى شيء آخر؛ أما ما هو ذلك الشيء، فغير واضح.

ومن الموحى أن ننعم النظر في أصول العلم المعاصر. وباختصار، فقد وصع التقدم العلمي خلال القرن السابع عشر الأسس لقواعد "الفلسفة الآلية"، التي أدت إلى القصاء على التخيلات العجيبة عن أشكال الأشياء التي تطير في الهواء وتغرس نفسها في الأسمعة، وعن الطاقات والقوى الغامضة، و"النوعيات السرية" للتعاطف، والتباد، إلخ، وهو ما منحه باقتراح بعض الخرافات كالتأثير عن بُعد عبر فراغ. وقد لاحظ الديكارتيون أن بعض الظواهر الطبيعية (ومن أبرزها استخدام اللغة) لا تقع في نطاق الفلسفة الآلية، على ما يبدو، وهو ما جعلهم يعرّضون مبدأ جديداً لتفسيرها. فقد افترضوا، بناء على منظوراتهم الماورائية [الغيبية]، جوهرًا ثانويًا (res cogitans "ذهن")، ولأسباب أخرى كذلك. وبغض النظر عن التطبيق، لم يكن هذا الاقتراح بعيداً عن المعقول، بل لا يختلف كثيراً عن التفسير الذي اقترحه نيوتن حين اكتشف لوجة القصور في الفلسفة الآلية. ولدى اقتراض شيء يقع وراء الفلسفة الآلية إلى نشوء مشروعين هما: تطوير النظرية وحل مشكلة التوحيد؛ ويتمثل هذان، في الحالة الديكارتية، في "مشكلة الذهن - الجسد". وهذا كله علم عادي، وكان خطأ، لكن هذا الخطأ نفسه عادي كذلك.

وبمجرد أن بدا كأن الفلسفة الآلية لتتصرت، قوضها نيوتن، حيث أعاد إدخال نوع من السببية والنوعية "سرية"، مما فُتّر لمتعاض العلماء البارزين

وقد أكد، بل لمنعاصه هو نفسه. ولم تتأثر النظرية الديكارتيّة عن الذهن (بصورها التي كانت عليها) باكتشافاته تلك، أما نظريته عن الجسد فقد برهن على أنها غير ممكنة. وبكلمات آخر، فقد قضى نيوتن على مشكلة "الروح في الآلة" بالتخلص من الآلة؛ أما الروح فلم تتأثر. كما تركنا نستنتج أنه لا يمكن أن يتوقع أن يبقى الحدس البدني - أي "الغرياء الشعبية" التي كانت أساساً للفلسفة الآلية - في وجه التحول نحو البحث العلمي المنهجي في طبيعة الأشياء. وقد اختفت مشكلة الذهن - الجسد، وبمستحيل بحثها، إن كان تلك ممكناً بأية حال، (إلا بتقديم فكرة جديدة للجسد (كأن يكون مادياً، أو فيزيائياً، إلخ) لتحل مكان الفكرة التي هُجرت، وهو مشروع ربما لا يكون معقولاً، كما يبدو. أما إن لم يحدث ذلك، فلن توفر لنا عبارة "العالم المادي" ("الغريائي"، إلخ) إلا طريقة غير منضبطة في الإحالة إلى ما نفهمه فهماً تقريبياً، وبأمل في توحده بطريق ما.

والنتيجة الطبيعية، التي استخلصها لو ميتر بعد ذلك بقليل ثم جوزيف بريستلي بعده، أن الفكر والفعل البشريين خصيصتان للمادة المنظمة، تشبهان قوى التجاذب والتنافذ، والشحن الكهربائي، ولنسبهاها (Le Mettrie 1747)؛ كذلك (Cohen 1941؛ و Yulton 1983؛ و Wellman 1992). ونحن نسعى، حين نتبنى وجهة النظر تلك، إلى تحديد خصائص هذه الأشياء في العالم، وتعليل الظواهر الذهنية في ضوءها، وتبيين كيفية نشوئها عند الفرد والأنواع، وإلى ربط هذه النتائج بأي شيء آخر نعرفه عن المادة المنظمة (وهذا هو الوجه الجديد لمشكلة التوحيد). ولم يتحقق إلا تقدم ضئيل، فيما يخص المشكلة الأخيرة. كما لم يتحقق تقدم حقيقي في تعليل خصائص الاستخدام العادي للغة، وغيرها من الظواهر، وهي التي دعت الديكارتيين إلى اقتراض جوهر ثان (والذي لم تعد حدود الآلية موضوعاً مهماً). وربما نكتشف في نهاية الأمر أن هذه [الظواهر] تحتاج عند البشر. وقد تحقق قدر من التقدم في فهم البات للذهن من الزاوية الأكثر تجريداً "لتنحو الكلى" و"جهاز اكتساب اللغة"،

والحالات المحصلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الإنترلكية الأخرى؛ وفي دراسة بعض هذه الأنظمة (كالنمو التصوري، مثلاً). وهذه فروع للعلوم الطبيعية، في ضوء المسلمات العلمية الطبيعية — سواء أكان ذلك أمراً جيداً لم سيئا، خطأ كان أم صواباً.

وتحاول العلوم الطبيعية أن تفهم العالم في مظاهره الكيميائية والكهربائية والذهنية، إلخ. فهل يحوى للعالم قوى بيوتية شامصة تؤثر على أجساد يفصل بينها فضاء فارغ، أو يحوى مجالات كهربائية ومغناطيسية تتصف، وإن كانت أشياء رياضية [من الرياضيات]، بأنها أشياء فيزيائية "واقعية" نظراً للطريقة التي تتكافح بها عبر فضاء فارغ" (Penroso 1989: 185- 186). أو يحوى فضاءً منحنيًا يبدو أنه يسلب البنية المحددة كلها أى شيء يمكن أن نسميه صلاية، أو أنه ربما لا يحوى في أعماقه إلا شذرات من المعلومات (Wheeler 1994: 294). وهل يحوى أفكار هيربرت ومبادئه العامة بوصفها جزءاً من "الفريزة الطبيعية"، أو ملأهيم هيوم، أو أفكاراً وتصورات، أو مبادئ حوسبية وحالات، إلخ؟ وبمعنى البحث العلمي الطبيعي للإجابة عن هذه الأسئلة، بقر ما يستطيعه من نقد ذاتي، مبتعداً عن المسلمات الاعتيادية حين يمكن اكتشافها، مع الوعي بأنه لا يمكن التغلب على القيود الأحيائية على الفكر البشري، لما للقيود الثقافية فربما لا يتيسر اكتشافها بسهولة.

دعنا نعد إلى الاتهام بأن النظرية عن الذهن التي تقدم أفكاراً كـ "العهم الدقيق للمعاني الفرجية" لا تتناغم مع الفرضيات التي "طورتها العلوم الطبيعية" أو لا تتماشى معها. وهذه الملحوظة صحيحة لكنها غير مهمة، إن كنا نعى للعلوم الطبيعية في الوقت الحاضر، باستثناء "النظرية عن الذهن". أما الأسئلة الحقيقية فيجب أن تتعلق بمكانة "النظرية عن الذهن" بناء على أسس علمية طبيعية، وبمشكلة التوحيد (إن كانت "النظرية عن الذهن" محفولة شيئاً ما). أما إن عني هذا الاتهام أن مشكلة التوحيد تقع وراء القدرة البشرية

فربما يكون ذلك صحيحاً، لكن ليس لهذا علاقة بالمكانة العلمية للنظرية عن الدهن\*. فلا يلزمنا أن ننظر في بعض التخصصات عن العلم "الصحيح"، وهو الذي ربما يقع وراء ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري. لكن ما الأشياء الأخرى التي تتطلبها المقاربة الطبيعية "الغيبية"؟ والجواب: إن هذا ليس واضحاً.

فهل يسعى أي فهم للمقاربة الطبيعية الغيبية على أنها المطلوب الذي يوجب وحدة الطبيعة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن يُنظر إليها على أنها فكرة موجّهة، لا مذهباً؛ ذلك أن علماء الفيزياء يقولون لنا إن "تسعين بالمائة من المادة هي الكون تنتمي إلى ما يسمى الآن بالمادة السوداء - وهي سوداء لأننا لا نراها؛ وهي سوداء لأننا لا نعرف ماهيتها"، بل "إننا لا نعرف شيئاً عن المادة التي يتكوّن منها تسعون بالمائة من الكون" (Weisskopf 1989). افترض أننا وجدنا في نهاية الأمر أن المادة السوداء تختلف اختلافاً جوهرياً عن العشرة بالمائة من الكون التي نعرف عنها شيئاً، ولا يمكن التقليل من شأن هذا الاحتمال من حيث المبدأ؛ ذلك أن العلم المعاصر يقبل ببعض الأشياء الغريبة. كما لا يمكن نفي هذا الاحتمال في حالة النظرية عن الدهن. ومع أنه ليس هناك دليل يلزم بقبول الفرضية الديكارتية، (إلا أن بعض جوهها (مع تصور الجسد أكثر غنى) ربما تكون صحيحة من حيث المبدأ في نهاية الأمر، ومتماشية مع الموقف العلمي الطبيعي.

### المقاربة المادية ونقلاها:

ستكون المقاربة الطبيعية الغيبية موقفاً متماسكاً إن بيّن لنا المدافعون عنها ما الذي يمكن عدّه "هيريئياً" أو "مادياً". أما قبل ذلك فلا يمكن لنا فهم هذا المذهب، دعك من بعض الأفكار المشتقة منه كـ "المادية الإقصائية" eliminative materialism وأشباهها. أما من حيث الممارسة فيبدو أن بعض أوجه الفكرة الأخيرة لا تريد عن كونها شعارات تشير إلى



الاتجاه الذي يمكن أن نجد فيه إجابات، لهذا ليس لها أهمية خاصة.

ويبدو أن نقاد هذه المذاهب يواجهون المشكلة نفسها، أي: ما الذي يستقونته؟ ومن أبرز هؤلاء توماس ناجل، الذي يقدّم عرضاً مفصلاً واصحاً لوجهات النظر المهيمنة ونقده إياها، وهو النقد الذي يوجهه على وجه التحديد للمسائل التي أهتم بها هنا (Nagel 1993). وأظن أن عرصه لهذه القضايا كان حاضراً، وإن بطريقة لافتة للنظر، ونتيجة مشكوك فيها لهذا السبب وأبواب أخرى، ويشمل ذلك النتائج التي انتهى إليها عن "جهاز اكتساب اللغة" والنظرية عن الذهن، التي يختم بها حديثه.

يقول ناجل في "مشكلة الذهن - الجسد" لم تثر بشكلها الحديث إلا في القرن السابع عشر، بتزامن مع نشوء التصور العلمي للعالم الفيزيائي الذي نشأ عليه جميعاً الآن\* (١٩٩٣: ٩٧) (أي التصور النيوتني). لكن هذا يعكس القصة. ذلك أنه كان لمشكلة الذهن - الجسد معنى في ضوء الفلسفة الآلية التي هُدمت نيوتن، ولم تثر بشكل متماسك منذئذ. وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن للنقاش أن يسير في ضوء ما يراه ناجل إلا إن وُجد تفسير جديد لطبيعة الجسد (المادية، أو الفيزيائية، إلخ) والذهن.

ويقود هذا المنظور للقضايا وأصولها إلى تفسير خاطئ للإسهامات المعاصرة كذلك. لذلك يلخص ناجل "دعوى سيرل الجذرية" التي تقول إن "الشعور خصيصة فيزيائية للدماغ" وهي خصيصة "لا يمكن اختزالها إلى أية خصيصة فيزيائية أخرى"، وهو موقف، إن بئس بطريقة ملائمة (وهذا قد لا يكون ممكناً كما يرى ناجل)، ربما يكون إضافة رئيسة للإجابات الممكنة عن مشكلة الذهن - الجسد\* (١٩٩٣: ١٠٣). وتمثل هذه الدعوى "القلب الخبيث" لاقتراح سيرل، وبكلماته هو: "فـ"الشعور خصيصة للدماغ من مستوى أعلى أو هي خصيصة ناشئة عنه"، وتنتمي إلى التراتب الأحيائي الطبيعي... . كأنحاء لتمثيل الضوئي والهضم والانقسام الخلوي إليه".

وهذه الدعوى غير جدلية بغض النظر عن إن كانت صحيحة أو لا؛ بل هي - أو كانت - ردُّ الفعل الطبيعي على تقويض فيوتن للفلسفة الآلية، وتقويضه من ثم لمشكلة للذهن - الجسد، بشكلها الديكارتي في الأقل. وكما لاحظنا، والفول بأن الفكر والفعل (ويشمل ذلك الشعور) حصائص للمادة المنظمة، ولا يمكن اختزالها إلى خصائص أخرى إلا بقدر إمكان اختزال الحصائص الكهربائية المغناطيسية إلى خصيصة الآلية، فكرة اقترحها العلماء في القرن الثامن عشر - لكن لم يقصد بها أن تكون إجابة ممكنة لمشكلة للذهن - الجسد، التي لم تصغ بشكل متماسك (آنذاك، أو الآن). لما الأهمية الغيبية لهذه الدعوى فتماثل أهمية العلاقة بين الآلية الكلاسيكية والنظرية الكهربائية المغناطيسية [المعاصرة].

ويقترض ناجل فهما مسبقا للذهن والجسد، والذهني والفيزيائي، ويورد بعض الإشارات عما يعنيه بذلك. ففي تعبيره عن أحد المواقف النموذجية، ينظر إلى "جوهر الذهن" على أنه الشعور، أي أن "لطواهر الذهنية كلها شعورية إما حقيقة أو إمكانا" (1993: 97). وسواء قصد بهذه الصياغة أن تكون اقتراحا اصطلاحيا أم جوهريا، فهي تتطلب تفسيراً لمفهوم "شعوري إمكانا"، ويتبنى ناجل اقتراح سيرل (Searl 1992) عن هذا الأمر، لكن هذا الاقتراح يواجه صعوبات حقيقية، كما يبدو.

هـب أننا أخذنا لشعور على أنه علامة ما يكون ذهنيا. هلذا عن الجسد؟ وهو الذي يماهى ناجل بينه وبين ما يمكن أن تصفه العلوم الفيزيائية (باستثناء الشعور، أما إن كان هذا الاستثناء اقتراضا أم اكتشافا، فليس واضحاً). ومن هنا يعم النزعة المادية (التي يقول إن أكثر الفلاسفة المعاصرين يقبلون بها) على أنها الاعتقاد "بلته يجب أن يكون كل ما في الكون وأى شيء يحدث فيه قابلاً للوصف بالعلم الفيزيائي" وهي وجهة نظر يرى أنها متماسكة، مع أنها زائفة. ويعنى تبنيها محاولة القيام بـ "تويع من الاحتزال لما هو ذهني إلى ما هو فيزيائي - حيث يكون الفيزيائي،

تعريفًا، ما يمكن أن يوصف بمصطلحات غير ذهنية" (أي بمصطلحات لا تتضمن "الشعور الممكن"). "لما ما يحتاجه لإكمال الصورة العادية للعالم فخطاظة تشبه الشكل التالي: إن "الظواهر الذهنية - كالأفكار والمشاعر والأحاسيس، والرغبات، والإدراكات، إلخ - ليست إلا . . ."، حيث يمكن أن يملأ مكان النقاط بوصف إما فيزيائي صريحة أو يستعمل مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون فيزيائيًا محضًا"، أو ربما يُعطى شروطًا للتأكيد "بناءً على "أسباب خارجية يمكن ملاحظتها". وبمضي باجل قائلًا: "إن تاريخ فلسفة الذهن في الخمسين سنة الماضية يتمثل في المحاولات المختلفة لتتعد هذه المهمة التي تبدو مستحيلة، والحجج التي تُبَيَّن إحقاقها". أما المشكلة التي لم تُحل، وربما يستحيل حلها، فمشكلة الذهن - الجسد، وهي مشكلة "أن" نجد مكانًا في العالم لأدمغتنا نفسها، بتجاربها الإدراكية وأفكارها ورغباتها، وطريقتها في صياغة النظرية العلمية، وكثير غير ذلك مما لا يمكن للفيزياء أن تصفه".

وهناك ما يكاد يكون إجماعًا على اعتقاد أن هذه الأسئلة متماسكة ومهمة. لهذا يناقش تالور بيرج، في مراجعة مفصلة موحية لقرن من فلسفة الذهن، ظهور "الفرقة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية") في ستينيات القرن العشرين بوصفها "إحدى المواقف المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32). وهي وجهة النظر التي ترى أنه ليس هناك حالات ذهنية (أو خصائص ذهنية)، إلخ) تعلو وتتجاوز الوحدات الفيزيائية العادية، أي تلك الوحدات التي يمكن أن نعتبها العلوم الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن نعتبها البنية فيزيائية. ويصف "الفرقة الإقصائية"، وهي إحدى التيارات الرئيسية في الجهود نحو "جعل الفلسفة علمية"، بأنها "وجهة النظر التي ترى أن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ربما تُفقد مكانها في نهاية الأمر داخل المحاولات التي نقوم بها لوصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33)، وربما يكون هذا خطأ، لكنها دعوى مهمة بكل تأكيد. ومع ذلك فهذا ليس واصحًا بما يكفي.

انظر إلى فكرتي ناجل: قابل لأن تصفه الفيزياء و"وصفته الفيزياء".  
 فما الذي تعنيانه؟ وهو يقثم مثال "المسيولة"، بعلاقتها "الشفافة" بسلوك  
 الجزيئات. ولا يمكن لهذه العلاقة أن تكون شفافة تماماً؛ فقد كان أبرز علماء  
 الفيزياء قبل قرنٍ يسطرون إلى الجزيئات على أنها خرافات مريحة، وأنها  
 حالات للمادة، كما عُرف فيما بعد، لا يمكن وصفها بالفيزياء آنذاك. وربما  
 صبح لأحد فروع العلم لم يكن قد وُحِدَ مع الفيزياء حينذاك أن يلقي قذراً كبيراً  
 من الضوء تأسيساً على صياغاته النظرية، إلى جانب أشياء كثيرة؛ لكن هذا  
 الشيء نفسه صحيح الآن عن بعض جوانب مجال ما يُعدُّ ذهنياً (بالمعنى الذي  
 أقصده). فلامادا تكون هذه التعليقات أقلَّ "فيزيائية" مما كانت الكيمياء عليه قبل  
 قرنٍ؟ أو أقلَّ فيزيائية من القوى السرية عند نيوتن، وهكذا حتى نصل إلى  
 المفترصات النظرية الغامضة المضادة للحس في الوقت الحاضر؟ وربما  
 أمكن توحيد التعليقات العلمية الطبيعية للطواهر الذهنية في المستقبل مع  
 الفيزياء، وهي التي ربما يجب، مرة أخرى، أن تعدل، وعندها ستكون  
 العلاقات "شفافة" كذلك.

أما دعوى النزعة الإقصائية في صياغة بيرج لها (وهي صياغة  
 معطية، مرة أخرى)، فيمكن أن نسأل لماذا تكون مهمة أصلاً. دعنا نستبدل  
 بمصطلح "ذهني" مصطلح "فيزيائي" في هذه الدعوى. ولا خلاف على أن  
 "الكلام الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" قدت مكانها منذ أمد بعيد في  
 محاولتنا وصف العالم وتفسيره، إن عنيانا بـ "فيزيائي" و"فيزيائية" الأفكار  
 التي تدخل في خطابنا وتفكيرنا العاديين. فلماذا ينبغي أن نتوقع شيئاً مختلفاً  
 عن "الكلام الذهني والوحدات الذهنية"؟ فترض أنني قلت:

The rock dropped from the skies, rolled down the hill, and hit the  
 ground.

سقط الحجر من السماء، وتخرج على سفح الجبل، ثم وصل إلى  
 الأرض.

ولا يمكن ترجمة هذا القول إلى النظريات التي طوّرت لوصف العالم وتفسيره، وليس هناك علاقة مهمة أضعف إ بين هذا القول وتلك النظريات؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. لكن لا أحد بأحد هذا على أنه يرسم لمشكلة "جسد - جسد"<sup>(٤)</sup>. ولا تطمح العلوم الطبيعية كذلك إلى تمييز هذا الوصف عن القول بأن الحصر سقط في وادى، وهو ما يمكن أن يكون الحدث نفسه منظوراً إليه من زاوية مختلفة (حين لا يميز الجدل عن التصاريح الطبيعية المحيطة به). ولا يتوقع المهتمون بالمنهجية الطبيعية أن يجدوا نظائر لهذه الأحكام العامة في النظريات التفسيرية التي يصوغونها بوعي؛ كما لا يحزنون مثل هذه النظائر لأقوال مثل:

John took his umbrella because he thought it was going to rain.

"أخذ جون مظلة لأنه ظن أن السماء كانت ستمطر".  
أو:

John is in pain.

"جون يتألم".  
أو:

John speaks English.

"يتكلم جون الإنجليزية".

- مع أنهم يأملون، في الحالات كلها، في احتمال أن يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى فهم أعمق في المجالات التي فتحها للبحث خطاباً يعكس المنطورات البديهية.

ويبرز بعض الأمثلة المماثلة بشكل أكثر توسعاً. انظر إلى وجهة نظر دونالد دبليوسون عن "ثنائية الذهن"، وهي أنه على الرغم من وجود علاقات سببية بين الأحداث الذهنية والفيزيائية، إلا أنه ليس هناك قوانين نفسية - فيزيائية تربط بينها في حطاطة تفسيرية ملائمة. وكما يصوغ دبليوسون الأمر، ينبغي ألا نقارن بين البديهيات عما سببته الناس عموماً

نحت بعض الظروف المحددة "بقانون" يبين ما السرعة التي سيهوى بها جسد في فراع، لأن "من الممكن للتنبؤ في الحالة الأخيرة، لا في الحالة الأولى، هل يتحقق الطرف أم لا، وإذا لم يتحقق فإننا نعرف السبب الذي جعله لا يتحقق" (Davidson 1980: 233)، وهذا موقف من مشكلة الذهن - الجسد يصفه بيرج بأنه "عميق لكنه خلاق" وإن لم يوضحه بشكل كاف. (الاطلاع على بفاش متعاطف، انظر Evnine 1991)، ولا تبدو هذه الحجة مقنعة تعلمًا. ذلك أنه ينبغي، والسبب نفسه، ألا نقرن بعض البديهيات عن تدرج الكرات على سفوح الجبال أو عن عاصفة تتولد في الغرب بقانون سقوط الأشياء إلى أسفل، لكننا لسنا معنيين بعدم وجود قوانين فيزيائية - فيزيائية physico-physical laws تربط بين الخطاب العادي عن الأحداث في العالم والنظريات التفسيرية للطبيعة. وهناك من يحاج بأن "علم النفس الشعبي" يختلف عن "علم الآلية الشعبي"، مثلاً، أو "علم الكيمياء الشعبي" بسبب طبيعته الاستنتاجية [القبالية] a priori وعلاقته الحميمة بأفكار العقلانية والنظريات والمقاصد ومنطور المتكلم، إلخ. وهذه مجالات مختلفة بالتأكيد، لكن ليس واضحاً أنها تختلف في مظهر "الثنائية" بالمعنى المقصود في هذه المناقشة. وبقدر ما يمكن للبحث العلمي أن يزعم قناعة شخص ما بأن الشمس تضرب لو أن بعض الأشياء تتصف بخاصية "التنفى" impenetrability (مع بقاء مثل هذه القاعات في أجزاء أخرى من الحياة)، يمكن أن تنشأ عنه بعض النتائج المشابهة على قاعات الشخص عن طبيعة الاعتقادات (عن الدور الذي تؤديه العقلانية، مثلاً). وأكثر ما يعتقد الناس عن الاعتقادات أموراً استدلالية [بعديّة] a posteriori (ومن أمثلتها الجدل حول مفهومي "شبكة المعنى" و"الطرية") كما لدينا بعض الاعتقادات الاستنتاجية عن الكرات التي تتدحرج على سفوح الجبال وعن تولد العواصف، ويبدو أن "علم الآلية الشعبي" (إلخ) ليس أكثر قبولاً من "علم النفس الشعبي" لأن تصاغ قوانينه بقوانين "جسدية" bridge laws<sup>(١٠)</sup>، وكما يحاج ديفيسون، فأمثلة الحدث الذهنية، ليست

أمثلة من أمطال الحدث الفيزيائي (في الوصف العلم). والشئ نفسه صحيح  
عن أمثلة الحدث الفيزيائي والأشياء الفيزيائية، كما تفهمها البديهة؛ ولن  
تحوى اللغة البشرية مصطلحات للنوع الطبيعي، إلا نتيجة لصنعة رائعة، إن  
كانت الأنواع الطبيعية أنواعاً من الطبيعة<sup>(١)</sup>.

وإذا بنكنا المصطلحات قليلاً دعنا نتحدث عن "الأحداث التي توصف  
ذهنياً" ("أحداث - ع") و"الأحداث التي توصف فيزيائياً" ("أحداث - ف")،  
محولين إلى تعليقات مصنوعة باللغة العادية، محتفظين بمصطلحات "ذهنية"  
و"كيميائية" و"مناظيرية"، إلخ، للأحداث التي يعرضها البحث العلمي الطبيعي  
في المجالات الذهنية والكيميائية والمناظيرية، إلخ - وكلها "أحداث فيزيائية"،  
وهو مصطلح يتصف بالريادة حين نتكلم عن الأحداث؛ والشئ نفسه فيما  
يخص الأشياء، وهكذا. ونتوقع من ثم أن نجد علاقات سببية بين "أحداث -  
ع" والأحداث الفيزيائية، لكن من غير قوانين تربط بينها في إطار العلم  
التفسيري؛ والشئ نفسه صحيح عن "أحداث - ف"، وليست الاعتقادات  
والرغبات والإدراكات وتخرج الصغور نحو الأرض وتولد العواصف،  
إلخ، موضوعات للقوانين العلمية، كما لا توجد قوانين جبرية تربطها  
بالعلوم. ومن المسلم به أن العلم لا يحاول الإحاطة بمضمون الخطأ  
العادي، ناهيك عن عمليات التخيل الأكثر إبداعاً. وإذا صغنا عبارة ناجل  
بشكل آخر، فلا يمكن أن نجد مكاناً في عالم "الفيزياء للظواهر الفيزيائية"،  
بالصورة التي نصفها بها في الكلام الفيزيائي ("ظواهر - ف")، لهذا لا  
غربة أن يكون الشئ نفسه صحيحاً عن ("ظواهر - ع") كما توصف في  
الكلام الذهني.

وربما ينبغي التأكيد مرة أخرى أنه ربما يكون المدى الذي يصل إليه  
البحث العلمي الطبيعي محدوداً إلى حد بعيد، حتى إنه ليقتصر عن تناول  
بعض المسائل التي تمثل موضوعاً للانشغالات البشرية المهمة، مهما كان  
المدى الذي يمكن أن يصل إليه اهتمامه الفكري، وهذا هو الوضع الآن بكل

تأكيد، وربما سيظل كذلك. وتقضى النزعة الإقصائية بلزراء، كما يعلق سجل ساحراء على "النظرية البدائية" التي كانت "مجالاً لاهتمام بعض السطاء كفلوبير وبروست وهري جيمس". ولا تبدو لي النزعة الإقصائية موقفاً مناسباً، إلا أن من المستبعد أن تسعى المقاربة العلمية إلى استلحاق هذا المجال [النظرية البدائية]، إلا بقدر ما تسعى إلى استلحاق بعض الأمور النافية كتكحرج الصخور على سفوح الجبال وتولد العواصف؛ أما الأمر فبعكس ذلك، بل إنها تحرر الباحث من بعض المتطلبات غير الضرورية (انظر الهامش رقم ١).

لاحظ أن صدق الكلام الفيزيائي العادي ومكانة الوحدات التي يقتصرها ليسا موضعاً للشك هنا. فهذه قضايا مختلفة. كما لا يثار أي سؤال عن دراسة التصورات البدئية بوصفها فرعاً للبحث العلمي الطبيعي (أي: العلم الإنسي). فربما يكون من المهم أن نعرف كيف تبدو بعض الأفكار عن اللغة في ثقافة [القبيلة الهندية الأمريكية] البامو (للاطلاع على وصف وافٍ لهذا، انظر Witherspoon 1977) أو في شوارع نيويورك، بل في الثقافة الفلسفية الأكاديمية المصطنعة بوعي كذلك. وبصبح الشيء نفسه عن بعض الأفكار الخاصة بالموضوعات الفيزيائية، والتفاعل، والفضاء، والحياة وبدلياتها، إلخ. لكن لا بد من أخذ مثل هذا المقاربات بجد، إذ إنها ليست مقاربات غرضية، ويجب عدم الخلط بينها وبين البحث العلمي الطبيعي في طبيعة ما يتناوله العلم الشعبي بطريقته الخاصة، مستعملاً، ربما، ملكات أخرى مختلفة للذهن. والعلم الإنسي فرع للعلم يدرس البشر، ويسمى لفهم الطرق التي يؤوكون بها العالم، وتنوعات هذه الأنظمة وأصولها. وتكرس فروع أخرى للعلم طبيعة ما يكتشفه البشر ويؤوكونه بطرقهم الفريدة الخاصة، سواء أكانت تلك الطواهر مبطيرية أم كهربائية أم آلية أم ذهنية. ونحن نستمّر، في الوقت نفسه، في استخدام تصوراتنا، ونحتار بوعي، أحياناً، أن نصقلها ونعبرها، في محاولتنا للتعامل مع مشكلات الحياة اليومية. وهذه مقاربات متميزة.



ويسأل العلم الإنثى عن كيفية توليد الناس لما يجدونه في محيطهم وكيف يقومونه. ويعنى بتفسيرات الأشياء التي تحاول الوصول إلى أماكنها الطبيعية وبحركة الأجرام السماوية قياساً إلى بعض النجوم الثابتة؛ والعناصر الجوهرية الأساسية كالأرض والماء والهواء والبار والطرق التي تتحد بها لتنتج ظواهر الطبيعة؛ وظواهر القوى المهمة التي توجه التطور الأحيائي والتميز؛ وظواهر الاعتقادات والرغبات والخوف والعناصر الأخرى التي تدخل في تحليل الأحداث الغائبة؛ إلخ. وليس ادعاء اختبارياً نافعاً أن نقول إن الناس في بعض الثقافات التطبيقية يؤوّلون الحركة في ضوء مفهوم للنّفس؛ لو يعرفون، متوافقين مع آراء ديميدسوف، بعض الاعتقادات والرغبات في ضوء معايير العقلانية والمعارية normativity منطلقين من منظور شيكى، في جهودهم لتقويم الأفعال. وهذه ادعاءات قوية، وتتطلب أدلة. وربما تبين في نهاية الأمر أن الاعتقادات والرغبات تعزى إلى بعض المخلوقات (كالبشر، ربما) انطلاقاً من اعتبارات مختلفة كلياً، إذ ربما تكون انعكاساً لطرق غريزية للتوليد يحددها الإعداد الأحيائي الفطري (أي: البديهة)، وأنه يقام بمثل هذا العزو باطراد حتى حين يمكن للنظر إلى الكائنات المعزوة إليها على أنها تتصرف بطرق لا تتوافق مع العقلانية تماماً، أو موجهة بالغريزة في بعض الميادين التي لا تبرز فيها مسألة العقلانية.

وبغض النظر عما يمكن أن يكتشفه المهتم بالعلم الإنثى عن طبيعة الموقف القصدى "intentional stance"، بمعنى عند دانيال دينيت، فهناك طريقان آخران يشرعان أمام البحث العلمي. فالأول عن الناس، أي: ما الأصول التي جاءت منها طرق الفهم عندهم؛ وتحديدًا، ما الدور الذي يؤديه الإعداد الفطري في تطوير علم الكون cosmology، أو للحكم بأن شخصاً آخر يحاول تناول كتاب أو يقرأ كتاباً، أو يسرع ليلحق بالحاقلية. وينظر التوجه الثاني في الأشياء التي يحاول الناس فهمها بطرق العلم الشعبي التي تقوم على الغريزة وتحدها الثقافة. [مثل] ما مدى الصدق في علم الكون،

وتكون الفارقات، وتمايز الحشرات، وتخطيط المرء لما يفعله، إلخ. وستؤطر الإجابات، بقدر ما يكون نفاذ النكاه البشري إليها ممكنًا، في ضوء بعض الحدود الملزمة للمشكلات المعنية، مع اهتمام ضئيل بالوسائل الفكرية للعلوم الطبيعية، ومن غير أن نتوقع أنه سوف يمكن التعبير بصورة مباشرة عما يوصل إليه من الصياغات والمبادئ في ضوء فروع العلم الأكثر أساسية، حتى إن حلت مشكلة التوحيد. وربما تكون النتيجة النهائية أننا نستطيع تفسير السبب الذي يجعل تأويلات العلم الشعبي تعمل بقدر ما، سواء أكانت تهتم بالأهرام السماوية والزهور، أم يلاعب متمرّس للشطرنج، لم يَطلِ يستخدم قوالب لبناء قلعة (انظر Burge 1992)، للاطلاع على بعض التعليقات الخاصة بعزو الحالات الذهنية، في هذا السياق، انظر Chomsky 1969).

وإذا رجعنا إلى نقد النزعة المادية - بحسب ما يراه ناجل، مثلاً - فيبدو أنها تواجه عددًا من المشكلات. فليس هناك معنى واضح للتصورين المفترَضين "فيزيائي" و"مادي"؛ وكذلك التصور "ذهني"، إلا أن أعتقدنا معنى معينًا على فكرة الشعور "الممكن" وحتى بعد ذلك، ليس من الواضح ما الأهمية التي ربما تكون لهذه المقولة تحديدًا، بتمايزها عن مقولات أخرى كثيرة. وليس من شأن العلوم أن تعبر عن مصموم الخطاب المادي عن أي شيء، فيزيائيًا كان أم ذهنيًا. فليس هناك مذهب متمسك للنزعة المادية أو النزعة الطبيعية الغيبية، فيما يبدو، وليس هناك قضية إقصائية، ولا مشكلة للذهن - الجسد.

وتتزايد المشكلات حين ننظر في الكيفية التي نتناول بها بعض المسائل الاحتبارية المحددة. وينظر ناجل في إحدى هذه المشكلات وهي: الاقتراح بأن هناك "جهازًا لاكتساب اللغة" LAD، يسمح للطفل بأن يتعلم نحو لغة ما بناءً على عيّنات من الكلام الذي يتعرض له (Nagel 1993: 109). وينظر إلى هذا على أنه جزء محترم من العلم، صحيحًا كان أم خطأ. إلا أنه يجادل بأنه ليس صحيحًا أن يوصف "جهاز لاكتساب اللغة" بأنه "آلية نفسية"، كما هو

رأى: بل ينبغي أن يُنظر إليه على أنه "آلية فيزيائية وكفى" ذلك أنه لا يمكنه أن يؤدي إلى نشوء فكر شعوري ذاتي يتكوّن مصمونه من تلك القواعد نفسها" (ص ١٠٩). وإذا وضعنا جانباً هذا التصوّر لـ "جوهر الدهر" وصحة وصف ناجل لـ "جهاز اكتساب اللغة" (وهو وصف ربما أن لصوغه بهذه الطريقة تماماً)، ينبغي أن نلاحظ أن تأكيد ناجل يبدو تأكيداً اختبارياً عن كثرة "نظم فيزيائي ما". وهذا بولجي، مرة أخرى، الأمر الأهم المتمثل في "الشعور الممكن"، الذي يقدّم الآن بوصفه فرصة اختبارية، وسنعود إلى هذا.

وملذا سيكون ردّ فعل من يتبنّى صراحة "المادية الإقصائية" على نظرية لـ "جهاز اكتساب اللغة" (أو للنحو الكلي)، ونقل كوين، الذي يصمّم بيرج بأنه مؤسس هذا المذهب؟ فيقدّم كوين "دعوى المقاربة الطبيعية" التي تقول إن "العالم هو ما يقول العلم الطبيعي إنه هو، بقدر ما يكون العلم الطبيعي صحيحاً" (Quine 1992: 9)؛ لكن هذا غير مفيد حتى يبيّن لنا ما "العلم الطبيعي". وكنت قد اقترحت عدداً من الإجابات الممكنة، لكن يبدو أن كوين يفكر بأشياء أخرى. فالعلم الطبيعي عنده هو "نظريات الكواركات وما يماثلها". لكن ما الشيء "العملي تقريباً" ليكون جزءاً من العلم؟ ومن الواضح أن هذا يسمح بإدخال العصبونات، ومعها بعض العمليات للنسبة المعينة؛ لهذا يؤكد كوين أن اللغة "موصولة إلى دخلنا العصبي بالآليات العصبية للترابط أو التقيد". لكن الأدلة الاختبارية كثيرة جداً على أنه لا شأن للترابط والتقيد باكتساب اللغة أو استخدامها، إلا أن ذلك لا يبدو مهماً عنده، والسبب وراء موقفه هذا غير واضح. ومهما كانت الإجابة، فهناك أمثلة مما يحبّه كوين (كالكواركات والدخول العصبية والتقيد) وأخرى مما لا يحبّه (كأدوات "جهاز اكتساب اللغة"، أي الآلية العاملة، على حد ما نعرفه عنها). لكنه لم يقدّم أسباباً لقراراته هذه أو شيئاً يتجاوز أمثلة قليلة توحى بمدى [هذه القرارات].

وتكتنف "دعوى المقاربة الطبيعية" التي اقترحتها عن الاعتبارية نفسها

في مجالات أخرى. لهذا يكرّر كوين وجهة نظره التي يقدّمها في أغلب الأحيان ومؤداها أن "تشبيء الأجساد [إدراك الأشياء المجردة بصورة مادية] يأتي على مراحل في أثناء اكتساب اللغة، حيث تكون "المرحلة الأخيرة" من [هذا التشبيء] إدراك ماهية [الشيء] من غير اعتبار للزمن. وإذا كانت هذه فرصة اختبارية، فهو لي أعرف كيف يمكن تقديمها بمثل هذه الثقة. والمؤكد أنها ليست فرصة واضحة، بل ليست معقولة. ويجب ألا نكتفي بالأدلة البادرة؛ ذلك أن دراسات الأطفال في السنوات الماضية توفر لنا أسباباً وجيهة جداً للاعتقاد بأن مثل هذا "التشبيء" يحدث في الأشهر المبكرة من حياة الطفل، قبل وقت طويل من أي تحقق للغة. (للاطلاع على مراجعة عامة، انظر، Spelke 1990؛ وللإطلاع على مراجعة للأبحاث الأحدث، انظر Baillargeon 1993؛ وانظر كذلك قهامش رقم ٧ على هذا الفصل).

وبما أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" التي يشير إليها ناجل لا تقرّ مذهبيات الترابط والتقييد، وتفترض بعض الآليات التي لا يمكن صياغتها على صورة كواركات أو عصبونات (الآن، في الأقل، وربما إلى الأبد)، وربما لا تنتمي إلى العلم، بمعنى عند كوين. وبشبه هذا حال الكيمياء قبل قرن، أو الآليات السماوية في زمن نيوتن، ولأسباب مماثلة. وربما لا يتوافق التقصي الاحتباري "للتشبيء" مع المعايير التي يفترضها كوين كذلك، والسبب نفسه<sup>(٣)</sup>. ويبدو أننا نواجه مثالا متطرفا من الثابتة المبهجة، يتجاوز خصيصاً غموض مفهومى "المادية" و"الإحصائية".

### النفوذ إلى الشعور

دعنا نوجّه النظر الآن إلى تحديد الذهن في ضوء النفوذ إلى الشعور، الذي يؤدي إلى التمييز بين الذهن والجسد، كما يرى كثيرون. فيخلص ناجل، متنبياً هذا الوصف، إلى أن "جهاز اكتساب اللغة" (والحالة المحصلة كذلك، أي "اللغة" د)، وهو ما منطلق عليه مصطلح "اللغة"، منذ الآن) آلية فيزيائية

وحصص، لا آلية نفسية، تلك أنه لا يستطيع أن يؤدي إلى فكر شعوري ذاتي يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). احرص أن أحد خيارات التنوع بين اللغات يتصل باتجاه ترتيب [مكونات الجملة]: شمال يمين، حيث يكون الاتجاه التركيبي في الإنجليزية: "الرأس أولاً"، كما في:

Sec – the hook.

In – the room.

إلخ، أما في اليابانية فيكون: "الرأس أخيراً" (وهذا تناظر في التركيبات كلها في اللغتين). لكن "جوني" لو هو متكلم للإنجليزية ليس واعياً أنه كان يثبت "وسيط الرأس" في ضوء الترتيب: "شمال – يمين" اعتماداً على دليل استقاه من عبارة:

See the book

إلخ، ولا يستطيع أن يقول لنا ذلك، مع أن هذا ما يحدث احتمالاً على وجه الدقة، ومثل ذلك أن ماري لا تملك وعياً شعورياً بأنها تستعمل المبدأ (C) في نظرية الربط العاملي حين تقول المثال (١) بشكل مختلف عن المثال (٢)، مطرحة خيار اعتماد الضمير he إحصائياً على Bill في المثال (١) مع سماحها بذلك الاعتماد في المثال (٢). لذا لا تقول المثال (١) على أنه (١') لكنها ربما تقول المثال (٢) على أنه (٢') (حيث يشير الضمير he إلى Bill في الحالتين كلتيهما):

—١ He thinks Bill is a nice guy.

يظن (هو) أن بيل شخص لطيف.

—٢ The woman he married thinks Bill is a nice guy

"المرأة التي تزوجها تظن أن بيل شخص لطيف".

Bill thinks he is a nice guy.

(١)

"يظن بيل أنه شخص لطيف".

The woman Bill married thinks he is a nice guy.

(٢)

"المرأة التي تزوجها بيل تظن أنه شخص لطيف".

ويقارب عدم الوعي هذا، زيادة على ذلك، فكرة "الشعور الممكن"، وهي فكرة لم نوصح بعد. وربما تعني أنه لا يمكن لمخلوق بملكة لغوية تماثل ملكة ماري للغوية، بهذه "الآليات العزلية"، أن يمتلك الشعور الذي لا تملكه ماري، وهذه حقيقة احتمالية مهمة. ويترتب على هذا أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" ونظريات اللغة لا تحترق الحد بين الجمد والذهن إذ هي ليست عن الذهن، بل عن الآليات العصبية.

خذ مثلاً من مجال آخر: فلا تعي ماري شعورياً بأنها تستعمل "مبدأ صلابة" يؤول الشعور البصرية التي تقدم لها على أنها شيء صلب يتحرك حين نرى ما تعدّه مكعباً يتقلب في الفضاء، ولا يستطيع جوني ذو الثلاث سنوات أن يُخبرنا عن الاعتقادات الخاصة بثبات الشيء ("الثبات") والمسار الذي يجعله يتوقع ظهور شيء ما بشكل معين، وفترة معينة، ومكان محدد بعد مرور هذا الشيء من وراء حاجز، وربما لا يكون واعياً بذلك (Spelke 1993, Baillargeon 1990). ويترتب على هذا أننا لا نستطيع أن نصف هذه الحالات والخصائص التي نعزوها لماري وجوني كأنها آليات عصبية للإبصار - إن كان الشعور الممكن غائباً أيضاً في هذه الحالات، في الأقل.

وقد قدم دانييل دوميت فكرة مماثلة، وإن كانت بمصطلحات مختلفة. فهو يعدّ نظريات "جهاز اكتساب اللغة" واللغة المحصّلة "قرصيات عصبية"، وإن لم يوفر أي منها "تصويراً فلسفياً" لأنها لا تتحدث عن الشكل الذي يؤدي

به [جسد المعرفة]؛ أما الوعي الشعوري فربما يعبر بنا تلك الحد (Dummett 1991: 97). ويحتمل أن ينطبق الأمر نفسه على فكرة ثبات الشيء وما يماثلها. ولا يقع الفارق هنا بين الذهن والجسد، بل بين العلم والفلسفة. ذلك أن النظريات في العلوم (بغض النظر عن دقة هذه الدعوى)، تنبئ لنا كل ما يتصل بالشكل الذي يؤدي به جسد المعرفة؛ أما في حالة النظرية عن المعنى (واللغة والفكر عموماً، على وجه الاحتمال، وربما الإبصار والتشويخ، إلخ)، فيُستَترَط نوع إضماقي من التفسير، أي "تفسير فلسفي"، وهو الذي يذهب وراء العلم.

فنديا، في الحالتين كليهما، فارق جوهري - وربما يكون فارقاً غيبياً - مؤسّساً على النفاذ إلى الشعور.

ويتابع تفسير ناغل تفسير سيرل في كتاب [سيرل] الذي كان [ناغل] يراجع (انظر Burge 1992). ويمكن أن نرجع أصول الشكل المعاصر لهذه الحجة إلى تمييز كوين المؤثر بين "الموافقة" fitting و"التوجيه" guiding. فيُعرَض كوين على مذهب تقليدي (وهو الذي أعيد تأويله في اللسانيات المعاصرة) يقول بأن المتكلمين "يوجهون" - فكرة للبينة - ربما لا تكون شعورية حين يصوغون "التعبيرات الحرة" الجديدة ويؤوّلونها (Jespersen 1924: 19). وهو مذهب ينظر إليه كوين على أنه "مذهب غامض"، أو ربما "حمالة" خالصة (Quine 1972: 447). وربما لا يمكننا الحديث عن "التوجيه" إلا حين نتطرق للقواعد بصورة شعورية لكي "تتسبب" في حدوث السلوك؛ أما في غير هذه الحال، فربما لا يمكننا أن نقول إلا أن السلوك "يتوافق" مع نظام ما للقواعد أو "يخضع" له، كما يخضع كوكب ما لقوانين سقوط الأجساد، كما يجب ألا نعزو "واقعية نفسية" لتصوّر معين عند كسائن عضوي "يخضع" للقواعد.

هيتبني كوين، مرة أخرى، شكلاً متطرفاً من الثنائية. إذ يُسمح لنا - بل يلزمنا - في حالة الأجساد الساقطة، أن نعزو "واقعية فيزيائية" لتصوّر معين

لطبيعتها والمبادئ المفترضة. إلا أن الواضح أننا لا نستطيع أن نعالج الحالة التي حصلتها الملكة اللغوية والطرق التي تنحل بها في السلوك؛ اعتماداً على الافتراض بأن للدماغ كتلة، وأنه يخضع لقوانين سقوط الأجساد. فحين بحاجة إلى مريد من السيرة. أما المقاربة العلمية الطبيعية فمستتاول هذا الأمر بالطريقة نفسها التي نكرس بها للكوكب والنمل؛ أي أنها تسعى في هذه الحالة للوصول إلى نظرية للحالة الأولى والحالة المحصلة، والعلاقة بينهما، وإلى علاقة الحالة المحصلة بالأداء والأحكام، عازية "لواقعية" لأي شيء نعرضه في أفضل نظرية يمكن أن نصوغها. ومستوى فهمنا أقل من ذلك بكثير فيما يخص العضويات الأكثر تعقيداً، لكن لا صلة لهذا بما نحن فيه هنا.

فهناك فارق مدهى للتمييز بين الحالتين: فما يشترط في حالة (الأجساد الساقطة) ممنوع في الحالة الأخرى (حالة البشر في "ما فوق الرقبة"). أما ما يجعل الأمرين مختلفين، مرة أخرى، فهو الشعور، إضافة إلى تسبب السلوك، وهي فكرة لها مشكلاتها غير النافذة. ولا يكاد يكون هناك سبب للاعتقاد بأن السلوك الحادى "ينسب فيه"، بأى معنى معروف لذلك المصطلح فى الأكل، وليس هناك سبب يجعل عالماً يتبنى المنهجية الطبيعية يفترض بصورة مذهبية غير ذلك.

ويبدو كأن تحليل كوين ينطبق بالطريقة نفسها على مثال الإبصار. لجونى ومارى ليسا "موجهين" بمبدأ الصلابة، ولا بمبدأ ثبات الشيء، إلخ. سلوكهما "يتوافق" وحسب، مع هذه المبادئ، كما يخضع المريخ لقانون سقوط الأجساد. وستكون أية نظرية عن حالات الدماغ تتضمن مثل هذه المبادئ لتحليل سلوك مارى وجونى قاصرة منهجياً، مهما كان تلاؤمها مع معايير البحث العلمى الطبيعى؛ وستكون غامضة، فى أفضل الأحوال، وحمقاء، فى أسوأها. (وكما نلّم، يصعب أن نعرف بشكل محدد وجهة نظر كوين عن هذا الأمر. انظر الهامش رقم ٧).



وتظهر هذه الأفكار بصيغ أخرى كثيرة. وليس من السهل تقويمها. لهذا، لم يقم سبب وجيه لهذه القيود، ولا ينبغي شيء بأنها ليست أكثر من استراتيجيات اصطلاحية فارغة. وأكثر أوجهها تطوراً الوجهة التي يتبناها ناجل من سيرل. فدعنا ننظر فيه باختصار.

ولا يبدو أن الثنائية التي لم تُعثر في تمييز كوين أثارت كثيراً من الاهتمام، لكن كثيراً من الباحثين يرون أن المقترضات التي تترتب على صياغتها المحددة مناقضة للحدس. انظر إلى ظاهرة "الإبصار الأعمى" blindsight، مثلاً: فتستطيع "أليس"، التي أصيبت بعطب في القشرة المخية، أن تميز تقريباً تمييزاً وتلقاً بين ما يقم لها من لوضائع بصرية (كرسم لبنت يحترق وآخر لبنت لا يحترق)، لكنها تُصير على أن هذه الأوضائع متماثلة، وهو ما يعنى أنها ليست واعية بما يدخل في سلوكها للتمييز. ولا يمكن - بحسب رأى كوين - أن نتحدث عن "توجيه" هنا إذ يمكن أن نتحدث عن "موافقة" فقط (كما يبدو، انظر 9: Quine 1992؛ الهامش رقم ٧). ولا يمكن أن نعزو إلى "أليس"، في وجوه أخرى [الفكرة كوين]، "تمثيلات ذهنية"، وإن أمكننا ذلك في حالة جون، الذي يعنى للفرق بين العاليتين ويستطيع أن يحبرهما عنهما، كما كانت أليس تفعل قبل الإصابة بالجرح. فلدينا في حالة أليس "آليات فيزيائية" فقط، أما في حالة جون فلدينا "آليات نفسية"؛ أو بتعبير آخر، لدينا في حالة أليس "قرصية نفسية" فقط، لا تفسيراً فلسفياً، كما في حالة جون. وليس شيء من هذه المقترضات جذاباً.

ويأمل سيرل أن يتجنب هذه المقترضات بتقويمه فكرة النفاذ إلى الشعور "من حيث المبدأ" - وهو ما يسميه ناجل، في مراجعته، "إمكان الشعور"<sup>(٨)</sup>. ويتطلب "المبدأ الرابط"<sup>(٩)</sup> الذي يقترحه سيرل "النفاذ إلى الشعور" من حيث المبدأ لعرو الحالات والعمليات للذهنية. ويرى سيرل، في حالة "الإبصار الأعمى"، أن "أليس" تمتلك النفاذ من حيث المبدأ إلى التمثيل، أو القاعدة، أو غير ذلك. فليس "الإبصار الأعمى" إلا حالة من "الاعتراض"، blockage لا

حالة من "عدم النفاذ من حيث المبدأ"، وهو ما يمكننا من أن نتكلم عن عمليات ذهنية في حالة ألس، كما في حالة جون. لكن أن يكون لهذه النتيجة معنى إلا بعد تفسير عبارة "من حيث المبدأ".

افترض أن جين تماثل ألس (من حيث الاعتبارات ذات الصلة، وهذا احتراز لئلا أكرّره)، إلا في تاريخ حياتها: كأن لا تكون حالتها العصبونية نتيجة لجرح أصيبت به بعد الولادة بل لجرح تعرضت له في بدلية الحمل، وهو ما أدى إلى هذه الحالة. ومن المحتمل أنها تمتلك أيضاً النفاذ من حيث المبدأ؛ وما يربط المبدأ الرابط ينطبق (أما إن كان الأمر بخلاف ذلك فليس للنقاش كله من هدف؛ ذلك أن وقت الإصابة بالجرح لا يكاد يكون مهماً). افترض أن هذا الجرح الذي حدث في بدلية الحمل أثر على المورثات بطريقة تجعلها تؤدي إلى الإصابة بـ "الإبصار الأعمى"، وربما ينطبق المبدأ الرابط في هذه الحالة كذلك، وإلا لن تكون النتائج أقل مناقضة للحدس، افترض الآن أن سوزان تماثل جين إلا أن هذا التغير الوراثي [الإبصار الأعمى] حدث نتيجة لطفرة، لذلك فهي تماثل جين في التكوين الوراثي، وإن لم تصب بـ "الإبصار الأعمى" نتيجة لجرح، كما حدث لألس وجين. ومرة أخرى، يجب أن ينطبق المبدأ الرابط، أما إن لم ينطبق فلن يكون لهذا النقاش من هدف. ويعني هذا أن سوزان تعاني من "الاعتراض" فقط. افترض أن هذه الخصيصة الوراثية عند سوزان انتقلت [إلى نريتها] بالوراثة، وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى ظهور نوع [بشرى] فرعى، فلدينا الآن "نوع - جون" [النوع الذي يتكوّن أفراد من أمثال جون] ونوع - سوزان، وهما يتشابهان تشابهاً تاماً من حيث ألياتهم الإدراكية. ولا يعي الذين ينتمون إلى "نوع - سوزان" التمثيلات الذهنية ولا القواعد التي توجههم ولا يستطيعون الإخبار عنها. أما فيما عدا ذلك فلا يمكن التمييز بين النوعين الفرعيين، بل إن هناك شيئاً من التماهي عبر النوع في الآليات البصرية، كما هي حال ألس وجين بعد الإصابة بالجرح. وبما أن المبدأ الرابط ينطبق على سوزان، فهو ينطبق

احتمالاً على "توع - سوزان"؛ أما إن لم يكن الأمر كذلك فلا يدعو ما سبق  
قدينا، مرة أخرى، أن يكون افتراضات اصطلاحية لا قيمة لها.

دعنا بأخذ الآن حالة اللغة. افترض أننا اكتشفنا أن تاريخنا التطوري  
يشبه تاريخ "توع - سوزان". أي أن أجددنا كلنا في الواقع من "توع  
جون"، واعين وعيًا تلمًا بالكيفية التي يثبتون بها وسيط الرأس، ويحسنون  
الاعتماد الإحالي، إلخ، ويستطيعون وصف ذلك كله وصفاً بيئياً لعلماء من  
المريح كانوا يلاحظونهم. لكن طغرة حدثت (أو حدث جرح نشأ عنه تغير  
وراثي، كما في حالة جين) ثم انتشرت، مما أدى في نهاية الأمر إلى وجودنا،  
أي لنكون من "توع - سوزان"، أي محرومين من هذه القدرة. افترض أننا  
اكتشفنا أننا لم نتمكن حتى من اختيار الرواة للتعريين الملائمين بعد. وأن  
النوعين الفرعيين يحتلّ بعضهم ببعض، ويتصرف أفرادهما بشكل متماثل  
تعاماً، وينتج عن هذا أنه لن يكون بإمكان أحد منا، ولا بإمكان أي عالم،  
اكتشاف أي فارق بين أعضاء المجموعتين، إن لم تبحث مسألة الوعي،  
ويسطبق المبدأ الرابط على "توع - جون" المبكر، وعلى بقاياها بينما ومن هنا  
فهو يسطبق علينا كذلك، إلا إن احترماً اتخاذ بعض القرارات المصطلحية التي  
نتخذ، كما في السابق، أنه لا فائدة لهذا الجهد كله.

لكن هذه النتيجة خاطئة تماماً؛ ذلك أن الغرض الوحيد من هذا النقاش  
أن يبرهن على أن البحث العلمي الطبيعي في اللغة والذهن لا يؤدي إلى  
"واقعية نفسية"، أو "آليات نفسية"، أو "تفسيرات فلسفية"، أو "تمثيلات ذهنية"،  
أو "توجيه" بالقواعد. وبصورة أكثر جوهرية، يجب أن يُحدّد المبدأ الرابط أننا  
لا نستطيع اللجوء إلى الآليات ولا للعمليات التي نقوم بها من حيث المبدأ.  
ونحن لا نعلم من مجرد "الاعتراض"؛ بل نعلم من أن الآليات أضعفنا التي  
لا نستطيع أن تؤدي إلى فكر شعوري ذاتي يتكون مضمونه من هذه القواعد  
أنفسها" (Nagel 1993: 109)، ذلك أن هذا بأجمعه يقع خارج الشعور  
"الممكن".

ولإنقاذ القصة، يجب علينا، فيما يبدو، أن نصرّ على أنه لا يمكن أن يوجد نوع — جون — في حال اللغة (مع أنه يمكن أن يوجد، وهو كذلك، كما في حالة الإصدار الأعشى، أي البشر): أي أن من المستحيل أن يوجد نوع عصوي يشبهها تماماً إلا أنه يشعر شعوراً تاماً بمضمون القواعد التي يتبعها حين يتعلم اللغة (ويستخدمها). ويشبه ذلك أن يكون فرضية اختبارية لا مصادرة اصطلاحية، هي الأفضل. لكن ما الأساس الذي يجعلنا نؤكد؟ لو، إن لم يكن هذا الرعم اختبارياً، بل تصورياً، ما الأسس التي يقوم عليها؟ وبعض النظر عن أن كما نقبله أو لا نقبله — وسواء أكان فرضية اختبارية أم تصورية — فما أهميته المحتملة؟ وكيف يختلف عن ادعاء ما عن "جوهر الكيميائي" (أو الكهربائي أو المنطقي، إلخ)؟

وتبرر أسئلة مشابهة عن إدراك الشيء الذي ناقشناه آنفاً، ويمكن أن نفصل تلك الصعوبات، وهو ما يؤدي إلى مزيد من أنواع التناقض. ولا يبرز أي من هذه الأسئلة في البحث العلمي الطبيعي الذي لا مكان فيه لأفكار مثل "الشعور من حيث المبدأ" أو "الشعور الممكن" أو "المبدأ الرابط"، ولا فكرة "التفسير الفلسفي" وراء التفسير، ولا أصناف مفضلة من الأدلة (كـ "الوعي"، أو "الدليل النفسي" مقابل "الدليل اللغوي")، ولا لثنائية "الدهن — الحمض"، ولا "الثنائية المنهجية" (أو غيرها من الثنائيات).

ولا تعدد الجهود التي تسعى للإبقاء على مثل هذه الثنائيات أن تكون بقايا للمحاولات التي كانت تسعى لإنقاذ لفكرة التي مفادها أن المعرفة نوع من القدرة، على الرغم من حقيقة أن القدرة يمكن أن تنصل أو تصعب — بل ربما تحنك تماماً — في حين تنقى المعرفة ثابتة، كما يتنا ذلك بمثال فقد القدرة على الكلام (أو السباحة، إلخ)، مثلاً، بعد الإصابة بجرح والشفاء منه من غير أن يكون هناك تدخل ذو صلة بعد براء الجرح. والنتيجة الطبيعية أن المعرفة (التي يمكن تأطيرها في عبارات مثل: كيف...، و...، إلخ) تنقسم عسراً إدراكياً مهماً، ويجب ألا يُخطط بين القدرة على استخدام

المعرفة والمعرفة نفسها. ولتجنب هذه النتيجة، يصاغ تصورٌ تقني ينصف بخصائص المعرفة - يسمى "قراءة" - لكنه مختلف عن التصور العادي، وهي محاولة غريبة بشكل خاص حين يلجأ إليها يزعم الدفاع عن وجهة نظر فتحيشتاين، (انظر الهامش رقم ٤ للاطلاع على بعض المراجع ذات الصلة وبعض النقاش).

### أنواع أخرى من الشكينة:

بأخذ أغلب النقاش عن "اتباع القاعدة" قواعد الرياضيات أو قواعد المرور نموذجًا، لو تلك القواعد التي نجدها في كتب النحو التقليدي، أو أنواع أخرى مما ينصف بالمعيارية. وإحدى الملامح الرئيسية في اتباع القاعدة، إذن، أنه يجب أن يكون الوقوع في الخطأ ممكنًا بمعنى الخروج على المعيار، وبغض النظر عن هدف هذا النقاش، فهو غير دقيق هنا. وقواعد اللغة - كمبادئ النحو الكلي، أو تلك المبادئ التي توجه أحكام ماري عن المثالين (١) و(٢) أعلاه (انظر ص ٢٣٩)، مثلاً - ليست معيارية بهذا المعنى؛ إذ يمكن أن تكون أحكام ماري ومظاهرها سلوكها الأخرى "خاطئة"، لعدد كبير من الأسباب؛ نحو: عدم الانتباه أو صعوبة التحليل (كما في الجمل التي تسمى بـ "جمل ممثلة الحقيقة"، أو التعبيرات التي تثير قلق قدرات الإدراك). كما تستطيع ماري أن تقرر مخالفة قواعدها، ربما لأسباب وجيهة، كإحداث أثر أدبي، مثلاً. ويمكن للأحكام والسلوك كذلك ألا تتوافق مع المعيار بطرق عدة: كالمعايير التي تفرضها البنى التسلطية المختلفة، والممارسات المشتركة عد جماعات لا حد لتنوعها ويمكن أن يرتبط الأفراد بها، إما اختياراً أو بصنط خارجي، إلخ. وتبرز أسئلة عدة تتصل بالحقائق والسياسات المتبعة، إلخ، لكن لا يبدو شئ منها مبدئياً، باستثناء الأسئلة التي يمكن أن تحنرل إلى حجج متشككة لا أهمية خاصة لها بهذا الخصوص (المنافسة أومع، انظر Chomsky 1986).

فهل ينبغي أن نتحدث عن "اتباع القواعد" في حالة أحكام ماري اللعوية وسلوكها؟ وهذا سؤال غير مهم كثيرًا. وذلك لأسباب ذكرناها آنفًا؛ إذ لا يتوقع أحد أن يبقى الخطاب العادي أمام التحول إلى نظرية تفسيرية. ومع ذلك وهذا للتوثيق - وربما يكون الكلام عن ماري كأنها تتبع القواعد في هذه الحالة أقرب إلى الاستخدام اللغوي العام منه إلى المواضعة الفلسفية النموذجية التي توجب وجود رابط بالشعور. بل هو أكثر قربًا إلى الاستخدام العادي (لا بمعيار واحد، ذلك لما نستخدم مصطلح "اتباع القاعدة" عادةً عند "الخروج" عن معايير الجماعة، لا عند احترامنا لها، كما هو الاستخدام التقني في الخطاب الفلسفي. فإذا كان جوني يقول:

I brang my lunch home.

"أحضرت غدائي إلى منزلي"

[بصيغة ماضى الفعل bring "يُحضِر" على صيغة brang ، التي لا تتبع قاعدة تصريف هذا الفعل]

فربما يصف الاستخدام المألوف هذا الاستخدام بأنه يتبع القاعدة التي تنطبق على فعل sing "يغنى" [التي ماضيها sang] - وهو استخدام ضالٍ؛ لأن أصحاب السلطة أو بعض المعايير الأخرى تتطلب أن تكون صيغة ماضى هذا الفعل brought. ومثل ذلك إن كان يستعمل الكلمة puppy "جرو" في الإشارة إلى صغار القطط، متبعًا القاعدة التي مؤداها أن صغار الحيوانات المنزلية الأليفة تسمى puppies "جراء". وربما يستطيع ملاحظ مدقق إصدار أحكام مماثلة عن قواعد النطق التي يتبعها [جوني]. ولو حدث أن مات البالغون جميعًا وبقي جوني وأترابه فسيستمرّون في اتباع قواعدهم العربية الخاصة، إلا أن هذه القواعد ستكون الآن قواعد اللغة بشرية عادية إلى حد بعيد تختلف عن الإنجليزية النموذجية في هذه المظاهر (ومظاهر أخرى). وربما لا يكون مألوفًا أن نقول في هذه الحالة إن جوني يتبع قاعدة؛ إذ قلما يُستخدم هذا المصطلح حين تحترم المعايير والنماذج. لهذا يمكن

للسائين وحدهم أن يقولوا إن ماري تتبع المبدأ C في نظرية الربط العاملي في المثالين (١) و(٢)، لو أنها تتبع القواعد المعقدة المتشابكة الخاصة بالإحالة إلى الأشياء حين تتكلم عن بيتها.

ولا نقصد، حين نعزو اتباع القاعدة بالطريقة للمألوفة - لجوى كم في الحالة التي ذكرناها أعلاه، مثلاً - أن نوحى بأن متبعي القواعد واعون (أو يمكن أن يكونوا واعين) باتباعهم للقواعد أو أنهم يختارون القيام بذلك. أما أولئك الذين يتكلمون عن "حقيقة أن المعنى اللغوي يتضمن اتباع القاعدة عن قصد" فإنما يستخدمون مصطلح "اتباع القاعدة" بمعنى تقلى مستخدم في الخطاب الفلسفي، لا بالطريقة المتواضع عليها (انظر Baldwin 1993: 187؛ مستشهداً بـ P. Pettit). والشيء نفسه صحيح، كما أطر، عن مصطلحات أخرى في الخطاب الفلسفي، ويشمل ذلك مصطلحات "المعرفة" و"المضمون" و"الإحالة"، من بين مصطلحات أخرى. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر المراجع التي أعلنا إليها فيما سبق، والفصل الثاني في هذا الكتاب).

ويمكن، في إطار النظرية العلمية الطبيعية "لغة (-د)" - وهي داخلية وفردية - أن نستخلص بعض النتائج عما ينبغي للمرء أن يقوم به، لكن في ضوء شروط فرضية غير مهمة فقط (مثل: إن كنت تريد كلمة تسجع مع كلمة tower "برج" أو تحول إلى أزهار من نوع "دافوديل"، استخدم كلمة flower ، لا book "كتاب"). وهذه المعيارية، وهي إحدى المقضييات المألوفة للمعرفة، متوفرة بكثرة في سياق البحث العلمي الطبيعي، لكنها ليست من النوع الذي يبرز حين نسأل إن كان ينبغي لجونز تغيير استخدامه لكلمة arthritis "التهاب المفاصل" ليتفق مع استخدام الطبيب، وهو سؤال من نوع مختلف جداً، وليس له إجابة محققة إلا من حيث تحديد مكان معين أو آخر في الفضاء المعقد جداً للاهتمامات والمشاكل البشرية.

والأمر الآخر ذو الصلة هو فكرة اللغة بوصفها "ملكاً للجماعة" من نوع معين، كما في قولنا إن هانز وماريا يتكلمان الألمانية حتى إن كانا لا

بستطيعان التفاهم، وإن هاتز لا يتكلم الهولندية مع أنه يفهم جيداً اللغة الهولندية التي تتكلم قريباً من الحدود الهولندية الألمانية، أو حين نقول إن بيير وولده جين، اللذين لا يتكلمان إلا الفرنسية انتقلاً للعيش في نيويورك، يتعلمان اللغة الإنجليزية، التي سينجح جين في تعلمها لكن بيير سيتعلمها جزئياً. أو أن جوي، بـ "أحطائه" في brang و puppy، وبطريقة نطقه لاسمه، لا يتكلم لغة على الإطلاق (وهي فجوة غريبة في الاستخدام العادي)، مع أنه سيتكلم الإنجليزية يوماً ما وهو يمتلك "معرفة جزئية" بها الآن، وأن "لغته" — د — الحالية ربما تكون لغة عادية إن بقيت على الصورة التي وضعت بها. ولا يمثل عدد كبير من هذه الاستخدامات مشكلة في الحياة العادية، لكن ليس لها إلا أهمية صئيلة في إطار الجهد الذي يسعى لفهم ماهية اللغة وكيف تستخدم. وليس هذا من أمور الأمثلة؛ ذلك أنه ليس هناك أمثلة معقولة، إلا بمقدار ما نستطيعه من تشييين "لمناطق" حين نحاول إيصال ما يعنيه الحكم بأن جون يسكن قريباً من ماري لكن بعيداً من بيل. ويمكن لهذه الاستخدامات أحياناً أن تشفر فيما يسمى بـ "اللغات الوطنية"، وهي تفرض بالقوة أحياناً. وتجعل محاولات ربط فكرة "اللغة المشتركة" بالتقافات الأمور أكثر سوءاً. إذ يمكن في العادة أن ينتمي شخص إلى عدد من الجماعات والثقافات، مع بعض الارتباطات الضعيفة غالباً بين أشكال الترابط. فيمكن أن يشارك جون في ثقافة عامة ما — بفهم مشتركة واعتقادات وأفهام، إلخ — مع متكلم أحادي اللغة لا يعرف [جون] منها كلمة واحدة، وربما يكون هذا الاشتراك بقدر يفوق ما يشارك فيه مع تومس المماثل، الذي نقأ معه ولا يكاد يميز بين لحيتهما. وليس شيء من هذا صلة بالتواصل الناجح. ولما بنا بحاجة لافتراض طرائق نطق مشتركة، أو معان مشتركة لكي نفسر هذا، أكثر مما نعتصره من أشكال مشتركة من أجل تفسير الناس المتشابهين.

ومرة أخرى، يمكن أن نصف أوضاعاً جديدة لا حصر لها مما يجدر، ودراستها مشروعة ومفيدة. وحين تكون هذه الدراسة جادة تفرص ما يتعلمه



عن طريق البحث العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية. ومع ذلك، لا يمكن أن  
تقود محاولات تأسيس نظريات خاصة بطريقة للنطق أو المعنى (بطرق يطبق  
مشتركة ومعان مشتركة) انطلاقاً مما يدعى أنه ملك الجماعة إلا إلى اللبس.  
وتبين مثل هذه المحاولات، مرة أخرى، نوع الثنائية الذي لا يمكن حمله على  
الجِد وراء ما يُعدُّ ذهنياً.

ويتضح شكل آخر من الثنائية يبرز في نقاش النقاش عن اكتساب اللغة  
من حوار غريب عن "الفطرية" أو "الفرضية العظرية". وهو حوار من طرف  
واحد؛ إذ لا أحد يدافع عن هذه الفرضية، وهو ما يشمل أولئك الذين عُرِيت  
إليهم (ومنهم أنا خاصة). ذلك أنه ليس هناك فرصة كهذه. فهناك بعض  
المقترحات المحددة عن الحالة الأولى للملكة اللغوية (أي: "جهاز اكتساب  
اللغة" و"النحو الكلي"). ولم يُسأل أحد من المنتقدين هذه الاقتراحات. إلا أنهم  
ينظرون إلى هذا المشروع على أنه مخطئ بطريقة ما، وربما يقوم ذلك على  
مسئمة ثنائية ما. ولا تثار أسئلة مماثلة حين نقم بعض الاقتراحات عن  
المظاهر الأخرى للنمو، ولم يُقَدِّم سبب يسوغ القول بملاممة [هذه  
الاقتراحات] في مثل هذه المظاهر. وقد قُدمت دعاوى بديلة من طبيعة عامة  
جداً، ومنها مثلاً: أن "آليات التعلم المعظم" كافية، وليس هناك حاجة لافتراض  
خصائص محددة للملكة اللغوية. ولا يمكن أن نقاش مثل هذه الفرضيات إلا  
بعد أن يبين لنا ما هذه الآليات. أما الاقتراحات المحددة التي قُدمت إلى الآن  
فلا تكاد تستحق الالتفات، إذا نظرنا إليها من خلال الاعتبارات العلمية  
الطبيعية، لهذا يجب أن يُبحث عن مسوغات لها من خلال بعض المتطلبات  
الأخرى، وهي متطلبات ذات طبيعة ثنائية.

والنزعة السلوكية عند كوين نوع من هذا الشكل الثنائية<sup>(١)</sup>، فهو  
يُجادل بأن "المقاربة السلوكية لازمة" (Quine 1990: 37) لدراسة اللغة؛ لأنها  
في اكتساب اللغة، تعتمد اعتماداً حاسماً على السلوك الظاهري في السياقات  
الملاحظة (ص ٣٨). وانطلاقاً من حجة مماثلة، فالمقاربة الغنائية

nutritionist لازمة في علم النمو الجيني، ذلك أن الكائن العضوي يعتمد بصورة حاسمة، في انتقاله من الحالة الجنينية إلى حالة النضج، على التغذية التي تأتي من الخارج؛ فكما يجب أن يكون اللسانيون سلوكيين، يجب أن يكون علماء الأحياء غذائيين، يقصرون أنفسهم على ملاحظة التحول العدائية. والريف في الحجة الأخيرة واضح؛ ويهتد الزيف نفسه الحجة الأولى كذلك. ولا يسمح بمناقضة هذا الأمر إلا للمعاملات التثائية المتطرفة وحدها. وربما تكون الدراسة الفعلية للغة خاطئة تصوريًا، لكن لا يكفي، في البرهنة على هذا، أن نطالب اللساني بأن يهجر البحث العلمي الطبيعي - كما يفعل كوين وأتباعه - ليتبنى بعض المصادرات العشوائية بغض النظر عن سوابقها التاريخية، غير المهمة كما هو واضح.

ويتصل بهذا اتصالاً قوياً نموذج الترجمة المتطرفة عند كوين. فنحن نحاول في الدراسة العلمية الطبيعية للتفاعل بين الكائنات العنصرية (كالخلايا والحشرات والطيور والدلافين، وغيرها)، أن نكتشف الحالات الداخلية التي تجعل هذا التفاعل ممكناً، وهي الحالات التي تنتج عنها التأويلات التي تعطى للإشارات. لكن هذا الطريق مسدود، في دراسة اللغة البشرية. إذ يجب أن تقتصر دراسة التفاعل [في دراسة اللغة البشرية] على ما يكون داخل الحدود المقررة؛ أي أن يُسمح للعالم الباحث بأن يسجل الموضوعات بطريقة محدثة، ويختار بعض الملامح من السياق، ويختبر ما يتفق مع البحث وما يختلف معه؛ مثل: "هل هذا من؟"، ثم يقوم ببعض الاستقراء الأولي، وكفى. وتقدم إشارات متعددة لما يُسمح به من سمات، مثل نوع "من"، إلخ. ويَزعم كوين زيادة على ذلك أن هذا أيضاً هو السياق المعرفي للطفل الذي يكتسب اللغة والشخص الذي يخرط في اتصال متبادل. لكن الحسابات الثلاث مختلفة اختلافاً جذرياً من حيث طبيعتها؛ ذلك أن الطفل يأتي مزوداً بالحالة الأولى للملكة اللغوية ("جهاز اكتساب اللغة"، و"النحو الكلي")؛ ويمتلك الشخص الذي يخرط في تبادل اتصالي خصائص الحالة المحصلة؛ أما اللساني ضرود

بملكة صياغة العلم ومنتجات الأبحاث السابقة عن اللغة. وليس مهماً أن يبيّن هذه الفروق، ذلك أن هناك مشكلة أكثر عمقا: وهي الثنائية المنتشرة التي تنسب بها هذه المقاربة بأكملها. ولا يمكن أن يُقبل مثل هذا، أو ما هو قريب منه، في دراسة الكائنات العضوية الأخرى، أو المظاهر البشرية التي لا تقع داخل الصنف الوصفي التقليدي لمفهوم "ذهني".

وقد استُنتج من هذا النموذج، الذي يُبنى ويُناقش بشكل واسع، نتائج بعيدة المدى عن اللغة والفكر. ومع هذا يبدو أنه ممارسة فكرية لا هدف لها إن قصد به أن يلقى ضوءاً على طبيعة التواصل أو الاكتساب أو دراسة اللغة والفكر. ذلك أنه لم يفتح أي تسوية مرصٍ له، في الأقل، على حد علمي، ولم يفتح تفسيراً للمسبب الذي يلزم بتبني هذه المقاربة في هذه الحالة العريضة (بإيهيك عن أن يُنظر فيها). وإذا كان الهدف منها الإسهام في صقل الفهم لتصورات الاعتقاد والقصد والمعنى، وما يشبهها، فمعايير تقويمها أكثر غموضاً، لكن يصعب أن نرى سبباً يوجب إضفاء مكانة خاصة على الشروط المحددة المفترضة في هذا البحث التصوري.

وتقوم على هذا النموذج بعض التوجهات الثنائية الأخرى، فبحاج ديفيدسون، مكيّاً هذا النموذج لاهتماماته الخاصة، أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن نصوغ نظرية تكون نموذجاً للقدرة اللغوية عند مُحلّ ما، لكن "لا يضيف شيئاً لهذه الدعوى أن نقول إنه إذا وصفت النظرية القدرة اللغوية لمزول ما وصفاً صحيحاً، فيجب أن تتماثل بعض الأليات عند المحلّ مع هذه النظرية" (Davidson 1986b: 438). وبين ديفيدسون، مثل كوين، ما يُنظر إليه على أنه دليل ذو صلة، وهو: "أن ما يمكن ملاحظته ليس إلا استخدام حُمل في سياق"، وكفى. ويمكن أن تُقَمّ النظريات "فكرة الإحالة والأفكار الدلالية الأخرى ذات الصلة بها"، لكن "لا يمكن السؤال عن صحة هذه التصورات النظرية فيما يتجاوز السؤال عن قدرتها على تقديم تفسير مرصٍ لاستخدام الحُمل" (Davidson 1990: 300). وقد طوّر دومييت وآخرون

مواقف معانلة (انظر، Davidson 1986b; 1990a؛ وانظر عن الوجه الذى يقترحه دوميت لهذا الموقف: Chomsky 1986).

ومرة أخرى، لن نُحمل أفكار مثل هذه على محمل الجد فى دراسة أنظمة أخرى. ولا يمكن أن يقصر الدليل على استخدام المتكلم للجمل، إلا أن تمسكنا بمودج الترجمة المتطرفة أو قيد عشوائى آخر (أو جماعة مختارة من)، أما حين يقارب هذا الموضوع بالمقاربة المألوفة فى العلوم فسنبحث عن أنواع كثيرة من الأدلة، ومنها الدليل الذى ستأخذه من اللغة اليابانية (وهو يُستعمل بشكل مطرد) فى دراستنا للغة الإنجليزية؛ وهذا قرار معقول جداً يقوم على الافتراض الاحتمالى القوى جداً الذى مفاده أن اللغات لشكال متنوعة للحالة الأولى نفسها. ويمكن، بالمثل، أن نجد دليلاً من دراسات اكتساب اللغة والإدراك والحُسية ولغة الإشارة والنشاط الكهربائى للدماغ، وغير ذلك كثير. فمن المفيد جداً، زيادة على ذلك، أن نفترض بعض الآليات عند المؤول مما "تتماثل مع النظرية"، ذلك أن هذا التوجه تحديثاً هو ما يُخضع النظرية لعدد كبير من الأدلة وراء اختراصات الترجمة المتطرفة. ولا يودى الاشتراط الذى يقترحه ديفيدسون إلا إلى منع البحث العلمى العلمى فى طبيعة المؤول. أما الجهود التى تسعى إلى البرهنة على التفسير المقترح وصقله فقد أعلن أنها غير مقبولة، أو لا أهمية لها لسبب ما. ويصبح الشيء نفسه فى أنواع أخرى كثيرة لهذا الاقتراح.

ويلاحظ ستيفن سنك، فى ترميمه التاريخى لأصول "نظرية - النظرية" (١) أنه بـ "أقول الثنائية الديكارتية، بدأ الفلاسفة يبحثون عن طريق لوصف الذهنى "داخل" العيزيائى، مُمثلين الأحداث الذهنية بسعصع مقولات الأحداث فى العالم العيزيائى" (Stick 1983: 13). ويلاحظ أنه كان يمكن لمثل هذا التوجه أن يملك مسارين لتتين: أولهما محاولة تعريف المفردات الذهنية بمصطلحات "أعصابية" (ص ١٤)، وثانيهما تحليل التصورات الذهنية بمصطلحات السلوك، مما يؤدي إلى ظهور السلوكية الفلسفية. ويحاجُ بأن

للمسار الثاني هو الذي غلب. والنوع الذي راجعته هنا نوع مؤثر جدًا [مسار السلوكية الفلسفية]، ويتسم بعلامح لا يمكن إصلاحها، على حد ما أرى. أمم المسار الأول فكان موضوعًا للنشاط للبحثى كذلك، لكنه متلبس أيضًا شائبة لا يمكن تسويغها.

وقبل أن نلنت إلى تلك القضية، أقدم بعض التعليقات على هذه الطريقة في تأطير القضايا. فأولاً، لقد أخطئ في فهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الثنائية الديكارتية؛ ذلك أن ما نحضر هو مشكلة للذهن - الجسد وحسب، كما صفت الإشارة، وهو ما أدى إلى غموض مشكلة للذهن - الجسد، واحتفاء فكرة "الفيزيائي"، إلخ. ولم يبق لدينا في هذا المجال إلا المقاربة العلمية الطبيعية وحسب، أى: أن تصوغ نظرية تفسيرية في صوء أية مصطلحات ملائمة، وأن يواجه مشكلة التوحيد. ثانياً، أنه لا يدعو أن يكون أملاً، الآن، أن تكون "المصطلحات الأعصابية" ذات صلة بمشكلة التوحيد. وأخيراً، ليس هناك سبب يلزمنا بمحاولة تعريف "المعردات الدهنية" للخطاب اليومى فى إطار بحث طبيعى ما، مثلما أنه لم يجرؤ أحد على مثل ذلك فيما يخص "المصطلحات الفيزيائية"، فى العصر الحاضر فى الأقل. ويصل سنك إلى نتيجة معانقة، لكن ليس هناك سبب واضح، فيما يبدو، يجعلها تتطلب حتى الاحتجاج لها، إذا غضضنا النظر عن التحير الثانى.

وينتج البحث العلمى الطبيعى فى الـذهن نظريات عن الدماغ، أى عن حالاته وخصائصه؛ ومنها نظرية النحو الكلى، مثلاً. ولا يعرف أحدٌ الكيفية التى يمكن بها أن تبدأ بربط هذه النظريات بخصائص النرات أو العصبونات أو البنى الأخرى التى لا نعرفها [الآن] للدماغ، ويحطّر عالمُ الأحياء جبرالد إديلمان إلى أن التناقض بين النظريات عن الـذهن وبين ما تعلمناه عن علم وظائف الأعصاب يُخلق أزمة لأولئك الذين يعتقدون أن النظام العصبى يقيق "ومثبت بصورة مادية"، شبيهة بالحاسوب" (Gerald Edelman 1992: 27f)، وللقائلين بالنظريات الترابطية والقائلين بنظريات الشبكة العصبونية كذلك

وتُطلق التوريثُ الفردية المختلفة للنظام العصبى و"التنوع البنىوى الفردى للهائل" للأدمغة "رصاصية الرحمة" (بل رصاصات عدة!) على المحاولات التى تصوغ نظريات حوسبية أو نظريات شبكية عصبونية للذهن (Edelman 1992، هى الملحوظات الإلحاقية فى بهاية كتبه). ويأخذ ايندلمان، فيما يبدو، هذه النتيجة على أنها صحيحة بعض النظر عن مدى نجاح مثل هذه الدراسات، الآن، أو إلى الأبد، فى ضوء معايير العلم (كالتفسير وعمق الفهم، إلخ).

وكان يمكن الاحتجاج قبل مسير عدة، وبمنطق مماثل، بأن هناك مشكلة خطيرة فى دراسة المادة والكائنات العصبوية فى ضوء الألوان والتكاثر وحالة الصلابة، وعدد واهر من الخصائص الأخرى، والشيء بصفه قبل ذلك فى دراسة الكهرباء والمغناطيس وحركة الكواكب والأجرام السماوية، إلخ. والواقع أن العلم بأجمعه تقريبا كان يعانى ما يشبه الأزمة بسبب الفجوة الواسعة بين ما نعلم عن هذه الموضوعات ومبادئ الفلسفة الآلية (بل أكثر علوم الفيزيائية إلى وقت قريب). والأزمة التى يراها ايندلمان حقيقية، لكنه أساء تعيين الموقع الذى نحتله.

أما "التنوع الهائل" فى بنية الأدمغة والتجربة فلا يُبين لنا إلا شيئا قليلا. فقد كان يبدو، قبل سنوات قليلة، أن القلعات تختلف الواحدة منها عن الأخرى بصورة تشبه فى تطورها الاختلاف بين البنى العصبونية كما يراها كثير من المتخصصين اليوم، وكان يُنظر إليها على أنها ليست إلا انمكاسات للتجربة التى تتنوع بصورة غير نهائية. وسوف يبدو أى نظام معقد خيطا ملتبعا قبل أن يفهم، وتُكتشف مبادئ انتظامه ووظيفته، ويحتاج ايندلمان بأن إدخال الاعتبارات الخاصة بالمعنى ستعين بشكل ما على التغلب على المشكلات المعروفة فى المقاربات "للصورية". وهو مخطئ فى فهم هذه الطرق خطأ كبيرا - كما يدل تعليقاته القليلة - لكن الأهم هو وجهة نظره الحاطنة عن علم الدلالة. فتخلق بعض الخصائص الدلالية البسيطة للمشكلات كلها التى

يرأها إندلمان في النظريات التركيبية والتعيرلات. فهي محكومة بالقاعدة ومحددة تحديدا صارما ومثبتة بشكل مستقل عن التجربة والمظاهر المعروفة للبنية العصبونية؛ ومن هنا فهي تخلق "الأزمة" التي تنشأ عنها العجوة بين ما يبدو أنه صفة خوارزمية رقمية للغة والتنوع الملاحظ والنشئت المستمر للتجربة الفردية والبنية العصبونية. ونحن نواجه هنا مشكلة معهودة من مشكلات التوحيد في العلوم، وهي التي ربما توجب، كما حدث في الماضي كثيرا، أن تعد صياغة العلوم "الأكثر أساسية" بصورة جزئية لكي تتوافق مع النظرية التفسيرية الناجحة في المستويات الأخرى.

وقد اقترح عدد من العلاجات للتعامل مع هذه "الأزمة"، ومنها الاقتراح بأن "الذهني" هو "العضوي العصبي" في مستوى أعلى، وقد يكون هذا صحيحا، في نهاية المطاف، أما الآن فلا يبدو أن يكون فرضية عن "العضوي العصبي"، لا وصفا "للذهني"؛ وهو ما يعنى أن الغذاء في القنم الخطأ، على حد فهمنا. ومنها وجه "الزعة المادية الإحصائية" الذي يرى أنه يجب علينا أن نركز اهتمامنا على علم وظائف الأعضاء العصبي، وهو اقتراح ليس له من المعنى إلا ما كان لاقتراح قدم منذ زمن يوجب التحلى عن الكيمياء لصالح دراسة الجسيمات الصلبة من خلال حركتها، أو وجوب أن يتبع المنحصرين في علم الأجنة المسار نفسه، وهناك أبحاث غزيرة تسأل عما سيحدث إن لمكن لنماذج نظرية الشبكة العصبونية (الترايبونية) تفسير الظواهر التي سبق أن فشرت في ضوء أنظمة تمثيلية حوسبية. وربما يبدو هذا النقاش كأنه علمي طبيعى من حيث الكيف، لكن ذلك ليس واضحا تماما؛ فقله هم علماء الأحياء الذين يمكن أن يلفت أنظارهم لاقتراح أن الأنظمة التي تعتمد على البنية ولا تتصف بخصائص معروفة يمكن أن تعطى في المستقبل تفسيراً لتطور بعض الكائنات العضوية من غير اللجوء إلى التركيبات المعقدة في ضوء تركيز العناصر الكيميائية والبرنامج الداخلي للحلية وإنتاج البروتين، إلخ.

وتسمى النظريات الناجحة في بعض المجالات عادةً ومنها للعبة على وجه خاص إلى النوع الحوسبي التمثيلي، وهي حقيقةٌ تحدث قديراً كبيراً من عدم الارتياح. وللتغلب على عدم الارتياح هذا يلجأ في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بالنمجة الحاسوبية؛ لتبين أن لدينا حالات كثيرة واعية من هذه النوع، ثم يؤدي هذا إلى القول بأن علم النفس يدرس المشكلات البرمجية. وهذا توجه مشكوك فيه. ذلك أن الأسماء المصنوعة تُثير أسئلة لا تدر في حالة الأسماء الطبيعية. فيعتمد كون شيء ما مفتاحاً أو طاولة أو حاسوباً على مقصد الصانع منه، والاستعمال المعهود، وطريقة تأويله، إلخ. وتبرر الاعتبارات نفسها حين نسال عن إن كانت آلة ما تُخفق في أداء وطبيعتها، أو في اتباع القاعدة، إلخ. فليس هناك نوع طبيعي أو حالة معيارية. فلا تبرز هذه الأسئلة في دراسة الجربئات المصوبة، ودراسة أجحة الدجاج، أو دراسة الملكة اللغوية، أو الأسماء الطبيعية الأخرى، ويعكس الاعتقاد بأن هناك مشكلة تتطلب حلاً، وراء الحالات المعهودة، ثنائية غير مسوغة، كما أن العلاج المقترح لسوا من المرضى.

ولا تفسد هذه الملحوظات إلا ظاهر العناصر الثائية في أغلب التوجهات الفكرية المؤثرة عن اللغة والفكر وأكثرها تعقيداً، فالواجب إما أن نسوِّغ هذه التوجهات أو نتركها، كما يبدو لي أيضاً أن نقد المقاربات الطبيعية يعاني من خلل. وهناك، فيما أظن، سببٌ وجيه لأن يتفحص عن قرب المدهيات التي كانت تُفحص بشكل غير منصبط، وإذا لم تصمد أمام هذا التحليل، فيجب أن نسال عن السبب الذي يجعلها تبدو قوية.



## هولمز الفصل الرابع

- (١) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر (Bilgrami 1993). وانظر (Chomsky (1980: 250) عن الافتراض (الضمني غالباً) لمقاربة دلالية فردية في مجالات بحثية أوسع (كاللغويات الاجتماعية، واكتساب اللغة، ومفهوم هيلاري بيلام "تقاسم العمل الاجتماعي"، إلخ).
- (٢) النزعة الأسسية anti-foundationalism هي وجهة النظر التي تقول إن المعرفة غير ممكنة إلا إن اتُّخذت بعض الوحدات أساساً محدثاً للوحدات الأخرى. ويوجه اهتمام خاص إلى الثقة المدّعاة بالأسس المقترحة وإلى العلاقة بين هذه الأسس وسائر المعرفة. (المترجم)
- (٣) انظر مفهوم "العلم العادي" عند توماس كور في كتابه The structure of scientific Revolutions، ١٩٦٢. وقد ترجمه إلى العربية شوقي جلال بعنوان: "بنية الثورات العلمية". الكويت: عالم المعرفة (العدد ١٦٨)، جمادى الآخر ١٤١٣هـ / ديسمبر ١٩٩٢م. (المترجم)
- (٤) وهي التي تتعلق بالطرق التي تبحث في الكيفية التي ترتبط بها التمثيلات بالعالم أو بالأفراد الذين يمتلكون هذه التمثيلات والكيفية التي ترتبط بها لتكون أنظمة للاعتقادات والأحاسيس والتوجهات. (المترجم)
- (٥) يرى بعض فلاسفة العلم أنه يبدو أن من الطبيعي التسليم بأنه سيكون للنظرية الجديدة دائماً نوع من علاقة التماهي مع النظرية السابقة لها. ويسمى إرست ناجل هذه العلاقة بـ"قوانين الجسرية" Bridge laws. (المترجم)
- (٦) ولا تنعاشي تصورات "العلوم الخاصة" (علوم الأرض، وعلم الأحياء، وغير ذلك) مع شروط ديفيدسون؛ انظر (Fodor 1987).
- (٧) ليس من الواضح إن كان كوين سيخلص إلى هذه النتيجة أم لا، وذلك لتمييزه بين الدليل "النقي" والدليل "العملي". فهو يقل، لتحديد حدود

العبارة، الدليل الأول دليلاً حقيقياً لكنه لا يقبل الدليل الثاني؛ ويتضمن الدليل الأول بعض التجارب على الإزاحة الإدراكية للقطقات؛ أما الدليل الثاني فيتضمن الاعتماد الإحالي، كما في المثالين (١) و (٢) فيما يلي وهذا تمييز غامض، خاصة أن "الدليل للغوى"، بناء على أسس علمية طبيعية، أكثر وجاهة، هذا إن لم نتكلم عن حقيقة أن المادة الأولية لا تأتي مصنعة يمثل هذه الطرق. وربما يسمح هذا للتمييز، بعض النظر عما يعنيه، بمراجعة فكرة "التشوي" عنده، إلا أنه لا يسمح بمراجعة للغة هما يبدو. انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب عن هذا الأمر والمراجع ذات الصلة هناك.

(٨) للاطلاع على مناقشة أوسع، انظر التعليقات على عرض سيرل لوجهات النظر هذه في Chomsky 1990؛ كذلك وجهات نظر نيد بلوك وأحرين، ولم يجب [سيرل] عن هذه الاعتراضات في إجابته هذه أو في كتابه الذي نشره بعد ذلك Searle 1992.

(٩) يعنى "مبدأ الربط" connection principle أن هناك نوعاً من العلاقة الداخلية بين حالة ذات مصموم قصدي وكونها شعورية (إمكاناً، في الأقل). (المترجم)

(١٠) للاطلاع على نقاش أحدث انظر Quine 1990؛ وللإطلاع على نقاش أكثر توسعاً لوجه مبكر منها (ومماثل تقريباً) انظر Chomsky 1987، والفصل الثالث هنا.

(١١) يرى كثير من الفلاسفة وعلماء "علم المعرفة" أن الفهم اليومي أو الفهم "الشعبي" للحالات الذهنية يكون نظرية عن الذهن، وتسمى هذه النظرية عموماً بـ "علم النفس الشعبي" أو "علم النفس البديهي". (المترجم)



## الفصل الخامس اللغة موضوعاً طبيعياً

أريد أن أناقش هنا مقارنة للذهن تأخذ اللغة والظواهر المماثلة لها على أنها عناصر للعالم الطبيعي، وينبغي أن نذكر من مناهج البحث الاختباري المعهودة، وسأستخدم في هذه المناقشة المصطلحين "ذهن" و"ذهني" مجردين من أي معنى غيبي، وأنا أفهم المصطلح "ذهني" بالطريقة التي يفهم بها مصطلح "كيميائي"، أو "بصرياتي"، أو "كهربائي". فتسمى بعض الظواهر والأحداث والعمليات والحالات المعينة في الحديث العام "كيميائية" (الخ)، من غير أن يوحي هذا بأي معنى غيبي. فستستخدم هذه المصطلحات لانتقاء بعض مظاهر العالم المعينة محورياً للبحث. فنحن لا نسعى [لهذا] لتحديد "المعيار الصحيح للكيميائي"، أو "علامة الكهربائي"، أو "حدود البصرياتي"، وسأستخدم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها، وبما يشبه معناه في الاستخدام العادي، من غير أن يكون لهذا مقتضيات أعمق. ولا أعني بـ "ذهن" إلا المظاهر الذهنية للعالم، من غير اهتمام خاص بتعيين الحدود تحيياً صارماً أو بمحاولة العثور على معيار معين يختلف عما في الحالات الأخرى.

وسأستخدم مصطلحي "لساني" و"لغة" بالطريقة نفسها تقريباً. فنحن نوجه اهتمامنا نحو بعض مظاهر العالم التي تدخل تحت هذا العنوان العريض غير التقني، ثم نحاول فهمها بشكل أفضل، وربما لمكن لنا أن نطور - ونحن نطور بالفعل - في أثناء قيامنا بذلك تصوراً يتماثل تقريباً مع المفهوم غير التقني "لغة"، ثم نفترض أن مثل هذه الموضوعات تنتمي إلى أشياء موجودة في العالم، إلى جانب الجزيئات المعقدة والمجالات الكهربائية وبطام الإبصار البشري، وغير ذلك.

وتسعى المقاربة العلمية الطبيعية لمظاهر العالم اللسانية والذهنية إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، أخذة ما نقاد إلى افتراضه في هذا المسعى

على أنه "حقيقي"، مع الأمل في التوحيد مع العلوم، الطبيعية "للصرف"، في نهاية الأمر: ونؤكد أنه التوحيد لا الاختزال بالضرورة. فالاختزال الكاسح نادر في تاريخ العلوم. بل الشائع أن العلم الأكثر "أساسية" هو الذي كان يلزمه الخضوع لمراجعة جذرية ليحصل التوحيد. وحالة الكيمياء والفيزياء مثال أحير لهذا: فقد وُحِدَ تعقيل بولنج Pauling للرباط الكيميائي هذين العلمين، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن جعلت الثورة الكمّية في الفيزياء هذه الخطوات ممكنة. ويمكن عدّ توحيد أكثر علم الأحياء مع الكيمياء بعد ذلك بسنوات قليلة اختزالاً حقيقياً، لكن ذلك ليس الغالب على العلوم، وليس له أية أهمية معرفية خاصة أو أية أهمية أخرى؛ إذ لم يكن "توسّع" الفيزياء لتشمل ما كان يُعرف عن التكافؤ والجدول الدوري والأوربان الكيميائية... إلخ أقلّ صلاحاً ليكون شكلاً من أشكال التوحيد، وتعرّض نظريات اللعة والدهن، في الحالة التي بين أيدينا، التي يبدو أنها مؤسّسة أفضل من غيرها على أسس علمية طبيعية، إلى الدهس/الدماع خصائص حوسبية من نوع مفهوم جدّاء، وإن كنا لا نعرف ما يكفي لنصنّف الكيفية التي يمكن بها أن يكون لبنية مركبة من خلايا خصائص كهذه. وببئر هذا مشكلة من مشكلات التوحيد، لكنها من نوع مألوف.

وبن لا نعرف الكيفية التي ربما يسير بها التوحيد في نهاية الأمر في هذه الحالة، أو إن كنا اكتشفنا المقولات الملائمة التي ينبغي توحيدها، أو حتى إن كانت هذه المسألة تقع في مدى إدراكنا. وليس هناك ما يبيح لنا أن نفترض ببساطة وجوب أن تُختزل الخصائص الدهنية إلى "خصائص للشبكة العصبية"، كما تقول إحدى المزاعم النمطية (انظر Patricia Churchland 1994). وكثيراً ما نرهن على أن ادعاءات مماثلة في مجالات أخرى زائفة، وليس لها أهمية علمية خاصة في هذه الحالة. وإذا فهمت دعوى الشكوك العصبية على أنها خطة بحثية وحسب، فذلك حسن؛ وسوف تنتظر ما سينتج عنها. ثم إن قصد بها أكثر من هذا فستجدّ أسئلة أكثر خطراً.

أم فيما يحص المدي الذي يصل إليه الإدراك، فإذا كان البشر جزءاً من العالم الطبيعي، لا كانت فوق طبيعية، فلذكاء البشرى، إذن، مدى وحدود يحددها للتصميم الأولى [البشر]. فيمكن، لهذا، أن نتوقع أن بعض المسائل لن نفع في بطلان قدراتهم الإدراكية، مثلما أن للقران لا تستطيع الحرية عبر شبكات ذات خصائص عديدة، لاقتارها إلى التصورات الملائمة. ويمكن أن نسمي مثل هذه المسائل "أحاجي عند البشر"، مثلما نثير بعض المسائل "أحاجي عند القران". ومن هذه الأحاجي أسئلة يمكن أن نثيرها، وأسئلة أخرى لا نعرف كيف نصوغها بشكل ملائم أبداً. ولا تعنى هذه الحقائق البديهية وصف البشر بـ"ضعف الذكاء". ذلك أنا لا نحكم على الجنين البشرى بـ"الضعف" لأن تعليماته الوراثية غنية إلى حد يكفى لمساعدته كي ينمو بشراً، وهو ما يمنع مسارات أخرى للتطور. وسيسعد جميعاً إن تحولت هذه المسائل من أحاجٍ لا نملك إلا أن نتأملها مبهورين، إلى مشكلات صعبة بدأنا للتو في فك أسرارها" (Patricia Churchland 1994)<sup>(١)</sup>. وليس بيان التحول في أمور كانت مجالاً للاهتمام التقليدي أمراً ثافها، ويمكن أن نسأل إن كانت الأفاق ما تزال بعيدة كما كانت دائماً، وربما لأسباب مغروسة بعمق في الإعدادك الأحيائي البشرى.

ويحاج دانييل دينيت بأن فكرة "المحدودية المعرفية"، مع أنها ملائمة مذهبياً (لا أنها ليست قارة حطائياً، ذلك أن تشومسكى وجيرى فودر يمتدحان قدرة الدماغ البشرى على تحليل اللانهاية الرسمية للجمل الصحيحة نحوي في لغة طبيعية ما، وربما فهمها من ثم، ويشمل ذلك تلك الجمل التي نعتبر أفضل تعبير عن الحلول لقضايا الإرادة الحرة أو الشعور، التي زعم [دينيت] خطأ أنني حكمت بأنها "خارج حدود البحث" (10 1991 Denet). وهذه حجة رائعة حتى إن أمكن صياغة تلك الحلول باللغة البشرية - وهو ما سنظر البرهنة عليه، لا ادعاء. ذلك، أولاً، أن التعبيرات اللغوية الطبيعية لا يمكن تحليلها غالباً، كما هو معروف، (لا أطولها فصيح، أو لتعقيدها بمعنى

ما مستقل عن طبيعة الملكة اللغوية). ثانياً، إنه ربما لا يمكن فهم هذه التعابير أبداً حتى إن حُلَّتْ وأُوتَتْ؛ ومن السهل جداً ليراد أمثلة على ذلك

ويلقى تاريخ العلوم المتقدمة أضواءً كاشفة على السعي نحو التوحيد حد كبدلية "الفلسفة الآلية" التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر؛ وهي الفكرة التي مفادها أن العالم آلة من نوع يستطيع صانع ماهر أن يصنعه. وتعود جذور هذا التصور إلى الفهم النديهي، الذي يستتبع منه المسلمة الجذرية التي تقول إنه لا يمكن للأشياء أن تتفاعل إلا عبر التماس المباشر. وقد حاج رينيه ديكارت، كما هو معروف، بأن بعض مظاهر العالم المعينة - ومنها، أساساً، الاستحالة العاوى للعة - تقع وراء حدود الآلية. وقد افترض لتعليل هذه المظاهر مبدأً جديداً؛ أي جوهرًا ثانياً أساسه للتفكير، في الإطار النظري عنده. وبرزت "مشكلة التوحيد" بصفاتها سواءً عن التفاعل بين الجسد والذهن. وكانت هذه الثنائية الغيبية بحثاً علمياً طبيعياً من حيث الجواهر، وتستعمل الأدلة الاحتمالية في مقارنة الدعاوى الواقعية عن العالم - وكانت [هذه الثنائية] خاطئة، لكن هذا هو ما يحدث دائماً.

وقد انهارت النظرية الديكارتية بعد ذلك بقليل، حين بين إسحاق نيوتن أن حركة الأرض والكواكب السيارة تقع وراء حدود الفلسفة الآلية - أي وراء ما كان يفهم بأنه جسد، أو مادة. أما ما بقي [بعد ذلك] فكان صورة للعالم تتصف بأنها "مضادة للمادية"، وتعتمد اعتماداً كبيراً على القوى الروحية، كما تقول مارجريت جاكوب (M. Jacob 1988: 97).

وقد شجب أبرز العلماء آنذاك بقوة لجوء نيوتن إلى فكرة الجاذبية، ويشير ديكسترهويس إلى أن زوادة الفلسفة الآلية الحقيقية نظروا إلى نظرية الجاذبية كأنها (بجاءات بويل Boyle وهويجنز Huygens) انتكاسة إلى تصورات القرون الوسطى التي كان يُظن أنها افترضت، وتشبه أن تكون نوعاً من الحيانة لمشروعية العلم الطبيعي" (E J Dijksterhuis 1986: 479). كما رأوا أن فكرة نيوتن "القوة الغامضة" كانت ردةً إلى عصور الطلام التي

"استنفد العلماء أنفسهم منها"، وإلى "علم الفيزياء المدرسي الذي كان يتصف بالوعيات والقوى"، وإلى "المبادئ التفسيرية الروحية"، وما أتتبه ذلك من المبادئ، التي كانت تجيز التفاعل من غير تماس مباشر". وكان ذلك يشبه أن "نيوتن قال إن الشمس تولد في الكواكب نوعاً تجعلها قادرة على وصف الدوران"، وقد أدلى لايبنيز وهويجينز، في الرسائل المتبادلة بينهما، نيوتن لتحليله عن "المبادئ الآلية" لراسخة وراثته إلى بعض الأفكار العلمية كـ "التعاطف والتناوب"، و"قنوعيات الأخرى غير المادية التي لا يمكن تفسيرها". ويبدو كأن نيوتن كان يتفق مع هؤلاء، وكان سياق تطبيقه المشهور: "ليس لا أوطر العرصيات" تعبيراً عن فزع عاجه من عجزه عن تحديد سبب هذه القوة للجاذبية، التي تبعد كثيراً عن "المسببات الآلية"، وقد وجد أنه لا مفر من أن يوطن نفسه على النتيجة التي معادها "أن الجاذبية موجودة فعلاً؛ فقوانينها تُفسر "حركات الأجرام السماوية كلها، وحركات بحارنا" - وإن عدّ مبدأ [الجاذبية] الذي كان قد افترضه "سخيفاً". واستمر نيوتن حتى أيامه الأخيرة، يسعى إلى البحث عن "الروح المميقة التي تتحلل الأجساد المادية كلها وتكسُ فيها"، وهي التي ربما تُفسر التفاعل، والتجاذب والتناوب الكهربائيين، ولشر الصوء، والإحساس والطريقة التي تتحرك بها أجساد الحيوانات تحت توجيه الإرادة"، وقد استمرت بعض الجهود المماثلة قروناً بعد ذلك.

وتوحى هذه الانشغالات، في فجر العلم الحديث، بطعم النقاش المعاصر لـ "مشكلة الذهن - الجسد". كما تثير أسئلة عن ماهية القسايا ذات الصلة هنا، فيلاحظ توماس ناغل أن "المحاولات المتعددة لإتجاز هذه المهمة التي تبدو مستحيلة [أي اختزال الذهن إلى المادة] والحجج التي يُقصد بها تبين إحقاق هذه المحاولات، تشكل تاريخ طسفة الذهن في الخمسين سنة الماضية". وتتمثل المهمة المستحيلة في "إكمال الصورة المادية للعالم" بترجمة تطبيقات "الطواهر الذهنية" في صوء "وصف إما أن يكون فيزيائياً بصورة صريحة أو يستخدم مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون "فيزيائياً خالصاً"، أو



ما يمكن أن يوفر "شروطًا للتقرير" انطلاقًا من "أسس يمكن ملاحظتها خارجيًا" (Nagel 1993: 99). ويناقش تيلور بيرج، في مراجعة شاملة لقرن من فلسفة الذهن، نشأة "المقاربة الطبيعية" ("المادية"، "الغيريائية")، في الاستبيات بوصفها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32)، وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب). وهي الفكرة التي معادها أنه ليس هناك حالات ذهنية وراء الوحدات الفيزيائية العادية، التي يمكن تعيينها في العلوم الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن تعدّها البدئية "فيزيائية" (Burge 1992: 31)، وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

وتنقّص مثل هذه المناقشات، خلافاً لبيوتس ومخلصيه، أن لبيوتس ظلّ في إطار "الصورة المادية للعالم"؛ وربما لا يكون ذلك صحيحاً إلا أن فهمنا "الصورة المادية للعالم" بأنها أي شيء يمكن أن يصوغه العلم، مهما كانت درجة مفارقتها "للمسببات الآلية". وتعرض هذه المناقشات، بتعبير آخر، فهما مسبقاً لما يكون فيزيائياً أو مادياً، ولما هي الوحدات الفيزيائية. وكان لهذه المصطلحات شيء من المعنى في إطار الفلسفة الآلية، لكن ما الذي تعنيه في عالم مؤسّس على فكرة "القوى العارضة" عند بيوتس، أو على بعض الأفكار الأكثر غموضاً لمجالات الطاقة، والفضاء المنحني، والأوتار اللانهاية ذات البعد الواحد في فضاء ذي عشرة أبعاد، أو أي شيء يمكن أن يتدعه العلم غداً؟ وفي غياب أي تصور لـ "المادة" أو "الجسد" أو "ما يكون فيزيائياً"، لن يكون لدينا طريقة متماسكة لصياغة القضايا الخاصة بـ "مشكلة الذهن - الجسد". وكانت هذه مشكلات حقيقية في العلم إنل زدهار الفلسفة الآلية. لكن العلم يفترض، منذ أقول الفلسفة الآلية، أي شيء يجد له مكاناً في نظرية تفسيرية معقولة، بعض النظر عن درجة مخالفته للبدئية. ولا يمكن أن تثار مثل هذا الإشكالات عن مجال المظاهر الذهنية للعالم خاصة، دون سواها من مظاهر العالم، إلا انطلاقاً من بعض المعاملات الثنائية غير الممّوعة

ثم رسخت النزعة المضادة للمادية بصورتها عند بيوتس وأتباعه



ذلك، كما يعتقد. ووصف لودفيج بولتزمان نظريته الجزيئية للعازات بأنها لا تزيد عن كونها تشبيهاً مُريحاً، ورأى يوليس بويتنكر أنه ليس لدينا سبب للاختيار بين النظريات الآلية الأثيرية والنظريات الكهربائية للمعادنيسية للصوء وأما نقيل بالنظرية الجزيئية للغازات بسبب معرفتنا بلعبة البليارد (Brock 1992: 165)، ويلاحظ وليم بروك أنه كان يُنظر إلى الذرات التي يتحدث عنها الكيميائي على أنها "وحدات نظرية غيبية"؛ وبدأ أولت إجراءات، فإنها تقدم "أساساً تصورياً لإعطاء لوزن أولية تقريبية ولتحديد المعادلات الجزيئية" (ص ١٧١)، كما تميز هذه الوسائل الأدائية عن "الترعة الذرية الغيريائية الخلافية جداً، وهي التي تقدم بعض المراع من الطبيعة الآلية الحقيقية للعناصر الجوهرية كلها"، ولم يتحقق التوحيد إلا نتيجة لبعض التعبيرات الجوهرية في "الزعة الذرية العيزيائية"، أي: نموذج بور، والنظرية الكمية، واكتشافات بولنج (انظر Chomsky 1986: 251-252، نقلاً عن Heilbron). وقد تعلب التوحيد في نهاية الأمر على ما كان يبدو أنه فجوة لا يمكن رصها قبل بلانك: "فقد كانت المادة التي يتعامل معها الكيميائي متمايزة وغير متواصلة، أما الطاقة عد عالم الفيزياء فكانت متواصلة، وكانت تتمثل في عالم رياضي غام من الطاقة والموجسات الكهربائية المغناطيسية. . . ." (Brock 1992: 489).

وكان يُنظر، في منتصف القرن التاسع عشر، إلى المعادلات التي تحل الجزيئات المعقدة على أنها "مجرد رموز تصيفية تلخص المسار الملاحظ لرد فعل ما"؛ وكان الرأي السائد أنه "لا يمكن إيجاد حل للطبيعة الخالصة للتجميعات الجزيئية"، وأن التنظيمات الفعلية للذرات داخل الجزيء، إن كانت تعني شيئاً ألبتة، "يجب ألا تُقرأ" في المعادلات (Brock 1992: 254). وقد عبّر كيكولي Kekulé، الذي مهّدت بنيويته الكيميائية الطريق لعملية التوحيد في نهاية الأمر، عن شكّه في "إمكان اكتشاف المكونات الصرفة للجزيئات العضوية أبداً" (ص ٢٥٢)؛ وأنه ليس للمادح التي اقترحها للتكافؤ

وتحليله له إلا تأويل أدنى وحسب. ورفض كيكولي، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، فكرة كون المعادلات المنهجية... تمثل حقاً التنظيمات الحقيقية لدرجات جزئية ما". ولم يكن يُسمح للمدارس الفرنسية حتى سنة ١٨٨٦م - بتدريس النظرية الذرية، لأنها كانت "مجرد فرضية"، بحسب قرار وزير التعليم، الكيميائي المشهور بيرتيلو (ص ٣٦٤).

ويلاحظ بروك أن أبرز العلماء كانوا يصخرون، بعد تلك بأربعين سنة، من اقتراح جي. ن. لويس الذي مفاده أن "النويات الذرية يمكن أن تتداخل، حيث يمكن لألكترون واحد أن ينتمي إلى نواتين مختلفتين" وعثوا هذا اقتراحاً تصورياً ساذجاً - مع أنه الاقتراح الذي صار في فترة لاحقة مبدأ رئيساً في النظرية الآلية للكمية الجديدة (Brock 1992: 476)، وكان أحد الاعتراضات أن هذا "يمثل القول بأن زوجين يمتلك كل منهما ثمانية دولارات، لكونهما يمتلكان دولارين في حساب مشترك، وبملاك كل واحد منهما ستة دولارات في حساب ثان خاص به" (Brock 1992: 477)، نقلاً عن Kasimir Fajans؛ وكان ذلك كإن الإلكترونات تعتمد صديق بضائع عند كل ركن، وهي في حال تأهب لتصفّح... الإلكترونات الأخرى في ذرات أخرى، كما علق ساخراً أحد أعضاء هيئة التدريس البارزين في معهد فارادي (Brock 1992: 477، نقلاً عن R. A. Mullikan). وقد سبّه ثيودور ريتشاردز، وهو أول كيميائي أمريكي يفوز بجائزة نوبل، المصديث عن الطبيعة الحقيقية للروابط الكيميائية ووصفه بأنه "ثرثرة غيبية، إذ لا يعدو هذا أن يكون طريقة فجأة لتمثيل بعض الحقائق المعروفة عن التفاعلات الكيميائية، إذ هي طريقة لتمثيل وحسب" (Brock 1992: 466)، نقلاً عن ثيودور ريتشاردز). إلا أن رفض لويس وآخرين لهذا التشكك مهد الطريق إلى التوحيد في نهاية الأمر.

وليس صعباً العثور على نظائر معاصرة في نقاش مشكلة الجسد -  
للدهن، بعض النظر عما يُعرض أنها تعنيه. وهناك، كما لظن، أشياء كثيرة

يمكن أن نتعلمها من تاريخ العلوم منذ أن تحطت عن الأسس النديه، وهو التحط الذي يصحب دائما بقدر من عدم الارتياح لانتهاجها هذا النهج. ويجب أن يكون بإمكاننا الآن القول بأننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من السعي نحو "أفضل النظريات" من غير أن يكون لدينا معيار مستقل للتقويم إلا الإسهام في الفهم، والأمل بأن يكون باستطاعتنا إنجاز التوحيد لكن من غير مذهبية مسفة عن الكيفية التي يمكن بها أن يوصل إلى هذه النظريات أو أن كان من الممكن إنجازها. وكما صاغ مايكل هريدمان هذا الموقف؛ فلا يمكن فهم فلاسفة التقاليد [العلمية] الحديثة، منذ ديكارت، بشكل أفضل كأنهم كانوا يحاولون الوقوف خارج العلم الجديد ليبيّنوا، من زاوية غامضة خارج العلم نفسه، أن معرفتنا العلمية "تعكس" بشكل ما واقعية خارجية مستقلة. فهم يبدأون، بدلاً من ذلك، من "حقيقة" المعرفة العلمية الحديثة بوصفها نقطة محدّدة، فليست مشكلتهم أن يسوّغوا هذه المعرفة من زاوية "أعلى" معينة بقدر ما تتمثل في قدرتهم على التعبير عن التصورات "الفلسفية" الجديدة التي يعرضها العلم الجديد علينا" (Freidman 1993: 48). وكما يعزّر كائط عن ذلك، فليست الرياضيات وعلم الطبيعة بحاجة إلى البحث الفلسفي لثباتهما، بل من أجل علم آخر، هو: المقاربة العيبية" (Kant 1783: section 40).

فالعلوم الطبيعية، من وجهة النظر هذه، "فلسفة أولى" - سواء أكان الموضوع حركة الكواكب، أو نمو كائن عسوي، أو اللغة والذهن، وهذه العكرة مألوفة في العيراء الآن؛ ويذكر أن نجد فيلسوفاً (الآن) يعترض على مبادئها الغربية وعلى مناقضتها للحس ومعارضتها للتفكير السليم فيراها من ثم غير ممكنة. ومع هذا يُنظر إلى وجهة النظر هذه عموماً على أنها لا تنطبق على علم الإدراك، واللسانيات على الأخص، فهناك حد فاصل ما في مكان متوسط بين تلك العلوم وعلم الإدراك واللسانيات، فيسوّع العلم نفسه، داخل هذا الحدود؛ ومن هنا يسعى الناقذ المحلل ليتعلم شيئاً عن معايير المعقولة والنسوية من خلال دراسته للجراح الذي يحفّض العلم، أما وراء هذا

الحد، فكل شيء قابل للتغير؛ فبطابق الناقد بعض المعايير المستقلة ليصدر حكمه على النظريات المقترحة والوحدات التي تفترضها، وليس هذا، فيما حدو، إلا نوعاً من "الثنائية المنهجية"، وهي أكثر غرابة من الثنائية الحبيبية التقليدية التي كانت فرضية علمية، ومقاربة علمية طبيعية روحاً. وإذا ما نحلب عن هذا الموقف الثنائي فإننا نشغل بالبحث إلى حيث يفوندا.

كما ينبغي أن يكون بإمكاننا الآن أن نتبنى موقفاً نحو مشكلة الدهس - الجسد صاغه جوزيف بريستلي، مثلاً، بعد أن قوَّص بيوتن للفرعة المادية و"الفلسفة الآلية"، إذ استنتج "أنه ليس الأمر أن كل شيء يُحتزل إلى المادة، بل الأمر أن نوع المادة الذي قامت عليه وجهة النظر التي تقول بالجوهرين غير موجود"، وأنه "بالتصور المعدل للمادة، ليس هناك مكان للطرق الأكثر تقليدية لإثارة السؤال عن طبيعة التفكير وعلاقته بالدماغ، فيجب أن ن فكر في نظام أحيائي معقد منظم بخصائص ربما يُصنّفها المذهب التقليدي ذهنية" و"فيربانية" (كما يصوغ جون يولتس قول بريستلي 114 1983 John Yolton).

وتمتلك المادة، بتعبير بريستلي نفسه، قوتي الجذب والنبذ" اللتين تعملان على "مسافة حقيقية وبعد يمكن تعيينه عموماً عما نسميه الجسد نفسه"، وهما خصيصتان "أساسيتان خالصتان للطبيعة الحقة" للمادة (Yolton 1983: 111). وبهذا يتعلّب على الاعتقاد الساذج بأن للأجساد (إن نحينا السرات جانب) صلابة وتمسكاً ذاتيين، ونخلص من العجج التي تقوم على "اللعطية الساذجة" و"الفهم الساذج"، كما في السعى إلى البحث في "بَاء النسبة" المحال إليها في عبارة "جسدي". ومع الاكتشافات البيوتنية ينبغي أن يرتفع مقام [المادة] لدينا، ليفترب من طبيعة الكائنات الروحية غير المادية، بعد أن نتخلص من خزي الصلابة أو جمودها أو كسلها" (ص 113). ولم نعد "الملاءمة بين المادة والإحساس والفكر" بلقل من الملاءمة بينها وبين الجنب واللب كما أن قوى الإحساس أو الإدراك والتفكير "حصائص" — تعمق منظم محدث للمادة؛ والحصائص التي تسمى ذهنية" نتائج (سواء كانت

ضرورية أم لا) لبنية عضوية مخصوصة كبنية الدماغ". ولا يقل الاعتقاد بأن قوى الإحساس والفكر نتيجة لازمة لتنظيم ما، في معقوليته، عن الاعتقاد بأن الصوت نتيجة لازمة لحركة الهواء، فالتفكير عند البشر "حصيلة للنظام العصبي، أو للدماغ، على الألق"، وقد وصل لو ميسر إلى نتائج مشابهة قبل ذلك بجيل، وإن على أسس مختلفة.

ويمكن القول، بقدر أكبر من الحذر، إن "الناس" هم الذين يفكرون في الظروف الملائمة، لا أدمغتهم، التي لا تفكر، وإن كانت أدمغتهم توفر البات للتفكير، فيمكن أن تقوم بعملية قسمة رياضية طويلة باستخدام إجراء تعلمته في المدرسة، لكن دماغه لا يقوم بعملية قسمة طويلة حتى إن كان ينفذ هذا الإجراء، وبالمثل، فلما لا ننفذ عملية قسمة طويلة إن كنت ننفذ بطريقة آلية تعليمات تؤول بأنها هي الخوارزم نفسه الذي أستخدمه، مستجيباً لبعض الدخول في شعرة ما في ما يشبه "الغرفة الحسابة" عند سيرل، ولا يترتب على هذا شيء عن تنفذ دماغه خوارزما، في هذه الحالة أو في حالة الترجمة والفهم، فيفهم "الناس" في بعض الأوضاع لغة ما، لكن دماغه لا يقوم بفهم الإنجليزية أكثر من كون قسمة تقومان بالمشي، وهي لفزة عظيمة بعيداً عن أنواع العزو القسدي البدهي للناس، باتجاه مثل هذا العزو لأجزاء محددة في الناس أو الأشياء الأخرى. ويفكر الباحثون هذه القفزة بسهولة بالغة، وهو ما أدى إلى نقاش واسع يبدو أنه غير مفيد عن أسئلة مزعومة تتصل بما إن كان من الممكن للآلات أن تفكر، ومنها مثلاً: كيف يمكن أن ندفع "اختبارياً" عن الزعم بأن شيئاً (غريباً) يلعب الشطرنج" (Haugeland 1979)، أو نحدد إن كان يمكن لأداة أو خوارزم ترجمة اللغة الصينية، أو تناول شيء، أو تنفيذ عملية قتل، أو اعتقاد أن السماء ستمطر. وتعود جذور كثير من هذه النقاشات إلى بحث [العالم البريطاني المعاصر] ألير تيرنج الكلاسيكي الذي اقترح فيه اختبار تيرنج لكاء الآلة، لكن هذه النقاشات تحقق في التنبه إلى ملاحظته التي مفادها أن "السؤال الأساسي، وهو هل يمكن

للآلات أن تفكر؟ ليس له - كما أعتقد - أي نصيب من المعنى يجعله يستحق النقاش" (Turng 1950: 442): فهو ليس سؤالاً عن حقيقة، بل أمراً متروكاً لتقرير إن كان من الممكن أن نتبنى استعمالاً مجازياً معيناً، كما في قولنا (بالإنجليزية) إن الطائرات تطير أما للمنتجات فلا - أما في المركبات العصبائية، فتختلف الاحتمالات. وبالمثل، فالخواصات تبحر لكنها لا تسبح، ولا يمكن أن يكون هناك نقاش ذو معنى عن مثل هذه المواضيع، أو عن كساء الآلة، بتنوعاتها الكثيرة المألوفة.

وربما كان مفيداً أن نقارن النقاش المعاصر بالنقاش في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن بعض الموضوعات المشابهة؛ فقد كان كثير من الناس - حينذاك - مأخوذين كذلك بقدرات الأدوات المصنوعة، وكانوا يتناقشون عن إن كان البشر ليسوا إلا أدوات تتسم بتعقيد أكبر وتركيب مختلف. لكن ذلك النقاش كان بحثاً علمياً طبيعياً من حيث طبيعته، ويتصل بخصائص لم تدخل في إطار الفلسفة الآلية، كما يبدو. فقد بحث ديكارت وأتباعه، خاصة جيرود دي كورنيموى، مركرين اهتمامهم على استخدام اللغة، الخطوط العامة للاستقصاءات الاختبارية عن 'العقول الأخرى' مبينين أنه إن استطاع شيء ما المرور بأكثر التجارب صعوبة مما أستطيع صوغه لاحتبار إن كان [هذا الشيء] يعبر عن أفكار جديدة أو يؤولها منلى، فسيكون "من غير المعقول" أن أشك في أن له ذهناً كذهنى، ولا يعدو هذا أن يكون طريقة علمية مألوفة تماثل اختبار عباء للشمس لقياس الحموضة. وقد نشطوا في العمل في مشروع التشابه مع الآلة، لكنهم فهموا على أنه طريق للكشف عن طبيعة العالم. ولم يكن جاك دي فوكانسون، وكان أشهر الأدواتيين، يقصد جداع مشاهديه ليحملهم على الاعتقاد بأن البطة الآلية التى صنعها كانت نهضم الطعام، بل كان يسعى لأن يتعلم شيئاً عن الأشياء الحية بصياغة معادج لها، كما هو المعهود في العلوم، ويتضاد النقاش المعاصر مع التقاليد [العلمية القديمة] بصورة ليست في صالحه إلى حد كبير، كما يبدو



(Jonathan Marshall 1989؛ وانظر Chomsky 1993a؛ وللمزيد من التعليل ومناقشة أوسع، انظر Chomsky 1966).

وتصحّ اعتباراتٌ مماثلةٌ عن المصطلحات القصصية التي تُستخدم عادة في وصف ما يحدث في العالم. فنحن نقول إن المذنب يتوجه نحو الأرض، ويرتفع الصاروخ نحو القمر، وتتجه الرهرة نحو الضوء، وتطير النحلة نحو الرهرة، ويتناول الشمبانزي ثمرة جوز الهند، ويمشي جون إلى مكتبه، وربما نستطيع نظرية علمية طبيعية في المستقبل قول شيء عن الاستخدام (اللغوي) للمألوف والحالات التي تسعى إلى تناولها، معاً، وهذا موضوعان مختلفان كثيراً. ولن نكون أي من المقاربتين محدودة بـ "اللفظية الساذجة والفهم الساذجة"، مثلما أننا لا نتوقع أن نتناول نظرية عن الإبصار روى كلينتون عن الأسواق العالمية، أو نتناول نظرية عن اللغة حقيقة أن الصينية لغة لمدنية بكين وهونغ كونج، أما اللغة الرومانشية فهيست لغة لبوحارست وريو دي جانيرو — نتيجة لبعض العوامل كاستقرار الإمبراطوريات وما أشبه ذلك.

وربما يكون مضللاً القول بأننا نتخلّى عن نظريات "أن المذنب يتوجه نحو الأرض، وأن الشمس تعرب وأن السماء نظلم، وأن الموجة تضرب الشاطئ ثم تتراجع، وأن الريح تموت والموجات تختفي، وأن ناساً يتكلمون الصينية لا الرومانشية، إلخ، وأننا نستبدل بها نظريات أفضل. ويسير البحث عن الفهم النظري، بدلاً من ذلك، متبعاً طرقه الخاصة، ويقود إلى صورة للعالم تختلف اختلافاً كبيراً، وهي صورة لا تؤكد صحة طرقنا العادية في الكلام والتفكير أو تقصى عليها. ويمكن أن نُعثر هذه الطرق، ونعتكها ونعيبها من نواح عدة، مع أن العلم قلما يكون هادياً في المجالات المهمة للسنن، والبحث العلمي الطبيعي مشروع بشري مخصوص يسعى للوصول إلى نوع حاص من الفهم، يمكن أن يحصله البشر في مجالات محدودة لن يمكن تبسيط المشكلات بشكل كاف، ونحن نعيش حيواتنا، في خلال ذلك، ونواجه بأفصل

طريقة سنطيعها مشكلات يختلف بعضها عن بعض اختلافًا جوهريًا،  
ونتصف بأنها غبية جدًا في طبيعتها حتى إنها لاتحد من ألسنا في القدرة على  
اكتشاف مبادئ تفسيرية لها على أى عمق، إن كانت مثل هذه المبادئ  
موجودة ابتداء (للاطلاع على نتائج مماثلة تقريبًا انطلاقًا من أسس مختلفة،  
انظر Baker 1988 وتعليقات Charles Chastam).

ولا تبدو قباعة بريستلي الأساسية وغيره من العلماء البارزين في  
القرن الثامن عشر موضعًا لخلاف؛ فالتفكير واللغة خصيصتان لمادة منظمة  
— وهى فى هذه الحالة، غالبًا، الدماغ، لا الكلية أو القم. وليس من الواضح  
السبب الذى يوجب بحث هذه النتيجة بعد قرون كأنها اقترح جرىء جديد —  
فهى "الادعاء الجريء بأن الظواهر الذهنية طبيعية بصورة خالصة وتسببها  
النشاطات العصبية العصبية للدماغ" (Patricia Churchland 1994)، لو  
فرصة "أن قدرات الذهن البشرى قدرات للدماغ البشرى حقيقة" (Paul  
Churchland 1994)؛ أو أن "الشعور حصيصة عليا للدماغ أو حصيصة  
ناشئة عنه"، وتتنمى إلى النظام الأحيائى الطبيعى . . . . . كاتناء التركيب  
الضوئى أو الهضم أو الانقسام الفتيلى له، كما فى صياغة جون سيرل  
الأحيرة (John Searle 1992: 90)، وهى التى وصفها ناجل (Nagel 1993)  
بأنها "القلب العيبى" لـ "فرضية جذرية" ربما تمثل إضافة كبرى للإجابات  
المحتملة عن مشكلة الذهن — الجسد" إن ثبت بشكل ملائم (وهو ما يراه غير  
معتدل)، ويخرج علينا كل عام أو عامين كتاب يؤلمه عالم بلور يتضمن  
"نتيجة محيرة" أو "فرضية باهرة" تقول إن التفكير عند البشر "حصيصة  
للنظام العصبى، أو للدماغ بشكل أصح، وأنه "النتيجة الضرورية لتنظيم  
معين" للمادة، كما صاغ ذلك بريستلي منذ أمد بعيد، بطرق تبدو قريبة من  
البدية — وهى غير معيدة بشكل يماثل عدم فائدة البداهة عادة، ذلك أن علوم  
الدماغ، على الرغم من أوجه التقدم المهمة، ما تزال بعيدة جدًا عن ردم الهوة  
إلى المشكلات التى يثيرها التفكير واللغة، بل حتى إلى ما نفهمه فهما تقريبًا  
عن هذه الموضوعات.

ونواجه هنا مشكلات مألوفة من مشكلات التوحيد. فـ "اختلاف الحرائط العصبية ليس متميِّزًا أو ثنائي القيمة بل مستمر، ومفصلٌ تفصيلًا دقيقًا جدًا، وواسع"، كما يقول جيرالد إيدلمان (Edelman 1992: 28)، مستنجا من ذلك أنه يجب أن تكون النظريات الحوسبية أو الترابطية للذهن حاطئة بسبب طبيعتها التمايزية، لكن هذا ليس أكثر معقولية من النتيجة التي كانت تقصى، قبل قرن، بأنه يجب أن تكون الكيمياء حاطئة لأنه لا يمكن توحيدها مع ما نعرف الآن أنه كان علم فيزياء فقيرًا جدًا؛ خاصة أن المادة التي نتعامل معها الكيميائية متميزة وغير مستمرة، أما الطاقة عند عالم الغريباء المستمرة (Edelman 1992: 27)<sup>(٧)</sup>. وهذا المارق حقيقى إلى حد بعيد، لكنه ليس "أرمة" لعلم الإدراك، كما يرى إيدلمان، بل مشكلة من مشكلات التوحيد، التي لا يمكن أن نقول عنها شيئًا مؤكدًا.

وليس هناك مشكلة من حيث المبدأ في أن نصوغ لنظمة تحول الدخول المستمرة إلى خروج متميزة محدّدة جدًا، ومن هذه طابع التفاعل العصبى الذى يتصف إما "بالوجود أو بعدم"، والشاهد الآخر ما بيّنته دراسة حديثة تستخدم نموذج حاسوب ديناميكى حرارى لتبين أنه يمكن أن ينشأ انفراد عظيم في موضع سمة دقيقة جدًا، كالتيغير من ست طبقات إلى أربع، من عدم استمرار ضئيل في دخول [جمع "نخل"] التجنّب الجينى في أثناء النمو، وهو "خللة ضئيلة" تؤثر تأثيرًا بيّنًا على التنظيم العام لـ... بنية كبيرة، وهذا واحد من أمثلة كثيرة، كما يلاحظ المؤلف (Stryker 1994: 1244). وبغض النظر عن الوضع الاحتبارى لبعض الاقتراحات المعينة، فلم يبيّن أحدٌ إلى الآن أن مشكلات التوحيد في النظريات المتميزة (الحوسبية أو الترابطية) والنظريات الحلوية مختلفة نوعًا عن النظريات الأخرى التي ظهرت في مسار العلم.

ويعتدل الوضع الحالى في أن لدينا الآن نظريات جيدة ومتطورة عن بعض مظاهر اللمعة والذهن، لكن ليس لدينا إلا أمشاح من الأفكار عن العلاقة

بين أي منها والدماغ. لنأخذ مثالاً محدثاً. فحص نفهم الآن فهمًا جيدًا إلى درجة بعيدة، في إطار النظريات الحوسبية عن الملكة اللغوية للدماغ، الفروق بين أنواع من "الشذوذ" - أي الخروج عن مبدأ عام أو آخر من مبادئ الملكة اللغوية. فقد اكتشفت الأبحاث في مجال النشاط الكهربائي للدماغ التي أُجريت مؤخرًا بعض أنواع الترابط بين عدد من فصائل الشذوذ هذه، ووجدت نوعًا مختلفًا من الاستجابة العضلية الكهربائية للمخالفات التركيبية في مقابل المحاللات الدلالية (Neville et al. 1991; Hagoort et al. 1993; Hagoort and Brown 1994). ومع ذلك، فتظل هذه النتائج شيئًا لاحقًا للنظر وحسب؛ لأنه لا توجد نظرية ملائمة عن النشاط الكهربائي للدماغ - أي ليس هناك سبب معروف يترجم بوجود هذه النتائج، بدلًا من نتائج أخرى، أما النظريات الحوسبية، بالمقابل، فمؤسّسة بشكل أكثر صلابة من وجهة نظر المقاربة العلمية الطبيعية؛ لذلك يقع تحليل الشذوذ، على الأخص، في إطار مصفوفة تفسيرية ذات مدى أوسع.

وتسمى أية مقاربة طبيعية للغة والذهن إلى تحسين كل مقاربة، مع الأمل في الوصول إلى توحيد أكثر دلالة. ومن الشائع الافتراض بأن هناك أمرًا مشكلًا على درجة صعبة في النظرية المؤسّسة تأسيسًا أقوى على أسس علمية طبيعية، وهي "النظرية الذهنية"، وفي الانشغال الزائد بمشكلكتي "اللزعة الإحصائية" أو "الزعة الفيزيائية" اللتين لم تصاحبا إلى الآن صياغة متماسكة. ولا يهيمن هذا التوجه الثنائي على النقاش والحوار فحسب، بل يكاد يُعد مسلّمًا، وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الفكر تستحق استقصاء أكثر دقة.

ويمكن لنا، حين نضع مثل هذه التوجهات جانبًا، أن نسأل كيف يسمير البحث العلمي الطبيعي. ونحن نبدأ بما نأخذه موضوعًا طبيعيًا، كجوائز مثلا، ونهتم في البداية ببعض المظاهر الخاصة بجوائز، أي مظاهره اللغوية. ونجد أن عناصر معينة في دماغ جوائز مخصصة للغة - ونسميها "الملكة اللغوية"، وربما يكون لبعض أجزاء الجسد الأخرى تصميم محدّد ذو علاقة محددة

باللغة كذلك، ويمكن أن تتخلل عناصرُ للملكة اللغوية في بعض مظاهر الحياة الأخرى، وهو ما يمكن أن نتوقعه في أي عضو أحيائي. ونترك هذه الأمور جانباً في البداية، موجّهين اهتمامنا إلى الملكة اللغوية في النعاج، وهذا أمر أساسي بوصوح. وهناك أدلة قوية على أن الملكة اللغوية مكونين مختلفين، في الأقل، هما: "نظام إدراكي" يختزن المعلومات بصورة ما، و"أنظمة للأداء" تستخدم هذه المعلومات للنطق والإدراك، والكلام عن العالم، وصياغة الأسئلة، وإطلاق النكات، إلخ. والملكة اللغوية نظام إدراك للدخل ونظم لإنتاج الخرج، وهناك ما هو أكثر من هذا؛ فليس هناك أحد يتكلم اليابانية فقط، ولا يفهم إلا السواحلية، وتتعامل أنظمة الأداء هذه مع رصيد مشترك من المعلومات يربط بعضها ببعض ويوزدها بتعليمات من نوع معين. ويمكن أن تتعطل أنظمة الأداء وحدها، وربما بشكل حاد، في حين يبقى النظام الإدراكي كما هو، وقد اكتشفت بعض حالات انفكاك الترابط الأخرى ليس مثل هذه الأنظمة، وهو ما يكشف عن نوع البنية القلبية للمتوقعة في أي نظام أحيائي معقد.

لاحظ أننا لا نفهم "القلبية" ما بمعناها في أبحاث جيرى فورد اللافتة للنظر، تلك التي تقتصر على أنظمة الدخل والخرج؛ وتتخذ هذه الأنظمة إلى النظام الإدراكي للملكة اللغوية، لكنها متميزة عنه. وربما يكون صحيحاً أن "الآليات النفسية تتألف من ملكات مستقلة مكثفة بدلتها كإدراك الوجوه وإدراك اللغة" (Mehler and Dupoux 1994)، لكن لا يبدو أن لهذه "الأعضاء الذهنية" مكاناً في إطار القلبية، كما نفهم بدقة - كما يبدو - بالمثل، أن أفكار ديفيد مار المؤثرة عن مستويات التطيل لا تنطبق مع أداء، خلافاً للنقاش الواسع عنها، ذلك أنه هو كذلك كان يهتم بأنظمة الدخل - الخرج وحدها، أي بتحويل المثيرات الشبكية، في هذه الحالة، إلى نوع من الصورة الدلالية.

والملكة اللغوية عند جونز "حالة أولى" تثبتها الإعدادات الأحيائي، كما

يفترض عمومًا أن الحالة الأولى تُحدد أنظمة الأداء بصورة كاملة - مما يعنى أن أي تعيُّر لحالة معينة موحدة داخليًا أو أنه نتيجة لعوامل خارجية كالجروح، لا نتيجة للتعرض للغة معينة أو أخرى، وهذا هو الافتراض الأبسط، ولا يقول أحد بأنه زائف، مع أنه ربما يكون كذلك، وحين يتباهى بعرو الاختلافات اللغوية في الإدراك (كعدم قدرتنا على إدراك فوارق النغث كما يدركه متكلم اللغة الهندية، مثلاً) إلى اختلافات المظاهر الصوتية للنظام الإدراكي، من غير أن نتق كثيرًا بهذا الافتراض، مع أن هناك أدلة عليه؛ فيستطيع متكلمو اللغة الإنجليزية، في الظروف الاختبارية، اكتشاف التقابل [بين الأصوات المنفوعة وغير المنفوعة] في اللغة الهندية، وهو الذي لا "يسمعونه" حين يكون في سياق لغوي. وربما كانت أنظمة الأداء محصنة للغة حقًا، فيبدو أنه حتى الأطفال للصغار جدًا يمتلكون نظامًا قارًا شبيهًا بالنظام الصوتي عند الكبار، وهو الذي ربما يكون صقلًا خاصًا لخصيصة أشمل لدى القرينات، ويقترح ميلر ودوبو فرصة موقفة نقول إن الأطفال حديثي الولادة حساسون للتقابلات "كلها" التي يمكن أن توجد في اللغات الطبيعية "كلها"، وبالمطابقة نفسها التي توجد بها عند الكبار" (Mehler and 1994 167)، وهم "يتعلمون عن طريق النسيان" (ص ١٦٨) نتيجة للتعرض المبكر، فلا يصل الطفل إلى نهاية السنة الأولى من عمره إلا وقد انتقى نظامه الإدراكي رصيدًا معينًا من بين الاحتمالات المتاحة.

ويكتفى - بناء على هذه الفرضيات المبسطة عن النمو - بملاحظة النظام الإدراكي للملكة اللغوية، وحالاتها الأولى، وحالاتها التالية، ومن الواضح أن هناك تغيرات للحالة تحكم التجربة؛ فليست الإنجليزية للغة السواحلية، أو أنها ليست هي بنفذة. وربما يجد عالمٌ مريخي منهجي أن هذا التنوع سطحي إلى حد بعيد، وهو ما يجطه يستنتج أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، بتتوعات هامشية. لكن للنظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جوائز "بتعبير" استجابة للتجربة اللغوية، وهو ما يؤدي إلى تعيُّر الحالة حتى تحصل

إلى وضع مستقر تقريبا، وربما يكون ذلك في وقت مبكر من السادسة والثامنة من العمر، وربما يعني ذلك، إن كان صحيحا، أن التعبيرات النالية (غير المعجمية)، التي اكتشفت، حتى من البلوغ، موجّهة داخليا.

دعنا نسمّ مؤقتا حالة معينة للنظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جوبر بـ "لغة" - أو، بالمصطلح التقني: لغة - د، حيث تعني "د" "داخلي"، وفردى؛ لأن هذه المقاربة للغة داخلية تحديدا، وفردية بصورة حاسمة، وتشبه بهذا للمعار دراسات نظام الإبصار<sup>(٢)</sup>. فإذا كان النظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز في حالة "ل"، فنقول إن جوبر يمتلك اللغة "لغة" - د. وتشبه "اللغة" - د قولنا: "طريقة في الكلام"، وهي إحدى الأفكار التقليدية عن اللغة.

وعلى الرغم من بعض التشابه بين المصطلحات هنا والتعبيرات المعيارية المألوفة إلا أنها مختلفة، وهو ما يتوقعه حتى في الأطوار المبكرة من البحث العلمي الطبيعي. ونصف اللغات المختلفة في العالم مثل هذه الأمور بطرق مختلفة. فنقول، في الإنجليزية، إن جونز "يعرف" لغته، ويقول آخرون إنه يتكلمها، أو يتكلم بها، إلخ. كما تتنوع المصطلحات التي تطلق على شيء كالثقة، إلا أني لا أعرف دراسة جادة تناولت هذه الأمور عبر الثقافات، وهذه الموضوعات مهمة للبحث في علم دلالة اللغة الطبيعية، والفروع الأخرى للبحث العلمي الطبيعي التي تسمى لتبين كيف تُنتج الأنظمة الإدراكية، ومنها اللغة، ما يسمى أحيانا بـ "العلم الشعبي". فنحن نتكلم عن أن الأزهار تتوجه نحو الشمس، وأن السماء تظلم، والتفاح يسقط نحو الأرض، والناس يعتقدون بعض الاعتقادات ويتكلمون اللغات، إلخ؛ وربما يمكن لطرقنا في التفكير والفهم - ولأفكارنا للحسية عن الكيفية التي يتكوّن بها العالم - أن تتصل بصورة مباشرة بمثل هذه الأنواع من التعبيرات، أو لا يمكن. فتتبع عناصر العلم الشعبي من إعدادنا الأحيائي المسبق، متحدة أشكالا معينة تحت ظروف ثقافية متنوعة. وهناك أدلة على أن الأطفال الصغار

يعرّفون بعض الاعتقادات والخطط للأحرين قبل أن يكتبوها للكلمات التي تصف هذه الأشياء بوقت طويل، وربما صحّ الشيء نفسه عند البالعين عموماً، مع أن أغلب اللغات، كما تروى بعض الدراسات، ليس فيها كلمات تشبه الكلمة belief "اعتقاد" في الإنجليزية، وهذه دراسات جادة، ويجب ألا نتناول بحقّة؛ ونوفر حنوسنا عنها بعض الأدلة، لكن ليس أكثر من ذلك. بصواب إلى ذلك أنّه لو يكون هناك صلة بين ما يمكن أن نتعلمه عن العلم الشعبي وبين النشاط البحثي العلمي الاحتيازي عن الموضوعات التي يتناولها العلم الشعبي بطريقته الخاصة، بعض النظر عن مقدار ما نتعلمه، وهذه نتيجة تُعدّ بديهية في دراسة ما يسمى بـ "العالم الميزيائي" لكن ينظر إليها على أنها حلقية أو زائفة في دراسة المظاهر الذهنية للعالم (بناء على أسباب مشكوك فيها، كما نلن).

ولم أتحدث إلى الآن إلا عن جونز وديماغه وملكة ديماغه اللغوية وبعض مكوناتها، وهذه كلها موضوعات طبيعية. وحين نلتفت إلى سميت نكتشف أن الحالة الأولى لمملكته اللغوية تتماثل فعلاً [مع ملكة جونز] وإذا مرّ بتجربة جونز فسيمتلك لغة جونز، ويبدو هذا صحيحاً غير النوع، وهو ما يعني أن الحالة الأولى خصيصاً مقصورة على النوع، إلى حد بعيد جداً. وإذا كان الأمر كذلك فـ "الملكة اللغوية البشرية" و"اللغات (د)" التي هي تحققات لها تصلح أن تكون موضوعات طبيعية.

وإذا كان جونز يمتلك اللغة "ل" فهو يعرف أشياء كثيرة، مثل: أن كلمة house تسجع مع mouse وأن عبارة brown house تتألف من كلمتين بينهما علاقة صوتية من التجانس الصوتي [في الحركة الوسطى فيهما]، وأنها تُستخدم في الإحالة إلى بنية صممت لأغراض محددة وتستخدم لهذه الأغراض التي لها سطح خارجي بني، ونودّ أن نكتشف كيف يعرف جونز مثل هذه الأشياء، وهذه هي الطريقة التي يبدو أن معرفة جونز تعمل بها.

وتتألف "اللغة - د" من إجراء حوسبي ومعجم، أما المعجم فمجموعة



من الوحدات، كلٌ منها مجموعٌ معقد من الخصائص (تسمى "سمات")، كخصيستي "صوت شفتائي وقفي" أو "شيء مصنوع". ويحتار الإجراء الحوسبي وحدات من المعجم ويصوغ منها تعبيراً، وهو مجموع مس هذه السمات أكثر تعقيداً، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن النظام الحوسبي غير متنوع، إلى حد بعيد، ويوجد بعض التنوع في الأجزاء التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإدراك والنطق؛ وليس هذا غريباً؛ لأن هذا هو المكان الذي تتوفر فيه المادة الأولية للطفل في إنشاء اكتسابه اللغة — وهي عملية يمكن وصفها بصورة أفضل بـ "النمو" بدلاً من "التعلم"، في رأيي. وإذا نحينا هذا جانباً، يبدو أن التنوع اللغوي مكانه المعجم. وأحد مظاهره "الاعتباطية السوسورية"، أي الربط الاعتباطي بين التصورات والأصوات: أي أن البرنامج الوريثي لا يحدد إن كانت "شجرة" tree، أي التصور، ترتبط بالأصوات المكونة لكلمة "شجرة" [في العربية] أو tree (في الإنجليزية) أو baum (في الألمانية). ويمكن أن يُكتسب الربط بين التصور والصوت بناءً على أقل قدر من الدليل، فالتنوع هنا غير مفاجئ، لذلك، إلا أن الأصوات الممكن وجودها مقيدة تقيداً دقيقاً، وربما تكون التصورات مثبتة إلى حد بعيد، ويصعب أن نتخيل الأمر بشكل مختلف، نظراً لسهولة الاكتساب المعجمي، الذي يصل إلى كلمة واحدة في الساعة بين السنة الثانية والثامنة من عمر الطفل، مع اكتساب الوحدات المعجمية عادة بناءً على تعرض واحد لها، في ظروف غامضة جداً، لكنها تفهم في سياق تعقيد دقيق هائل يذهب بعيداً جداً وراء ما يمكن أن يسجل في أي معجم معصّل مستقص، وهو الذي لا يعطى، شأنه شأن أكثر الأنحاء التقليدية المفصلة، إلا إشارات تكفي إلى حد ما أولئك الذين يعرفون الإجابات مسبقاً، وهي معرفة فطرية إلى حد بعيد.

وربما يكون التنوع، وراء هذه العوامل، مفصلاً على المظاهر الصورية للغة — كإعراب الأسماء، وتصريف الأفعال، إلخ، بل ربما يكون التنوع محدوداً حتى هنا. فيبدو أن الإنجليزية تختلف، ظاهرياً، اختلافاً حاداً

عن الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو السامية من حيث غنى التصريف، كما أن الصينية أكثر اختلافاً. إلا أن هناك أدلة على أن في اللغات الأنظمة التصريفية نفسها أساساً، ولا تختلف إلا في الطرق التي يتعامل بها الإجراء الحوسبي مع العناصر الصورية فيها الذي يوفر تعليمات لأعضاء النطق والإدراك. ويبدو أن الحوسبة الذهنية متماثلة فيما عدا ذلك، مما يثبت أنه الآثار غير المباشرة للبنية التصريفية الملاحظة، حتى إن لم تكن التصريفات نفسها تُسمع في الكلام، وربما يكون ذلك أساس للتنوع اللغوي، إلى حد بعيد، ذلك أنه يمكن لتغيرات بسيطة في الطريقة التي يؤدي بها النظام وظيفته أن تؤدي، بالطبع، إلى ما يبدو كأنه تنوع هائل.

وللإجراء الحوسبي خصائص ربما تكون مقصورة عليه إلى حد كبير. وهو "متشعب" كذلك، فهو لا يستطيع النفاذ إلى كثير من خصائص الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ إذ يبدو أنه لا يُظن أن له، مثلاً. وهو يعين [خصيصة] "التجاور" adjacency، لهذا يمكن أن يكون لكل مقطع بين مقطعين خصيصة ما (كـ "البُر"، مثلاً). لكن لا يمكنه استخدام فكرة "الثلاثة". فليس هناك نظام صوتي يحدث فيه شيء ما في كل ثالث مقطع، مثلاً كما يبدو أن التركيب يخضع لخصيصة "اعتماد البنية"، ولا يمكن أن يمثل الخصائص الخطية أو الحسابية الأيسر في التنفيذ خارج الملكة اللغوية.

ومما له صلة بهذا الأمر البحث الاختباري الذي أنجزه نيل سميث وزملاؤه مؤخراً (Neil Smith et al. 1993: 279-347). فقد كانوا يدرسون شخصاً - أسنوه كريستوفر - لديه ملكة لغوية طبيعية فيما يبدو لكنه يعاني من مشكلات إدراكية شديدة، وهذا مثال لنوع من قلبية البنية الذهنية مما يكتشفه الباحثون دائماً، هيجود كريستوفر ست عشرة لغة، ويستطيع للترجمة منها إلى الإنجليزية. وشملت هذه التجارب كريستوفر ومجموعة أخرى اتخذت مقياساً؛ فقد درّسوا جميعاً اللغة البربرية ونظماً آخر مصطنعاً صيغ لكي يحالف مبادئ اللغة، وقد تعلم كريستوفر البربرية بسهولة، كما هو

متوقع، لكنه لم يستطع أن يتعلم إلا قدرًا ضئيلاً من النظام المصطنع، بسبب افتقاره إلى قدرات إدراكية أخرى. أما أفراد المجموعة للقياسية فقد حققوا قدرًا من النجاح في تعلم النظام المصطنع؛ إذ يبدو أنهم عاملوه على أنه مجرد لعبة. لكنهم لم يستطيعوا اكتشاف بعض القواعد البسيطة جدًا، كالقاعدة التي تضع علامة توكيدية على الكلمة الثالثة في جملة ما، ويبدو أن "تفشي" الملكة اللغوية كان كافيًا ليمنع اكتشاف قاعدة بسيطة لا تعتمد على البيئة، في سياق لغوي.

وتدخل الأعداء في استخدامنا للغة بالطبع؛ فنحن نستطيع أن نكتشف المقطوعات الشعرية [المكونة من عدد من الأبيات] ونفهمها، مثلًا، كما يشمل على الاستدلال، إلا أنه يبدو أن الإجراء الحوسبي على درجة من التفشي يجعل قدرته على استخدام هذه الموارد محدودة أيضًا، والملكة اللغوية غنية جدًا وهي في الوقت نفسه فقيرة جدًا، وهو ما نتوقعه في نظام أحيائي؛ فهي تستطيع تحقيق مستوى عال من الإنجاز في مجالات محددة، لكنها لا تستطيع بالمقابل أن تتعامل مع بعض المشكلات التي تقع خارج هذه المجالات، وكما ذكرنا سابقًا، يسعى أن نتوقع أن يكون ذلك صحيحًا في الملكات الأخرى كلها، ومنها تلك التي يمكن أن نسميها بـ "ملكة صياغة العلم"، وهي المجموع الحاصل من النوعيات والقدرات التي نستخدمها في أثناء اشتغالنا بالبحث العلمي الطبيعي.

ومع أن الملكة اللغوية متخصصة جدًا فإنها لا ترتبط بوسائل إحساسية محددة، خلافًا لما كان يفترض منذ زمن غير بعيد، لهذا تشبه لعبة الإشارة عند الصم اللغة المبطونة شعبًا كبيرًا، وطريقة اكتسابها تماثل طريقة اكتساب تلك إلى حد بعيد. ولا يبدو للقصور الحسي الكبير إلا أثر محدود على اكتساب اللعبة؛ فيكتسب الأطفال المكفوفون اللعبة بالكيفية التي يكتسبها بها الأطفال المبصرون، بل يشمل ذلك كلمات اللون والكلمات التي تنصل بالتجربة البصرية كـ "يرى" و"ينظر"، وهناك أناس يحققون معرفة لغوية

تقرب من المستوى العادي في غياب أي دخل إحصائي يتجاوز ما يمكن أن يحصلوه بوصف أيديهم على وجه شخص آخر أو حنجرته، ويبدو كأن الآليات التحليلية لملكة اللغة تقذح بالطرق نفسها إلى حد بعيد بغض النظر عن أن كان الحل سمعياً أو بصرياً، أو حتى لمسياً<sup>(٤)</sup>، ويبدو أنها تحل في المناطق نفسها من الدماغ، وهو ما يبدو مفاجئاً شيئاً ما.

ونبني أمثلة فقر الدخل هذه بغنى الإعداد للفطري — مع أن اكتساب اللغة العادي مثير للدهشة بقدر كافي، كما بوضوحه لانتفاذ المعجمي كذلك، لا بسبب سرعته وتعقيد ما ينتج عنه وحسب؛ لهذا يمكن أن يحدد الأطفال الصغار جداً معنى كلمة مصنعة من المعلومات التركيبية في جملة يفوق تعقيدها أية جملة يمكن لهم أن ينتجوها (Gleitman 1990).

ومن العرضيات المعقولة اليوم أن مبادئ اللغة مثبتة وطريقة، وأن التنوع محدود بالطريقة التي بثناها. فكل لغة، إذن، محددة (إلى حد بعيد) عن طريق اختيار بعض قيم الوسائط المعجمية؛ فاستطاعت، بوماطة طيف من الاختيارات، أن نشق اللغة المجرية، وإن نحصل على لغة اليوروبا باحتيارات أخرى، ويوفر منهج المبادئ والوسائط هذا طريقاً لحل التجاذب الأساسي الذي ظهر في بدايات النحو التوليدي. فقد اكتشف الباحثون مباشرة بعد محاولاتهم المبكرة لتوفير أوصاف حقيقية للغات قبل أربعين سنة أن تعقيد بنى اللغة يتجاوز بكثير ما كانوا يتخيلونه، وأن الأوصاف التقليدية للشكل والمعنى لم تكن إلا ممّا رقيقاً لطاهر للغة، أما الأوصاف التي أنجزها الهيبوبور فلا قيمة لها تقريباً. ويتزايد تنوع اللغات الظاهري الخادع تزايداً هائلاً، إضافة إلى ذلك، بمجرد توجيه الباحث نظره إلى تناول الحقائق التي تعزى بصورة ضمنية لـ "نكاه القارئ" الذي لم يحل. وبدأ أن تحقيق كفاية الوصف يقتضي الإتيان بتفسير معقد جداً، مقصور على اللغات المعينة، بل خاص ببعض التركيبات المعينة في لغات معينة، كالقواعد المعقدة لجمل الصلة في الإنجليزية، مثلاً. وكان من الواضح، مع ذلك، أنه لا يمكن لشيء

من هذا أن يكون صحيحا، ذلك أن ظروف اكتساب اللغة تُبين بوضوح أنه لا بد أن تكون هذه العملية موجهة بصورة داخلية، كالحال في مظاهر النمو الأخرى، وهو ما يعنى أنه لا بد أن تكون اللغات جميعا متماثلة تقريبا، ومحدثة بالحالة الأولى بصورة كلية إلى حد بعيد، وطل هذا التجانب، منذ ذلك الحين، يوجه التيار الرئيس في الجهود البحثية لانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية، أي: أن تجرد من مرجل للتقيد الوصفى للمعقد بعص المبادئ العامة التي تحكم الحوسبة وتسمح بصياغة القواعد في لغة ما بأشكال بسيطة جدا، مع تنوع محدود.

ولدت الجهود لحل هذا التجانب بهذه الطريقة في نهاية الأمر إلى المقاربة المسماة بالمبادئ والوسائط التي بينها أنا باختصار. وهي فرضية جريئة أكثر من كونها نظرية محدثة، مع أن إكمال الصورة ما يزال مستمرا، وما تزال الأفكار النظرية الجديدة تقود إلى توسيع أبعاد في المواد الاختبارية ذات الصلة في لغات مختلفة جدا من حيث الأصول النسبية.

وتتمثل هذه الأفكار معارفة جذرية لتقليد غنى استمر ألفين وخمسمائة سنة. فلا تُبين هذه الأفكار، إن كانت صحيحة، أن اللغات متماثلة، بإجراء حوسبي يكاد يكون واحدا وتنوع صنيل مقصور على المعجم وحسب، بل تُبين كذلك عدم وجود قواعد أو تركيب شبيهة بالقواعد والتركيب بالمعنى التقليدي، التي نقلت إلى النحو التوليدي المبكر؛ فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة في اللغة الإنجليزية مثلا. فليست للتركيب التقليدية — كالمركب الفعلي، وجملة الصلة، والمبني للمجهول، إلخ — إلا وسائل تصنيفية مصطنعة، أما خصائصها فتنتج من تفاعل مبادئ أكثر عمومية.

وتميز مقاربة المبادئ والوسائط بين فكرتين تفعلان معا تحت تصور "اللغة — د"، هما: أن هناك تمييزا تصوريا واضحا بين حالة الملكة اللغوية، من جانب، وحالة مشخصة ما للحالة الأولى بعد تثبيت الوسائط، من جانب آخر. وفي غياب أية معجزة سيختلف هذا الموضوع عن اختباريا دائما.

فحالة الملكة اللغوية الفعلية عند فرد معين نتيجة لتفاعل عدد كبير من العوامل، ولنعصها فقط صلة بالبحث في طبيعة اللغة. فحين نأخذ "اللغة - د"، إذن، بناءً على أسس دلخية أخرى تتبع من النظرية، بأنها تشخيص للحالة الأولى، إذا "أمثلة" من الحالات الفعلية للملكة اللغوية، ومصطلح "الأمثلة" مصطلح شيئاً ما، كما هي الحال في أنواع البحث العلمي الطبيعي الأخرى، فهي إجراء تتبعه حين نحاول لكشاف الواقع، أي المبادئ الحقيقية للطبيعة، ومع هذا لا يُعد هذا الإجراء غير شرعي إلا في دراسة المظاهر الذهبية للعالم خاصة، وهذا مثال للتأني في الخبرة التي يجب أن نتعجب عليها.

وقد فتح النقطة في هذا المسار مسائل جديدة، ومنها تحديدًا، ما المدى الذي يمكن أن يصل إليه اختزال المبادئ نفسها إلى الخصائص الطبيعية الأكثر عمقا للحوسبة. وإلى أي مدى تكون اللغة "محكمة" perfect، بناءً على شروط المثوية الطبيعية optimality وبعض العلاقات البسيطة جدًا؟ فتري إحدى النظريات أننا، إذا نحنًا جانبًا السمات الصوتية التي تنفذ الأنظمة النطقية الإدراكية إليها، فإن خصائص تعبير معين، مما يدخل في استخدام اللغة، تأتي بشكل مطلق من المعجم: أي أن الحوسبة تنظم هذه الخصائص بطرق مفيدة جدًا، لكنها لا تصنيف سمات أخرى؛ وهذا تبسيط كبير للمسلمات المبكرة، وهي التي ربما تتطلب، إن كانت صحيحة، إعادة تفكير واسعة في "المستويات الوحيية" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن، وتري نظرية أخرى، اقترحتها أسامتا رينشارد كلين (1994) أنه ليس هناك تنوع وسانطي للترتيب زمنيًا. فالترتيب، بدلاً من ذلك، صورة لخصائص تحدث في أثناء الحوسبة: ويعني هذا أن الترتيب الأساس في اللغات جميعًا، انطلاقًا من هذه المسلمات، هو: فاعل - فعل - مفعول. وتسعى بعض الأبحاث التي أجرت في مؤخرًا لبيان أن بعض التحيرات الممكنة التي ربما تؤوّل عند المستوى الوحيي، إن كوّنت، تمنع لأن حوسبات أخرى بالموارد المعجمية نفسها أكثر اقتصادا. (للاطلاع على نقاش هذه الموضوعات، انظر Chomsky 1993b، و Chomsky 1996b، والمراجع المذكورة هناك).

ونتوقع، بناء على مثل هذه المسلمات، أن اللغات "يمكن تعلمها"؛ لأنه لا يوجد إلا قدرٌ قليل ليتعلم، لكنها "لا يمكن استخدامها" جزئياً، لسبب واحد، هو أنه ربما ينتج عن شروط الاقتصاد العام مستويات عليا من التعقيد الحوسبي، أما أن اللغات "يمكن تعلمها" فالكشف اختباري معاجي؛ إذ ليس هناك سببٌ أحادي عامٌ لو غير أحيائي يمكن أن يفسر أنه يسعى أن تكون اللغات التي توفرها الملكة اللغوية مما يسهل الفعاذ إليه بشكل كامل، وهو ما ستكونه إن كانت تثبت عن طريق تثبيت الوسائط البسيطة. لكن النتيجة التي مفادها أن اللغات "لا يمكن استخدامها" جزئياً ليست معاجنة بحال. فمن المعروف منذ أمد طويل أن أنظمة الأداء "تخفق" غالباً، وهو ما يعني أنها توفر تحليلاً يختلف عن التحليل الذي يحدده النظام الإدراكي ("اللغة - د"). وقد درست أصنافاً كثيرة من التعبيرات التي تخلق مشكلات بنيوية للتأويل، كـ "الدمج المتعدد"، وما يسمى بـ "جمل معشى الحقيقة"، إلخ، بل إن أبسط التصورات ربما تثير مشكلات صعبة للتأويل، ومنها: الكلمات التي تتضمن تعديداً في المسوّرات أو النفي، مثلاً. فسيب تعبيرٌ مثل:

I missed (not) seeing you last summer.

فانتي أن (لا) أراك الصيف الماضي.

(الذي يعني: "توفعت أن أراك لكنني لم أرك")

لبنّا لا نهاية له. بل إن اللبس في بعض الأحيان يُشفر. كما في التعبير للمثلي: near miss الذي يعني nearly a bit "كانت تكون إصابة" لا nearly a miss "كانت تكون عدم إصابة" (وهي مماثلة لـ near accident "كانت تكون حادثة").

والاعتقاد بأن التحليل "سهل وسريع"، كما تقول إحدى الصياغات المألوفة — وأن تصميم النظرية اللغوية يجب أن يتعامل مع هذه الحقيقة — خطأ؛ فليست هذه حقيقة. أما القضية فلأن نبيين أن تلك الأجزاء من اللغة التي

يمكن استخدامها محدّدة تحديداً دقيقاً بنظريات الحوسبة والأداء، وليس هذا أمراً نادراً.

ونقرباً لسئلة أخرى من هذا النوع إلى مثارف البحث الجارى، وهى أسئلة على مستوى جديد من العمق، لذا فهى مهمة، فى دراسة اللغة والذهن.

وتتصل أسئلة أخرى بخصائص المستويات الوجيهية، مثل: كيف نستعمل أنظمة الأداء التعبيرات التى تولدها "اللغة" - د<sup>3</sup> وتوفّر بعض السمات فى هذه التعبيرات تعليمات للأنظمة اللغوية والإدراكية فقط؛ لهذا فأحد العناصر فى تعبير لعوى ما هو "صورته الصوتية" "ص ص"، ويفترض عموماً أن هذه التعليمات مشتركة بين النطق والإدراك، وليس هذا واضحاً تماماً، وهو لافت للنظر إن كان صحيحاً. وتوفّر بعض الخصائص الأخرى فى التعبير تعليمات للأنظمة التصورية - القصدية فقط؛ ويسمى هذا العنصر فى التعبير بـ "الصورة المنطقية" غالباً، لكنه يختلف بمعنى نقى ما عن الاستعمالات الأخرى؛ ونسميه بـ "ص م" كى نتجنب سوء الفهم، ويفترض، مرة أخرى، أنه لا يوجد إلا مجموعة واحدة من التعليمات، وأنها معزولة عن الصورة الصوتية. وتبلغ هذه المسلمات حدّاً أبعد من عدم المعقولية، ومن هنا، فهى اكتشافات لافتة للنظر، إن كانت صحيحة.

ويحوّل الإجراء الحوسبى، بناءً على هذه المسلمات، مجموعة من الاختبارات المعجمية إلى موضوعين رمزيين، هما: "ص ص"، و"ص م"، وهو يقوم بذلك بطريقة "مثلى" optimal، من زلوية معينة، ويمكن أن تسمى عناصر هذين الموضوعين الرمزيين سمات "صوتية" و"دلالية"، على الترتيب، لكن يجب أن نتذكر أن هذا كله ليس إلا تركيباً محصناً وهو داخلى بشكل حالىص، وهذه دراسة للتمثيلات والحوسبات الذهنية، ونقّبه إلى حد كبير للبحث فى الكيفية التى يُحدّد بها خيال مكعب يتأرجح فى الفضاء عن طريق إثارة الشبكية، أو عن طريق التخيل، ويمكن أن تأخذ السمات الدلالية لتعبير ما لتعنى "معناه" والسمات الصوتية لتعنى "صوته"؛ فيعنى التعبير



السمات الدلالية بما يشبه معنى الكلمة الإنجليزية المعينة، وأن التعبير  
"يصوت" بمعنى مائل، وتوفر الدلالة والصوت المعلومات ذات الصلة  
لأنظمة الأداء.

فتنقذ أنظمة الأداء إلى تعبير مثل:

I painted my house brown.

"صبغت بيتي بنيًا"

وهي تؤوله، على جانب التقى، وتنطقه فيما تستعمله عادة من أجل  
فعل كلامي معين أو آخر، على جانب التفظ، فكيف يحدث ذلك؟ وقد درست  
المظاهر اللغوية - الإدراكية وما تزال بشكل مكثف، لكن هذه القصايا لم  
تفهم بشكل جيد إلى الآن، أما في المستوى الوجداني التصوري - القسدي  
فالمشكلات أكثر غموضاً، ويمكن الظن بأنها تقع بعيداً عن متناول البحث  
العلمي الطبيعي البشري من حيث بعض الاعتبارات المهمة.

وربما تكون الفرضية المعقولة الأصعب فيما يخص المستوى الوجداني  
"ص م" أن خصائص التعبير الدلالية تركز الانتباه على بعض المظاهر  
المنتقاة للعالم بالصورة التي ترى الأنظمة الإدراكية الأخرى أنها عليها، ثم  
توفر منظورات على درجة عالية من التعقيد والتخصص لكي تنظر إليها من  
خلالها، وهي التي تدخل فيها بصورة جوهرية الاهتمامات والانشغالات  
البشرية حتى في أبسط الحالات. ففي حالة مثل:

I painted my house brown.

تفرض السمات الدلالية تحليلاً في ضوء خصائص محددة للتصميم  
والاستخدام المقصودين، ولسطح خارجي معين، بل لتعقيدات أخرى أكثر  
تشابكاً، فإذا صبغت بيتي بنيًا، كما ذكرنا في الفصل الثاني، فسيكون سطحه  
الخارج بنيًا؛ لكنني أستطيع، مع ذلك، أن أصبغ بيتي بنيًا "من الداخل". وللنقد  
خارجي - داخلي خيار موسوم وآخر غير موسوم؛ فإذا لم يحدث أي منهما

فسيكور المفهوم من ذلك هو الخارج. وهذه خصيصة نمطية للمعجم؛ فإذا قلت إن "جونز صعد الجبل" Johns climbed the mountain، فأعني أنه كان (عموماً) يصعد إلى الأعلى، لكن يمكن أن أقول إنه: climbed down the mountain "صعد نازلاً الجبل"، مستعملاً الخيار الموسوم. وإذا كنت داخل بيتي فأستطيع تنظيفه، حيث أؤثر في الداخل فقط، لكني لا أستطيع أن أراه، إلا إن كان من الممكن رؤية أحد أسطحه الخارجية (عبر نافذة، مثلاً). ومن المؤكد أنني لن أكون قريباً من بيتي إن كنت في دخله، على الرغم من كونه سطحاً، في الحالة غير الموسومة. وبالمثل فليس المكعب الهندسي إلا سطحاً، لكن إن كنا نستعمل اللغة الطبيعية، فلا يمكن أن يكون حيزاً في داخل المكعب قريباً منه. ونصبح هذه الخصائص بشكل عام جداً، كما في حالة الصناديق والكهوف والطائرات والجبال، وغيرها. فإذا نظرت عبر نفق في جبل ورأيت كهفاً مضاهياً في داخله، فإني لا أرى الجبل؛ إلا إن كنت أنظر إلى سطحه الخارجي (من داخل الكهف، ناظراً عبر النفق في مرآة في الخارج تعكس السطح، مثلاً). ويصبح الشيء نفسه في الأشياء غير الممكنة. فإذا قلت لك إنني صيغت مكعباً دائرياً بدلاً فستفهم أن سطحه بني في الحالة غير الموسومة. وإذا كنت في داخله فإني أعرف أنني لست قريباً منه، وهكذا، إلى حدود التعقيد الذي لم يقدر إلا تقديراً ضئيلاً جداً، وهو الذي يثير مشكلات "نظر المنبه" بشكل متطرف مما يجعل من المستحيل ألا نفترض أن المعرفة اللغوية من هذه الزوايا محدثة فطرياً إلى حد بعيد جداً، ومن هنا فهي تكاد تكون واحدة عبر اللغات، وهو ما يشبه ما نفترضه عن المظاهر الأخرى للنمو والتطور من غير مناقشة أو فهم.

وتقدم الكلمات منطورات متعارضة، دائماً تقريباً. فتتصف مدينة ما بأنها محسومة ومجردة في آن، وأنها حية وغير حية معاً؛ فربما تترقب لومس أنجليس مصيرها بكآبة، في تخوفها من التعرض للدمار إما بزلزال أو بقرار إداري. وليست لندن مكاناً بل هي، بدلاً من ذلك، "في" مكان، مع أنها ليست

تلك الأشياء التي تكون في ذلك المكان، وهي التي يمكن أن نغير جذرياً أو نقل من مكانها، تاركة لندن كما هي. ويمكن أن نكمر لندن وبعاد بناؤها، بعد آلاف السنين ربما، لكنها ستظل هي لندن؛ ويمكن أن يعاد بناء مدينة قرطاج اليوم، مثلما يمكن أن يستنسخ توم جونز، مع أنه شيء محسوس بشكل حالص، على هيئة حشرة، أو أن نغيره ساحرة إلى صيدع، ينتظر قبلة الأميرة، لكنه سيظل توم جونز على أية حال — وهذه تصورات متوهرة للأطفال الصغار من غير تعليم أو تجربة ذات صلة.

والطبيعة المجردة لمدينة لندن جوهرية لفرديتها. فإذا نُمِرت لندن وحولت إلى كوم من التراب، فـ"إنها" — أي لندن — يمكن أن "يعاد" بناؤها في مكان آخر وستكون المدينة "نفسها"، أي لندن. وإذا حول بيتي إلى كوم من التراب، فسيمكن بناؤه (أي: بُني) في مكان آخر، لكنه لن يكون البيت نفسه، وإذا حول محرك سيارتي إلى كوم من التراب، فلن يمكن إعادة بناءه، إلا إن كان خرابه جزئياً، حيث يمكن إعادة بناءه. ويدخل في الضمان اعتماد الإحالة، لكن ليس ضرورياً أن نحيل إلى الشيء نفسه، ولا اعتماد الإحالة والفكرة الأضيق للتماثل كليهما أدوار في فضاء معقد جداً من الاتشغالات والاهتمامات البشرية. ويمكن أن تكون الأحكام [في مثل هذه الأمور] أكثر دقة، ويدخل فيها عوامل لم تبحث إلا بشكل سطحي جداً.

وهناك أمثلة واقعية كثيرة لإيضاح مثل هذه الخصائص لكلمات اللغة الطبيعية، فليس صعباً أن نفهم تقريراً في الصحافة اليومية عن المصير البائن لمدينة تشيلسي، التي "تناهب للانتقال" (منظوراً إليها على أنها حية)، مع معارضة بعض سكانها لذلك لأن نقل مدينتهم، سينزع روحها، في حين يعترض فريق آخر من السكان بالقول إنه "إن لم تنتقل تشيلسي، فسوف تفقد السبول في نهاية الأمر". وهناك مدينة تسمى "لورسليم" و"القدس" معا (بالكعبة) نفسها التي تسمى بها لندن: London و Londers [أي الفرنسية] معا، فما هذه المدينة؟ وموقعها موضوع لخصام محتتم، بل إنها محل اهتمام لقرارات

مجلس الأمن الدولي. وتخطط الدولة التي تزعم أنها عاصمتها لنقل "القدس"، هي حين تترك "أورشليم" مكانها. ويفتقر رئيس إدارة تطويرها "أنا بحاجة إلى إيجاد عاصمة للفلسطينيين، ويجب أن نجد مكاناً للقدس" - في مكان ما إلى الشمال الشرقي من "أورشليم". والمقترح معقول تماماً، وهو الذي يجعله مصدر إزعاج كبير لمن يهمهم أمر "القدس". ويمكن لهذا النقاش أن يثير العاراً من النوع المألوف في الأدبيات الفلسفية، وسيصل إلى حد أعلى من ذلك إن بعد هذا القرار - أي إن كنا مستقرضين أن كلمات مثل "قدس" أو "أورشليم" تحيل إلى أشياء في العالم في لغة علمية ما، وكما نحاول أن نصقل المعاني والأفكار من أجل شروط لا تتحقق فيها مصطلحات الاستخدام العادي، حيث نحقق في الالتزام ببعض نصائح فجنشتاين الجيدة.

بل إن منزلة الشيء (الذي يمكن تسميته) نفسها، وهو الذي ربما يكون أبسط تصور لدينا، تعتمد بصورة جوهرية على أمور متشابكة كأفعال الإرادة البشرية، وهو، مرة أخرى، شيء يفهم من غير تجربة ذات صلة، ونعتمد الخصائص الذاتية للملكة اللغوية وبعض الملكات الأخرى. فيمكن لمجموع من الأعواد الملقاة على الأرض أن يكون شيئاً (معرفياً) - كلن يكون لو تآذا لسياج، أو سوراً، أو عملاً فنياً. لكن الأعواد الملقاة على الأرض نفسها ليست شيئاً إن تركت هناك نتيجة لحريق في غابة. (انظر عن مثل هذه الأمور، وعن أهميتها لنظرية كوين والنظريات المماثلة عن التعلم، Chomsky 1975: 203, 43ff.).

وليس لمتواصل "الفصاء" - الزمن" صلة خاصة بهذه القضايا، بعكس ما يفترض أحياناً (انظر Putnam 1993)، فعدم اتصال الأشياء ليس موضعاً لحلاف إطلاقاً؛ فليست الولايات المتحدة متواصلة من حيث المكان، مع أنها أصبحت شيئاً يمكن تسميته (فتحول اسمها عبر الزمن من استعماله جمعاً ليمتعمل مفرداً)، ويمكن لقول أو مسرحية أن يكونا غير متصلين من حيث الزمن. وتفهم الأسماء غير المتصلة اتصالاً مباشرًا، كما ذكرنا آنفاً، على أنها

أشياء تقبل التسمية، في إطار مصفوفة ملائمة للاهتمام البشري. أما فهم مدينة ما في إطار "العلم الشعبي" بأنها شيء غير متواصل (احتمالاً) ذو أبعاد لربعة فمسألة من مسائل الحقيقة. فيتطلب الافتراض بأنها كذلك، أو أنه ينبغي على النظرية الدلالية أن تقول إنها كذلك، تأويلات غير طبيعية إلى حد بعيد لتعابير مثل "ثقل" (تشيلىسى) و "تشيلىسى" للسابقة، إلخ، وهي قصايا يسهل عدم الانتباه إليها عند التركيز الضيق على موضوع العلاقة بين الشيء والإحالة، أما الخصائص والمنظورات التي تدخل في أفراد المدن والمبارل وما أشبه ذلك، فما نزل بانتظار أن نكتشف ونفسر، باستقلال عن قصة الاتصال.

ونكتشف الأشياء الجوهرية عن الأنواع نفسها من التصميم الذهني الخاص. خذ كلمة "ماء" بالمعنى الذي اقترحه هيلاري بتنام: أى بصفته يعنى ما يعنيه "الرمز الكيميائي للماء"  $H_2O$  مع احتمال وجود شيء من الشوائب" (Putnam 1992)، مستشهداً ببحثه الذي نشره سنة 1970 وصار الآن بحثاً كلاسيكياً). فنجد، حتى في مثل هذا الاستخدام، مع توسله المشكوك فيه بالعلم الطبيعي، أن كون شيء "ماء" يعتمد على الاهتمامات والانشغالات البشرية الخاصة، ومرة أخرى، بطرق نفهم من غير تجربة ذات صلة؛ ويشمل مصطلح "الشوائب"، مرة أخرى، بعض المناطق الصعبة. افرض أن الكأس ١ ملى من الصنبور. فهو إن كان ماء، لكن إن غمس فيه كيس شاي، فلن تكون حالته كذلك؛ فهو الآن كأس شاي، وهو شيء مختلف. افرض أن الكأس ٢ ملى من صنبور موصول بخزان ماء ألقي فيه شاي (كأن يكون نوعاً من المظهرات، مثلاً). وهنا سيكون ما في الكأس ٢ ماء، لا شايًا، حتى إن لم يكن باستطاعة كيميائي تمييزه من المحتوى الحالي للكأس ١. فيحوى الكأسان الشيء نفسه من وجهة نظر معينة، ويحولان شيئين مختلفين من وجهة نظر أخرى؛ لكن في الحالتين كليهما لا تحوى الكأس ٢ إلا ماء ولا تحوى الكأس ١ إلا شايًا. والشاي في الكأس ٢ هو "الشوائب" بالمعنى عدد بتنام، أما في

الكأس ١ وليس كذلك، وليس لدينا ماء أبداً [في هذه الحالة] (إلا بمعنى كسور الحليب ماءً في أغلبه، لو كَوّن شخص ماءً من أجل ذلك). وإذا كانت للكأس ٣ تحوى  $H_2O$  حاليًا وقد غمس فيه كيمٌ شاي فهو شاي، لا ماء، مع إمكان أن يكون تركيزُ جزيئات الـ  $H_2O$  فيه أعلى من تركيزها في الماء الذي يأتي من الصنبور أو يجلب من النهر. لاحظ أن هذه الحالة سهلة بشكل خاص، ليس كمنطائرها الكلامية، نحو "الأرض" و"الهواء" و"النار"، من بين أشياء أخرى كثيرة.

وتتزايد التعقيدات حين نتجاوز الحالات الأكثر سهولة. فيمكن أن أصبح الباب المؤدى إلى المطبخ بيتًا، لذلك فهو شيء مادي محسوس بشكل واضح؛ لكن يمكن أن أُعَبّرَ الباب إلى المطبخ، وهو ما يعنى التبادل بين الشكل والأرض. ويمكن أن ينهى الطفل محتوى القارورة ثم يكسرها، مما يؤدي إلى التبادل بين المحتوى والإثناء مع إحالة مقصودة ثابتة. وهناك بحث لاقت للنظر أنجزه جيمس بوستيجوفسكى بدرس الاطرادات في مثل هذه الأنظمة، اعتمادًا على أفكار جيوليوس مورافيك، وهى أفكار أرسطية فى الأصل. (انظر بحثه والأبحاث الأخرى المنشورة فى 1992؛ Pustejovsky 1993؛ وانظر كذلك Moravcsik 1990؛ و Chomsky 1975). وحين نوجه اهتمامنا إلى كلمات ذات خصائص علانقية أكثر تعقيدًا، وإلى البنى التى تظهر فيها، نجد أن التأويل موجة بتفاصيله الدقيقة جدًا بالنظام الإدراكى لدى نتوقع ألا يكون متنوعًا إلا بقدر سنبل لبعد التسلسل عن التجربة الممكنة.

وقد صاغ عالم الأعصاب روبرتو ليناس الأمر بأفضل وجه حين وصف الإدراك بأنه "حلم يقوَّله النحل الحسى"، حيث للذهن حالةً حوسبية للدماغ يولدها التفاعل بين العالم الخارجى ومنظومة دلالية من أطر الإحالة (Linás 1987: 351)، والأطر الدلالية التى تشكل الأحلام أكثر تعقيدًا وأكثر إدهاشًا مما يُفترض دائمًا، حتى فى مستوى المعجم، وتبلغ حدًا أعلى من ذلك حين نوجه أنظارنا إلى تعبيرات كوَّنتها الإجراءات الحوسبية.

وحيث نبين تفصيلات خصائص التعبيرات، نتعلم قدرًا أكبر عن التعليمات في المستوى الوجيهي "ص م" (أي: "الدلالة")، وهي التي تهوّل ببعض الطرق من أجل التفكير عن العالم والكلام عنه، إلى جانب أشياء أخرى، وما تزال بعض الأسئلة المهمة العالقة تقع وراء ذلك، ومنها، مثلاً، ما المعايير التي تنتمي بها هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية بوصفها متميزة عن ملكات الذهن الأخرى الموصولة بها؟ وكيف تتصل المسوارة المعجمية بأنظمة الاعتقاد، مثلاً؟ وتظل مثل هذه الأسئلة في مجال ما يعرفه الناس، لا ما يفعلونه. ومستظل الإجابات عن هذه الأسئلة تتركنا قاصرين عن فهم الكيفية التي تستعمل بها موارد الأنظمة الإدراكية، ومن الصعوبة بمكان أن نرى من هذه القضايا المتشابهة كيف يمكن أن نستخلص شيئاً مهماً يمكن أن يخصص للبحث العلمي الطبيعي، وللإطلاع على بعض التعليقات على هذا الموضوع، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

لاحظ أن خصائص كلمات مثل: "بيت" و"باب" و"لندن" و"ماء" وغيرها لا تشير إلى أن لدى الناس اعتقادات متعارضة أو محيرة. ولن يكون هناك ما يدعو لاستخلاص نتيجة كهذه، إن تحلينا عن الافتراض الاختياري الذي مفاده أن الكلمات تعين الأشياء، إذا استثنينا بعض الاستخدامات المعينة، وهي التي نقّدها بطرق متداخلة إلى حد عال جداً.

فهل ينبغي أن نفترض أن التعبيرات تعين الأشياء، بصورة دائمة؟ وبشكل أعم، هل ينبغي أن يزداد شيء على "أصناف الافتراضات" عن العلاقات الوجيهية والطرق التي تدخل بها في التفكير والعمل لتشمل العلاقات التي توجد بين بعض التعبيرات المعينة والأشياء الخارجية؟ وهذا ما نفترض غالباً، مع أنه يجب بذل مزيد من العناية لتمييز بين نوعين، هما: (١) الأشياء في العالم، أو (٢) الأشياء في نوع من النماذج الذهنية، وتمثيل الخطاب، وما أشبه ذلك<sup>(٩)</sup>؛ فإذا كان النوع الثاني فالدراسة، مرة أخرى، داخلية، أي شكلاً من التركيب، أما إذا افترضنا النوع الأول فستستمر في فحراس وجود

مستويين وجهيين، أى: "ص ص" و "ص م".

هـ أبنا اعترضنا أن هناك عنصراً *a* فى الصورة الصوتية يقابل شيئاً حرجياً \**a* نختاره *a* على أنه قيمتها الصوتية؛ لذلك يختار العنصر [ba] فى "اللغة - د" عدد جونز وحدة ما نحو [ba]\*، تكون "مشاركة" بينه وبين سميث إن كان لها نظير فى "اللغة - د" عدد [سميث]. ويمكن وصف التواصل عندئذ فى ضوء هذه الوحدات المشتركة (جزئياً)، وهى التى يمكن صياغتها بسهولة: قد \**a* على أنها المجموعة المفردة {*a*} أو {3, *a*}، لو إن لرا أحد شيئاً أكثر واقعية، صياغة أخرى مؤسعة على حركات الجزئيات. ويمكن أن ندفع، بقدر أكبر من التجماعة، عن وجهة نظر كهذه، مع أنه لا أحد يفعل ذلك لأن الواضح أن هذا جهد لا طائل من ورائه.

ويمكن فعل الشيء نفسه فى المستوى الوجهي "ص م"، هـ أب أن النظام الحوسبي صاغ *a* من اختيار معجمي واحد أو أكثر، حيث تكون *a* تمثيلاً لـ "ص م" أو شيئاً تركيبياً آخر مشتقاً منه (أى: تعبيراً ما فى لغة صورية ما، لو نوعاً لنموذج ذهنى، إلخ). ويمكننا عدد ذلك أن نعترض شيئاً \**a* على أنه قيمة دلالية لها، وهو شيء خارجي عن "اللغة - د"، وربما كلن مشتركاً بين جونز وسميث. وربما تكون \**a*، مرة أخرى، تركيباً اعتبارياً نصفى عليه الخصائص المرغوبة، أو نضيف عليه مساحة من الواقعية بطرق مختلفة. ويمكننا عندئذ أن بصوغ نظريات الصنق، ونطور نصيراً للتواصل بحسب الوحدات المشتركة - ومن المؤكد أن هذه غالباً ما تكون من نوع غريب جداً. أما ما يجب تبينه، كما هى الحال فى أى اقتراح نظري يُدخل وحدات ومبادئ جديدة، فهو إمكان تسويغ هذا بالطرق الاختبارية المعهودة (مثل: قوة التفسير، إلخ).

ويهتم تيار عريض من الفلسفة المعاصرة للغة بتحليل العلاقات المرعومة بين التعبيرات اللغوية والأشياء، ويتناول بالبحث غالباً الصدوس عن بعض الأفكار التقنية مثل: "يعين" *denote*، و"يحيل" *refer*، و"صائق عن"



true of، إلخ، التي يُدعى وجودها بين التعبيرات اللغوية وأشياء أخرى. لكن لا يمكن أن توجد حدود عن هذه الأفكار، مثلما أنه لا يمكن أن يوجد حدس عن مصطلحات مثل "السرعة الزاوية" angular velocity، أو "بروتين"، ذلك أن هذه مصطلحات تقنية تنتمي إلى الخطاب الفلسفي ولها معانٍ معطاة لا تطير لها في اللغة العادية؛ وهذا هو السبب الذي جعل فريجه يلجأ إلى اقتراح معنى تقني جديد للمعنى Bedeutung "المعنى"، مثلاً، وإذا كررنا التجربة الذهبية باستخدام كلمات يومية، فإن الأحكام تتهاوى، فيما يبدو، أو بدلاً من ذلك، تصير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باهتمام [الباحث] مما يمنعها من أن تؤدي إلى نتائج مهمة.

ومن غير أن نمتدح في مناقشة هذا الأمر هنا، ليس واضحاً أن علاقات مثل تعيين المعنى "denotation"، أو "صائق عن" "true of"، إلخ، تدخل في نظرية اللغة الطبيعية واستخدامها بأي معنى يشبه المعنى الذي لها في النظرية التقنية للمعنى.

ويُزعم أحياناً أن مثل هذه الأفكار التقنية ضرورية لتفسير التواصل أو لدراسة الصدق والكذب. ولا يقوم الاعتقاد الأول على أساس (النظر، من بين آخرين، Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب). كما لا يبدو أن الزعم الثاني صحيح، فنظر ببساطة الكلمتين اللتين بدأ بهما هذا النقاش في اللغة اليومية، أي: "اللغة" و"الذهن". فنظر إلى الحكمين التاليين عن اللغة والذهن:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong, but not

Melbourne

"اللغة الصينية لغة بكين وهونغ كونج، لكنها ليست لغة مدينة ملبورن".

The mind is its own place, and in itself can make a Heaven

of Hell, a Hell of Heaven.

"الذهن هو المكان الذي هو فيه، ويمكن له بنفسه أن يجعل الجنة باراً والنار جنة".

والجملة الأولى صحيحة، لكن المؤكد أنه ليس لعبارة "اللغة الصيبية" أى "مرجع" فى العالم الواقعى، بالمعنى التقنى، ولا يلزم أحد أن يعتقد أنها كذلك من أجل أن يُعَيَّن قيمة الصدق، أما إن أُنْجِنا بحجة ميلتون (فى قصيدة "الردوس المفقود" Paradise Lost)، فنوافق على أن الجملة الثانية صحيحة، لكن من غير أن يلزم أُنْجِنا باعتقاد أن الفاعل [فى هذا البيت]، أو الضمير، أو الصمير الانعكاسى (أو العبارات الاسمية الأخرى) تحيل، إما إلى شيء ما فى العالم أو فى عالم ذهنى غامض ما. إذ ليس هناك، فى الأقل، ما يلزم بالانسباق وراء هذه الإغراءات، وذلك لأسباب اقترحت فى النقد الذى وجّه فى القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار، وهى التى أُغِيَتْ كثيراً فى الفلسفة الحديثة للغة العادية، ومثل هذه الخصائص نمطية فى كلمات اللغة الطبيعية، وبقدر يفوق ما يُعتقد، كما يترأى لى، لأسباب بيّناها آنفاً، ولا يعنى هذا أننا ننفى إمكان صدور مثل هذه الأحكام بقصد إحالي، لكنها تنتمى إلى طبيعة أكثر تعقيداً.

ويبدو، على أية حال، أن ليس هناك لربط حاسم بين عزو الصدق أو الكذب وبعض الأفكار عن الإحالة أو "تعيين المعنى" denotation بأى معنى يشبه المعنى فى الخطاب التقنى.

انظر بالمقابل إلى مصطلح آخر استعملته، أى: "اللمة - د"، وهو الذى يظهر فى جمل مثل الجملة التالية:

l-language has a head parameter.

—٣—

"هناك وسيط للرأس فى "اللمة - د"

وهذه الجملة كاذبة إن كانت النظرية التى اقترحتها كاين Kayne (١٩٩٤) صحيحة، وربما تكون صادقة إن لم تكن تلك النظرية صحيحة، فمن المعقول فى هذه الحالة، أن نقول إن للمصطلح "اللمة - د" "مرجعاً" حقيقياً فى العالم، أو قصد أن يكون له، فى الأقل. وينتمى هذا للحكم إلى نوع الخطاب الذى تنتمى إليه للجمل عن H<sub>2</sub>O، والأحماض والأملاح، وتحديد

الجينات للبروتينات، إلخ. ولا تنتمي هذه الجمل إلى اللغة الطبيعية، حقيقة؛  
ذلك أنها تتضمن مصطلحات تقنية، كـ "اللغة - د"، التي دخلت [في اللغة]  
بطريقة مختلفة جداً. ومع تطور التخصصات، تأخذ [هذه المصطلحات التقنية]  
بالابتعاد أكثر فأكثر عن الأصول البديهية واللغوية العادية التي يبدأ منها  
البحث العلمي.

ومن المعقول أن نفترض أننا نحاول، في اشتغالنا بمثل هذا البحث،  
صياغة أنظمة بقصد أن تُعبر بعض الموضوعات الرمزية المركبة تركيب  
جيداً أشياء معينة في العالم، كالجزئيات، و"اللغات - د"، إلخ. وربما تسمى  
هذه الأنظمة الرمزية "لغات"، إلا أن هذا مجاز وحسب. ذلك أنها لا تنص  
حصائص اللغة الطبيعية عادة، وتكتسب وتستخدم بطرق مختلفة تماماً،  
وليس تـخصّصات للحالة الأولى للملكة اللغوية، ويمكن أن نطبق  
الموضوعات الرمزية في هذه الأنظمة بأصوات لغتنا ولن نستعير لها  
تركيبات لغتنا حين نستخدمها، حتى حين تتضمن مصطلحات مخترعة أو  
مأخوذة من لغات لا نعرفها (مثل: eigenvector، و"الإنسان" homo sapiens  
العاقل)، لكن ليس لشيء من هذا صلة هنا. إذ يمكن أن تقارن هذه الأنظمة  
اللغة الطبيعية بطرق اعتباطية، باستخدامها حساب التفاصيل والتكامل، أو  
الرموز أو الرسوم البيانية الكيميائية، إلخ.

وربما تـسـير هذه الأنظمة الرمزية باتجاه المثال العرجي، وبحسب هذه  
المقاربة، فهناك لغة، عامة، مشتركة بمعادلات أو إشارات تعبر عن أفكار  
مشتركة، ولهذه "اللغة" تركيب، أي لها فصيلة من الصياغات المركبة تركيباً  
صحيحاً؛ وليس هناك "إجابة صحيحة" للسؤال عن كيف ولـسـت هذه  
المجموعة، ولها دلالة كذلك، وتقوم هذه الدلالة على الفكرة التقنية لـ "المعنى"  
Bedeutung، أي علاقة بين الرموز والأشياء. ومن المحتمل أن إحدى  
حصائص ملكة صياغة العلم في ذهن البشري تهدف إلى صياغة أنظمة  
هرجية. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يبين لنا هذا شيئاً عن اللغة الطبيعية. إذ

ليس فيها بظائر لفكرة اللغة "المشتركة" أو "العامية". وتركيبها مختلف اختلافاً جديراً. وهناك إجابة حقيقية عن السؤال: "ما الإجراء التوليدي الصحيح؟" و"اللغات - د" وطائف يُنظر إليها من خلال المفهوم intension. كما يبدو أن ليس هناك فكرة "الصياغات المركبة تركيباً صحيحاً" بالمعنى عند كوين، مثلاً، هي نقاشه للتماثل الماصفي وعدم التحديد في الترجمة، أو عدد كثير من اللسانيين، وعلماء النفس، والفلاسفة، وآخرين يهتمون بالقدرة التوليدية، والقدرة على تقرير الصحة التركيبية، والاختزال إلى الأنحاء الحسنة من السياق، والقوة المفردة لبعض النظريات، ومشكلات أخرى لا يمكن حتى صياغتها عن اللغة الطبيعية - على حد ما نظم - للأطلاع على بعض لوجه سوء الفهم لهذه القضايا والأصول التي جاءت منها (انظر Chomsky 1980; 1986).

أما فيما يخص الدلالة، وعلى حد فهمنا لاستخدام اللغة، فيبدو أن الحجة التي تدافع عن الدلالة التي تعتمد على الإحالة صعبة (إذا استثنينا الوجه التركيبي الداخلي)، فيحتمل ألا تتضمن اللغة إلا التركيب والذرية؛ ولا تتضمن "دلالة" إلا بمعنى أنها "تراسة كيف تُستخدم هذه الوسيلة، التي تخضع بنيتها الصورية واحتمالات التعبير فيها للبحث التركيبي، فعلاً عند مجموعة لغوية ما"، إن استشهدنا بالصياغة المبكرة في النحو التوليدي قبل أربعين سنة، وهي التي كانت متأثرة بهنجينشتاين وأوسن وأحرين (Chomsky 102-103: 1957; 1955/1975). تتألف اللغة، من وجهة النظر هذه، من حوسبات داخلية وأنظمة للأداء تنفذ إليها إلى جانب عدد كبير من المعلومات والاعتقادات، وتنفذ تعليماتها بطرق محدثة لكي تساعدنا في الكلام والتواصل، من بين أشياء أخرى. وإن يكون هناك استثناء خاص لما يسميه شكوت موسم "الحقيقة الدلالية المركزية عن اللغة...". التي تعني أنها تُستخدم لتمثيل العالم؛ إذ لا أحد يفترض أن اللغة تُستخدم لتمثيل العالم، بالمعنى المقصود ((Soames 1989)، نقلاً عن B. Smith (1992)، بصفتها القصيدة المركزية عند الفلاسفة أو في اللغة).

ولم أفسد فيما مضى إلا الظاهر، أملاً في الإحياء بصورة عامة للكيفية التي يمكننا بها دراسة اللغة بصفتها موضوعاً طبيعياً، وبالانتحاء الذي قاد إليه مثل هذا البحث، وبأنواع المشكلات التي ما تزال على الأفاق. وربما أحتم هذا النقاش بكلمة واحدة وحسب عن حدودها، حتى إن وُضعت إلى مدى أبعد، فقد أوضحت أن هناك ما يوحي بوجود بعض الحدود المحتملة لها، وأن القضايا العامة للفصلية، ويشمل ذلك القضايا الخاصة باستخدام اللغة، ربما لا يمكن اختراق دخولها في حدود البحث العلمي الطبيعي، كما أظن. ويمكن أن يوضح هذا الأمر بشكل أكثر جلاء بالعودة إلى الثنائية الديكارتية، وهي الفرصة العلمية التي سعت، على وجه الخصوص، لتفسير حقيقة أن استخدام اللغة يقع وراء حدود لية آلة ممكنة، وقد زُعم الإطار الديكارتى بكتشاف أن سلوك المادة غير المعنوية نفسه يقع وراء هذه الحدود. ويمكن، مع ذلك، ترسيخ هذه الحجج، لكنها الآن بتجريد من لية مقتضيات غيبية، ذلك أن تصور المادة قد اختفى. وإذا أعدت صياغتها على هذا الشكل، فستظل تثير لغزاً خالصاً، كما يبدو. ذلك أنها لم تتأثر، مثلاً، بالتحول من الآلات المصنوعة التي أثارت خيال الديكارتيين إلى الحواسيب في الوقت الحاضر، ولا تلقى العلوم التي تدرس الدماغ إلا قليلاً من الضوء عليها.

وربما لا تكون هذه المشكلات حقيقية، كما يعتقد بعض الباحثين، وربما تكون حقيقية لكنها لم نكتشف بعد طريقة لتناولها، وربما يقع "ذلك الطريق"، بغض النظر عما يكون، وراء قدرتنا الإدراكية، أي وراء تناول ملكة صياغة العلم. ويجب ألا يكون ذلك مفاجئاً لنا، إن كان صحيحاً، إن كنا على استعداد، في الأقل، لقبول الاعتقاد بأن البشر جزء من العالم الطبيعي، ينصرون بمدى غني وحدود تماثل هذا المدى في غناه، ويواجهون مشكلات ربما بأملون في حلها وأحاجي تقع خارج متناولهم، أي تلك "الأسرار القصوى للطبيعة" التي "ستظل إلى الأبد" مغلقة بـ "الغموض" كما اقترح هيوم، مرئداً بعض افتراضات ديكارت.

## هوامش الفصل الخامس

- (١) وكانت هذه التعليقات للمأخرة موجهةً ضد كتاب كولن ماحس: *The problem of consciousness* (1991): Colin McGinn "مشكلة الشعور". وبشير ماحس إلى زيف هذه الحجة. انظر أيضا ( McGinn 1975; Chomsky 1993 ).
- (٢) للاطلاع على بعض التعليقات عن خطئه في تأويل النظريات الحوسبية التي يلمح إليها، وطبيعة الدلالة، التي يتوقع أن يجد فيها حلاً للزمة، انظر (Chomsky 1993a).
- (٣) لاحظ أن هذا التأويل لمثل هذه الدراسات يختلف عن تأويلات أخرى نجدها في الأدبيات الفلسفية. فقد اقترح مصطلح "اللغة - د" للتغلب على سوء الفهم الذي ينجم عن الغموض التركيبي لمصطلح "نحو"، الذي يُستخدم في الإحالة إلى لغة - د" وإلى النظرية التي بصوغها اللساني عن تلك اللغة معاً. لهذا لا تشبه معرفة جونز بـ "اللغة - د" عنده (أي "النحو"، في أحد معانيه) المعرفة (الجرئية) عند لساني ما.
- (٤) وفي بعض حالات نمو اللغة التي درست دراسة دقيقة كل هناك تعرض من النوع المعهود للغة حتى سن ١٩ إلى ٢٠ شهراً، وهو يسبق بفترة طويلة بدء التمرين (وكان ذلك أربع سنوات تقريباً، في أكثر الحالات نجاحاً). وعلى الرغم من غياب الأدلة المؤيدة فإن من المعقول الظن بأن التعرض المبكر ربما يكون حاسماً، خاصة في ضوء الاكتشافات الأخيرة عن الاكتساب للموى المبكر جداً (انظر C. Chomsky 1986, Mehler and Dupouz 1994).
- (٥) ولن أناقش، هنا أو فيما يأتي، الفرضية الأخرى التي تقول إن هذه العلاقات تصح عن الأشياء في لغة عامة. وهذه الفكرة معروفة في البحث العلمي، وهي تثير ما يبدو كأنه مشكلات لا حل لها، وهي مشكلات لم تناقش بعد (للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب).



## الفصل السادس اللغة من منظور المقاربة الداخلية

أودُّ [هنا] التوسُّع في تفصيل بعض الملحوظات الخاصة بدراسة اللغة والدهن التي قُيِّمتها في الفصول السابقة، وفي الفصل الخامس خاصة، ولأريد بدايةً أن أُميِّز بين المقاربة "الداخلية" والمقاربة العلمية للطبيعية، ولا نعى الأخيرة إلا محاولة أن ندرس البشر بالطريقة نفسها التي ندرس بها أي شيء آخر في العالم الطبيعي. أما المقاربة العلمية الطبيعية لداخلية فتسعى إلى فهم الحالات الداخلية لكائن عضوي ما، وليست الدراسة العلمية الطبيعية محدودة بهذه الحدود بالطبع؛ ولا يلغى البحث الداخلي الذي يدرس كوكبًا أو نملة دراسة النظام الشمسي أو جماعة للنمل أو بمنعها. ويمكن أن تتخذ الدراسات غير الداخلية للبشر أشكالًا كثيرة؛ فيمكن [أن ندرسهم] كأطوار في دورة التحول من الأوكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، أو أطوار لانقزال المورثات، أو فلاحين أو طباطخين، أو أعضاء في جماعات وجماعات، بما لهذه من بلى للقوة، وأنظمة مذهبية، وممارسات ثقافية، إلخ. وتتخذ الدراسات الداخلية غالبًا أمرًا مسلمًا في أنواع أخرى من الدراسات الأبعد مدى، لكن ينبغي أن يكون واضحًا أن مشروعية هذا النوع من البحث أو ذلك ليست من القضايا التي تثار.

ونريد من الإيضاح فإنا نقصر اهتمامي هنا على السعي نحو الفهم النظري، وهو ذلك النوع المحدد من البحث الذي يسعى إلى تفسير بعض مظاهر العالم انطلاقًا من بعض البنى والمبادئ التفسيرية المتوارية خلف طواهر الأشياء غالبًا، ويمكن لمن يعتقد أن البحث العلمي الطبيعي هو المنهج الوحيد الصحيح أن يعتقد من غير أن يكون متناقضًا أنه يمكن أن نتعلم من دراستنا للتاريخ أو قراءة الروايات عن الاهتمامات البشرية الحاصلة عن الكيفية التي بها يفكر الناس ويشعرون ويتصرفون أكثر مما نتعلمه عنها عن



طريق البحث العلمي الطبيعي كله. وقد برهن البحث العلمي، خارج بعض  
المجالات الضيقة، أنه سطحي أو لا أمل منه، وربما سيظل كذلك دائماً،  
وربما لأسباب تتبع من طبيعتنا الإدراكية.

وسأسمى مظهرى العالم اللذين أهتم بهما هنا بمظهريه الذهني  
واللغوي، مستخدماً هذين المصطلحين بشكل غير صارم — بالطريقة التي  
نستخدم بها مصطلحات "كيميائي" أو "كهربائي" أو "بصرياتي" optical — من  
أجل انتقاء بعض الظواهر والأحداث والعمليات المعقدة وغيرها التي يبدو  
أنها تتصف بقدر معين من الوحدة والتماسك، ولقصد بـ"ذهن" المظاهر  
الذهنية للعالم. وليس هناك حاجة في أية حالة من هذه الحالات أن يكون لها  
سوابق واضحة، وليس هناك ما يلزم باعتقاد أن هذه المقولات ستبقى حين  
يحقق البحث العلمي الطبيعي قدراً من التقدم.

وأصي بـ"المقاربة العلمية الطبيعية" المقاربة العلمية الطبيعية  
المنهجية" في مقابل "المقاربة الثانية المنهجية"، وهي المذهب الذي يرى أنه  
ينبغي، في سعينا نحو فهم النظرى، أن ندرس اللغة والذهن من حيث المبدأ،  
بكيفية مختلفة عن الطرق التي ندرس بها الموضوعات الطبيعية. وربما لا  
يعتق هذا المذهب إلا قلة، ومع هذا فهو يهيمن على تيار عريض من  
الممارسات البحثية، كما أعتقد. (للاطلاع على بعض النقاش الذي جرى  
مؤخراً عن هذا الأمر، انظر Chomsky 1986، والفصلين الثاني والثالث في  
هذا الكتاب).

ويدرس أحد فروع البحث العلمي الطبيعي الفهم البديهي. ونحن نهتم  
هنا بالكيفية التي يؤول بها الناس ثبات الموضوع، وطبيعة الحركة ومسبباتها،  
والفكر والفعل، إلخ (أي: "العلم الشعبي"، بأحد معاني هذا المصطلح). وربما  
يكون الطريق الصحيح لوصف هذه [القضايا] أن ندرسها في ضوء  
الاعتقادات عن مكونات العالم (ولنسمها بـ "الوحدات") وتنظيمها وتفاعلها  
وأصولها. دعنا نفترض أن الأمر كذلك. وليس من الواضح لي كان لموارد

العلم الشعبي التصورية صلة بالتصورات التي تدخل في الموارد التصورية  
للتبحث التأملى الواعى الذى نجده فى كل ثقافة نعرفها (أي: العلم المبكر)،  
أو بالنشاط المعيش الذى نسميه العلم الطبيعى، وإذا كان الأمر كذلك، كيف  
تكون تلك الصلة، ويسمى دراسة هذه الأمور كلها بـ "العلم الإثنى"، من  
أجل التبسيط.

وليس واضحاً كذلك كيف يتصل الموارد التصورية التي تدخل في هذه  
الأنظمة الإدراكية بالموارد الدلالية (ومنها المعجمية) للملكة اللغوية. فهل  
يعزو الناس بعض الاعتقادات beliefs إلى كانوا يتكلمون لغة ليس فيها مثل  
هذا المصطلح، وهى الحال فى أكثر اللغات، كما يبدو؟ وهل يمكن لمن لا  
يعرف كلمات savoir faire, Schadenfreude, machismo أن يدركها، لو  
يدرك ما يعبر عنه بتعبيرات لا حصر لها مما يمثل تحدياً للمترجمين؟ وإذا  
قلت إن أحد الأشياء التي تهمنى هو "الرجل المتوسط ونقاط صفته"، أو  
"أولويات جو المذنب"، أو "المسار الداخلى الذى ضمنته شركة ريثون آخر  
اتفاقية للصواريخ"، فهل يترتب على هذا أننى أعتقد أن العالم الواقعى، أو  
نموذجاً ذهنياً له عدى، يتكون من وحدات كـ "الرجل المتوسط" ونقاط  
الضعف، و"جو المذنب"، و"الأولويات" و"المسارات الداخلية"؟ وحين تقول  
الأخبار إن مذبذباً يتوجه نحو المشتري أو أن صيادى اللوبستر يصيدون  
السماك فى مياه ولاية إنجلترا الجديدة [الأمريكية] بشكل جائر فهل يعنى ذلك  
أن الكتاب والقراء يظنون أن للمذبذبات رغبات أو أن اللوبستر سمك؟ وهذه  
أسئلة عن حقائق تتعلق بمعمار الذهن، وهى مصنوعة، لا شك، بشكل غير  
ملائم؛ لأننا لا نفهم إلا القليل عن هذه الأمور.

وإذا صبحَ الحدى نديلاً فهناك، فيما يبدو، فجوة واسعة بين الموارد  
الدلالية للغة حين تزول تأويلاً حرفياً والأفكار التي يعبر عنها باستخدام هذه  
الموارد. فأنا سعيد بأن أتحدث عن أن الشمس تغرب وراء الأفق، والمذنبات  
تتوجه نحو المشتري، وعن ضرب الأمواج للشاطئ، ثم ترجعها، واختلافها

حين تموت الريح. لكنني لست واعياً بأن لدى اعتقادات تتماثل حرفياً مع هذه المصطلحات التي تدل على الحياة والقضية وأنا أستخدمها بحرية، أو تلك التي تتعارض مع أي شيء أفهمه عن النسبية وحركات الجريئات. ولا يبدو لي، كذلك، أن العالم، أو كوني الذهني، متكونان بأي شيء أصفه بأنه أشياء بعينتي، ويحد بعض علماء النفس وعلماء الأناسة الذين يدرسون علاقة اللغة بالفكر (كهرسية سايير وورف، مثلاً) هذه المشكلات صعبة ومنحنية؛ وتقدم [عنها] بعض الإجابات الجاهزة في كثير من الأدبيات الفلسفية المعاصرة، لكنها إجابات تقوم على أسس أقل إقناعاً، كما يبدو لي.

بل لقد قُدمت إجابات تختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذرياً. خذ اللغة مثلاً. فقد كتب دونالد ديفيدسون: "إننا جميعاً نتحدث بقدر كبير من الحرية عن اللغة، أو اللغات، حتى إننا نميل إلى أن ننسى أنه ليس هناك شيء كهذا في العالم؛ فليس هناك إلا للناس وما يصدر عنهم من أحداث كتابية وصوتية مختلفة. ومع أن هذه النقطة واضحة جداً إلا أن من السهل أن ننسأها" (Davidson 1990b). كما يرى أغلب فلاسفة اللغة - وبالقدر نفسه من الفصوح - أن "هناك" أشياء في العالم كالكلمات، بل هناك "لغات عامة، مشتركة" - كالصينية والألمانية، وغيرهما - ونحن نفهمها، كما يرى بعض الفلاسفة، "فهماً جزئياً، بل فهماً جزئياً خاطئاً" (Dummett 1986: 468). ويرى هيلاري بتيام، من بين آخرين كثير، أن هذا الزعم حقيقة تماثل في وضوحها وصوح نفي ديفيدسون لها، إضافة إلى بعض الحقائق الواضحة بالقدر نفسه عن الأشياء في العالم مما تشير إليه العبارات الاسمية بشكل حر إلى حد بعيد، كما يبدو، لهذا يحوي العالم أي شيء يمكن أن نحيل إليه على أنه شيء بعيننا أو نزعجنا، ويشمل ذلك المراجع التي لا نعرفها ونزعم أن الكلمات تشير إليها (Davidson 1990b; Putnam 1992, 1998a).<sup>(1)</sup>

وهناك موقف ثالث يرى أنه قلماً تكون النتائج عن مثل هذه الأمور واضحة، يجب أن نكتشف الإجابات عن كل حالة على حدة، كما تتطلب

الأسئلة صياغة أكثر عالية في المقام الأول. ويسعى للعالم الإثني إلى اكتشاف ما يطر إليه الناس على أنه مكونات للعالم، مهما كانت الطريقة التي ربما يتكلمون بها عنه. ويسعى نوع مختلف من البحث نحو فصل نظرية عن اللعبة واستخدامها، والحالات والصلوات والبنى التي تدخل فيها.

وتبرز هذه الأسئلة في أكثر الحالات بساطة، كالأشياء التي يمكن تسميتها، والأشياء الطبيعية، والمواد المصنوعة، والأفعال، إلخ. فلما أخذ الشيء الذي أمامي على أنه مكتب، لكن يمكن أن أضع بأنه سرير صلب لقرم أخطأت في استخدامه مكتبا؛ وذلك أمر مرده إلى مقصد المصمم والاستخدام المألوف. فلما أخذه، من زاوية، على أنه الشيء نفسه مهما كانت الإجابة؛ ومن زاوية أخرى، أخذه على أنه شيء مختلف. والعوامل التي تدخل في مثل هذه الاختيارات متنوعة ومعقدة. فلما أخذ محتوى كأس موضوع أمامي على المكتب على أنه شاي، لكن لي أخبرت بأنه جاء من صندوق بعد أن مر عبر مصفاة شاي موضوعة عند مصدر الماء، فإني أستنتج أنه ماء حقيقي، لا شايا (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). ومرة أخرى، فهو الشيء نفسه عندي في أي الحالتين، من زاوية، لكنه شيء مختلف، من زاوية أخرى. وليست بعض الأعداد التي أمر بها في الطريق شيئا إطلاقا، إلا أن قيل لي إنها وضعت عن قصد لتكون نوعا لشيء ما، بعض النظر عن أن كل الناس هم الذين وضعوها أم وضعها حيوانات البيفرز: فتعتمد ماهية الشيء ونوعه على التكوينات المحددة للاهتمامات البشرية، والمقاصد والأهداف والأفعال؛ وهي، في أحد أشكالها، ملحوظة قديمة قدم أرسطو. وربما كانت الحال أني هي مثل هذه الحالات لا أعير من معتقداتي عن مكونات العالم تبعاً للتعبير الذي يعرض لتعريفات الأشياء - ويعني هذا، في نوع "العلم الشعبي" عندي، أن الوحدات التي تحمل حاسوبي، ويمثل بها للكأس، وأمر بها في الطريق، تظل كما هي باستقلال عن التفسيرات، وهي التي تضعها في علاقات غير متوقعة مع التصميمات، والمقاصد، والاستخدامات، والأهداف.

وربما يتمكن، مع التقدم في دراسة الملكة اللغوية والأنظمة الإدراكية الأخرى، من فهم المعايير التي ربما أطرت صورة العالم عندى في ضوء الأشياء التي عيشتها وأفرقتها خصائص المعجم لدى، أو ربما تدخل في هذه الصورة] وحدت وعلاقات يمكن وصفها بموارد الملكة اللغوية. وتبدو بعض الخصائص الدلالية كأنها تتصل فعلاً اتصالاً محدداً باللغة، وتتطور بوصفها جزءاً منها، وتندمج اندماجاً وثيقاً بمظاهرها الأخرى، بل تمثل بطرق طبيعية في بنائها الصرفية والتركيبية. وربما تعين كلمات اللغة بعض المواضع في أنظمة الاعتقاد، وهي التي تزيد من غنى المنظورات المعقدة التي تستخدمها في النظر إلى العالم. وربما لا تقدم بعض الكلمات، خاصة تلك التي تفكر إلى بنى علاقة دلالية، أكثر من ذلك، ومنها على الأخص "الكلمات التي تسمى الأنواع الطبيعية"، وإن كانت هذه العبارة مضللة، إذ ليس لهذه الكلمات علاقة بالأنواع الموجودة في الطبيعة. وبلاحظ أكل [عقيل؟] بيلجرامى، لم يرفضه للأفكار المشكوك فيها عن الاعتماد الإحالي، أن تحليل الموارد المعجمية في ضوء "منظور المنفذ اللغوي عن الأشياء" a linguistic agent's perspective on things، يقود بطريقة طبيعية إلى الربط بين دراسة المعنى و"أمور مثل الاعتقادات بوصفها تتوسط بين الأشياء في العالم الذي نقف معه في علاقات سببية" وبين فكرة "المعالجة الجبرية أو السياقية" للمضمون الذي طوره في رفضه لمجمل التفكير الحالى الذى يُصنّف المضمون إلى واسع وضيق". وتبدو هذه التوجهات مثمرة وتستحق أن تبحث (انظر Bilgrami 1993: 62؛ وانظر عن كلمات الأنواع الطبيعية Bromberger 1992a).

ولمست دراسة الموارد الدلالية للملكة اللغوية علماً إثنياً، كما ينبغي أن يميز المشروع على كلاهما - بالطبع - عن البحث العلمى الطبيعى من حيث مدى الموضوعات التي تتناولها اللغة الطبيعية ويتناولها العلم الشئى بطرقها الخاصة. وهذه الملاحظة بديهية في حالة سقوط التفاح، وتوجه البيانات نحو الضوء، وتصويب الصولريخ نحو السماء؛ فلا يتوقع أحد ما لـ

تدخل اللغة العادية أو العلم الشعبي في المحاولات التي تتبنا الوصول إلى فهم بطري للعالم، وراء النقاط الحتمية التي ينطلقا منها. وفي مقابل ذلك، يعد مشكلة خطيرة أن تحدد إن كان الكلام الذهني والوحدات الذهنية مستقفا، في نهاية الأمر، مكانتها في محاولتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33). والاعتقاد بأن الكلام الذهني والوحدات الذهنية مستقفا مكانتهما "تزرعة إقصائية" أو "زرعة مادية إقصائية"، يصفها بيرج بأنها تدار عريض ضيق الجهود التي تسعى لجعل لفظة علمية؛ وربما تكون هذه الدعوى خاطئة، لكنها مهمة.

أما لماذا هي مهمة فغير واضح. فلذا استبدلنا "فيزيائي" بـ "ذهني" في هذه الدعوى مستقفا أهميتها؛ ذلك أن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" فقدت، منذ زمن بعيد، مكانتها في محاولتنا وصف العالم وتفسيره؛ إن عينا بـ "النقاش الفيزيائي" و"فيزيائي" معاهيم الخطاب العام أو العلم الشعبي، وعينا بـ "محاولات وصف العالم وتفسيره" البحث العلمي الطبيعي. فلماذا يجب أن يتوقع شيئا مختلفا عن "النقاش الذهني والوحدات الذهنية"؟ ولماذا يجب، مثلاً، التراض أن علم النفس يسعى لمسئل بعض الأحكام البديهية العامة عن النشاطات الذهنية للناس، وتعميقها وتعميمها وتكميلها" (Burge 1986a: 8)<sup>(1)</sup>. مع خلو الكيمياء وعلوم الأرض والأحياء من أي اهتمام مماثل. فلا يتوقع أحد أن يكون للكلام العادي عن الأحياء التي تحدث في "العالم الفيزيائي" صلة خاصة بالنظريات العلمية الطبيعية؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. ولم ينظر إلى هذه الحقائق على أنها تثير مشكلة الجسد - الجسد، ولم يقترح أحد دعوى لـ "الزرعة الشذونية لما يكون فيزيائياً" من أجل التعامل مع هذه الحقائق. لذلك يجب أن يكون الشيء نفسه صادقاً عن أحكام مثل:

John speaks Chinese.

"يتكلم جون الصينية".

لو: John took his umbrella because he expected rain.

أخذ جون مظلاته لأنه توقع المطر.

— مع أننا ربما نأمل، في الحالات كلها، أن يكون باستطاعة العلم أن يقود إلى شيء من الفهم والتبصّر في المجالات التي فتحت أبوابها مظاهرات للبحث التديهيّة.

ولا يبدو أن هناك أساساً لأية مشكلة للذهن — الجسد هنا ولا سبباً للشك في دعوى ديبينسون التي مفادها أنه لا توجد قوانين نفسية فيزيائية تربط الأحداث الذهنية بالأحداث الفيزيائية في منظومة تفسيرية ملائمة؛ ولأسباب مماثلة، ليس هناك قوانين "فيزيائية" — فيزيائية — تربط الكلام العادي عن الأشياء بالعلوم الطبيعية، حتى إن وقعت الأحداث المعينة الموصولة في مدى ما يمكن أن نصّعه [العلوم الطبيعية]. ولا يبدو التمييز بين المظاهر الذهنية للعالم ومظاهره الأخرى مسوغاً، بهذه المعايير، إلا من زاوية واحدة هي: أن فهمنا النظري للغة والذهن والناس عموماً على درجة كبيرة من الضحالة، إلا في بعض المجالات المحدودة، وهو ما يجعلنا مقصورين على استخدام مواردنا الحدسية في التفكير عن هذه الأمور والكلام عنها.

وليس ذلك أن الخطاب العادي يُخفق في الكلام عن العالم، أو أن الأشياء المحددة التي يصفها غير موجودة، أو أن تحليلاته ليست دقيقة جداً. أما السبب، بدلاً من ذلك، فهو أنه ليس من حاجة أن يكون للمقولات المستخدمة والمبادئ المفروضة نظائر تقريبية في البحث العلمي الطبيعي. ويصح هذا حتى في أجزاء الخطاب العادي التي لها طابع شسبيه بالطابع العلمي الطبيعي. فلا تهتم الكيمياء بالكيفية التي يقرّر بها الناس إن كان شيء ماءً أو شايًا. وليس هدفًا ضروريًا للكيمياء الحيوية أن تقرّر النقطة التي تبدأ عندها "حقيقة الحياة" هي مسار الانتقال من العازات البسيطة إلى البكتيريا، إن

فرصاً مثل هذا للتصنيف، ولن يكون تماثل ذلك مع الأفكار السببية أكثر من تماثله في حالة أفكار كـ "السماء" و "الطاقة" و "صَلْب". أما إن كل الاستخدام العادي [للمصنف] يُصنّف الفيروسات بأنها "حية" أم لا فليس من الأمور التي تلت طر علماء الأحياء، الذين سيصنفونها بالطريقة التي يرغبونها في ضوء الظروف التي نتحكم في قيامها بوظيفتها. ولا يمكن أن نحكم إلى الاستخدام العادي في تقرير إن كان فرانسا جاكوب مصيباً في قوله إن "الحياة لا تبدأ، عند علماء الأحياء، إلا بما يكون قادراً على تأسيس برنامج وراثي" (Jacob 1974: 304)، مع أن "من الاعتباطي في علم الكيمياء، بالمقابل، رسم حدٍ حيث لا يوجد إلا استمرار وحسب". وبالمثل، لا بدخل التصور "بشر"، بما ينصف به من خصائص غريبة للاستمرار النصي، في العلوم الطبيعية، وتحاول النظرية التطورية والفروع الأخرى لعلم الأحياء أن تفهم "جون سميت" ومكانه في الطبيعة؛ وإن لم يكن ذلك تحت وصف "بشر" أو "شخص" كما نفهمهما في اللغة والفكر العاديين. وهذه الأفكار مهمة لعلم دلالة اللغة الطبيعية والعلم الإنساني، لكنها ليست كذلك لفروع علم الأحياء البشرية التي تسعى لفهم طبيعة جون سميت وأفراد النوع الذي ينتمي إليه لو لما يفرقهم عن القردة والنباتات (من أجل وجهة نظر معاكسة عن هذه الأمثلة، انظر Putnam 1992).

وتسير العلوم الخاصة بطرقها الخاصة بها كذلك. وإذا استعربا المثال الذي ناقشه جيرى فودر عن نهر متعرج يجرف شاطئيه، فلا تشغل علوم الأرض بالظروف التي يأخذ الناس في ضوئها النهر على أنه النهر نفسه إن عكس اتجاهه أو وجهه وجهة أخرى، أو حين يأخذون شيئاً يبرز من البحر على أنه جزيرة أو جبل نو قاعدة مائية. وينبغي أن نتوقع الشيء نفسه عن أفكار مثل "لغة" و "اعتقاد" والكلمات التي تنتمي إلى المجالات الدلالية نفسها في اللغات المختلفة والثقافات المتنوعة.

وينظر إلى العلوم الطبيعية المعينة عموماً على أنها غالباً أدوات



مصطنعة وأشياء متواضع عليها رغبة في السهولة، ولا يتوقع أحد أن يفصل الطبيعة على مقاييس قولها، وتعلق قرائسوا جلكوب [عن هذا] بمطى. وملاحظته ليست خلاقية عن "العلوم الصحيحة"، لكنها قوبلت باعتراضات قوية في حال اللغة. فقد كان هناك نقاش مصطنع عن الموضوع الذى تشغل به اللسانيات "حقيقة"، وعن أصناف المادة الأولية التى يُسمح لها أن تنسب بها. ورسم فارق بين "الدليل اللغوي" الذى يُعدّ ملائمةً "اللسانيات"، والدليل "النفسى" وأنواع أخرى من الأدلة غير الملائمة لها. وهذه النقائش التى يمكن أن نجدتها في الحقول البحثية ذات الصلة كلها غريبة عن البحث العلمى الطبيعى. فلا تأتي لية ملحوظة لختبارية معطمة بشعار مكتوب على كُتها يقول ("بنى أصلح لـس")، حيث تكون "س" إما الكيمياء أو اللسانيات أو أى علم آخر. ولا يسأل أحد إن كانت دراسة جزئية معتد ما تنتمى إلى الكيمياء أو إلى علم الأحياء، كما يجب ألا يسأل أحد إن كانت دراسة التعبيرات اللغوية وخصائصها تنتمى إلى اللسانيات أو علم النفس أو علوم الدماغ.

وليس بإمكاننا أن نعرف مسبقاً أنواع الأدلة التى يمكن أن تكون مهمة لهذه المسائل. لهذا نقترح بعض الأبحاث الحالية أنه ربما تقدم دراسات النشاط الكهربائى للدماغ دليلاً مهماً لها، وهى استحالة تصويرية كما يرى قسم كبير جداً من الأبحاث المتخصصة، كما نقترح [هذه الأبحاث] بعض المتطلبات الخلاقية الغريبة، نحو: احتمال أنه ربما توفر دراسات الإزاحة الإدراكية للطقطقات دليلاً عن حدود المكونات التركيبية، فى حين لا تعد الملحوظات عن السمات العائدة فى اليلانية التى تقدم دليلاً أقوى، اعتماداً على أسس علمية طبيعية، دليلاً على الدعاوى الواقعية بسبب شكل خطير من أشكال عدم التحديد (انظر مثلاً، Quine 1987). أو أنه ينبغي أن نكتفى — بل ربما أن نهتم — بـ "وجهة نظر الجدات" [الكلام العام غير المتخصص] عن المجال الذى تهتم به اللسانيات، مع أنه ربما لا يكون هذا الموقف مقبولاً فى حال الكيمياء (Devitt and Sterelny 1989). أو أنه لا يمكن من حيث المبدأ

استخدام دراسات عمليات التحليل والاكتساب والأمراض والجروح والتنوع الوراثي وغيرها دليلاً على وجود عناصر التمثيل اللغوي ومكانتها (Soames 1989)، على الضد مما يراه اللسانيون الممارسون منذ زمن بعيد؛ كابن ورد سابير وروملي ياكوبسون في الأبحاث الكلاسيكية، أو في الدراسات التي أبحرت مؤخراً عن آثار التداعي priming<sup>(4)</sup> في تحليل الكلام ومقتضياته بشأن العناصر التي لا تنطق. وتُعكس هذه التوجهات كلها شكلاً من الثنائية، أي الإصرار على أنه يجب ألا نعمل مجال "الدهى"، أو المجال اللغوي في الأقل، بالصورة التي نعمل بها المظاهر الأخرى للعالم.

وتتبنى الثنائية المنهجية أحياناً صراحة، أو هكذا يبدو. انظر إلى دعوى مايكل دوميت عن أن التفسيرات العلمية تقتصر عن التفسيرات الفلسفية لأسباب تصورية. لناخذ المثال الذي أورده، ونفترض أن مقارنة علمية طبيعية للغة نجحت إلى حد يفوق ما نحلم به. افترض أن هذه المقاربة وفرت لنا تفسيراً دقيقاً لما يحدث حين تتأثر موجات صوتية الآن ثم تطل، ثم دُمجت هذه المقاربة بشكل تام في نظرية علمية عن الحدث، وحلّت مشكلة التوحيد، وأدى ذلك إلى إلحاقها بالنظريات عن الخلية والعمليات الحوسبية. سيكون لدينا، حينئذ، نظرية ناجحة عما يُعرفه جونز حين اكتسب لغة ماء، أي: ما يُعرفه عن السجع، والاقتضاء، والاستخدامات اللغوية الملانعة للمساكنات، إلخ. لكن بغض النظر عن مدى النجاح الذي حققته هذه الاكتشافات فربما، كما يقول دوميت، "لا تُضيف شيئاً إلى الفلسفة"، التي تتطلب جواباً عن سؤال مختلف، وهو سؤال لا يتعلق بالكيفية التي تُخزن بها المعرفة وتُستخدَم، بل بكيف أُدبِتْ. لذلك فيكون التفسير العلمي الطبيعي "فرضية" بعبارة، لا تفسيراً فلسفياً، ذلك أنه لا يبين لنا الشكل الذي أدى به [جسم المعرفة] (Dummett 1991, 1993: xi). أما في العلوم فيقول لنا هذا التفسير كل شيء يمكن أن يُسأل عنه فيما يخص الشكل الذي أدبِت به المعرفة، أما الفلسفة فتتطلب نوعاً من التفسير لا يعرفه البحث العلمي الطبيعي.

ويبدو كأن الفلسفة، حين نفهم بالطريقة السابقة، تستعد جزءاً كبيراً من جوهر الفلسفة التقليدية. ومن ذلك قطعة هيوم، مثلاً، الذي كان يهتم بـ "علم الطبيعة البشرية"، وسعى إلى اكتشاف "المنابع الخفية والمبادئ التي تحفز ذهن البشري في أثناء تنفيذه للعمليات التي يقوم بها" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٤، القسم ٩)، ومنها تلك "الأجزاء من معرفتنا التي أتت من اليد الأصلية للطبيعة" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٠٨، القسم ٨٥)، وهو مشروع كان يقاربه بمشروع بيونن. ولو حقق هيوم هذه الأهداف لكان قد أسس قرصيات نفسية، في ضوء مصطلحات دوميت، لكنه لن يكون قد أضاف شيئاً إلى الفلسفة. ذلك أن "التفسير الفلسفي" يتطلب شيئاً أبعد من اكتشاف "المنابع الخفية ومبادئ" ذهن وكيفية أدائها لوظائفها.

ويدخل في التفسير الفلسفي بصورة حاسمة، إن كنت فهمت ما يقوله دوميت، التفتاد إلى الشعور. تخيل إن مخلوقاً مريخياً يشبهنا تماماً إلا أنه ربما يكون واعياً بالكيفية التي تحفز بها ذهنه في أثناء قيامه بالعمليات التي يُنفذها. وحين نسال المخلوق المريخي عن إن كان يتبع قواعد الصوتية في صياغته للسجع، أو الشرط B في نظرية الربط العامل لتحديد الربط الإحالي، لسيتأمل ثم يقول (حقاً): "نعم، هذا ما أقوم به فعلاً" - وهو ما بمائل، افتراضاً، ما نقوم به أنا وأنت تماماً. وسيكون لدينا، في حالة المخلوق المريخي، تفسير فلسفي؛ وسنقوم الشكل الذي أدت به المعرفة، ويمكن أن نعزو له معرفة بطريقة مسوغة. لكن هذا لن يعني أننا نجحنا في الوصول إلى "تفسير فلسفي" وإلى عزو للمعرفة للبشر الذين يعملون بالطريقة التي يعمل بها المخلوق المريخي تماماً، وإن بخير وعي. وربما يُسمح لنا، كما يصوغ كوين وجون سيرل وآخرون الأمر، أن نقول إن المخلوق المريخي يتبع قواعد وهي توجهه، أما البشر فلا يمكن وصفهم بمثل هذه المصطلحات. ولتقادي المقتضيات المضادة للحس وجهاً لوجه يُصرّ سيرل أيضاً على مفهوم "النقاد من حيث المبدأ" الذي ظل غامضاً تماماً (انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب)

فهل هذه الاقتراحات جوهرية أم أنها لا تعدو أن تكون قضية مصطلحات؟ أرى أنها من النوع الأخير؛ ذلك أني لا أرى القضية الجوهرية التي تبرر هذا وربما يضاف أن هذه الاقتراحات تغرق بشكل جوهري الاستخدام العادي، بغض النظر عما لذلك من قيمة؛ فحين نقول في الاستخدام غير التقني إن حبيبتي تتبع قواعد صياغة الفعل الماضي القياسي وبعض الأفعال غير القياسية حين تقول:

I rided my bike and brang it home.

"ركبت دراجتي وأحضرتها إلى المنزل"

إصياغة الفعل ride في الماضي بصورة قياسية، بدلاً من تصريفه المألوف فعلاً شاذاً، وصياغة الفعل brng في الماضي بشكل يختلف عن صيغة ماضيه المعهودة [brought].

مع أنه لا يمكن للشعور النعاذ إلى هذه القواعد عند الأطفال أو البالغين، مثلما أنه لا ينفذ إلى تلك القواعد التي يرى كوين وسيرل وآخرون أنه لا ينبغي إليها. ويكاد التصور "التجنيشتاني" لاتباع القاعدة في ضوء معايير الجماعة اللغوية عند سول كريك يكون متمماً للاستخدام العادي، الذي يعزو في العادة سلوكاً موجهاً بالقاعدة في حالات الشذوذ اعتماداً على معايير كهذه، كما في المثال الذي أوردته آنفاً. لكن السامع وحده، بالمقابل، هو الذي ربما يقول إن حبيبتي تتبع قواعد نظرية الربط العلمي، متماشية مع الجماعة اللغوية التي تنتمي إليها (بل مع الجماعة اللغوية البشرية، على أكثر الاحتمال).

ونحن نقع، في دراستنا للمظاهر الأخرى للعالم، بحجج "أفضل النظريات"، كما أنه ليس هناك صنف مميز من الأدلة يوفر معايير للصياغات النظرية. إلا أن النظرية العلمية الطبيعية لا تكفي في دراسة اللغة والذهن [كما يقول هولاء]، فيجب أن نتحدث عن "تفسيرات فلسفية" ترسم حدود البحث

في صوء معيار مفروض ما، وتوجب تأسيس الافتراضات النظرية على أصناف من الأدلة يختارها الفيلسوف، وتعتمد على أفكار كـ "النقاد من حيث المبدأ" الذي لا مكان له في البحث العلمي الطبيعي، ومهما عناه هذا كله فليدنا هنا مطلب يتجاوز المقاربة العلمية الطبيعية، وهو شكل من الثنائية ما يزال بحاجة إلى تفسير وتمويغ.

وتسوع المتطلبات الفلسفية أحياناً بمشكلات الخطأ وبمعرفة المتكلم الواقعة. فستنتج باري سميث، في دفاعه عن موقف لا يختلف كثيراً عن الموقف الذي بيّنته هنا، أن هذا الموقف ما يزال قاصراً عن "أن يكون تفسيراً فلسفياً مقنعاً" لهذه الأسباب؛ فهو يُحقق في أن "يبيّن لنا ما الذي يُعد استخداماً صحيحاً للكلمات، أي استخدامها في صوء بعض الأنماط المعيارية المعينة للاستخدام اللغوي"، ويحقق في تفسير معرفتنا الواقعة بتركيب لغتنا ومعناها. لهذا فـ "البحث الفلسفي... ضروري لإكمال المشروع بشكله العام"، وهو عمل يتجاوز "علم النص العلمي" (ويشمل ذلك اللسانيات الداخلية) (B. Smith 1992: 134-135).

وليس هناك مسوغ لهذه النتائج، في رأيي. دعنا نحصن أحد الأمثلة النمطية. افرض أن بيتر، وهو متكلم عادي للغة الإنجليزية، يقول:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبه"

فأنا أستنتج من هذا أنه يقصد أن يحبل إلى شخصين مختلفين: أحدهما جون، والآخر شخص ثانٍ يشار إليه بالضمير him "ضمير العائب المفعول". أما إذا نصح بيتر التعبير نفسه في سياق مثل:

Guess who-----

"تحيل من -----"

مما ينتج عنه قوله:

Guess who John expects to like him.

تخيل من يعتقد جون أنه يحبه\*.

فلا أعرف إلى كلن يقصد أن يحيل إلى جون وحده أم لا. ولا تعتمد  
him إحيائياً على John في الجملة:

John expects to like him.

يتوقع جون أن يحبه\*.

أما في:

Guess who John expects to like him.

فلاحتمالات مفتوحة. وهناك تفسير جيد لمثل هذه الحقائق في ضوء  
نظرية لسانية داخلية، ونفسها بـ T "ن" [نظرية].

افرض أن "ن" صانقة عن المخلوق المريخي وعنا نحن. فـ يمكن  
للمخلوق المريخي أن يُخبرنا أنه يحلص إلى هذه النتائج انطلاقاً من "ن"، التي  
يمكن أن يدركها بل يتكلم عنها كذلك؛ أما أنا فلا أستطيع ذلك، مع أنني  
أتصرف مثله تماماً. ولما كان المخلوق المريخي ينفذ شعورياً إلى القواعد  
التي يتبعها، فهناك من يميل إلى الظن بأن لدينا الآن تعديلاً لكون المخلوق  
المريخي "واقفاً من غير مشقة" بالحقائق التي وصفناها هنا بطريقة غير تقنية؛  
أما التعليل العلمي الطبيعي الداخلي فـ "يجعل ثقة المتكلم هذه" أمراً محيراً  
أو "أحجية محصنة" في حالة بيتر، ويتشكك كريستين رايت في أنه إن كان  
بيتر لا يتمتع بالنفاذ الشعوري الذي يتمتع به المخلوق المريخي فكيف يمكن  
له أن يفهم. . . . تعبيرات معينة، كالتعابير التي أوردناها، مثلاً، التي يكون  
بشأنها "واقفاً من غير مشقة" (Wright 1989: 236). ويقترح رايت أن  
مشروعه ملحق ضروري لما يراه تشومسكي.

هـب لنا وضعا الأمر بشكل مختلف. أى أن نوع التعليل الذى يمكن أن  
يقم اليوم، ومنه "ن"، أن يجعل [ثقة المتكلم] أحجية، وإن ترك، فعلا،  
أحجية، عن المخلوق المريحى ويبتدئ كليهما. ذلك أن لدينا الآن تعليلا،  
لكليهما، يتمشى مع شروط الطم (إن تركنا أسئلة الدقة والوصوح جاسا)،  
لكنا نعثر إلى أى قدر من الفهم العميق لطبيعة الشعور، وهو أمر لا صلة له  
بفصيلة اتباع القاعدة وثقة المتكلم، وإن كل مهمما بنفسه.

فيستعمل بيتر قواعد "ن" لأن هذه هي الطريقة التى كون بها، وهو ما  
يشبه تماما كونه يرى الشمس تغرب والأمواج تتسارع لتضرب الصخور؛  
وتستغرق هذه الحقيقة ثقة المتكلم لديه استغراقا كاملا. أما ما يسميه بـ  
"الخطأ" فهناك أنواع كثيرة محتملة منه؛ إذ ربما يحالف بيتر معيارا خارجيا  
ما — فيستعمل disinterested ليعنى uninterested، أو يستعمل لهجته  
المحلية فى محاضرة رسمية. ويمكن أن يخالف القواعد مختارا، كان يستخدم  
كلمة "كرسى" ليعنى "طولة" فى نوع كلامى معين — مع معرفته بأن هذه  
الكلمة فى لغته تعنى "كرسى". وهو يستعمل فى عمله ذلك ملكات ذهنية  
تتجاوز المنكة اللغوية. وربما يسىء تأويل تعبير ما، فيعطى نظامه الأدائى  
تأويلا مختلفا عن التأويل الذى يفرضه لغته الداخلية؛ وهناك أصناف مشهورة  
من هذه الحالات، وقد نرست بشكل مثير. ويبدو، حين نستعرض احتمالات  
أخرى، أن ليس هناك حدود مماثلة فى علم النص الداخلى.

ويستعمل باحثون آخرون مصطلحات مختلفة لما يبدو كأنه الأمر نفسه؛  
لهذا يحاج توماس ناجل، مثلا، أن ما نصفه نظرية علمية طبيعية كاملة عن  
اللغة واستخدامها واكتسابها ليس "آلية نفسية" بل "آلية فيزيائية" وحسب —  
ذلك أنه لا يمكن أن ينشأ عن هذه الآلية فكر ذاتى واع يتكون مصمونه من  
تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). ويكمن الفارق الحاسم، مرة أخرى،  
فى البعاد إلى الشعور من حيث المبدأ. وتبدو هذه الحجة شبيهة بحجة بوميت،  
وإن استخدمت مصطلحا مختلفا؛ حيث يحل مصطلح "نفسى" بدلا من

"فلسفي". وتزيد مشكلة فهم "الغاذ من حيث المبدأ" و"مضمون الفكر"، هنا، من غموض فكرة "الآلية الفيزيائية"، التي كان لها شيء من المعنى في الفيزياء قبل سوتن، لكن لم يعد لها معنى منذ ذلك الحين.

وإذا لم نقفم لنا فكرة جديدة لـ "الجسد" أو "المادى" أو "الفيزيائى"، ظن يكون لدينا أى تصور للمقاربة الطبيعية يختلف عن المقاربة الطبيعية المسيحية، ويحيل الاستخدالم الأكثر مواضعة إلى مذهب مختلف، أى إلى "المقاربة الطبيعية الخيبية" التي يصفها بيرج بأنها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" في السنوات القليلة الماضية (Burge 1992: 32)؛ وتتصل في أنواع أخرى: كالمقاربة المادية، والمقاربة الفيزيائية، والمقاربة الإحصائية، وتطبع الفلسفة [إدخالها ضمن البحث العلمى الطبيعى]، إلخ. لكنه لا يمكن فهم هذه المذاهب إلا حين يُحدّد مجال الفيزيائى بصورة ما.

وبصوغ دانييل ديبيت هذا المذهب، وهو أحد أبرز المدافعين عنه، كما يلي: يرى "إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية"، الذي يصفه بأنه "أحد أسعد التوجهات في الفلسفة منذ الستينيات"، أنه "يجب أن تكون التعليقات الفلسفية لعقولنا ومعارفنا ولغتنا في نهاية الأمر متماشية مع العلوم الطبيعية أو متلائمة معها". ويورد بالدوين، في نقاشه للمقاربة الطبيعية المعاصرة، هذه المقولة لتبيين دعوى "المقاربة الطبيعية الخيبية" (T. R. Baldwin 1993)، مستشهداً بالمقدمة التي كتبها ديبيت لكتاب روث ميليكان Ruth Millikan عن هذا الموضوع). وتشير هذه الصياغة، كالصياغات الأخرى، ببعض المشكلات. فما "التعليقات الفلسفية" بشكلها المختلف عن التعليقات الأخرى، بهذا المعنى للفلسفة "المُدخلة في العلوم الطبيعية"، خاصة؟ ثم ما العلوم الطبيعية؟ ومن المؤكد أنها ليست ما نفهمه اليوم [على أنه علوم طبيعية]، التي ربما لا تكون "متماشية ومتلائمة" مع الفيزياء في المستقبل. أهى صورة مثالية موحية بيرية [نسبة إلى بيرس]؟ ربما، ولا يبدو هذا الاقتراح واعداً. وما الذي يمكن أن يحصله فذهن البشرى في الحد الأقصى؟ وهذا



موضوع محتمل للبحث في الأقل، لكنه يتركنا في وضع أكثر سوءاً في السياق الحالي. أما إن فهمت "المقاربة الغيبية" على أنها أمل في التوحيد المستقبلي للدراسة الذهني مع الأجزاء الأخرى للعلم، فلا يمكن لأحد أن يعترض، لكنها دعوى لا تلتفت النظر إلا قليلاً، بدلاً من كونها "أحد التوجهات السعيدة في الفلسفة".

نظر إلى شكل هذا المذهب بالصيغة التي عثر عليها كوين (الذي يصفه بيرج بأنه ينبوع المحافظة المعاصرة). فدعوى إبحال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية في آخر صياغاته لها، هي "للعالم كما يقول العلم الطبيعي إنه كذلك، على حد ما يكون العلم الطبيعي صحيحاً". لكن: ما "العلم الطبيعي"؟ وكانت إجابة كوين الكاملة أنه "تطبيقات الكواركات وما يشبهها" لوكواركات أصغر مكونات المادة. لكن ما الشبه الكافي؟ وهناك إشارات إلى بعض الإجابات الممكنة لكنها تبدو اعتباطية تماماً، في ضوء المعايير العلمية الطبيعية المألوفة في الأقل (Quine 1992) للاطلاع على نقاش أوسع، انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

هب أننا عرفنا مشكلة الدهن - الجسد (أو ربما جوهرها) بأنها مشكلة تفسير الكيفية التي يتصل بها الشعور بالبنى الأعصابية. فإذا كانت كذلك، فيبدو أنها مماثلة تقريباً للمشكلات الأخرى التي برزت طوال تاريخ العلم، وهي التي تبقى من غير حل أحياناً، ومنها: مشكلة تفسير حركة الأشياء الأرضية وحركة الكواكب في ضوء "الفلسفة الآلية" وآليات التماس فيها، وهي المشكلة التي بين نيوتن أنه لا يمكن حلها، وأمكن التغلب عليها باقتراح ما كان يفهم على أنه قوى "غير مادية"؛ ومنها مشكلة احتزال الكهرباء والمغناطيس إلى الآليات، التي لا حل لها، ولم يُتغلب عليها إلا باقتراح أكثر غرابة يتمثل في أن المجالات [الكهربائية والمغناطيسية] أشياء فيزيائية واقعية؛ ومشكلة احتزال الكيمياء إلى عالم الجسيمات الصلدة في حالة حركة، والطاقة، والموجات الكهرومغناطيسية، التي لم يُتغلب عليها إلا باقتراح

فرصيات أكثر غرابة عن طبيعة العالم الفيزيائي. وقد أمكن تحقيق التوحيد، في كل حالة من هذه الحالات، وحُلَّت المشكلة لا بالاختزال، بل بأشكال مختلفة جدًا من التكيف. بل يكاد اختزال علم الأحياء إلى الكيمياء الحيوية يكون شكلاً من الوهم، لأنه لم يحدث إلا بعد سنين من توحيد الكيمياء وعلم الفيزياء الجديد المختلف اختلافاً جذرياً [عن علم الفيزياء القديم].

وتختلف هذه الأمثلة حقاً عن مشكلة العلاقة بين الشعور ولفظ من وجه واحد مهم: فقد كان بالإمكان صياغة نظريات معقولة بعيدة جدًا عن السطحية عن تلك الظواهر العصبية على الاختزال، أما في حالة الشعور فيبدو أن التقدم الذي حققناه لا يتجاوز وصف الظواهر والتمثيل لها (وربما لا يتفق أتباع فرويد وبونج وآخرون مع هذا الرأي). ولوصح ما يكون هذا الأمر في حال اللغة. فيتضمن الاستعمال العادي للغة مظهرًا إبداعيًا وفكرًا، في نظر أتباع ديكرت، لفصل دليل على وجود العقول الأخرى. ولا يمكن ربط الخصائص الحوسبية للملكة اللغوية ولا المظاهر الإبداعية اللغوية للنظر في استخدامها بأي شيء معروف عن الخلايا، لكن الموضوعين يختلفان في أن هناك نظريات تفسيرية معقولة للخصائص الحوسبية، أما المظاهر الإبداعية لاستخدام اللغة فليس لدينا إلا وصفها والتمثيل لها، وإذا كان الأمر كذلك فلا تتمثل القضية الجوهرية في عدم العاكسية للاختزال الحقيقي أو الوهمي، وهي ظاهرة مألوفة في تاريخ العلم، بل تتمثل في أنه ليس بمقدورنا إلا الوقوف حائرين أمام بعض مظاهر لفظنا كالشعور والتعبير عن الفكر الذي يتسم بالتعقيد والملازمة لكنه ليس مدفوعاً بسبب، وهذه سمة معهودة من سمات المشكلات الجوهرية في الفلسفة، كما يحاج كولن مساجن (Colin McGinn 1993).

بصاف إلى هذا، أنه إلى جانب أن الاختزال بمعناه الحرفي لا يكاد يعرف في مسار العلم نحو التوحيد، فليس مؤكداً إن كان له معنى أصلاً بوصفه مشروعاً بحثياً. فقد كتب سيلفان شوير أن الأبحاث الأخيرة في

فيرياء المادة المكثفة، التي خلقت ظواهر كالقوة التوصيلية الفائقة superconductivity تتصف بأنها "بدع حقيقية في الكون" (Schweber 35، 1993) بعثت أيضاً للشكوك المبكرة عن إمكان اختزلها إلى "ما يكاد يكون لدعاء يُرهن عليه بشكل دقيق"، وهو ما يؤدي إلى تصور "القوانين الناشئة" بمعنى جديد (ص ٣٦). وبغض النظر عن إن كانت هذه النتيجة صحيحة أم لا، فالواضح أنه ليس لدى المذاهب الفلسفية ما نقوله عنها في الأقل؛ وهي تقول أقل من ذلك عما يخص مجالي الدهن والدماغ، اللذين يقل فهمنا لهما عن ذلك بكثير.

وتتبع المقاربة العلمية الطبيعية ببساطة مسار ما بعد نيوتن، مُدركة أنه ليس بإمكاننا أكثر من السعي نحو أفضل تحليل نظري لظواهر التجربة والتجريب، بغض النظر عن الاتجاه الذي يقود إليه هذا السعي.

ونتوقع، كالحال في فروع العلم الأخرى، أن نترك تصورات الفهم البديهي وراعتنا، ولناخذ مثلاً فطياً، وهو حالة امرأة تدعى "لورا" نرسها جينى يامادا، فتبدو قدراتها اللغوية كأنها سليمة، لكن قدرتها الإدراكية والذرية محدودة، وهي تعرف عدداً كبيراً من المفردات التي تستخدمها بطرق ملائمة، وإن لم تفهمها إلا بقدر قليل، كما يبدو. ويقترح يامادا أنها تشبه الأطفال الصغار الذين يستخدمون الكلمات التي تدل على اللون في المواضيع الصحيحة لتقليد الخطاب "تزيينه"، لكن من غير أن يفهموا خصائصها الإحالية، فتعرف لورا متى ينبغي عليها وصف نفسها والآخرين بالسعادة أو الحزن، إلا أنه يبدو أنها لا تستطيع الشعور بالحزن أو السعادة؛ فهي تشبه القائلين بالمذهب السلوكي. والسؤال هنا هو: هل تعرف "لورا" اللغة الإنجليزية أو تفهمها أو تتكلمها؟ وهذا سؤال لا معنى له؛ ذلك أن المسلمات المعهودة عن الناس لا تنطبق على حالتها؛ ولا تتوافق حالتها مع الافتراضات المألوفة عن الاستخدام العادي للغة، وربما أمكن للنظريات العلمية الطبيعية عن اللغة والذهن أن تمتدنا ببعض التصورات التي تنطبق

على لورا، لكنها تصورات تختلف عن الاستخدام العادي للغة. وهي، بالمعنى، جزء من نظرية دلالية عن اللغة والذهن، كما أنها النوع الوحيد الذي يمتلكه. ولا يمكن أن نسال، مثلاً، عن "المضمون الواسع" لكلام لورا إلا إن وضعنا هذا المفهوم التقني ليشمل هذه الحالة (Yamada 1990).

لنأخذ مثلاً مختلفاً شيئاً ما، هو حقيقتي ذات الأربعة أبعاد. فهل تتكلم الإنجليزية [في هذه المن؟] ونحن نقول في كلامنا العادي إن لديها معرفة جريئة باللغة، وسوف تحققها إن استمرت الأمور في مسارها المعهود، مع أن ما نتكلمه الآن ليس لغة إطلاقاً. لكن لو هلك البالغون جميعاً، وغدُر أن ينجو الأطفال الذين في سنّها من هذا المصير، فسيكون ما سيتكلمونه لغات إيسابية مألوفة تماماً، وهي لغات لا توجد الآن. وهذا المظهر العاني للفكرة البدئية للغة واحد من سمات كثيرة غريبة تجعل هذا المفهوم غير ملائم لمحاولة فهم اللغة واستخدامها، مثلما لن علم الأحياء لا يهتم بالثبات النفسي للأشخاص، وأن علوم الأرض لا تتشغل بما يسميه الناس النهار نفسه أو جبلاً أو جزيرة. وهذه المسلمات تحصيل حاصل عن "الفيزيائي" و"الذهني" كذلك، إن تركنا المسلمات الثنائية جانباً.

ويصبح الشيء نفسه عن عرو الاعتقاد، فمن المشاريع المعقولة للعلم الطبيعي أن يحدد إن كان الناس (والأطفال الصغار خاصة) يؤوكون ما يحدث في العالم في ضوء أفكار كالاعتقاد والرغبة، والسقوط من السماء نحو الأرض، والتوجه نحو الضوء، إلخ؛ وما الشروط التي يستعملون في ضوءها هذا الخطاب القصدي والموضوعي في اللغات المختلفة (وأيما يكون هذا أمراً مختلفاً، كما لاحظنا من قبل). ويمكن أن نسال، بشكل مستقل إلى حد بعيد، إن كان ينبغي أن نتحل أفكار كهذه في نظرية عن الناس والشهب والأرهار. والإجابة المقترحة في الوقت الراهن "لا، بكل تأكيد" في حالة الأرهار والشهب، ومجهولة في حالة الناس، فنحن لا نعرف إلا قديراً قليلاً، لكن دعنا نطرح في نوع ثالث من المشكلات، وهي التي لا تدخل في أي من

الإطارين: وهي مشكلة تحديد متى "ينبغي" أن نعزو اعتقادًا أو نعزو الارتفاع والتوجه و"للقصد نحو" ... أي متى نكون "محققين" في الفيلام بذلك العزو؟ وإذا استشهدنا بإحدى الصيغ التي اقترحت مؤخرًا، ما "الشروط الضرورية فلسفيًا للمعتقد الحقيقي"؟ ويحتج بعض الفلاسفة دائمًا بالاعتماد على الشعور عند هذه النقطة، ويرون غالبًا أن عدم التحديد الكوئني نسبة إلى كوين| يشأ هـ بشأن الاعتقاد، وإن كان لا يصح في الحالات الأخرى، التي لا يُوجب بشأنها أي شرط فلسفي" على الإطلاق (Clark and Karmiloff-Smith 1993). فلا يسعى أحدٌ لبيان الشروط الضرورية فلسفيًا عن مدنب بتوجه نحو الأرض حقيقة — ثم يحقق في إصابتها، إن كنا محظوظين، وهو عرو قصدي آخر.

وَيَدْعُونَا هُؤْلَاءِ، كَذَلِكَ، إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْمَعَايِيرِ الَّتِي تُحَدِّدُ أَيْنَ نَرَسِمُ الْحَدَّ الْفَاعِلَ بَيْنَ مَدْنَبَاتٍ تَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَرْضِ وَجُونَزٍ الَّتِي يَسِيرُ نَحْوَ مَكْتَبِهِ؛ وَفِي أَيِّ جَانِبٍ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصِفَ نُوْبِيَّاتٍ "البرنقيل" الَّتِي تُلْتَصِقُ بِالْقَوَاعِ وَالْحَشْرَاتِ الَّتِي تُطِيرُ نَحْوَ الضَّوءِ، وَلَا تَنْتَمِي هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ إِلَى الْعِلْمِ الْإِنْتِي أَوْ إِلَى دِرَاسَةِ الْمَعْجَمِ، وَلَا تَنْتَمِي إِلَى الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الطَّبِيعِيِّ فِي هَرُوعِ الْعِلُومِ الْأُخْرَى، وَمَرَّةً أُخْرَى، يَبْدُو أَنَّ هَذَا الْمَسْعى بِنَعْيَا تَصْيِرَاتٍ فِلْسَافِيَّةٍ، بِفَضْلِ الْبَظَرِ عَنِ مَاهِيَّتِهَا.

وَيَبْرُزُ أَسْئَلَةٌ مِمَّا تَلِي بِشَأْنِ الْبِقَاشِ عَنِ تَحَقُّقَاتِ "الذكاء" و"استخدام اللغة". ويمكن أن نبحث، في حالات نظام الإبصار ونظام الحركة والأنظمة الأخرى، عن بعض الارتباطات الشبهيّة homologues أو التطورية، لكن الحصائص الذهنية لا تتناول بمثل هذه الطرق. فهناك شيء مختلف في النقاش عن أن كانت الآلات تفكر، أو تُترجم اللعبة الصينية، أو تلعب الشطرنج. فنحن نسأل إن كان رجل مريحي متخيل أو حاسوب مبرمج يستطيعان فهم الصينية، لكننا لا نسأل إن كان من الممكن لمخلوق فصائي أو آلة تصوير أن يريا، كالإنسان. وهناك أبحاث كثيرة جدًا عن إمكانية القول بطريقة ملائمة عن شخص يتفقد خوارزميًا ذا دخول وخروج مشفرة إليه

يترجم اللغة الإنجليزية إلى اللغة الصينية، لكن ليس هناك أبحاث عن الأسئلة المماثلة التي يمكن إثارتها عن تقليد الحوسبات والخوارزميات التي تحول حدث الشبكية إلى صورة بصرية أو إلى تناول شيء ما. وهناك من يرى أن من المهمات الأساسية لنظرية المعنى أن تصوغ بعض الأفكار التي ربما تنطبق على أي مخلوق بغض النظر عن الطريقة التي كوّن بها، سواء أكان حقيقة أم محبلاً؛ لكن هذه ليست هدفاً للنظرية عن الإبصار أو الحركة إطلاقاً. ومن العريب أنه لا يُنظر إلى هذا على أنه هدف للطريقة عن الصوارة كذلك، مع أن لهذه الأسئلة الأهمية نفسها تقريباً هنا - وهي، كما أضن، صفر. وبالمثل، فلا يسأل أحد عن ما الذي يمكن عدّه نظاماً للدورة الدموية، أو ما يمكن أن يعدّ جزيئاً، في عالم ما مألوف بأشياء مختلفة أو قوانين مختلفة للطبيعة.

ولست هذه المناقشات ثنائية من حيث الجوهر فحسب، بل ليس لها هدف واضح كذلك ولا أهمية، ويبدو أنها تشبه النقاش عن أن كانت المركبة الفضائية تطير أو أن كانت العواصم تنجر، لكنها لا تسبح؛ وهذه من أسئلة التقرير، لا الحقيقة، في هذه الحالات، مع أنها تعدّ جوهرية في حالة الذهن، اعتماداً على مسلمات ما تترال بحاجة إلى تفسير - يضاف إلى ذلك، بالمناسبة، أنها تتجاهل أحد تحذيرات ألفر تيرنج الصريحة في بحثه الكلاسيكي الذي ألهم كثيراً من النقاش الجاد في السنين الماضية.

وتُبرر قضايا المقاربة الداخلية - الخارجية حين توجه أنظارنا إلى اللغة؛ لكنها تبرز - مرة أخرى - بخصوص نظرية المعنى وحدها لا الصوارة، حيث يمكن أن تثار بطرق مماثلة. لهذا يُطلب منا أن ننظر أن كانت المعاني هي الرأس، أم أنها محدثة بطرق خارجية. والإجابة المعهودة الآن أنها محدثة بطرق خارجية بنوعين من العوامل: سمات العالم الواقعي، ومعايير الجماعات.

فما فكرة المعنى التي تبحث هنا؟ ويُعزج الترسيع المنهجي للممارسة

الواقعية للترجمة هدفًا للبحث أحيانًا، لكن لم يقوم أحد الافتراضات التي تقدم بطريقة جادة في ضوء هذه المصطلحات، كما أن أهمية المشروع ليست واضحة. ومن الأهداف المعطاة الأخرى أن نحدد معنى كلمة ما (لكن ليس صوت كلمة ما، كما يبدو) في لغة مشتركة عامة، وهي فكرة ما نزال بحاجة إلى أن تصاغ في ضوء معايير متمسكة<sup>(1)</sup>. ومن الواضح أن الهدف لا يتمثل في أن نكشف السمات الدلالية لكلمة meaning "معنى" في الإنجليزية أو التعبيرات المماثلة في لغات أخرى، إن وجدت. فهل يسمى هذا البحث إلى العلم الإثنى، وهو البحث في مصادرها التصورية؟ لكن لا يبدو أن الأبحاث التي يقام بها مصممة تصميمًا ملائمًا لهذا الغرض. ولا صلة لهذه الأسئلة بالبحث العلمي الطبيعي في طبيعة اللغة واستخدامها، وهو الذي سيتطور بطرقه الخاصة به. فما الاحتمالات الأخرى الممكنة؟ والإجابة عن هذا السؤال غير واضحة.

والواقع أن بعض المحاولات الغربية تبدأ عند هذه النقطة. لنظر إلى تجربة توعم الأرض "الذهنية" التي صممها هيلاري بكتام، وهي التي وفرت كثيرًا من المسوغات للافتراضات الخارجية. فطلب منا، في إحدى صيغ هذه التجربة، أن نتفحص حدوسنا عن "ما صدق" أو "مرجع" كلمة "ماء" في توعم الأرض، حيث يستعمل أناسٌ يماثلوننا هذه الكلمة في الإحالة إلى "س ص ع"، الذي ليس H<sub>2</sub>O. لكننا لا يمكن أن نمك حدوسنا عن هذا السؤال، ذلك أن كلمات "ما صدق" extension، و"الإحالة" reference، و"صادق" عن "true of"، و"يعني" denote، وعبارات أخرى تتصل بها، مصطلحات تقنية، وتُعنى بدقة ما يقول لنا مخترعوها إنها تعنيه؛ وسنكون فائدة هذا الفحص مماثلة في عدم فائدتها لفحص حدوسنا عن مصطلح "العضلات الشاذة" [في التفريح] أو [مصطلح] "اللايقين"، بالمعنى التقني [في الفيزياء].

افرض أننا صممنا تجربة ذهنية مستحتمين اللغة العادية، وافرض، مثلاً، أن توعم أوسكار هبط إلى الأرض وكلن ظمأنا، ثم طلب "ذاك"، مشيرًا

إما إلى كوب يحوى مشروبًا غازيًا لو إلى كأس يحوى ما يأتي من الصنبور — وهو مريب غريب من الـ  $H_2O$  والكلور، ولكره أن أفكر بشيء آخر، وهو يختلف بشكل لافت من مكان إلى مكان (لكنه يسمى "ماء"). فهل أخطأ في الحالتين كليهما؟ أم في إحداهما؟ وإذا أخطأ في إحداهما، ففي أي منهما؟ احرص أنه يحيل إلى شيء أتى من الصنبور كان قد مرَّ عبر مصفاة من الشاي عند مصدر الماء (لذلك فهو يعني أنه "ماء" عند أوسكار)، وإلى شيء مماثل من حيث الجوهر الكيميائي غمس فيه كيس شاي (لذلك فهو ليس "ماء" عند أوسكار، بل "شاي"). ففي أي من الحالتين كان توعم أوسكار محطناً (إن كان محطناً في أي منهما)؟ لنعد إلى "مضمون الاعتقاد"، فإذا لمستمر توعم أوسكار في طلب ما يأتي من الصنبور ليروي عطشه، مصمياً إياه "ماء"، فهل غير من اعتقاداته عن الماء — بصورة غير معقولة، ذلك أنه لا يملك دليلاً على حدوث تغير مثل هذا؟ أم هو يتصرف بصورة معقولة، محافظاً على اعتقاداته الأصلية عن الماء، التي تسمح بأن يكون الشيء الذي يوجد على الأرض ماء (في توعم الإنجليزية) في المقام الأول؟ فإذا كان الأمر الأخير هو الحال فاعتقاداته عن الماء مشتركة على الأرض وعلى توعم الأرض، مثلما يحتمل أن تختلف اعتقاداته، على أي من الكوكبين، عن المادة نفسها، حيث يأخذها على أنها إما "ماء" أو "شاي" تبعاً لاختلاف الظروف، حتى مع معرفته الدقيقة التامة بأن لموضوعات الاعتقادات المختلفة المكونات نفسها تماماً، وأنا لدى حدوسي الخاصة بي، وهي التي ربما تكون لها صلة بدراسة المعجم والعلم الإنثي، لكنها تقوّص النتائج المقصودة للتجربة الذهنية.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة جداً، فقد أثّرت مشكلة توعم الأرض عن طريق تحليلها من مسلمات الخطاب التي يقوم عليها الاستخدام اللغوي العادي، وهي تشبه السؤال عن إن كانت لورا تفهم الإنجليزية. يضاف إلى ذلك، أنه إن كانت هذه الحجة تنطبق على "الماء" فلماذا لا تنطبق على "الأرض"، و"الهواء"، و"النار"، إذن، وهي التي كان لها منزلة شبيهة في أحد



التقاليد [الفلسفية] القديمة؟ ثم ما "الشيء نفسه" في هذه الحالات؟ لو انظر مثلاً إلى "السماء". فأننا نستعمل هذا المصطلح بخصيصته الإشارية، لأحيل إلى ما نراه في ليلة صافية: وهو شيء مختلف في بوسطن عنه في تسمانيا إمدية في أستراليا. وربما صح لي، حين أتخلص من المصطلحات المعهودة كما هي الحال على توهم الأرض، أن أقرر (في بعض الظروف) استخدام كلمة "ماء" بالطريقة نفسها. وأبعد الاختيار متنوعة جداً حتى إنه لا يعود مفاجئاً إلا تستطيع "كثيرُ الأذان التي لم تلوثها النظرية الفلسفية من قبل" إصدار أحكام واضحة في الحالات النموذجية، كما لاحظ ستيفن ستيك. وربما لا يمثل هذا اعتراضاً حاسماً في سياق نظري غني، لكنه إشارة تنبيه يجب عدم تجاهلها حين لا يكون لدينا إلا القليل وراء الأمثلة المزعومة (انظر Stich 1983) للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب).

ولا يبدو لي أن إجابة بتنام عن هذه المشكلات مقبولة؛ فهو يوافق على أن الكلمات لا تحيل، ويلزم من هذا أن تصاغ الحدوس عن "مرجع الكلمات" بطريقة مختلفة. وهو يتبنى موقف بيرس الذي يرى أن "الإحالة ليعني "صائق عن" علاقة ثلاثية (فحيل الشخص "س" إلى الشيء "ص" عن طريق الإشارة "ش")، حيث الأشياء "س" و"ش" في العالم" (Putnam 1992: 382). يضاف إلى ذلك حقيقة أن هناك علاقة بين كلماتنا والأشياء في العالم وهي أساسية لوجودنا؛ فالفكر الذي لا علاقة له بالأشياء في العالم فكر "فسارغ" (Putnam 1992: 383).<sup>(١)</sup> لهذا تحيل كلمة ما (أي أنها: "صانقة عن") إلى شيء واقعي في العالم حين يستعمل الناس هذه الكلمة ليحيلوا، ولمّا كان المتكلمون يستعملون كلمة "الصينية" في الإحالة إلى اللغة التي تتكلم في بكين وهونغ كونج، فهي شيء واقعي في العالم، ويبغى أن ينطبق الأمر نفسه على "الدهن"، و"الرجل المتوسط"، و"جو المدمن"، و"التجارة الحرة"، و"السماء"، وغيرها، وعلى الصفات والأفعال والتعبيرات العلائقية الأخرى كذلك، كما يبدو.

وإذا وضعنا جانباً هذه النتائج التي تتجاوز النتائج التي قلل بها وورف، فإن عددًا من المشكلات يبرز. وأولها أن قبولنا بهذه الصياغة يؤدي إلى سقوط الحجج الحلوجية، ويشمل ذلك تجربة نوع الأرض، وحالة تقسيم العمل اللعوي<sup>(١)</sup>، وغيرهما. تلك أنه حين يطلب نوع أوسكار، في زيارته للأرض، كأمناً من الماء، مَحِيلاً إلى ما في الكأس على أنه "ماء"، فإننا نحلّص، تبعاً لمراجعة بنّام، إلى أن كلمة "ماء" في نوع الإنجليزبة صادقة عن H<sub>2</sub>O، وهو ما يعنى عودة المعنى إلى الرأس. وتحقق الحجج الأخرى لأسباب مماثلة.

وثانيها، أن هذه المراجعة غير مفيدة، ذلك أن فرضية بيرس تتضمن مفهوماً تقنياً جديداً لـ "الإحالة"، وهو ما يُعيدنا مرة أخرى إلى حيث كنا، مع حدوث لا يمكن أن نمتلكها. فليست "الإحالة"، في الاستخدام العادي، علاقة ثلاثية من النوع الذي اقترحه بيرس. فهي، بدلاً من ذلك: أن الشخص "س" يحيل إلى "ص" عن طريق التعبير "ت" تحت الظروف "ظ"، ويعنى هذا أن العلاقة رباعية، في الأكل، ثم إنه ليس ضرورياً أن نكون "ص" شيئاً واقعياً في العالم أو ينظر إليه "س" كذلك. وعلى وجه أعم، يستعمل الشخص "س" التعبير "ت" بخصائصه الدلالية الذاتية ليتكلم عن العالم من زوايا ذاتية متشابهة، مركزاً انتباهه على بعض مظاهره المحددة، تحت الظروف "ظ"، مع "محتوى" التي توجبها (بالمعنى عند بيلجرامى)، بل ربما لا تكون لمكونات "ت" أية علاقة دلالية ذاتية بما يحيل إليه جومز، كما في حالة قوليه إن الحطة الموسيقية في قاعة جوردان رائعة، مَحِيلاً إلى مدينة بوسطن والمقطوعة الوترية التي يُحبها.

ويكتب بنّام أنه يظن أن تشومسكى يعرف جيداً أن هناك علاقة بين المتكلمين والكلمات والأشياء في العالم. وهذا صحيح أحياناً فهناك علاقة، حين مجرد من ظروف الاستخدام، بالمعنى تقريباً الذي توجد فيه علاقة بين الناس والأيدى والحجارة، وهو ما يجعلنى أستطيع استخدام يدي لالتقاط

حجر . لكن ذلك يقصر بنا كثيراً عن القول بأى شيء يشبه النتائج التي يسود  
بتنام أن يصل إليها.

وليس باستطاعتنا أن نستنتج "علاقة مهمة بين كلماتنا والأشياء في  
العالم" بناء على تصورات "الإحالة" وأمثالها في اللغة الطبيعية والبيئية.  
وحيث يبدأ بملء الصورة لكي نقرب من الاستخدام العلى والعكر ، لا يعود  
من الممكن الاحتفاظ بالنتائج التي يراها القائلون بالمقاربة الخارجية عدا أنه  
سيكون لبعضها، هي معمة الاستخدامات، الخصائص المرغوبة؛ إذ يمكن  
بالعمل، في بعض الظروف المحددة، أن نهم "ماء" بمعنى "السائل نفسه"،  
حيث كلمتا "سائل"، ونفسه "نوعان من الأفكار التي يسعى العلم لاكتشافها،  
وتتماشيان مع العرصات الخارجية الأخرى. ولا شك أن التفكير عن العالم  
أساسي لوجودنا"، لكن لا يبدو هذا طريقاً جيداً لفهم هذا الأمر بشكل أفضل.

ويبدو البحث الفلسفي مؤطراً تأملياً غريباً بمعايير أخرى كذلك؛ لهذا  
فكلمة "ماء" مجموع من الخصائص الصوتية والدلالية والصورية تنفذ إليها  
أنظمة الأداء المختلفة للنطق والإدراك والحديث عن العالم، إلح، فإذا أنكرنا  
كون معناها في الرأس، فلماذا لا ننكر كذلك كون مظاهرها الصوتية في  
الرأس كذلك؟ ولماذا لا يقترح أحد أن "المصموم الصوتي" لكلمة "ماء" تحدده  
بعض أنواع حركات الجزيئات أو مواضع "النطق الملائم"؟ وينظر إلى  
هذه الأسئلة على أنها سخيفة أو غير مهمة، فلماذا لا يكون الأمر كذلك على  
المعنى، إذن؟

وتوحي الأبحاث ببعض الإجابات عن هذه المسألة. ومنها أن نتائج  
بتنام عن "الماء" و  $H_2O$  مدفوعة جزئياً بمشكلة المعقولة في الخطاب  
العلمي، وكما يشير بتنام، فحين لا نود القول إن بور Bohr كان يقول كلاماً  
سحيفاً حين استعمل مصطلح "إلكترون" في العزة السابقة على اكتشاف  
النظرية الكمّية، وإلا كانت أحكامه كلها زائفة. ويحتج بتنام، لكي يتجنب هذه  
النتائج السخيفة، بأن بور كان يحيل إلى ذرات وأكترونات "واقعية" وهي

التي ربما يمكن لبعض الخبراء أن يحدثونا عنها (وربما لا)، في نهاية الأمر. فإذا كان المعنى يحدّد الإحالة فالمعاني ليست في الرأس، إذن، وهو ما يفترض أن تُبينه التجارب عن توعم الأرض.

وليست هذه الحجة مقنعة، وذلك لأسباب تتجاوز الأسباب التي أوردناها. أبا فقد أشار جاي أطلر إلى أن المهندسين المتخصصين في الذرة يميزون بين "الماء الخفيف" و"الماء الثقيل"، حيث الأول فقط  $H_2O$ . فإذا أخذنا لولئك على أنهم خبراء، فهل كنا محطّئين بشأن الكلمة "ماء" حين كنا نعي الماء الخفيف حقاً؟ (ولنفترض توسع، فطر 1989 Atlas). وكان الكيميائيون قبل أفوجادرو Avogadro يستخدمون مصطلحي "الذرة" و"الجزيء" الواحد مكان الآخر. فهل يجب علينا، لكي نجعل ما كانوا يقولونه معقولاً، أن نفترض أنهم كانوا يحيلون إلى ما يسمى الآن بـ "الذرات" و"الجزيئات" (أو ما تكونه "حقيقة"، وهو الذي ربما لا يعرفه أحد الآن)؟ وبعد أن توفر نموذج بور للذرة اقترح أن تفهم الأحماض والقواعد على أنها مستقبلات لو وإهيات محتملة للإلكترونات، وهو ما نتج عنه ضمّ أحماض البورون وأحماض كلوريدات الألمنيوم إلى حامض الكبريت، وفتح "منطقة جديدة بأكملها في الكيمياء الفيراثية غير العضوية"، كما يقول أحد كتب تاريخ العلم المشهورة (انظر Bruck 1992: 482). فهل كان العلماء السابقون يحيلون "عملاً" إلى البورون على أنه حامض؟ وهل يجب علينا أن نفترض ذلك لكي نجعل وجهات نظرهم معقولة؟ لنأخذ مثلاً أبسط وأكثر قرباً منا، وهو: هل يجب علينا أن نفترض أن الصوتانيين البنويين، قبل أربعين سنة، كانوا يحيلون إلى ما يسميه الصوتانيون التوليديون وحدات صوتية، مع أنهم يُنكرون ذلك بشكل حاسم — وهم محقّون في ذلك؟ ومن المؤكد أن الصوالة البنوية معقولة؛ وإذا أعطيت افتراض وجود وحدات من النوع الذي كانت تفترضه، فيمكن أن يعاد تأويل جزء كبير من تلك النظرية في الوقت الحاضر، مع نقل كثير من نتائجها [إلى الصوالة التوليدية].

أما المطلوب في هذه الحالات كلها درجة معينة من البنية المشتركة، وليس في أي من هذه الحالات طريق مبنئ لتحديد القدر المشترك، أو القدر الواجب توفره من "التشابه في الاعتقاد" [بينها]، وربما يكون معيذاً أن نلاحظ التشابهات وأن نعيد صياغة الأفكار في بعض الأحيان، وهذا غير ممكن في أحيان أخرى. ويصح الشيء نفسه عن آراء بور للمكرة والتالية. ولا يشترط أكثر من هذا من أجل الحفاظ على كرامة المشروع العلمي، أو الفكرة المحترمة للتقدم نحو الفهم النظري.

ويعترض بنيتام بأن التشابه البنوي وحده "مختلف جداً عن قولنا إن أيًا من النظريتين "تصف"، وإن كان وصفاً قاصراً، ملوك الظواهر السرابية فوق الذهبية التي نحول إليها "إلكترونات" — أو "ماء حفيف"، أو "ذرات" أو "جزيئات"، أو "أحماض وقواعد"، أو "صوتيات"، إلخ. وهذا صحيح، لكنه غير مهم هنا؛ إذ يجب علينا، في الحالات كلها، ومنها النظريات الحالية، أن نضيف أي شيء يميز النظريات عن العالم عن قصص الخيال العلمي. فنحن نأخذ هذه النظريات على أنها تصف الظواهر فوق الذهبية، وإن كان وصفاً قاصراً، سواء أكانت تتصل بأبولو والشمس، أم بالكات الأربع عند جالين والذرات عند ديموكريتم، أم بالأنابيب ذات الأرواح الحيوانية عند ديكارت، . . . وهكذا حتى نصل إلى المحاولات التي يقام بها في الوقت الحاضر، فليس هناك سبب مقنع، هي أي من هذه الحالات، لأن تنبئ نظرية "الإحالة الحقيقية" من النوع الذي يؤسس على الحجج الخارجية من هذا النوع.

وإذا تركنا هذه الاعتبارات جانباً فليس للنقل عن "الإحالة" في العلوم صلة خاصة باللغة البشرية والفهم البديهي، إلا إن أضيفا للعرضية الأخرى التي نقول إن كلمات مثل "إلكترونات" و "قاعدة" و eigenvector و "صوتية"، إلخ، تنتمي إلى اللغة الإنجليزية واللغات الطبيعية الأخرى، وربما يكون ذلك بصحة التعبيرات التي تظهر فيها، والصيغ والرسوم البيانية وغيرها.

ويصرص بتنام أن المعجم متجانس بهذا المعنى. لهذا يحاح، في دفاعه عن  
شكية المعنى، أن نظرية المعنى يجب أن تتعامل مع "أصعب الحالات"،  
ويعطى مثلاً لذلك [المصطلح الفيزيائي] momentum "زخم"، الذي كان  
يعرف في القديم بطريقة يُنظر إليها الآن على أنها تعبر عن الزيف. وبعض  
الطرق عن الطريقة التي تؤوكه بها فلا صلة له بالبحث في اللغة، إلا أن  
افترصنا أن momentum بمعنى عند عالم الفيزياء يدخل المعجم عن طريق  
أليات الملكة اللغوية نفسها التي تسمح لطفل أن يلتقط كلمات مثل "بيت"  
و"قوم"، وأن له حصائص المدخل المعجمية التي تحددها الملكة اللغوية.  
ويبدو هذا أمراً مشكوكاً فيه، في الأقل.

وبتنام محق في قوله إنى "توافق على أن هناك علاقة كـ 'الإحالة'"  
بالمعنى التقني، أو أن ذلك محتمل في الأقل، لكنه لم يفهم ما عنيته: وهو أن  
من المعقول الافتراض بأن البحث العلمي الطبيعي يهدف إلى صياغة أنظمة  
رمزية بقصد ببعض التعبيرات اللغوية المحددة فيها أن تسمى بعض الأشياء  
في الكون<sup>(١)</sup>. ومع هذا فليس هناك سبب للاعتقاد بأن مثل هذه المساعي يمكن  
أن تعلمنا شيئاً مهماً عن اللغة العانية والفهم البديهي. ويبدو لي أمراً مفاجئاً  
أن يساق بتنام لاتخاذ هذا الموقف، مع نقده البليغ لـ "الرعة العلمانية"  
scientism.

وبذا نحينا المعنى جانباً، فهل يُحدّد محتوى الفكر بعوامل خارجية؟  
وليس بإمكاننا أن نسأل بصورة معقولة مثل هذه الأسئلة عن "المضمون"،  
سواء أكان شيئاً أم واسماً، ذلك أنهما - مرة أخرى - فكرتان تقنيتان. لكن  
بإمكاننا أن نسأل عن إن كان من الممكن أن نعزو أفكاراً للناس بناء على  
أسس لا تتوافق مع حالاتهم الدلالية. أما أننا نقوم بذلك فواضح من غير  
حاجة لأمثلة غريبة. فإذا أخبرني جونز أنه في حداد على أولئك الذين قصوا  
سحبهم في الحنادق في فيردون Verdun قبل خمسين سنة فربما أستطيع القول  
إبه يتحدث فعلاً عن الحرب العالمية الأولى (أو يفكر بها)، لا الثانية؛ أو إبه،

من وجه آخر، مخطئ بشأن الحرب العالمية الثانية، التي يتحدث عنها (أو يفكر بها). ولنا أعزو إليه، في الحالة الأولى، حالة ليست داخلية؛ ويقوم هذا العزو على اعتقاداتي أنا، لا اعتقاداته هو. وليس هناك سؤال حقيقي عن إن كان علم النفس يتعامل مع حالة جونز كما حدثت في هذه الحالة أم لا فهو سؤال، مرة أخرى، يتعلق بالقرار؛ فهو يتعلق، في هذه الحالة، بمصطلح 'علم النفس' التقني المصطنع. وبالمثل، فإذا صورّ تولستوي أما كارنينا تشيبينا بامرأة حقيقية، فربما كان يفكر بها، أو يتكلم عنها، أو يعتقد شيئاً بشأنها، إلخ، وكذلك بعض قرائه العارفين؛ أما في حالة سميت، الذي لا يعرف شيئاً عن هذا، فيمكن أن نقرر أنا إما يفكر به [بطريقة أو أخرى، تبعاً لاختلاف الظروف. وبغض النظر عن النتيجة فإنها لا تعلمنا شيئاً عن الموضوع "الحقيقي" الذي يهتم به علم النفس، مع أنه يمكن أن تكون هذه الأمور موضوعات معقولة للبحث الداخلي عن الكيفية التي يتحدث الناس بها عن الكور، وهو البحث الذي يسعى لكشف الحالات الداخلية التي تقود الناس إلى وصف الآخرين بطرق مختلفة، حين يؤولون الظروف بأشكال مختلفة.

وفي هذا السياق أيضاً، تبدو التجارب الذهنية التي تصمم لتأييد النتائج المصادقة للمقاربة الداخلية مؤسمة على افتراضات مشكوك فيها غالباً. خذ مثلاً مثال "الجرادة - الصراصير" الذي صاغته لين ريدر بيكر، وسأبسطه قليلاً (Baker 1988). افترض أن جونز يتكلم اللغة الإنجليزية العادية، وسميت كذلك، إلا أن الصراصير تسمى "جرادا" في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها سميت. ثم افترض أن "ج" تعلم لغته من جونز وتعلم "س" لغته من سميت، وتعلم كلمة "جراد" من الصور نفسها، وهي صور ملتصقة بين الجراد والصراصير، بالإضافة إلى معلومات تتعلق صدقة بالجراد والصراصير معاً. ولاختلاف مقاصد المعلمين اللذين علما ["ج"، و"س"] فقد استنتج بيكر أنه يبدو من الواضح أن "ج" اكتسب اعتقاد أن الجراد خطر وأن "س" اكتسب اعتقاد أن الصراصير خطيرة (Baker 1987: 121)، مع أن "ج" و"س" في الحالة الداخلية نفسها.

وبناء على هذه المسلمات سيستم "ج" و"س" بالطريقة نفسها، وهو ما ينتج عنه أنه إذا قُمتَ لهما جرادة لا لبس هيهما فيسميها كلاهما "جرادة"، مع أن "س" سيكون محطناً لأن اعتقاده التي يعبر عنها تتصل بـ"الصراصير"، لا بالجرادة. الفرص أن "س" هاجر إلى جزيرة يتكلم سكانها لغة لا صلة لها بلعته، ثم تعلّم دريئة لعته تحديداً، ثم اختفت سجلات لعته والكلمات النطيرة هيهما كلها، بصورة نهائية؛ والأمرُ نصّه مع "ج". وينتج عن هذا أنه لا يمكن التمييز الآن بين درية "ج" وذرية "س" من حيث لغتهم واستخدامها، كما لا يمكن بعث التاريخ وهو ما يعنى أنه لن يكون باستطاعتهم أن يتعلموا لغتهم بطريقة أخرى. ومع هذا، يجب أن يكون من الواضح أن لديهم اعتقادات مختلفة، وأن ذرية "س" يرتكبون أخطاء كثيرة في استعمالهم كلمة "جرادة"، إذ إنهم يتكلمون دائماً عن الصراصير ويفكرون بها. ومن المحتمل أن يكون نحن، حقيقة، من نوع منحدر من ذرية "س" حيث اكتسب أجدادنا في غُشّة ما قبل التاريخ الكلمة التي أصبحت "جرادة" تحت الشروط التي تنطبق على "س"، حيث كان معلّم أولئك الأجداد يقصد أن يحيل إلى نوع مختلف "س"، لذلك فلا اعتقادات التي يعبر عنها حين نستعمل "جرادة" هي في الحقيقة عن "س"، وهي اعتقادات خاطئة غالباً.

ولا يبدو شيء من هذا واضحاً لي، حتى الخطوة الأولى منه. لكن ليس من الواضح كذلك السبب الذي يجعل الأمر مهماً. الفرص أننا قبلنا حدوس بيكر، فما الذي يمكن أن يقوله هذا لنا عن اللغة والاعتقاد والفكر؟ إن أقصى ما يمكن أن يقوله لنا إننا ربما نعزو أحياناً بعض الاعتقادات (وغيرها) إلى "س" هي ضوء اعتقادات أناس آخرين وحدوسهم؛ لكن ذلك واضح من الحالات العادية البسيطة. ومرة أخرى، فالبحث في الطرق التي نعزو بها الاعتقادات تبعاً لاختلاف الظروف، موضوع مشروع لعلم الدلالة اللغوي والعلم الإنثي، لكن دراسة الكيفية التي يحصل بها الناس الحالات الإنراكية والتفاعل وغير ذلك ستسير بحسب مسارها المختلف.



ومن الحجج النموذجية للمقارنة الخارجية أنه إن لم يحدد العالم الخارجي مصموم الفكر عند شخص ما، فستكون الكيفية التي يمكن أن تتوفر بها أفكار ذلك الشخص علانية لشخص آخر لغزاً محصاً ( Bilgrami 4. 1992). ولا يحتاج علم النص لهذه الفرضية؛ ذلك أما لا يحتاج من أجل تفسير الطريقة التي يفهم بها سميت ما يقوله جونز أن تلجأ إلى بعض الوحدات في العالم الخارجي التي تمثل التمثيلات الصوتية في ذهني سميت وجونز (النقل: بعض الأنواع من حركات الجزيئات التي ترتبط بالوحدة التركيبية: الصوت الثنائي الوقفي)؛ ثم إنه لا حاجة للأشياء الخارجية فيما يخص المعاني والأفكار. ومن المؤكد أن هناك بعض الاحتمالات الأخرى، وربما تكون صحيحة. لهذا ربما يفترض سميت أن جونز يمانته تماماً، مع بعض الاختلافات، ثم يسعى إلى اكتشاف هذه الاختلافات، وربما تكون هذه المهمة سهلة، أو صعبة، أو مستحيلة. ويعبرو سميت إلى جونز، بقدر ما ينجح في ذلك، التعبير الذي بصوغه دماغه هو، ويشمل ذلك صوت التعبير ومعناه، أما التواصل فأمر تقريبي<sup>(٨)</sup>. ثم يسعى، باستخدام أنواع أخرى من المعلومات، إلى التأكد من أفكار جونز، وربما بطريقة مشابهة.

ومن المؤكد أن هذا علم نص، كما يفترض ألا تبرز هذه القضايا إلا في علم النص الشعبي، عند بيلجرامي على الأقل. لكن هذه النتائج لا تبدو مؤسمة بشكل أفضل هنا. فليس هناك سبب للاعتقاد بأن ماري تؤول التفاعل بين سميت وجونز عن طريق افتراضها وحدات تتوفر بشكل علني تعمل على تثبيت الأفكار أو المعاني أو الأصوات، وليس واضحاً، إضافة إلى ذلك، احتمال أنه سيكون ببعض الخوض عن التواصل صلة بعلم النفس الشعبي، وهو الذي ليس بحاجة إلى أن يواجه مهمة حل مثل هذه المشكلات، وهو لا يقوم بذلك في الغالب.

وتمثل الأمثلة من نوع نوع الأرض أحد التوجهات في النظريات الخارجية المتواضع عليها عن اللغة والفكر. ويدخل في النوع الآخر منها

الاحتكام إلى السلطة والخبراء ومعايير المجموعة اللغوية، إلخ. ويحتاج فسي هذه النظريات بأن المعاني ليست في الرأس" لأنها تثبت بمثل هذه الطرق. ويمكن أن يسأل، مرة أخرى، أين يُصنّف تصورُ المعنى الذي تناقشه. ومن الجلي أنه ليس جزءاً من بحث علمي طبيعي ما عن اللغة واستخدامها، أو من البحث في المنحل المعجمي لكلمتي "معنى" و"لغة" في الإنجليزية. فهل هو علم إثنى تأملي، أي دراسة لـ تفسيرِ نفسي بديهي للملوك الإنساني، كما يصف بيلجرامي (١٩٩٢: ٣) هذا المشروع مع رفضه لهذا النوع من الحجّة (وهو رفض صحيح، كما اعتقد)؟ وربما يكون هذا هو المقصود، لكن للنتائج تبدو متنوعة جداً، إن كان الأمر كذلك، تبعاً لاختلاف الشروط، على الرغم من أنه لم يتحقق قدر كبير من الوضوح.

ومهما كان موضوع البحث فهو يعتمد بصورة جوهرية على فكرة "اللغة العامة المشتركة" التي ظلت غامضة. فإذا كانت هذه الفكرة بصورتها في الخطاب العادي فهي غير مفيدة لأي شكل من أشكال التفسير التطبيقي. فمن المسلمات منذ زمن بعيد في الدراسة الاختبارية للغة أنه ليس هناك شيء يمكن أن تعينه كلمات كـ "الصينية"، أو "الإكمانية"، أو ما هو أكثر تحديداً منها كذلك. ذلك أن تحدث اللغة نفسها يُشبه "السكن قريباً من" أو "النشأ به"، وهو ما يعني أنه ليس هناك مقولات يجب تثبيتها. وعدم توفير اللغة العادية وسيلة للإحالة إلى اللغة التي تتكلمها حفنة مقبول في الحياة العادية، أما البحث الاختباري فيتطلب تصوراً مختلفاً. فملكتها اللغوية، في البحث الاختباري، في حالة ما وهي الحالة التي تُحدّد لغتها" (أو ربما تكون "هي" لغتها). وتؤمّن الجماعات والثقافات وأنماط الاحتكام في حياة البشر بطسرق مختلفة كثيرة جداً، مع عدم وجود علاقة خاصة لشيء من ذلك بما نسميه "لغات" في الخطاب غير المنخصص. وليس هناك إجابة مفيدة عن السؤال عن إن كان يجب على "بيرت" أن يحيل إلى الألف في فحذه على أنه التهلب معاصل؛ أو إن كان يجب عليه استخدام كلمة disinterested "غير مبال" لتعني

unbiased "غير متحيز"، كما يقول للقاموس، أو uninterested "غير مهتم"، كما يعتقد متكلمو [الإنجليزية الأمريكية] جميعهم تقريباً؛ أو إن كان يجب عليه أن ينطق الكلمات بالطريقة التي تنطق بها في بوسطن أو لندن<sup>(١)</sup>.

وليس هناك طريقة أبداً لإضفاء معنى على هذا للتوجه في الطريقة الخارجية للمعنى واللغة، كما يبدو لي، أو على أي بحث يُعالج بطريقة المعنى وفلسفة اللغة اعتماداً على مثل هذه الأفكار، وهو حكم قصدت به أن يلخص شيئاً ربما يكون واسعاً.

وباحتصار، فمع أنه لا نترتب على المقاربة الطبيعية مقاربة داخلية، فإنها لا تترك بدلاً واقعياً [لها]، كما يبدو. وتتبنى تلك المقاربة دائم، في البحث الاحتمالي الفعلي، حتى حين يُنكر ذلك، وهو أمر سبق أن عالجته في مكان آخر؛ وكما هو معروف، فيلزم، كي نحدد ما يفعله العلماء، أن ننظر إلى ممارستهم، لا إلى ما يقولونه عنها.

وكما لاحظت من قبل، لا تبرر قضية مشروعية الأبحاث التي تذهب وراء حدود المقاربة الداخلية. ويجب أن يكون هذا تعصّل حاصلاً. لهذا، من الأمور المعجزة لي دائماً أن أقرأ في وآخرين نُكر هذا الأمر، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد كتب المقدمات في اللسانيات الاجتماعية يتبدى بالزعم العجيب التالي: "من الأمور المسلمة في اللسانيات الحديثة عموماً أنه لا صلة بين الأنحاء والحياة الاجتماعية للمتكلمين" (Romaine 1994: vii)، وهذه فكرة نافية، ولم يتبنها أحد، وهي التي أرجعها المؤلف إلى إصراري على "أن قصايا القوة... ليست من القضايا التي يجب على اللسانيين تناولها" (ص ١) - وهو ما يعنى أنه ينبغي على ألا أشتغل بالنشاطات التي تمسّك جزءاً كبيراً من وقتي وطاقتي، مثلاً. وينتهي الكتاب بنتيجة تقول: "تتكي الاختلافات اللغوية أنواع عدم المساواة في القوة والمكانة وتعمّمها" (ص ٢٢٥) - فهناك، مثلاً، لهجات ذات مكانة أعلى - وهو اكتشاف يُنظر إليه على أنه ينقص ما أنادي به من أن ما نفهمه في الوقت الحاضر عن

طبيعة اللغة لا يسهم بشيء في توضيح دراسة مثل هذه الأمور .

و هناك مزاعم مغلطة كثيرة فيما يُنشر، وغالبًا ما تُقدّم مصحوبةً بكثير من الانفعال والسخط. ويبدو أنها تستند إلى اعتقاد كنتُ عثرتُ عنه بالفعل، وهو أنه ينبغي على الناس أن يقولوا الحقيقة. وينبغي عليهم، على الأخص، ألا يزعّموا أنهم يمتلكون معرفةً دقيقةً حلصةً عن بعض نواحي الاهتمامات البشرية إلا إن كان ما يزعمونه صحيحًا؛ وأنه يجب عليهم ألا يكتّموا تلك المعرفة الخاصة، وهو أمر قلما يكون صعبًا. أما الادعاءات المتناقضة في مثل هذه الأمور فلا تعدو أن تكون وسيلةً للتخويف ولتثمين، وهي تعزز "عدم المساواة في القوة والمكانة". يضاف إلى ذلك أن توضيح حدود الفهم بصورة جلية مسئوليةٌ جادة في ثقافةٍ كثيرًا ما يعطى فيها للخبراء الأدعياء مكانةٌ لا يستحقونها. فإذا استمّاع البحث في جوانب الاهتمامات البشرية الأساسية أن يستفيد من الاكتشافات الحقيقية عن اللغة والإبصار لو غير ذلك، فذاك أمر جيد وحسن، لكنه أمر يجب أن يبيّن، لا أن يُزعم. وللسمانيات الاجتماعية بحثٌ مشروع تمامًا، لكنها بحث خارجي بالتعريف، وهي تستفيد من نتائج البحث للدخلى عن بنى البشر، لكنها ليست بديلًا عنه كما يبدو، على حد ما أعلم. أما مدى كشف نتائجها لقضايا القوة والمكانة فهو سؤال آخر.

ولإيراد مثال آخر، فقد أوّل بتنام تعطيني (وهي بدائه، في الواقع) عن "اللغة العامة المشتركة" كأنها تعنى أنه "إن لم نستطع تعريف الثقافات في ضوء فكرة "الجوهرانية" essentially، فيجب أن ننفض أيدينا منها ونعود إلى العمل الجاد الذي يتمثل في النمذجة الحاسوبية" (Putnam 1992: 385) — ويبدو أنه يعنى البحث العلمى الطبيعى فى الملكة اللغوية التى ربما تسهم النمذجة الحاسوبية فيها بشيء، وهو أمر لم أوله يومًا اهتمامًا خاصًا. لكن لا يمكن التغلب على المشكلات التى يواجها الاعتماد غير النقدي على هذه الفكرة باللجوء إلى "الثقافة" أو "المصطنعات الثقافية"؛ كما أن معرفة الحقائق البسيطة عن اللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وغيرهما — وعن عدم

صلة الثقافة بالأمور التي نناقشها هنا — لا توحى أبدًا بالنتيجة التي يستنتجها. ذلك أن الثقافات تحترق بطرق عدة أى شيء يمكن أن يُطلق عليه "لغات"، كما تترك "الدراسات الثقافية" هذه المشكلات من غير حل.

ودعوى ستلم أن "اللغات والمعاني حقائق ثقافية" (ص ٣٨٥) صحيحة بمعنى واحد، وهذا ما يجعلنى (كالاخرين جميعاً) أصف كيف يفهم هذان المصطلحان فى الثقافات التي تتشارك فيها تقريباً فى ضيوء بسى للقوة والسلطة، وأنماط المرجعية، والآثار الأدبية، والأعلام والتواريخ (الأسطورية غالباً)، إلخ. فتستعمل مصطلحات كـ "لغة" بطرق مختلفة فى جماعات لغوية أخرى؛ كما لا توجد لبعض المصطلحات التي نستعملها مثل "اعتقاد" belief و"معنى" meaning، إلخ، نظائر غالباً إلى بعض الجماعات اللغوية الأخرى. لكن هذه "الحقائق الثقافية" لا تسهم فى فهم كيفية اكتساب اللغة، وفهمها، واستخدامها، وكيف تتكوّن وتتغير عبر الزمن، وكيف تتصل بالملكات الأخرى للذهن والفعل البشرى عموماً. ولا تستفيد الدراسة الاختيارية للغة نفسها، ولا ما يسميه بنّام بـ "الدراسات الثقافية" (كالتاريخ والأناسة وعلم الاجتماع وبعض فروع الفلسفة) حين تتناول بصورة جادة، من مفهوم "اللغة المشتركة العالمية" فى الاستخدام العادى، بغض النظر عن بعض التعليقات غير المتخصصة؛ وربما نكلم المتخصص فى الأناسة، فى سياقات متنوعة، عن الثقافة الصينية، أو الثقافة الصينية — اليابانية، أو الفضاء الثقافى لمنطقة شرق آسيا، أو عن ثقافة العلماء الذين يتكلمون لغات مختلفة تماماً، أو ثقافة سكان الأحياء الفقيرة فى نيويورك والقاهرة وريو، وغير ذلك بطرق عديدة معقدة ليس لها علاقة مهمة باللغات المتكلمة، أو ما يسمى "لغات" فى الاستخدام العادى أو فى ثقافتنا العالمية والثقافات الأخرى.

وهذه اللغات "مصطنعات ثقافية" غالباً، بمعنى أكثر تحديداً: فهي لغات نموذجية مصطنعة جزئياً وربما لا يتحتمها إلا عدد قليل من المتكلمين، ويمكن أن تخالف مبادئ اللغة كذلك. وتحدّد مصطلحات كـ "المعايير"

و"الاستخدام الصحيح" في ثقافات عديدة، في ضوء مثل هذه الظواهر، وهي أمور ليس لها كثير من الأهمية في "الدراسات الثقافية"، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا أنها واضحة جدًا. وهو ما يجعلها لا تهتم بدراسة جهود المجمع اللغوي الفرنسي إلا قليلًا، مثلاً.

ونحن نقول، في الدراسات الثقافية، كما في الاستخدام العادي، وبشكل مفهوم جدًا، إن جون يتكلم اللغة نفسها التي يتكلمها بيل، وهو يشبهه، ويمكن قريباً منه. لكن هذا لا يحددنا فنعقد أن العالم مقسم إلى مناطق موضوعية أو أماكن، أو أن هناك شكلاً يشترك فيه جون وبيل؛ أو لغة عامة يشتركان فيها. ولا تتمثل المشكلة في المصيح المفتوح أو غياب "الحدود الصارمة"، كما يعتقد بتنام، بأكثر مما يكون في حالة "منطقة" أو "فترة". والواقع أن اللغات النموذجية تُحدد تحديدًا صارمًا جدًا (كما يفعل المجمع اللغوي الفرنسي، مثلاً). كما تُحدد حدود "اللغة"، في الاستخدامات الأخرى كذلك، تحديدًا صارمًا إلى حد بعيد، بقدر ما تكون عليه هذه الأشياء، بوسائل كالألوان على الخرائط وما أشبه ذلك، لكن الاستخدام العادي لا يقدم أي مفهوم لـ "اللغة العامة المشتركة" يمكن أن يقارب التوافق مع متطلبات البحث الاختباري أو التأمل الفلسفي الجاد عن اللغة واستخدامها، ولم يُقترح أي مفهوم أكثر كفاءة. كما لا توجد فجوة تفسيرية يمكن أن تُملأ باختراع مثل هذه العكرة، على حد ما نعلم.

والنقطة الرئيسة في مقال [تشومسكي] الذي كان بتنام يعلق عليه أن "هذا كبيراً من الأسئلة، ومنها الأسئلة التي ربما يُنظر إليها على أنها مهمة جدًا للبشر، لا تقع ضمن البحث العلمي الطبيعي؛ لذلك نقاربها بطرق أخرى" (انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب). وليس هناك ما يلزم إفي مقال تشومسكي المشار إليه، أو في أي مكان آخر لمن أبحاث تشومسكي، بوجوب قصر اهتمامنا على "العمل الجاد في النمذجة الحاسوبية"، لكنه يجب علينا أن نقصر أنفسنا على "العمل الجاد" فقط، مهما كان المجال.

والسؤال الآن: هل هناك مشكلة في المقاربات الدلحائية (أو العربية) للمحالات الأخرى التي يهتم بها علم النفس؟ وهذا ما يدّعيه كثير من الباحثين، لكنه لا دعاء يقوم على أسباب مشكوك فيها، كما أظن. لأحد دراسة السمع، مثلاً. فأخذ الأمثلة المزمّنة السؤال عن الكيفية التي تحدّد بها القشرة السمعية المكان الذي ينطلق منه صوت ما. فلا يبدو أن هناك "خارطة سمعية"، شبيهة بخارطة الإبصار وخارطة الإحساس الجسدي somatosensory. وتوحى دراسة أنجزت مؤخراً أن القشرة السمعية تدرك مكان الصوت لا بالتنظيم المكاني للعصبونات، بل بعمق متزامن من إطلاق [الإشارات] بشكل يشبه "مفردة مورس" (Bannaga 1994). وبصاغ النقاش عن هذا الأمر بالمزيج المعهود من الخطاب التقني والعادي. ومن هنا ربما يضلّ من قرأ هذا النقاش فيظن أن نظرية الإدراك الصوتي نظرية خارجية، لأنها تشير بشكل جوهري إلى "حل مشكلات" يثيرها عالم الأصوات الخارجي. لكن هذا لا يبدو أن يكون مراباً. ذلك أن النظام السمعي "لا يحل مشكلات" بأي معنى تقني لهذا المصطلح، كما يمكن للباحثين، إن عرفوا كيف يقومون بذلك، أن يختاروا أحد المستقبلات receptors بشكل مباشر بدلاً من استخدام مكبرات الصوت - بصورة لا تبعد كثيراً عما فعلوه في نموذج الحاسوب الذي وفر الدليل الرئيس، حقيقة، لنظريتهم الخاصة بتحديد موضع الصوت، وهي التي تتعامل بشكل جيد عن دماغ في بناء (أي عن دماغ في مختبر منزوع من صاحبه)، كما تعمل عن بومة تكبر رأسها نحو غار في نجمة.

وتنطبق الاعتبارات نفسها على دراسة الإدراك الإبصاري في ضوء الطرق التي رادها ديفيد مار (David Marr 1982)، وهي التي تتأقش بكثافة في هذا المجال. فيهتم هذا البحث بشكل يكاد يكون خالصاً بالعمليات التي تتعدّها الشبكية أو، بشكل تقريبي، بتحويل حيالات الشبكية إلى القشرة الإبصارية. وتتصل المستويات الثلاثة المشهورة للتحليل التي تقترحها مار - أي المستوى الحوسبي والمستوى الخوارزمي والمستوى التنفيذي - بالطرق

التي نفهم بها هذه التحويلات. ومرة أخرى، تنطبق النظرية على دماغ وفي إزاء الكيفية نفسها التي تنطبق بها على شخص يرى شيئاً في حالة حركة. وقد نرسم للحالة الأخيرة بالفعل، في أبحاث شيمون أولمان، الباحث المشارك لمار (Shimon Ullman 1979). ونستخدم دراسته لتحديد البنية من خلال الحركة الأمثلة التي تقدم باستعمال التاكيسكوب tachistoscop التي تجعل المحرّب عليه يرى مكعباً يتأرجح، مع أنه لا يوجد شيء كهذا في بيئة التجربة؛ ويستعمل للفعل "يرى" هنا بمعناه المؤلف، لا يكونه فعلاً إنجليزياً. ولو كان بمقدور أولمان حدث الشبكية مباشرة لكان قد فعل، لو لكان قد حدث العصب البصري، ويقول أولمان إن هذه الدراسة تهتم بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستعملها النظام الإبصارى وبالعمليات التي تشق بها. وهذا تفسير داخلي خالص. فليس هناك سؤال ذو معنى عن "مضمون" التمثيلات الداخلية عند شخص يرى مكعباً تحت ظروف التجارب، أو عن إن كانت الشبكية تحت بمكعب متأرجح، أو بصورة متحركة لمكعب يتأرجح؛ أو عن مضمون تمثيل الضفدع لـ "ذئبة" أو نقطة تتحرك في الدراسات للمونجية لإبصار الضفادع، فليس هناك فكرة شبيهة بـ "مضمون" أو تمثيل لـ "في النظرية، لذلك لا يتوقع أن توجد إجابات عن طبيعتهما. والشئ نفسه صحيح حين يقول مار إنه يدرس الإبصار بوصفه "عملية تحويل من تمثيل إلى تمثيل آخر، وأنه لا شك في وجود التمثيل الأول في حالة الإبصار البشري - فهو يتألف من حزمة من قيم كثافة الحبال كما تنتبها المستقبلات التصويرية في الشبكية" (Marr 1982 31) - حيث ينبغي ألا نفهم "التمثيل" بصورة علاقية، على أنه تمثيل لـ.

وتتحدث الأبحاث التقنية عن "إخفاق" الحوارزميات في بعض الظروف، وعن إعطائها "الإجابة الصحيحة" في ظروف أخرى - حيث يمكن أن تكون "الإجابة الصحيحة"، مثلاً، المدرك القوي ثلاثي الأبعاد الذي تعطيه صورة مجسمة لنقطة اعتباطية. وربما نتحدث كذلك عن "خطأ" الإدراك في حالة الشخص أو الضفدع في أثناء إجراء التجارب، مع أنها



ربما لا نتحدث بهذه الكيفية حين يُقَلَّ مُدرك مصوّر في إشارة مرور بكشاف بدلاً من الشمس. كما نتحدث عن الدماغ بصفته "يحل مشكلات" و"صفته" "منكياً مع الأوضاع للعالية" حيث "يمثل" النظام البصري فيها السمات الموضوعية للعالم الخارجى. وتتوافق هذه الاستخدامات [اللغوية] غير المنحصصة مع النقطة التى بدأ بها تايلور بيرج، وهي: "أن الافتراض القائل بأن تجربتنا الإدراكية تمثل الأشياء أو أنها عنها أو عن الحسبائصر، أو العلاقات التى نتصف بأنها 'موضوعية'" (Burge 1986c: 125) افتراض غر حدير 'بطبيعة رتد' تصدّ يقول 'إنّ مذنب يصوباً بصورة' 'مباشرة' نحو الأرض، موحياً بأن المذنب يتصرف فى ضوء فيزياء قصدية حية.

ونتحدث الدراسة الداخلية للغة كذلك عن "تمثيلات" من مختلف الأنواع، ومنها التمثيلات الصوتية والدالية عند "المستويات الوجيهة" مع الأنظمة الأخرى. لكننا لا نحتاج هنا كذلك إلى الانشغال بالتفكير عن ما الذى يُمثل، ساعين إلى أن نكتشف تركيبات موضوعية من الأصوات أو الأشياء؛ فالتمثيلات وحدات ذهنية مفترضة، ويبغى أن نفهم بالطريقة التى نفهم بها صورة ذهنية لمكعب يتأرجح، سواء لكان نتيجة لتمثيلات تاكستوسكوبية أو كان تمثيلاً لمكعب متأرجح حقيقى، أو نتيجة لحث الشبكية بطرق معينة أخرى؛ أو ربما تمثيلات متخيلة كذلك. وتدخل التمثيلات الداخلية للغة، حين نفقد أنظمة الأداء إليها، فى التأويل والفكر والعمل، لكن ليس هناك سبب يوجب السعى لاكتشاف أية علاقة أخرى لها بالعالم، كما يوحي بذلك أحد التقاليد الفلسفية المشهورة، وبعض القياسات غير الملائمة على الاستخدام اللغوى غير المتخصص. ولا يثير خطأ الإدراك صعوبات لهذه المقاربة؛ فهو يتعلق بالكيفية التى يحدث الناس بها بعض التأويلات للتفاعلات التى يلاحظون — أى إلى ردود فعل ضفدع أو شخص فى أثناء تجربة، أو مدرك تصويرى مخدوع، إلخ، وهذا موضوع مشروع للبحث الداخلى فى نفسية الشخص

الذى بقرّر ماذا يمكن أن يسمى "خطأ الإدراك".

ولا يبدو أن لهذه النقاشات صلة كبيرة بعلم النفس والعلم الإثنى. احرص أن جوائز عصو في جماعة عادية ماء، وأن "ج" لا يمكن تمييزه عنه إلا بأن تجربته كلها مشتقة من تصميم تحييلي ما للحقيقة؛ أو افرض أن "ج" نوع لجوائز في عالم نوع الأرض، وهما متماثلان من حيث التجربة التي مرا بها وسيتصرفان بطريقة واحدة (إن كان التمييز بالسلوك ممكناً ابتداءً)؛ ويتمثلان في الحالة الداخلية. ثم افرض أن "ج" حل مكان جوائز في الجماعة تلك، وهو أمر لا يعرفه إلا العالم الملاحظ. ولأن أعضاء الجماعة ليسوا واعين بأي تغيير فسيتصرفون جميعاً بالطريقة التي كانوا يتصرفون بها في السابق، فسيعاملون "ج" على أنه جوائز؛ وسيستمر "ج" على الحال التي كان عليها، وسيصوغ العالم الذي يسمى إلى اقتراح أفضل نظرية لكل هذا تفسيراً لردنياً ضيقاً لجوائز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين. ولا يستبعد هذا التفسير شيئاً، ومن تلك الطريقة التي يعزو بها أفراد الجماعة الحالات الذهنية (أي: الاعتقادات والمعاني والمضامين الإدراكية، إلخ)، إلى كانوا يفعلون ذلك.

هـب أن أحد أفراد هذه الجماعة فيلسوف يملك حدوداً تماثل حدود الفائلين بالمقاربة الخارجية في النقاش الذي أوردناه آنفاً. وستعزو النظرية للفيلسوف [في هذه الحالة] الحالة الداخلية التي تماثل هذه الحدود. وستتنبأ الآن بصورة صحيحة أن الفيلسوف سيعزو إلى "ج"، حين يأخذ "ج" على أنه جوائز، الحالات الذهنية التي عزاها إلى جوائز من قبل؛ وإذا كان واعياً بالتبادل بين "ج" وجوائز حين حدث، فسيعزو حالات ذهنية مختلفة لـ"ج". ولأنى لا أشارك هذا الفيلسوف حدوده فلا أعرف الكيفية التي ربما يعزو بها الحالات الذهنية حين يعيش "ج" في هذه الجماعة، أى في عالم من الأشياء "الموصوعية" (فهل صار "ج" يشترك جوائز في اعتقاداته؟). ومهما كانت الإجابة فستصف النظرية حالات الفيلسوف الداخلية بناء على ذلك، وإذا كنت من أفراد هذه الجماعة كذلك فستعزو النظرية إلى حالة دلالية مختلفة، لا

تتضمن إجابات نهائية عن عزو الاعتقادات والمعاني إلى "ج" (ولا نحوى شيئاً مهماً عن المضامين، سواء كانت إرادية أم لا؛ لأننى أحد الابتكارات التقنية على أنها تعنى ما يقول مبتكروها إنها تعنيه)، وتعطى أحكام مختلفة تبعاً لتنوع الظروف.

ويتعامل هذا التعليل مع جونز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين، وأناس آخرين يمتلكون حدوداً متنوعة عن عزو للحالات الذهنية؛ وهو غير كامل لأن هذه الحدود غير معروفة الآن، أما فيما عدا ذلك، فلا يبدو أن شيئاً مفقوداً منه، ويمكن توسيعه ليشمل الاستخدامات [اللغوية] فى اللغات والثقافات الأخرى، تبعاً لاختلافها. ويمكن تحويله ببساطة إلى نظرية غير قرينة، وهى نظرية أكثر صعوبة ولا تُسهِم بفهم جديد. ولن تكون تلك الخطوة ملائمة للبحث العلمى الطبيعى، وليس من الواضح الهدف الآخر الذى يمكن أن يكون لها.

وينبغى أن يفهم الكلام عن كون الأعضاء أو العضويات "تحلُ مشكلات"، أو كونها متكيفة للوظائف التى تقوم بها، بالكيفية نفسها؛ أى أنه استعارة يقصد بها الاختصار؛ فليس هناك سؤال عن إن كانت أجنحة الفراشة صممت لـ "حل مشكلة" للطيران أم لا؛ فقد تطورت على أنها منظّمة للحرارة، وما ترال تحدم هذا الغرض. ولو حدث أن اكتشفنا أنها وصلت إلى حالتها الحاصرة قبل أن تُستخدم للطيران، فستظل لها الآن وظيفة الطيران وستستخدم لذلك الغرض كذلك، وقد تكوّن نظام الإبصار عند البشر بصورة ضعيفة للرؤية فى الظلام، لكنه لا يمثل إحقاقاً بسبب ذلك. والسلسلة الفكرية عند القرينات للضخمة مصممة بشكل هندسى سيئ، ويعرف أكثر الناس هذا من تجاربهم الخاصة؛ لكن هذا لا يمثل نجاحاً أو إحقاقاً. ولا تصلح اللغات البشرية للاستخدام جزئياً، لكن هذا لا يجعلها سيئة جداً؛ داك أن الناس يستعملون الأجزاء القابلة للاستخدام منها. وقد لكُشف حديثاً أنه فى حين أن الحشرات تبدو متكيفة بشكل أخلا مع أنواع محددة من الساعات المرهرة،

وقد أُنحرت تنوعها الحاضر وبنيتها بشكل يكاد يكون كلياً قبل ملايين السنين من وجود النباتات المزهرة. ويلاحظ ريتشارد ليونتين أنه حين ظهرت الحشرات كان هناك عدد ضخم متنوع من الحلول تنتظر ظهور المشكلات لحلها. وكان ذلك في سياق تأكيد أن هذه المقولات الحسية لا معنى لها في علم الأحياء (Richard Lewontin 1990). فمن القراءة الخاطئة للنقاش غير المتخصص، إن، أن يُستنتج أن نظرية مار عن الإبصار تعزو حالات قصدية تمثل خصائص موضوعية هيزيائية لأنه ليس هناك طريق آخر للنظر إلى النظام الإبصاري كأنه يحل المشكلة التي ترى النظرية أنه يحلها (Burge 1986a: 28-29). أما النظرية نفسها فلا تعين مكاناً للتصورات التي تدخل في التقديم غير المتخصص informal presentation الذي يقصد به أن يكون دافعا عاما. أما قول لي الفكرة التي ترى أننا نصف ظواهرية الإدراك لدينا من غير أن نحدد الخصائص الموضوعية التي توجهها بعيدة جداً عن النظريات الاختبارية الفعلية للإدراك وعن البدية كذلك (ص ٣٨) فصحيح عن البدية في بعض الظروف، لكنه مضلل فيما يخص النظريات الاختبارية عن الإدراك، التي تهتم بالكيفية التي تعمل بها الأشياء ولا تهتم بالتقرير الإدراكية والتصنيفات الحسية إلا بوصفها دليلاً له صلة بهذا الأمر وحسب<sup>(١)</sup>. (انظر أيضا Burge 1986a; Labandiera and Sepkoski 1993).

ويأخذ عالم الأحياء في الحساب بشكل طبيعي، في دراسته لأي نظام عضوي، التفاعلات البيئية والقانون العزيماني الذي ربما أثر في الطفرات، ونجاح التكاثر، ومسار التطور. أما فيما يخص الدافعية والتوجيه الحسي فربما يتكلم عالم الأحياء عن الأنظمة بوصفها تطورت لحل بعض المشكلات المعينة التي فرضتها البيئة عليها، حيث تُحدث الأنواع [الأحيائية] المختلفة مشكلات مختلفة وتحلها بأشكال مختلفة (Burge 1986a: 28). لكن هذا حديث عام غير متخصص، ولو اكتُفِ أن مسار العملية التطورية لم يكن على الصورة التي يظن أنه عليها، كما في حال الحشرات والأزهار، فلا يترتب

على هذا تعديل للنظرية الفعلية للتحليل الإحصائي والأنظمة الأخرى، مما يصحب ذلك من أنواع مختلفة من العزو والتفريد، وبعض الأوصاف المعقدة للمضمون القصدي، والأخطاء، والوظائف، والأهداف، والمشكلات التي حلت، إلخ. افترض، بالمثل، أنه لكتشف أن أسلافنا صمموا في معمل خارج الأرض ثم أرسلوا إليها بعركية فصائية قبل ثلاثين ألف سنة، وهو ما يحسى أنه لم يكن لمبدأ الانتقاء الطبيعي دور في تكوين الكلية، أو للنظام الإبصاري، أو القدرة الحسابية، أو أي شيء آخر. ولن ينتج عن هذا تعديل للأقسام التقنية الخاصة بالكلية في كتب المقدمات العامة لطم وطاقات الأعضاء، ولن تعدل كذلك النظرية الفعلية للوظائف التي تحوسبها التنبؤية أو المظاهر الأخرى للنظام الإبصاري عند البشر أو الأنظمة الأخرى.

ولا يكتسب نقد المقاربة الداخلية (العربية) مزيداً من القوة من الملاحظة التي مفادها أن العمليات الداخلية، في البيئات العادية، ترتبط بصورة وثيقة بالخصائص الحديثة (كحدود الأشياء، إلخ). ذاك أن هذه العمليات ترتبط في بيئات أخرى بخصائص مختلفة، وربما تكون هذه خصائص حديثة أو حثاً مباشراً للتنبؤية (أو حثاً داخلياً أكثر عمقاً لها). ويمكننا أن نقول، إن أحببنا، إنه "إذا لم ترص القيود التي تمكن في العادة عضوية معينة من حوسبة وطبيعة إدراكية ما، فستفقد العضوية" في تمثيل بينتها" (Egan، د. ت)؛ لكن ذلك "الإحفاق" هو الوسيلة التي نستخدمها لوصف بعض الحالات البشرية التي نعرضها لأسباب لا علاقة لها بالبحث العلمي الطبيعي، وهو ما يشبه حالة إحفاق مذنب في الاصطدام بكوكب المشتري، كما كنا نأمل. وليس مهماً أن نسمح لنا اعتبارات "التمثيل" في البيئات العادية بالربط بين النظام الذي نعمل بتحليله ووظيفة الإبصار الإدراكية التي وُصفت بطريقة غير متخصصة. فليس من أهداف العلم أن يتوافق مع المقولات الحسية، أو أن نقرر إن كان ما يزال "بصرياً" في بيئات غير عادية، أو إن كانت بعض أجزاء الدماغ التي تستخدم عادة لأغراض

أخرى تقوم بتحليل بعض الصور الإبصارية، كما تفعل تلك أحياناً. وتبدأ دراسة الإدراك بصورة طبيعية بعض "المهام الإدراكية" التي تقم بصورة غير متخصصة، لكنها لا تعنى إلا قليلاً بما إن كن شيئاً شبيه بهذه للمهام يُكتشف في أثناء عملها.

ويستفيد نقاش العمليات التطورية غير المتخصصة من عبارات مثل "حل المشكلات"، لكن يجب ألا يؤخذ هذا، مرة أخرى، بشكل جاد جداً. ذلك أن العانوس الطبيعي يوفر قنوات ضيقة يمكن فيها أن تتنوع العصبويات المعقدة، ولا شك أن مبدأ الانتقاء الطبيعي عامل من العوامل التي تحدد توزيع الصفات والخصائص داخل هذه القيود، لكنه "أحد" العوامل، لا العامل [الوحيد]، إن تتبعنا، في الأقل، القيود المعقولة التي اقترحها داروين. فيبقى داروين بشكل حاسم، لخوفه من الخطأ في تأويل أفكاره، أنه عزا "التعديلات التي تحدث للأصواع إلى مبدأ الانتقاء الطبيعي وحده"، حيث يؤكد في آخر طبعات كتابه "أصل الأنواع": "لني وصفت في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وفي الطبعات اللاحقة، وفي أكثر المواضع وصوحاً — أي قريباً من نهاية المقدمة — الكلمات التالية: 'إني على يقين أن الانتقاء الطبيعي كان وما يزال الوسيلة الرئيسة للتعديل، لكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة'. لكن أحداً لم يأبه بهذا. فما أعظم قوة استمرار الخطأ في تمثيل [الأفكار]". (كما لورد ذلك Gould 1982: 45). وأشار دارون بشكل لا لبس فيه إلى مدى واسع من الاحتمالات، ومنها تعديلات لم تكن نتيجة للتكيف ووظائف لم تتق ولم تحدثها البنية.

ولا يمكننا أن نقتر بشكل معقول الوزن الذي سيعطى للانتقاء الطبيعي بوصفه آلية للتطور في الوقت الذي يتزايد فيه ما نتعلمه عن الأنظمة المعقدة، والطريقة التي يعمل بها القانون الفيزيائي، والعوامل التي تعمل في التنظيم الداني في الأنظمة الحية والأنظمة الطبيعية الأخرى، إلخ (انظر Waldrop 1994; Bradley 1990)<sup>(١١)</sup>. ولا تؤثر مثل هذه الاعتبارات على المكانة التي

تتمتع بها المقاربات الدلخية، سواء كنا تفكر في العمل أو الكلية أو اللعبة والذهن.

ويدخل في أى مظهر من مظاهر دراسة اللغة والذهن تقريبًا اعتراضات غير مسوغة لا تنتمى إلى البحث العلمى الطبيعى، كما يبدو. (الاطلاع على نقاش مفصل، انظر الفصل الرابع). وإذا كان هذا النقاش على جادة الصواب، فربما نرغب فى أن نسأل عن السبب الذى يجعل مثل تلك الأفكار تبدو مقنعة جدًا. وربما تكمن الإجابة عن ذلك فى أن الصورة البديهية التى لدينا عن العالم ثنائية بشكل عميق، لا يمكن نقضه، ونشبه تعلمًا عدم قدرتنا على ألا نرى غروب الشمس، أو مشاركة نيوتن فى اعتقاده بـ "الفلسفة الآلية" التى زعزعا هو نفسه، أو النظر إلى الموجة التى تهرب من المكان الذى خلقت فيه، بعبارة ليوناردو، باستقلال عما يمكن أن نعرفه فى زاوية أخرى من روليا عقولنا. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت الثنائية الغيبية قد زعزعت، فلم يبق إلا نوع من الثنائية المنهجية، وهى بقية غير مشروعة من البديهية، يجب ألا يُسمح لها بتتبع الجهود التى نتجها فهم للنوع الذى ننتمى إليه من المخلوقات.

## هوامش الفصل السادس

- (١) وليس واضحًا تمامًا إن كان بنّام وديفيدسون يختلفان؛ ذلك إن بنّام لا يبين ما يقصده بـ "لغة" أما ديفيدسون فيفصل فكرة مصنوعة على نموذج اللغة للصورية وهي تختلف بالتأكيد عن فكرة بنّام؛ ويبدو كأن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون تتفق أي شيء مقصود، وربما تتفق اللسانيات الداخلية أيضًا إلا إن فهمنا مصطلح "الذات" على أنه يشمل ملكاتهم، وحالاتهم، إلخ.
- (٢) يصف بيرج هنا ما يأخذه على أنه "علم النفس كما هو"، لكن السياق يوحي أنه يعني أكثر من ذلك. انظر عن هذه العرصة ما يأتي في هذا الفصل.
- (٣) الداعي priming . يفترض أن التصورات التي تكون على علاقة بعضها ببعض تتراكم في شبكة عقلية ما. لذلك، فإذا أثر تصور ما فإن التصورات المرتبطة به تتأثر كذلك (المترجم).
- (٤) وتكمن هذه البواعث وراء بحث بنّام المهم (١٩٧٥)، كما يكرر ذلك في بحثه الآخر (١٩٩٢).
- (٥) وقد حذف من قوله هذا هامشًا، ويبدو الحكم المتعلق بفراغ الفكر قويًا جدًا، لكن دعنا نتجاهل هذه المسألة.
- (٦) وهذا مصطلح مشكوك فيه؛ إذ يبدو أن بنّام قد تخطى عن المتطلب الضمني الذي مفاده أن "الخبراء" الذين نحتكم إلى آرائهم يتحدثون اللغة التي نتكلمها؛ لذلك يختفى المظهر الاجتماعي، وهو ما يعيدنا إلى اعتبارات "الجوهر نفسه".
- (٧) ومما ليس له صلة هنا، أن هذا ربما يوجب لزوم إحلال العكرة النفسية لـ "الإحالة" في دراسة تركيب التمثيلات الذهنية، بصورة لا تبعد كثيرًا عن إدخال العلاقات التي تقوم بين السمات الصوتية في الصوتنة.



(٨) ولا يترتب على هذا أن التشابه في المعنى عدنا إنما يعني، إن عسى شيئاً، أننا نتواصل بنجاح" (كما يقول كوين، نقلاً عن دريبان Dreban 305: 1992). وبالمثل، فلا يعني التشابه في الصوت أننا نتواصل بنجاح. ذلك أن هناك، في الحالتين كليهما، الكثير مما يمكن أن يقال عن ماهية "التشابه" في ضوء الخصائص المشتركة للغة والذهن، حين نتخطى عن قيود كوين السلوكية المضادة للمقاربة الداخلية.

(٩) ويبدو أن تميز هذه الملحوظات، المألوفة في دراسة اللغة، عن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون وهي أنه ليس هناك شيء يمكن أن يؤخذ على أنه لغة بالمعنى الذي يفترضه "الفلاسفة واللسانيون" عمومًا، وليس هناك شيء لن تعلمه، لو نجده، لو تولد به" (Davidson 1986b: 446). ومع هذا فلدى ديفيدسون فكرة مختلفة جدًا للغة، ومع أنه محق، بالتأكيد، في ظنه أنه ليس هناك شيء مثل هذا، إلا أن حجته التي يعزز بها تلك النتيجة أو يعزز بها أفكاره عن الدراسة الاختبارية للغة ليست قوية. فهو محق في ملاحظته أن التأملات كلها تستعمل، في أثناء التواصل الفعلي، في النظرية العابرة، وهي خصيصة نفسية محددة. لكن لا يترتب على هذا أنه لا فائدة لـ "تصور لغة ما" لـ "آلة تأويلية" محمولة مصممة لاعتصار المعنى الموجود في قول اعتباري، إلخ (Davidson 1986b: 445). وربما كان هذا شبيهًا بالاحتجاج على عدم وجود تيار نفث، نتيجة للعناصر الفوضوية في أنماط الطقس. للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

(١٠) والنقاش الذي تتضمنه الأبحاث عن "ما عناه مار" غريب شيئاً ما، ذلك أن المهم هو ما يصله للعالم، لا ما يمكن أن يكون في ذهنه. للاطلاع على ما يبدو لي أنه تصوير كافٍ للنظرية العقلية لمار، انظر Egan (د، ت).

(١١) والاقتراحات التي أوردها برادلي (Bradley 1994) ما زالت مبهمة، لكن المشكلة ظلت في تصوير عدم التناظر البين بين "الوفرة الجزئية" للأحماض الأمينية و "دين.أ" عبر موضع الأعضاء وصفاتها.

## الفصل السابع البحث الداخلي

تدلهم السماء في الوقت الذي لُكف فيه الآن، ويُحذر المدياغ من اقتراب عاصفة نحو [مدينة] بوسطن، ويتوقع أن تصبحها لمطار غريرة ورياح قوية ستؤدي إلى فيضانات الأنهار والمناطق الساحلية، وإلى أضرار بالأشجار والبيوت، ولتقطاع الكهرباء. ويتحقق الخبر السابق، ونفسه "خ" (ولنتطهر بأنه قيل)، في وسط خارجي ويفهم المتحدث والمستمع بطرق متعددة. ونحن نقول، بشكل عام، إن لهذا القول صوتاً ومعنى. ويتصل "خ" كذلك بالحالات الداخلية للمتحدث والمستمع، وهي التي تدخل في الطرق التي يؤولونها بها. ويعتمد التواصل على التشابه بين هذه الحالات. وهذه هي الطرق التي نتعامل بها اللغة مع العالم.

ولقد درست هذه الموضوعات لآلاف السنين من زوايا نظر كثيرة، وهي محط الاهتمام في الحياة العادية كذلك، وتتعلق بها ممارسات ثقافية ولغوية متنوعة، وتسمى هذه الممارسات أحياناً بـ "البديهة" أو "العلم الشعبي". ومن الجلي أن دراسة هذه الموضوعات نفسها ليست دراسة لهذه الممارسات. فلا نتقيد علوم الأرض بالأفكار والتوجهات التي يعبر عنها في "خ"، والشئ نفسه صحيح في "علم الطبيعة البشرية" عند هيوم، الذي يسعى إلى اكتشاف "المبادئ المترية التي تحفز ذهن البشر في تنفيذ العمليات التي يقوم بها" (Hume 1748/1975: 14, Section 9).

ومع أن القضايا واضحة بما يكفي فيما يخص علوم الأرض، فإنها أكثر التواء حير توجه النظر إلى علم الطبيعة البشرية الذي يعد من بين اهتماماته البحث في البديهة (التي يمكن أن نسميها بـ "العلم الإنثي"). إلا أن علم الطبيعة البشرية يسير في مساره الخاص به. وربما يبدأ البحث بالأفكار

العادية لـ "اللغة"، و "الصوت" و "المعنى"، و "الريح"، و "النهر"، إلخ، لكن من غير أن نتوقع أن تكون قائداً موثقاً به وراء المستوى السطحي.

ولنا لأول "علم الطبيعة البشرية" عند هيوم بأنه علم هردى وداحلى وهو بعيد جداً عن الإحاطة بدراسة كيف يؤدي للبشر وظائفهم في المجالين الاجتماعى والمادى. وتفترض الأبحاث الأكثر توسعاً، وإن صمناً في الأقل، بعض الأفكار عن الحالات الدلالية التي تدخل في الفكر والعمل، وعادة ما تستعين بقدر ما يمكنها من الدراسة الدلالية لأنظمة الدهن/الدماغ، ويتطرق التبادل في اتجاهات أخرى كذلك، كما هي الحال في دراسة العصبونات الأخرى. وربما نجد أقرب المشابهات، في حالة اللغة البشرية، عند الحشرات (انظر Griffin 1994; Austad 1994). فستهتم دراسة بعض الخصائص كـ "الإحالة المزاحة" في تواصل النحل بالنظر في الطبيعة (الداخلية) للنحل، وتنظيماتها الاجتماعية، وبيئتها المادية، وهي أبحاث يعزز بعضها بعضاً.

وينبغي أن تحل التعارضات الظاهرية عن طريق توضيح بشأن المشروع المشتغل به. حذ، نقاش المضمون الواسع والمضمون الضيق، مثلاً، أو نقاش تحديد التمثيلات الذهنية، أو تفريد الفكر والاعتقاد. فمن نسأل، إن كان البحث يقع في إطار العلم الإثنى، عن كيف يفكر الناس وكيف يتحدثون عن مثل هذه الأمور — مع إدراكنا أنه لا يمكن إثارة هذا السؤال مباشرة عن "المضمون" و"التمثيل الذهني"، اللذين يُستخدمان هنا بمعنىين تقنيين، وعن كون كلمتي thought "فكر" و belief "اعتقاد" كلمتين إنجليزييتين لا نظائريهما قريبة لهما حتى في اللغات الشبيهة بالإنجليزية، بعض النظر عن أهمية هذا (لنعم التعليقات، انظر Rhum 1993)؛ وأنه يجب ألا تقوم التعليقات النديه لما يفعله الناس على أنها شكل من التعليل النظري. وبعد أن ننسأ هنا في مجال لما يكتشف تقريباً. لما في علم الطبيعة البشرية فبرز أسئلة مختلفة. فبحسب تنقضي الإطار النظري الذي تصاغ في داخله أفكار مثل "مضمون"، و "فكر" ثم نحتر كتابته الوصفية وقوته التصيرية. وليس معاجناً ألا تكون الأفكار

البدئية معقدة جدًا لنا [هنا]، وأن تبقى نتائجها ضئيلة.

لذلك ينبغي الحذر من إعطاء وزن كبير للكيفية التي يتوصل بها علم المعرفة بمعنى التمثيلات الذهنية للتعبير عن تعميمات تتعلق بالعمليات المعرفية والفعل، والاستعانة بها في تصوير هذه التعميمات. وربما لا يكون التحول من "علم الدلالة اللسانية" إلى "علم الدلالة النفسية" انطلاقًا من أن "الأنواع الطبيعية النفسية" ربما تكون أكثر ملاءمة في تحقيق أهداف للتفسير النفسي\* (Lormand 1996: 52, 53) مهمًا إلا بقدر المدى الذي يصل إليه التفسير النفسي. وهو يصل إلى مدى بعيد جدًا في بعض المجالات (كما في حال الإدراك الإبصارى، مثلاً)، لكنه قلما يذهب بعيدًا في دراسة السلوك.

ويُطلق مصطلح "علم المعرفة" cognitive science أحيانًا على الدراسة الاختبارية للقدرات المعرفية (كالإبصار، واللغة، والتعليل، إلخ؛ وهي مكونات لعلم الطبيعة البشرية ربما لا تكون تخصصًا موحدًا)؛ ويُطلق في أحيان أخرى على التأمل في طبيعة الدهن. وربما يكون مقولاً، بالمعنى الثاني، أن نقول إن "الابتكار المنهجي لرئيس لديكارت، أي منهج الحجة الغيبية، صار منهجًا غائبًا، بل ربما المنهج الأغلب، في علم المعرفة" (Brook 1994: 12)؛ لكن ليس بالمعنى الأول. وفي الحالتين كليهما فـ "القانون الأول لعدم وجود علم للمعرفة" عند جيرى فودر (Jerry Fodor 1987: 107) ذو صلة، لكن لأسباب مختلفة.

كما تأتي التعميمات النفسية بأشكال متصدة. انظر، مثلاً، إلى الاكتشافات عن "ما لدى يعرفه الرضيع": فهم يعرفون ما يكفي ليميزوا اللغة الأم من لغة أخرى بعد أيام من ولادتهم؛ ويعرّفون الأشياء الملموسة في ضوء مألها المشترك وحصلاتهم أخرى معقدة بعد شهور قليلة؛ وكثير غير ذلك (انظر Mehler and Dupoux 1994; Spelke 1990). ويحاول علم الطبيعة البشرية تعليل هذه الإنجازات في ضوء الحالات الداخلية، معيّنًا بين العوامل الداخلية والعوامل البيئية، صانعًا نظرية تفسيرية في أي مستوى ملائم. وما

لدينا هنا برامج بحث جوهريّة تعنى بكائن عضوي أحيائي محدّد، ولأسم هذه  
الفصيلة من التعميمات بـ "التعميم النفسي<sup>١</sup>".

ننظر الآن إلى "التعميم النفسي<sup>٢</sup>": فإذا رغب بيتر في "س"، وكان  
يفكر بأن الحصول على "س" يوجب عمل "ص"، وهو قادر ببساطة على أن  
يقوم بـ "ص"، فيقوم كالعادة بـ "ص". ويختلف "التعميم النفسي<sup>٢</sup>" عن  
"التعميم النفسي<sup>١</sup>" بطرق عدّة. فهو يزعم بأنه يفسّر السلوك؛ أما تعميمات  
"التعميم النفسي<sup>١</sup>" فلا، ومن السهل اكتشاف المصنوع الاختباري لـ "التعميم  
النفسي<sup>١</sup>"، بخلاف "التعميم النفسي<sup>٢</sup>" الذي يصحّ عن أي كائن عضوي نختار  
وصفه بمثل هذه الطرق. ويقوم "التعميم النفسي<sup>٢</sup>"، بخلاف "التعميم النفسي<sup>١</sup>"،  
بالتأمل، لا بالبحث الاختباري، ولا يؤسّس لبرامج بحثية — إلا، ربما، البحث  
في الاستخدام العادي للمصطلحات العقلانية وتصورتها. ويدخل "التعميم  
النفسي<sup>١</sup>" تحت علم الطبيعة البشرية، أما "التعميم النفسي<sup>٢</sup>" فدخوله فيه أقل  
وضوحاً. كما أن فكرة أن "علم المعرفة" يحاول أن يعبر عن "التعميم  
النفسي<sup>٢</sup>" ويعبّره فكرة غامضة بالمثل، وهو ما ينطبق على الجهود التي  
تحاول تأسيس هذه "القوانين النفسية" على الآليات الحوسبية أو آليات أخرى  
وتقصّي تحقّقاتها بها.

وتدخل دراسة "التعميم النفسي<sup>١</sup>" ضمن هروع العلم الأخرى. وكما  
أوصى الكيميائي البريطاني جوزيف بلاك في القرن الثامن عشر: "دعنا ننظر  
إلى الانتماء الكيميائي على أنه مبدأ أول، وهو الذي لا يمكننا تحليله إلا بقدر  
ما نستطيع نبوتن تحليل الجاذبية، ثم دعنا نؤجّل تفسير قوانين الانتماء إلى أن  
نؤسّس رصيداً من المبادئ يماثل ما أسّسه عن قوانين الجاذبية" (كما أورد ذلك  
Schofield 1970: 226). وقد أؤجّل توحيد الكيمياء مع علم الفيزياء الأساسي  
إلى القرن العشرين، في حين صنّت الكيمياء في جهودها لتؤسّس رصيداً  
غنياً من المبادئ، ولم تُبن نجاحاتها على أي أسسٍ لحترّالي لكنها أُنجزت  
بدلاً من ذلك، بمعزل عن علم الفيزياء الوليد" (Thackray 1970: 279)

وربما يكون مسارٌ مماثلٌ معقولٌ لا فيما يخص "التعميم النفسي" (١٢). أما "التعميم النفسي" فلا يوحى إلا بعدد محدود من الطرق للسير نحو تكوين رصيد من المبادئ، ومن ثمَّ إلى التوحيد في نهاية الأمر.

### الواقعية الذهنية والواقعية الفيزيائية:

ولمَّا حَقَّقَت الكيمياء "رصيدًا [كافيًا] من المبادئ" صار من الممكن أن يوصف ما صاغته بـ "فيزيائي" physical (وإن لم يفعل ذلك بعض العلماء البارزين)؛ بل صار ذلك أكثر ملاءمة بعد أن تعيَّرت الفيزياء بما يكفى لتسمح بالتوحيد، متباعدة بصورة أكثر جذرية عن الأفكار البديهية عما يكون "فيزيائيًا" لكي "تحرَّر نفسها" من "الصور الحسية" وتتخلَّى تمامًا عن إمكان تمثيلها ماديًا visualizability، بعبارة هاينز بيرج (كما أوردها Holton 1996). وتنطبق هذه الدروس على المظاهر الذهنية للعالم، ويشمل ذلك التمثيلات الذهنية والعمليات التي ربما يفترضها علم الطبيعة البشرية.

وأثرت الثنائية الديكارتية بعض القضايا الجوهرية؛ فقد اقترح تصورٌ إلى "لفيزيائي" وقُدِّمَ بعضُ الحجج على أن هذا التصور غير كامل. وقد بحثت تلك القضايا مع انهيار النزعة الآلية – وإن لم تندثر المشكلات التي كانت سببًا في إثارتها – ثم "عوَّدنا أنفسنا على الفكرة التجريدية عن القوى، أو بدلًا من ذلك على فكرة تنقلب في غموضٍ متعزٍ بين التجريد والفهم الحسي"، كما يلخص هربريك لانج، في دراسته العلمية الكلاسيكية، نقطة التحول هذه في تاريخ النزعة المادية، التي سلبت هذا المذهب قراء كثيرًا من لأهمية (Friedrich Lange 1925 308). وكان هيوم، قبل ذلك بقرن، أكثر تشاؤمًا حين أبان أن إسحق نيوتن بتبنيته "عدم كمال الفلسفة الآلية أعاد الأسرار الفصوى للطبيعة إلى ذلك الغموض الذي ظلت تقبع فيه منذ الأزل وسوبت نفى فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341). وقادت الجهود التي سعت إلى مكاسة البحث في عصر الغموض الذي يسمى "ذهبيًا" بعض

الباحثين إلى استنتاج أن "التنظيم الذي صيغ به النظام العصبي نفسه هو الذي يشغل، بصورة حرة في حال الصحة، خصائص" الذهن كلها (La Mettrie، كما أورده 147 1992 Wellman). لكن المشكلات التي أُرقت الديكارتيين لم ساقش قط، ولم يُطور أي رصيد مهم من المبادئ. (للاطلاع على نقاش لهذه القضايا، انظر (1968)؛ (1966) Chomsky والأبحاث التي نشرت بعد ذلك، ومنها (1995a) Chomsky؛ وانظر عن جهود نيوتن فيما يخص المسألة الأساسية (Dobbs and Jacob 1995).

وبغض النظر عن الإطار الديني لاقتراح جون لوك الفاضلي بأن الله ربما اختار أن يُضيف إلى المادة قدرة على التفكير "مثلما أُلحق الآثار بالحركة، وهي التي لا يمكن بحال أن نتصور الحركة قادرة على إنتاجها"، لم يُقترح، منذ نيوتن، بديل معقول لهذا الاقتراح (John Locke 1975 book IV, Chapter 3, Section 6, P. 541)، وكما فصل جوزيف بريستلي ذلك فيما بعد، مستخلصاً "النتيجة الواضحة للنقاش عن المادة المعكّرة" (Yolton 1983: Chapter I, VI, especially p. 113)، فإننا نأخذ تلك الخصائص "التي منعت ذهنية" على أنها ناتجة عن طبيعة محضوية عكسية الدماغ. أضيفت إلى خصائص أخرى، وربما لا يمكن لأي منها أن يكون مفهوماً بالمعنى الذي سعى إليه العلم المبكر. ذلك في حين أخذت النزعة المادية الأوروبية مساراً مختلفاً بحثت المركز فيه "الزعم"، الذي أسس على قراءة معينة لفيزياء نيوتن، بأن الحركة كامنة في المادة، وأن الطبيعة كلها حية، وأن الروح والجسد شيء واحد، وكل شيء مادي، وأن ذلك كله جميعاً ينتمي إلى هذا العالم (M. Jacob 1991: 200; Chomsky 1995a).

وبالتحلي عن فكرة "الفيزيائي"، التي لم يُقترح بديل آخر عنها قط، لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من السؤال عن إن كانت المظاهر الذهنية للعالم، أو مظاهره الأخرى، يمكن دمجها في إطار التفسير الفيزيائي، كما يُتصور في الوقت الحاضر، لأننا:

وانقون إلى حد بعيد أنه سيوجد تفسير فيزيائي لهذه الظواهر، إن كان من الممكن تفسيرها بحال، وذلك لسبب لاصطلاحي غير مهم، وهو أن تصور "التفسير الفيزيائي" سيوسع، يقيد، ويشمل أي شيء مما يُكتشف في هذا المجال، بالطريقة نفسها تمامًا التي استطاع بها صم. . . عند كبير من الوحدات والعمليات التي ربما كانت مضادة للبديهة في الأجيال المبكرة (Chomsky 1968: 98).

ونحاول دراسة اللغة تنميةً رصيدة من المبادئ متطلعةً إلى التوحيد في نهاية الأمر. ويمكن لنظرياتها ومبادئها أن تسمى ذهنية بشكل ملائم، ولأن يفترض أنها "تأتى عن بنية عصبية" - أما كيفية ذلك، فتتطلب الاكتشاف. وليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من هذا عن هذه المظاهر للطريقة التي تتعامل بها اللغة مع العالم<sup>(١)</sup>.

#### الملكة اللغوية:

هناك ما يُسوّغ الاعتقاد بأن لدى البشر "عصوا" مخصوصًا مقصورًا على استخدام اللغة وتأويلها، لنسميها بـ "الملكة اللغوية". ويمكن أن نأخذ "الملكة اللغوية" على أنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالات تتنوع بطرق محدودة تبعًا لتنوع التجربة. وتسهم هذه الحالات، بتفاعلها مع أنظمة أخرى (معرفية، وإحساسية حركية)، في تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها. وربما لا نستطيع دراسة هذه الموضوعات تفسير الأفكار البديهية عن الصوت والمعنى، والتماثل في المعنى، والتكرار، إلخ؛ وليس من الواضح كذلك إن كان يمكن عدّ [هذه الأفكار البديهية] نظريات عن الصوت والمعنى، كالحال فيما يخص الحركة، والأنهار، والحياة، إلخ.

ولإيضاح هذه المسائل بصورة مصبوبة، لنظر إلى التعبيرات التالية في (١).



John was (too) clever to catch. ١- أ:

كان جون ذكيا (جدا) مما يجعل القبض عليه مستحيلا.

John was (too) clever to be caught ١- ب:

كان جون ذكيا (جدا) لن يقبض عليه.

John was (too) easy to catch ١- ج:

كان جون سهلا (جدا) على القبض

John was (too) easy to be caught ١- د:

كان جون سهلا (جدا) لن يقبض عليه

فيعرف بيتر، حين تحصل ملكته اللغوية الحالة للملائمة، أنه باستخدام too تكون (١١) و (١٢) صلاتين لن كان جون ذكيا جدا مما يجعل القبض عليه مستحيلا، وأنه بعد too ستكون (١١) شاذة، إذ تتطلب تأويلا غير نمونجي (مع تأويل (١٢) بشكل مختلف). ويعرف كذلك أن (١٣) صائفة لي كان من السهل (جدا) القبض على جون (الذي لم يكن سهلا)، وأنه بوجود too أو عدم وجودها تحقق القياسات الواضحة في حالة (١٤)، وهي شاذة كذلك. وتسمى دراسة الملكة اللغوية لجمع هذه الملحوظات تحت التعميمات الأوسع لمقولة "التعميم النصي"<sup>١</sup> ولن نكتشف المبادئ والبني التي تقوم عليها. ومع أن عناصر الحالات الداخلية هذه لا تفسر سلوك بيتر فإنه ينبغي أن نسمح في تفسير الطرق التي يعكس بها ويتصرف، بقدر ما يكون هناك تفسير ممكن. وهناك نظرية ناجحة إلى حد معقول تتناول هذه الحالات انطلاقا من الافتراض بأن الملكة اللغوية نظام حوسبي ذو مبادئ غير متغيرة إلى حد بعيد. ويتنبأ لهذه النظرية مرحليا نعزو إلى جون حالات ذهنية، وتمثيلات، وعمليات تتوافق معها (ولا يملك فعاداً شعوريا إليها)<sup>(٢)</sup>.

افترض أن ملكة بيتر اللعوية في الحالة "ل". ويمكننا عندها أن نقول إنه يمتلك (يتكلم، يفهم...) اللغة "ل". ونستخدم مصطلح "لغة" هنا بمعنى نقى، ونسمي "ل" لغة "د" - حيث توحى "د" بأنها: داخلية، وفردية، ومفهومية كذلك، بمعنى أن "ل" إجراء محدد يولد تعبيرات كثيرة غير نهائية في "ل". ويدخل أحد مظاهر "اللغة" - "د" عند بيتر، ونسميها "تأويل للبيان الإذاعي"، هي تحديد الكيفية التي ربما لوّل بها بيتر البيان الإذاعي في الخبر "خ" الذي أوردناه آنفاً. ويشبهه "تأويل بيتر للبيان الإذاعي" للتعبيرات التي ولدها ذهن المذيع وعقول المستمعين الآخرين، إن كانوا يفهمون البيان كما يفهمه بيتر تقريباً. ويمكن أن نسمي فرغ علم الطبيعة البشرية لدى بيتر بالملكة اللعوية، والحالات التي تتمثل بها، والتعبيرات التي تولدها "اللغات" - "د" بـ "اللسانيات - د".

وتتمثل فكرة "اللغة - د"، كما يبدو، أقرب نقطة اتصالها "اللسانيات - د" من الأفكار البديهية المختلفة للغة. ومع أن [الأفكار البديهية] لا تمثل مشكلة في الحياة العادية فإنها معقدة وغامضة. فعند إحدى الدراسات الوصفية للاستخدام الإنجليزي العادي، وهي من أجود الدراسات الوصفية التي أعرفها لهذا الموضوع، اللغة "موضوعاً (قصدياً) للاعتقاد (المشترك)"، ويمكن دراستها بشكل استكشافي ملائم في إطار علم الاجتماع اللغوي" (Pateman 1987: 73)؛ مع أنه ربما لا تكون هذه الفكرة أكثر نفعاً لللسانيات الاجتماعية، إذا تجاوزنا الظاهر من نفع العبارات في الخبر "خ" لعلموم الأرض، مثل مصطلح "المنطقة الساحلية"، مثلاً، الذي يشبه من حيث المكانة مصطلح "لغة"، باستثناء كون المصطلح الأخير أقل تماثلاً مع ما يطلق عليه، ويتصف بالتحول، والارتباط القيمي المتعدد الأبعاد. وتستخدم المصطلحات العادية غالباً بوصفها لاحتراالات، كما رأينا في مناقشة الخصائص العامة للغة الصربية مقابل الإيطالية (اللتين لا يتوفر لأي منهما نصيب كبير من الاعتقاد المشترك). كما أننا نقول إن بيتر يتكلم أو لا يتكلم للغة نفسها التي

أَتَكَلِّمُهَا أَتَاءً، أَوْ يُمْكِنُ فِي الْمَكَانِ نَفْسَهُ [الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِيهِ] أَوْ لَا يُمْكِنُ. لَكِنَّ  
الْعَالَمَ لَا يَتَأَلَّفُ مِنْ مَنَاطِقَ أَوْ لُغَاتٍ كَهَذِهِ بَأْيَ مَعْنَى مَهْمُ لُغَوِيَّةِ الْأَرْضِ أَوْ  
"اللِّسَانِيَّاتِ - د".

بَلْ لَا يَبْعَثُ الْحَدِيثُ عَنْ أَنْ يَبْتَرَّ بِمِثْلِكَ "اللُّغَةُ - د" لَنْ يَكُونَ تَبْسِيطًا  
مُشَدِّدًا؛ بَلْكَ أَنْ حَالَةَ الْمَلَكَةِ اللُّغَوِيَّةِ عِنْدَ أَيِّ هَرْدٍ خَلِيطٍ مِنَ الْأَنْظُمَةِ الَّتِي رُبَّمَا  
لَا تُوْدِي إِلَى فَهْمٍ بَطَرِيٍّ أَكْثَرَ مِمَّا تُوْدِي إِلَيْهِ لَطَوَاهِرُ الْمَعْقِدَةِ الْأُخْرَى فِي  
الْعَالَمِ الطَّبِيعِيِّ. هَذَا نَقُولُ عَنْ بَيْتَرٍ إِنَّهُ مُتَعَدِّدٌ لِللُّغَاتِ حَيْثُ يَحْدُثُ أَنْ تَكُونَ  
الِاخْتِلَافَاتُ بَيْنَ اللُّغَاتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مَهْمَةً لَنَا لِسَبَبٍ أَوْ لِأُخَرٍ، وَمِنْ جِهَةٍ  
أُخْرَى، فَكُلُّ مَنْكَلٍ مُتَعَدِّدٍ لِللُّغَاتِ بِشَكْلِ مُتَعَدِّدٍ.

وَيُسَمَّى امْتِلَاكُ لُغَةٍ مَعِينَةً، فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، "مَعْرِفَةُ لُغَةٍ"، وَهُوَ مَا  
أَدَّى إِلَى بَعْضِ الْمَحَاوَلَاتِ لِفَرْضِ تَصَوُّرَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ طَبِيعِيَّةِ  
الْمَعْرِفَةِ، وَلِتَحْدِيدِ مَا الْوَحْدَةُ الَّتِي يَكُونُ بَيْتَرٌ عَلَى عِلَاقَةِ مَعْرِفَةٍ مَعَهَا حَيْثُ  
بِمِثْلِكَ "ل". وَلِأَسْبَابٍ نَاقَشْتُهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ، أَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ كَانَتْ  
صَحِيحَةً لِمَوَاقِفِ فِي التَّصَوُّرِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الْأُخْرَى تَسْتَحِقُّ الْإِسْتِقْصَاءَ.  
لِهَذَا فَحِينَ بِمِثْلِكَ بَيْتَرٍ "ل" فَهُوَ يَعْرِفُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَمِنْهَا، مَثَلًا: أَنَّ كَلِمَةَ  
chase "يَطْرُدُ" تَسْجَعُ مَعَ lase "الْحَيْطُ الَّذِي تُرْبِطُ بِهِ الْحِذَاءُ"، وَتَقْصِي follow  
"يَتَّبِعُ". وَتَقْصِيلُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا مُشْرُوعٌ مَهْمٌ يَسْتَحِقُّ الْإِسْتِقْصَاءَ؛ وَهَنَاقَ  
مَسَائِلَ أُخْرَى تَتَّعِلُقُ بِطَبِيعَةِ مَعْرِفَةِ "ل" عَمُومًا، وَالْمَصْنُوعُونَ الْمَعْرِفِيَّ لِمَعْرِفَةِ  
الْكَيْفِيَّةِ، وَعِلَاقَاتِ الْمَعْرِفَةِ بِالْقُدْرَةِ، إلخ. (لِلْإِطْلَاعِ عَلَى مُنَاقَشَةِ هَذِهِ الْقِصَاصِ  
انْظُرْ Chomsky 1975; 1986).

وَتَبْنِي تَعْبِيرَاتُ "ل" مِنْ وَحْدَاتٍ مَعْجَمِيَّةٍ يَتَأَلَّفُ كُلُّ مَنَهَا مِنْ مَجْمُوعٍ مِنَ  
الْحِصَانِصِ؛ وَتُمَثِّلُ الْكَلِمَاتُ الْبَسِيطَةُ فِي الْحَبْرِ "ع" أَقْرَبَ مَثَلٍ لِهَذَا. وَبِحَسَبِ  
نَتَكَلِّمُ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ عَنْ صَوْتِ كَلِمَةٍ مَعِينَةٍ وَمَعْنَاهَا، أَيَّ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُنْطَوِقُ  
بِهَا، وَالْمَعْنَى الَّذِي تُوْدِيهِ. وَتَحِيلُ أَقْرَبُ صِيَاعَةٍ بَدِيلَةٍ فِي إِطَارِ "اللِّسَانِيَّاتِ -  
د" إِلَى حِصَانِصٍ فِي وَحْدَةٍ مَعْجَمِيَّةٍ مَعِينَةٍ تَتَّصِلُ بِالصَّوْتِ وَالْمَعْنَى، أَيَّ:

سماتها الصورية والدلالية (وانسمها بـ "الصوت - د" و "المعنى - د" لها، على الترتيب). وتتألف الوحدة المعجمية من هذه السمات، إضافة إلى بعض السمات الصورية (التي ربما لا تكون متميزة عنها) وتتدخل في العمليات الحوسبية التي تكون بنى أكبر. وربما تكون لها شية دلالية أكثر تعقيدا. وليس هناك طبقة تحتية منفصلة، أي للكلمة، يمكن أن تورث الخصائص فيها، كما ينتج عن أي تعبير في أية سمة وحدة معجمية مختلفة. وإذا وصفا جابيا كثيرا من القضايا المهمة، دعنا نفترض أن اللغة تشمل على معجم يمثل مجموعة من الوحدات المعجمية، وأن المعجم يُنفذ إليه عن طريق الإجراءات الحوسبية التي تكون التعبيرات<sup>(4)</sup>.

وقد أثار معنى الكلمات قرا كبيرا من الانتباه والحلاف، بل إن هناك من ينكر الآن أي وجود لمعنى - د" (أي: التمثيل الدلالي)، المضمون الصيق" عموما. ولا تثار مسألة مماثلة عن "الصوت - د" إلا قليلا. ويبدو لي أن التخصصات الاحتمالية تدرس الأمرين بطريقة واحدة تقريبا: فهي تفترض على الأخص أنهما يشتملان على سمات كلية غير متغيرة تصاغ منها الوحدات المعجمية (ومن هنا فهي ليست "شبكة" holistic بصورة جذرية). وسأستلم مؤقتا بأن الفراض وجود "الصوت - د" و "المعنى - د" مشروع، وسأعود فيما بعد إلى مناقشة أسباب إنكار هذا الافتراض.

وتحصل الملكة اللغوية حالة "تحت تأثير قدر ضئيل من التوجيه والتشريب أو القرار، إن كان هناك أثر لمثل هذه لبتداء، وتمر بحالات ذات خصائص معينة وتثبت جريئا عند مراحل عمرية محددة. وتسير عمليات الدهس، إذا استعربا عبارة هيوم، في ضوء طرق لتقليل طبيعي، بسبق التأمل، ولا يمكن للتأمل] أن يمنعه" (Hume 1740/1948: 147, Book I, Part III, Section 13). وتشكو الملكة اللغوية، بهذه المعايير كذلك، شبيهة بالأعضاء الجسدية الأخرى. ويستمر المعجم في التعير بطرق معينة، ويتعرض لدرجة من الاحتيار الشعوري (كما يحدث للأجزاء الأخرى من

اللغة، بصورة هلمثية). لهذا نحوى معجمي الكلمة *dour* "قاسٍ" التى تسجع مع الكلمة الأخيرة فى الخير "خ"، أى: *power*. وربما تحوى لغة بيتر كلمة مختلفة بالمعنى نفسه لكنها تسجع مع كلمة *poor* "فقير". ويمكن أن أنحلى عن الكلمة التى أستخدمها، لأستخدم الكلمة التى يستعملها بيتر، أو ربما أعطيتها معنى مختلفاً شيئاً ما مع الإبقاء على "صوتها - د" ثابتاً؛ وربما يكون ذلك بقرار واع، أو من غير وعى. ونقع مثل هذه الأحداث فى نطاق ما يسميه نايلور بيرج بـ "الشبكة الواسعة للوعرة للاعتمادات المتبادلة، التى تقوم على أنماط الاستقسان برأى الخبراء التى تعيدنا مرة أخرى إلى أساس يسعون إلى للتوافق مع الآخرين" (Tyler Burge 1986b: 702, 703)، كما أنها التى تؤسس، مع العلاقات المختلفة للقوة والتنظيمات الاجتماعية والعوامل الشخصية وعوامل أخرى، "معيّراً للتعامم اللغوى المتواصل عليه"، كما يفهم بصورة عامة. أما إن كانت [هذه العوامل] توفر معنى لغوياً كذلك، كما يقترح بيرج، فيبدو لي أمراً من أمور الاصطلاح، لا الحقيقة. كما لا يبدو لي واضحاً كيف يمكن أن ينظم شخص شيئاً عن مثل هذا التعقيد للمتووع من غير أن يعصر دراسته بالأجزاء التى يمكن أن تخضع للدراسة الدقيقة. ولا تذهب "اللسانيات - د"، بأية حال، أبعد من القول بأننى، فى الحالة التى بين أيدينا، أصغت وحدة جديدة إلى معجمي، مع التحلى، ربما، عن استخدام وحدة أقدم منها؛ وهى لا تسعى، بصورة أعم، إلا إلى تحديد بعض العوامل المعينة، وهى عوامل جوهرية فيما يبدو، مما يدخل ضمن التعقيد الباهر للشئون البشرية.

وكثيراً ما يُعتقد أن "أحكام الناس [اللغوية] العورية، أو حدوسهم، كما يسميها الفلاسفة، تكون الموضوع الذى تهتم به اللسانيات ونظرية الإحالة، اللتان تسعىان إلى تحديد "الحدوس النحوية" و"الحدوس الإحالية" بطريقة منهجية<sup>(٥)</sup>. ويمكن للمرء أن يعرف المشاريع [العلمية] بالصورة التى يريد، لكن من الصعب أن نرى أهمية تحديد بعض المقولات المعينة لأحكام [المتكلمين]، أو لأنواع المادة الأولية الأخرى المختارة.

حد دراسة الإحالة، في مظهرها، أي: دراسة كيف يستخدم الناس اللغة للحديث عن الأشياء ودراسة أفكارهم عن مثل هذه الأمور. وربما يمكن لأحكام [المتكلمين] أن توفر أدلة، لهذين النوعين من الدراسة، وربما يصح الاعتماد عليها أو ربما تكون مفيدة، وربما لا تكون. وربما يمكن البحث جاد في دراسة هذين الموضوعين أن ينقصى التشابهات عبر الثقافات، واعتبارات قدر المسئ، والتجارب النفسية اللسانية، والتصوير الآلي للدماغ، أو أي شيء آخر يمكن أن يقترح. لكن هذين المسارين للبحثيين كليهما لهما دراسة لأحكام [المتكلمين]، وإن أمكن النظر إليهما على أنهما دراستان للحدوس بمعنى مختلف: أي دراسة لحقيقة ماهيتها، وهو موضوع تصلح الأحكام الحسية فيه أن تكون مصدراً للمعلومات، في أحسن الأحوال. (وينظر منك إلى هذا الأمر من زلوية مختلفة شيئاً ما Stich 1996).

ولا تعدو الأحكام الحسية أن تكون مادة أولية، ويمكن أن تصير دليلاً في إطار نظرية تفسيرية ما. فقد استخدمت الأحكام التي أوردناها عدد الكلام عن الأمثلة في (١) أدلة لتأييد النتيجة التي معادها أن تابع الصفة "مكون مركبي" يتضمن ثلاث مقولات خالية، هي: الفاعل العتق، والمتعبر الخالي O، وأثر O، وهي أفكار تضر في إطار النظرية، وتؤرخ بصورة مستقلة إن كان للتفسير الذي أعطى للمثال (١) من قوة. ولا يملك المتكلمون أحكاماً حسية، عن هذه الأمور، أكثر مما يملكونه من أحكام حسية عن "العضلات الشاذة" tensors أو عن فكرة "اللايفين" undecidability.

ويجب النظر بقدر من الحذر إلى الأحكام الحسية التي يُحدث المتكلمون على إعطائها مع حذف التوقعات العادية منها. افترض أننا سألنا بيتر: هل يحدث رجل مريخي اللغة التي يتحدثها هو إن كان [هذا الرجل] يشترك معه في أحكامه عن المثال (١) وتعبيرات أخرى لكنه يستحم مبادئ مختلفة أو كان تركيبه الأحيائي الكيميائي مختلفاً؟ أو إن كان يمكن لنسخة شبيهة ببيتر حلفت للنو أن تتحدث عن الأتهار أو الماء. وتصبح الأحكام [في هاتين

الحالين] غير واضحة، وتتصاعل باتجاه عدم الأهمية؛ لأن الجارب الذهنية تحذف الاعتقادات المسبقة التي تُعرض في الاستخدام العادي للغة، وهو ما يجعلها تتحول إلى مجالات توهم الأرض ورجال المستنفعات، والعوالم الأخرى العربية (انظر Stich 1983: 62; Fodor 1994: Appendix B).<sup>(٦)</sup>

افرض لنا تنبيهاً مشهداً متخيلاً "العوالم الغريبة" لاستقصاء ما يدخل في تصورات بيتر: فهل يشمل تصور "الماء" عنده "من من ع" في نوع الأرض، مثلاً؟ وهل يمكن أن يقول — أو يكون صحيحاً منه أن يقول — إن "الماء" في نوع الأرض هو "من من ع"، بخلاف الأمر هنا؟ لو: ليس في نوع الأرض "ماء"، بل "من من ع" فقط؟ أو لا واحد منهما، تبعاً لتغير شروط التجربة الذهنية؟ أو ربما ليس فيها شيء يمكن فهمه؟ ويمكن للإجابات أن توفر أدلة لتفسير معين لحالات بيتر اللغوية وممارساته، وطرق تفكيره، وربما كان لهذا التفسير صلة بالسؤال الأول عن التصورات إن كانت الفكرة التقية لنوع الأرض تدخل في التعليل النظري. أما خارج السياق فربما لا تبين الأحكام إلا القليل حتى إن كانت ثابتة في حين تتنوع شروط التجربة الذهنية، وهو ما يبدو - الأمور بخلافه.

وينبغي ألا تُمارع دراسة الدلالة الشعبية إلى الافتراض بأن الممارسات والمواضع في تقليد ثقافي معين دليل جيد على الفهم البديهي، سواء أكان فهم الباحث أو فهم غيره.<sup>(٧)</sup> فينبغي عليها في الأقل أن تحاول اكتشاف التشابهات للملكة اللغوية واللغة — د في هذا المجال، ساعية نحو تحديد المكون النظري.

افرض أن بيتر يقول إن "جو الممن" صوت لصالح مشروع الحد الأدنى للأجور، لأنه مشغول بصحة ابنه، فهل يلزم أن نستنتج أن بيتر يعتقد أن العالم مكون من وحدات مثل: جو الممن، والحد الأدنى للأجور، والصحة، وعلاقات مثل "صوت لصالح" و"الانشغال بـ" التي تربط بينها؟ وهل يكون الاستنتاج المولدى مسوغاً حين يقول بيتر إن قوم رار بوسطن؟

، إذا قال بيتر إن السنك لنقل إلى الجهة المقابلة من الشارع بعد أن يمشى حريق، فهل يعتقد أن من بين الأشياء في الكون هناك أشياء يمكن أن تحترق لكن ما يزال من الممكن أن تبقى، وهو ما يحطها تنتقل؟ ويمكن أن تثار أسئلة مماثلة عن الكلمات التي في "ح". ويهتم العلم الإنثى بالتصورات العلمية الشعبية عن هذه الأمور. أما علم الطبيعة البشرية فيحاول أن يكتشف ما يحدث فعلاً، وأن يكتشف تعقيدات "التصميم التشريحي للعقل"، بتعبير هوم، والطرق التي تتدخل بها بناء وعملياته في التفكير والفعل. وهذا النوع من البحث مختلفان، مع أنهما ربما يستخدمان مواد أولية متشابهة (وربما تكون أحكاماً حدسية).

وربما يهتم بحث معنى كلمة meaning "معنى" أو كلمة sound "صوت" باكتشاف:

- ١- السمات الدلالية ("المعنى - د") للوحدتين المعجميتين: "معنى" و"صوت" في إحدى لهجات اللغة الإنجليزية.
  - ٢- الأفكار التي لدى الناس عن المجال العام للمعنى والصوت.
- أو:

٣- أفضل نظرية عن اللغة واستخدامها.

والسؤال (١) سؤال عن كلمات إنجليزية (ذات خصائص غريبة نوعاً ما)، ويدخل (٢) في إطار العلم الإنثى؛ أما (٣) فيدخل في إطار علم الطبيعة البشرية. وبشير (١) و (٢) أسئلة جادة مشروعة إلى حد بعيد. لهذا نجد، حين نستقصى (١) أنه ليس للأسماء معانٍ؛ فليس للسؤال: "ماذا يعني 'ستالين'؟" معنى، إلا أن كنا نسال عن الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم. ونجد كذلك أن السؤال: "ماذا يعني للتعبير 'ت'؟" يشترك في الخصائص مع السؤال: "كم يزن جون؟" و: "يم يشعر جون؟" بدلاً من اشتراكه مع السؤال: "ماذا أكل جون (أو قال) لو 'عنى'؟"، مما يوحي بأن ما يعنيه "ت" ربما



يكون نوعاً من النوعية الظرفية. وليس لدراسة (١) و(٢) إلا قدر ضئيل من الأهمية الواضحة للسؤال (٣). وينصح هذا تقريباً في دراسة التفكير والاعتقاد والتصورات، إلخ.

### تأويل المستويات الوظيفية:

دعنا نلتفت إلى بعض المسائل التي تقع في إطار (٣) أعلاه: أي المسائل التي تتعلق بالملكة اللغوية والحالات التي نتخذها، والكيفية التي تُسمح بها مع المكونات الأخرى للذهن/الدماغ في استخدام اللغة.

وإحدى المشكلات النموذجية المعقولة إلى حد بعيد، وهي استخدام أفكار تقليدية، لن التعبير "ت" في "ل" يتألف من زوجين: "صو، دلا"، حيث يمثل "صو (ت)" المعلومات التي تتصل بصوت "ت" وتمثل "دلا (ت)" المعلومات التي تتصل بمعناه. ونصاع "صو" و"دلا" بالعمليات الحوسبية التي تعمل على الوحدات المعجمية. افترض أن "ت" كلمة معزولة. و"صو (ت)" تمايز عموماً عن "صوتها" - "د" نتيجة للعمليات الصوتية، أما "دلا (ت)" فربما تتماثل مع "المعنى" - "د" - "ت"، تبعاً للعقائد عن تحليل العناصر المعجمية، وما يشبهها. و"صو (ت)" و"دلا (ت)" عنصران عند "المستوى الصوتي" و"المستويات الدلالية"، على الترتيب؛ أي أنهما "تمثيلان" الأول صوتي والثاني دلالي. ولهذه المصطلحات معانيها التقنية المعينة؛ فليس هناك شيء "تمثل" بالمعنى الذي في النظريات التمثيلية للأفكار، مثلاً (٨). وهذا للمستويان "وحيهتان" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى، وبوفران المعلومات التي تستعملها الأجهزة الحركية الحسية والأنظمة الأخرى لاستخدام اللغة.

وقد أُنجزت أبحاث كثيرة رائدة عن هذه التمثيلات والكيفية التي تصوغها بها عمليات "اللغة - د" (عن الجانب الدلالي، انظر inter alia, Pustejovsky (1995), Larson and Segal (1995)، والمراجع المذكورة

هناك). ويمكن أن يُنظر إلى هذه الأبحاث على أنها "تركيب" بالمعنى التقني؛ فهي تدرس خصائص الموضوعات الرمزية وتنظيماتها. وتسمى هذه الأبحاث أحياناً بعلم الأصوات، على الجانب الصوتي، لكن مع فهم أن دراسة السمات الصوتية، والبنى المقطعية والعروضية، وغيرها، لا تسهم إلا في الدراسة الأكثر عموماً للكيفية التي تستخدم بها الأنظمة الحركية الحسية المعلومات التي توفرها "اللغة - د"، والكيفية التي يتصل بها هذه الكم المعقد كله ببعض الأحداث الخارجية. وهذه قضايا يعنى بها علم الأصوات الفيزيائي وعلم الأصوات النطقي، وتذهب بعيداً وراء "اللغة - د". وربما تكون الممارسة نفسها ملائمة، كما نظن، في مجال الأبحاث التي تسمى غالباً بـ "علم دلالة اللغة الطبيعية" و"علم دلالة المعجمية". فيمكن النظر إلى هذه الأبحاث على أنها جزء من "التركيب"، لكنها موجهة لمستوى وجيهي مختلف، ولمظاهر مختلفة أخرى من استخدام اللغة، وبقدر ما تقوم علاقة السجع بين chase "يطرد" و lace "الخيوط الذي تربط به الحذاء"، على خصائص "الصوت - د"، وتقوم علاقة الاختصاص بين chase و follow على خصائص "المعنى - د"، فهما تنضويان تحت "التركيب"، بمعنى تقليدي.

وتتصل الأبحاث كلها تقريباً في مجال "التركيب" بمعناه الأصيق اتصالاً وثيقاً بمسائل التأويل الدلالي (أو التأويل الصوتي، بالطبع)، وهو يسوغ بمثل هذه المسائل. وقد أسيء فهم هذه الحقيقة في أحيان كثيرة لأن كثيراً من الباحثين اختاروا أن يسموا هذه الأبحاث "تركيباً"، معتقطين بمصطلح "دلالة" ليطلقوه على علاقات التعبيرات بأشياء غير لغوية<sup>(١)</sup>، وكانت الأبحاث المعاصرة المبكرة في "اللسانيات - د" (أي النحو التوليدي) تُعنى بمعاني تعبيرات كالتي في (١) (ص ٣١٤)، وهو إحياء لبعض اهتمامات النحو التقليدي، وربما كان مفيداً أن نميز مظاهر "اللغة - د" الأصيل بالصوت أو الأصيل بالمعنى؛ لكن علمي الأصوات والدلالة، بمعنى الكيفية التي تتعامل بها اللغة مع العالم، يقعان وراء ذلك.

وتبرز أسئلة أكثر خطراً عن الصورة العامة لهذا النوع من البحث] عند كل منعطف، بدءاً من البنية المفترضة للذهن وانتهاءً بتفاصيل التنفيذ. فتتصل فصيلة من الأسئلة بموضع المستوى الوجيهي. فيجب، على الجانب الصوتي، أن يُحدّد هل الأنظمة الحركية الحسية خاصة باللغة جزئياً، فتكون صمن الملكة اللغوية، إذن، وهو ما يعني أنه يجب أن يكون المستوى الوجيهي "وراء" ما يُعدّ عادة تمثيلاً صوتياً؛ وهناك خلاف كبير على هذا الأمر، أما على الجانب الدلالي فتتعلق الأسئلة بالعلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة المعرفية الأخرى، ولا يمكن أن يُقدّم، على أي من المستويين، إلا بعض التحريصات المعقولة التي لا تعدو أن تكون مقاربات أولية.

وقد درست أسئلة العلاقة بين اللغة والعالم على المستوى الوجيهي الصوتي بصورة معمّقة باستخدام تقنيات عالية التعقيد، لكن المشكلات عصبية، وما يزال فهمها محدوداً، والأسئلة عن الأمور التي تُستخدم التمثيلات الدلالية لها أكثر من ذلك غموضاً، ولا يُعرف إلا قدر ضئيل جداً عن الأنظمة الخارجية للغة؛ ويرتبط قدر كبير من الأدلة عن هذه الأنظمة ارتباطاً وثيقاً باللغة مما يجعل تحديد متى تتصل باللغة، ومتى تتصل بالأنظمة الأخرى (بقدر ما تتمايز) صعباً جداً. يضاف إلى ذلك، أن النقصي المباشر الملائم للممكن للأنظمة الإدراكية الحسية ما يزال في بداياته. ومع هذا، فهذا كمّ صحم من المادة الأولية التي تتصل بالكيفية التي تُستخدم بها التعبيرات ونُغم في ظروف معينة، وهي كافية إلى حد صار عدده علم دلالة اللغة الطبيعية أخذ أكثر جوانب دراسة اللغة حيوية، وإن كانت الأسئلة التي تتعلق باستخدام اللغة ما تزال سراباً.

#### الوحدات المعجمية:

اقترحت أنفاً أن التعبير يتألف من زوج: «صو، دلا» يصاغ من وحدات معجمية، كل منها مجموع معقد من الحصاص، ومنها "الصوت -

د" و"المعنى - د". وتؤول "صو" و"دلا" عن طريق الأنظمة الخارجية للغة. ومن المحتمل ألا يوجد، عند هذين المستويين الوجيهين، وحدة فرعية تتعامل مع الوحدة المعجمية. وليس هناك خلاف في هذه النقطة في المستوى الوجيهي الصوتي. وبفترض عدد كبير من الأبحاث التركيبية/الدالية أن من الممكن أن تحلل الوحدات المعجمية إلى الخصائص التي تتألف منها ثم يعاد ناليفها في أثناء حوسبة "دلا". فربما ينتج عن وحدات مثل who أو nobody، مثلاً، تركيب تتألف من "عامل - محدد - متغير" عند مستوى "دلا"، مثل:

([John saw x] [QUx, x a person])

([أداة استفهام "من"، "من" شخص] [جون رأى "من"])

وربما تكون هناك طرق أخرى يمكن بها تعديل خصائص الوحدات المعجمية الدالية أو توزيعها. ومع هذا نستطيع، في الكلمات البسيطة عموماً، أن نفترض أن "دلا" تصاوي "المعنى - د" (وربما يكون هذا تعبيراً عن جهلنا).

وهناك بدائل شائعة لهذه الصورة فيما يخص المكون الدلالي للوحدات المعجمية، كما تنحو بعض الدراسات الأكثر تصاقاً بالاحتمالية والنقاشات التصورية عن طبيعة المعنى والإحالة إلى تناول هذه المسائل بطرق مختلفة شيئاً ما. فتتطر النقاشات التصورية عادةً إلى الكلمات والتعبيرات الأخرى على أنها وحدات صوتية (أو هجائية)، أو أنها معزولة إما عن الصوت أو عن المعنى؛ فيمكن لكلمة ما تبعاً لذلك أن تعبر معاً، بل ربما صوتها ومعناها معاً، وتظل، مع هذا، الكلمة نفسها. ولا يبدو أن لهذه المواضعات معنى؛ إذ يجب أن تُفسر وتُسوّغ، في الأقل، والدعوى الأبسط أنه ليس لتعبير ما وجود بمعزل عن خصائصه عند المستويين الوجيهين، "صو (ت)" و"دلا (ت)" (إن كان هناك مثل هذين المستويين).

وربما كانت عملية استكشافية مفيدة، في ظني، أن ننقضي للتشابهات بين جانبي الصوت والمعنى إلى أبعد حد يمكن أن نذهب إليه. فيمكن أن

نعمال، تحديدًا، إن كان من الممكن إلقاء الضوء على القضايا الدلالية عبر طريق النظر في مشابهاتها الصوتية، وهي التي كثيرًا ما تبدو أقل إثارة للحلاف.

نظر الآن إلى "اللغة الذهنية" بديلًا للصورة التي أوصفناها إلى الآن. بدلاً من أخذ الوحدة المعجمية على أنها تتضمن "الصوت - د" و"المعنى - د"، دعنا نعرض أن أحدهما مفقود، أو ربما الاثنين معاً. وتبعاً لهذا، إما أن يكون "د" مفقوداً أو "صو" مفقوداً، أو كلاهما مفقودين عند المستويين الوجيهين. فبعض أن تتعلم لغة ما أن تكتسب قواعد تحول الوحدة المعجمية إلى نظام آخر من أنظمة الذهن، أي "اللغة الذهنية"، التي تحول لتنتج (مظاهر) الصوت والمعنى. وإذا كان "الصوت - د" مفقوداً، تحول الوحدة المعجمية إلى "ص - اللغة الذهنية". وإذا كان "المعنى - د" مفقوداً تحول الوحدة المعجمية إلى "د - لغة ذهنية". أو إليهما معاً. أما اللغة نفسها فليس لها صوافة/لصوات، ولا دلالة، ولا الاثنان معاً. هذه هي خصائص اللغة الذهنية.

ولا توجد مثل هذه الاقتراحات في الجانب الصوتي - على حد ما أعلم - أما في الجانب الدلالي فهي شائعة. والسؤال هو: ما المضمون الجوهرى لهما، على أى الجانبين؟

وللتمثيل لهذا الأمر بأمانة فعلية، انظر مرة أخرى، إلى كلمات المثال (٢)، أو كلمات: persuade "يُحْضِرُ"، و force "يُزْعِمُ"، و remind "يُذَكِّرُ" في مكان X "س" في المثال (٣):

—٢ chase, lace, follow

—٣ John X ed Mary to take her medicine.

• "جون" "س" [فعل في حالة الماضي] "مارى لتتناول دواءها"

أمر ص أنه ليس للوحدات المعجمية المقابلة لـ X "صوت" - د" وأن  
 بيتر تعلم كيف يحولها إلى مناطق "ص - اللغة الذهنية" التي لها تأويل  
 صوتي. ويعرف بيتر أشياء كثيرة عن هذه المناطق وتأويلاتها. فهو يعرف  
 أن chase تسجع مع lace؛ وأن persuade و force تبدآن بضم الشفتين، وأن  
 بطريقتين مختلفتين، أما remind "يذكر" فلا؛ إلخ. وتحزو المقاريبات المونجية  
 هذه الحصائص إلى الملكة اللغوية، وتري أنها ممثلة في "صو". وبصيف  
 البديل "ص - اللغة الذهنية" طبقة أخرى من التعقيد، ويثير مشكلات جديدة،  
 ومنها مثلاً: ما مكون الوحدة المعجمية الذي يبين المنطقة التي تحول إليها في  
 "ص - اللغة الذهنية"، إن لم يكن [ذلك المكون] هو "الصوت - د" (كما  
 يفترض في النظريات المألوفة)؟ وما النقطة التي يُنجز عندها تحويله إلى  
 "ص - اللغة الذهنية" في أثناء حوسبة تعبير ما؟ وكيف يعبر عن الحصائص  
 الكلية والخاصة للصوت عند تأويل "ص - اللغة الذهنية"؟ ولم تثر مثل هذه  
 الأسئلة من قبل، لأسباب وجيهة، وهو ما يبيح لنا أن نسقط هذا الأمر تماماً.

انظر الآن إلى التطير الدلالي. فنعرض الآن أن الوحدات المعجمية لا  
 تتضمن إلا "الصوت - د" وخصائص صوتية غير مؤولة، وأن بيتر تعلم  
 كيفية تحويلها إلى مناطق "د - اللغة الذهنية"، التي لها لا تأويل دلالي.  
 (للاطلاع على صور متعددة من وجهات النظر هذه، انظر: Fodor 1990: Chapter 7، وهو مراجعة لكتاب Schiffer 1987). ويعرف بيتر أشياء كثيرة  
 عن هذه المناطق/التأويلات كذلك. لهذا، فإذا طرّد توم بيل فقد تبع توم بيل  
 بقصد معين، لا العكس؛ وإذا كانت X "س" = "يُحض" persuade في المثال  
 (3)، فإن جهود جون نجحت جزئياً (إذا صارت ماري تقصد أن تتناول  
 سواها، لكنها ربما لم تفعل)؛ وإذا كانت X "س" = force "أرغم" فإن جهود  
 نجح، لكن بطريقة مختلفة (فقد تناولت ماري الدواء، سواء أكانت تقصد أم  
 لا)؛ وإذا كانت X "س" = remind "يذكر" فإن جون ربما أخفق (إذا إنها ربما  
 لم نعره اهتماماً)، أما إن نجح، فإن ماري صارت تتذكر أن تتناول دواءها.

وتعزو المقاربات المبكرة هذه الخصائص إلى الملكة القلوية، وتأخذها على أنها تظهر في "دلا" نتيجة لعمليات للوحدات المعجمية والتركيبات التي تظهر فيها، وبضيف البديل "د" — اللغة للدهية" طبقة أخرى من التعقيد ويثير أسئلة جديدة إضافة إلى الأسئلة التي أثرت في النظير الصوتي. فإذا أخذنا الوحدات المعجمية على أنها ليس لها "صوت — د" ولا "معنى — د" فكلا السوعين من المشكلات يبرز.

وربما نُضَلِّلنا بعض الأمثلة البسيطة مثل:

Snow is white.

"الثلج أبيض".

أو الجمال الوصفية في "خ"، مثل:

the sky is dark.

"السماء مظلمة".

إلخ. لكن المشكلات تتصاعف حتى مع أبسط توسيع للنمط. انظر إلى:

the rain looks heavy.

"يبدو المطر غزيراً".

و:

The wind feels strong.

"تُشعر الريح بأنها قوية" [تُشعر بأن الريح قوية].

وغيرها، والمثال (٤)، عموماً:

—٤ X (is, looks, tastes, sounds, feels, smells, . . . ) Y

س (يكون، يبدو، يُتَنَوَّق، يُسَمع، يُشعر، يُشم، . . . ) ص

بل إن جملاً بسيطة كهذه تثير بعض مشكلات الترجمة، حتى في اللغات المتشابهة. فكيف يسقى أن تترجم إلى "اللغة الذهبية" الكلية؟<sup>(١٠)</sup>

وربما يترتب على بعض الإجابات عن مثل هذه الأسئلة بعض المقتضيات الاحتشائية في إطار نظريات أكثر تفصيلاً للغة و"اللغة الذهبية"، وربما يسوع ذلك التعقيدات الإضافية، أما حين تكون هذه المقترحات معرولةً وربما يصعب تفويتها.

افرض أننا طورنا نظريات إحصائية للتأويل، إما للتعبيرات اللغوية مباشرة، أو إلى ترجماتها في "اللغة الذهبية". وإحدى الفرضيات النموذجية، فيما يخص الصوت، أن الأنظمة الحسية الحركية تنفذ إلى "صوت (ت)"، عند إنتاج التعبير أو إدراكه. دعنا الآن نفترض، بدلاً من هذا، أنه ليس للوحدة المعجمية "صوت - د" لكنها تحيل صوتياً إلى شيء ما خارج الشخص؛ ولنسمه بـ "القيمة الصوتية" للوحدة المعجمية (أو بدلاً من ذلك، لصورتها الصوتية في "اللغة الذهبية")، ثم نفترض أنه ينشأ عن حوسبة "القيم الصوتية" المكون اللغوي لصوت "ت"، أي "القيمة الصوتية لـ (ت)". وربما تكون "القيمة الصوتية" شيئاً يتعلق بالصوتيات التي تتصل بالمنطوقات (أو بالمنطوقات الممكنة) لـ "ت" تبعاً لاختلاف الظروف (وربما تبعاً لاختلاف المتكلمين، بقدر ما يكونون متشابهين تقريباً)؛ أو ربما تكون تركيباً مصوغاً من حركات الجزينات. ويمكن أن يطور هذا الاقتراح بالنظر إلى "القيمة الصوتية" على أنها محددة ببعض العوامل الاجتماعية والفيزيائية المتنوعة. وربما استطعنا أن نمضي في تفسير التواصل والترجمة والاكتساب والعمليات الأخرى بهذه الطرق؛ لهذا يستطيع بينر أن يتواصل مع نوم؛ لأن تعبيراتهما في اللغة التي يشتركان فيها (ولن كليهما لا يعرفاتهما إلا معرفة جرنية) تحيل صوتياً إلى "القيمة الصوتية" نفسها.

وبترك هذا الاقتراح للمشكلات كلها حيث كانت، مضيقاً إليها عددًا من المشكلات الجيدة. فلا يتجاوز ما نفهمه الآن ما كنا نفهمه من قبل عن علاقة



"ت" بتحقيقها الخارجية. أما تحليل التواصل والعمليات الأخرى فلا قيمة له. وليس هناك سبب للافتراض بأن لمثل هذه "القيم الصوتية" مكاناً في العملية التي بصوغ بها ذهن إنسان معين نسخة مما يقوله شخص آخر. ولهذه الأسباب، لم يأت أحدٌ باقتراح يمكن أن يتماشى مع هذه الطرق.

ننظر إلى التفسير الدلالي<sup>(١١)</sup>. نفترض الآن أنه ليس للوحدة المعجمية "معنى - د" لكنها (أو صورتها الدلالية في "اللغة الذهبية"، وربما تكون هذه "فكرة" أو "تصوراً") تعين دلاليًا S-denotes "قيمة دلالية" للوحدة المعجمية خارج الشخص، أي مركباً معيناً مما يتحدث عنه حين ينطق "ت" (مع اختلاف المتكلمين والظروف)، وربما تحلّله جزئياً بعض الخصائص الاجتماعية والعزائية. ويمكن مرة أخرى إعطاء تحليل ما للتواصل والترجمة والاكتساب، والعمليات الأخرى في ضوء هذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع جون؛ لأن تعبيراتهما تعين دلاليًا S-denote للقيم الدلالية نفسها في اللغة المشتركة التي يعرفانها بصورة جزئية.

ونأخذ الآن "القيم الدلالية" لـ "جو المدمن"، ولقد الأننى للأجور، و chase، و persuade، و look، والكلمات في "خ"، إلخ (أو تصورها الدلالية في "اللغة الذهبية") على أنها جو المدمن، والحد الأننى للأجور، والطرء، والحض، والمطر، والسماء، وبوسطن، والأنهار، والضراب، والخسارة، والقوة، . . . إلخ، مع إضافة بعض الأشياء عن "من"، و"لا أحد"، إلخ. ولكي نعطى الخصائص الدلالية لـ "ت" في:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong.

"اللغة للصينية لغة بكين وهونج كونج".

نأخذ "القيم الدلالية" على أنها: الصينية، لغة، بكين، إلخ. وربما نسأل عن إن كانت القيمة الدلالية للشيء الخارجي: (the fate of the Earth) "مصير الأرض" = "القيمة الدلالية" لـ (the Earth's fate) "مصير الأرض".

في اللغة المشتركة (أو عند شخص يمكن أن يقال عنه "إنه يعرفها") أو الفرق بين الجملتين ليس واضحاً في الترجمة للعربية؛ ذلك أن الإضافة في اللغة الإنجليزية تتحقق بالطريقتين اللتين تبييهما الجملتان، أما في العربية فبالإضافة صورة واحدة]. ويمكن أن نستمر في تقصى الأحكام الحديثة، بغض النظر عما يعنيه ذلك في إطار هذه التتبعات الشبيهة بالتقنية.

ولم يسهم هذا، إلى الآن في الأقل، في أي تقدم للمشروع الأصلي، إذ لا يعدو أن يكون إعادة صياغة له، مع كثير من المشكلات الجديدة، ولم نتعلم شيئاً أكثر مما كنا نعرفه عن الكيفية التي تستعمل بها التعبيرات اللغوية أو تؤوّل. وسواءً بنينا هذا الاقتراح أو ذلك، فما يزال يجب علينا أن نعلل خصائص التعبيرات؛ أي خصائص الأمثلة في (١) - (٤)، مثلاً. وليسمت الحالات الصوتية والدلالية متماثلة، بالطبع؛ فهي متشابهة وحسب، لكنها تشابه بطرق ربما تكون دالة.

لنرض أننا سلطنا مساراً مختلفاً، فالتين إن خصائص السجع وأنماط الاستدلال، وغيرها، لا تتصل باللغة (أو بصورها في "لغة الذهنية")، بل باعتقاداتنا عن "القيم": أي الأشياء الخارجية، بحسب النظر عن ماهيتها. فنقول، في الجانب الصوتي، إن لاعتقاد بيتر بأن "القيمة الصوتية" لـ *chase* تسجع مع "القيمة الصوتية" لـ *lace* مكانةً مختلفة عن اعتقاده الأخرى عن القيم الصوتية (نحو قيم نسبة تكرارها، مثلاً). ويصح الشيء نفسه عن الخصائص الأخرى. لكن أحداً لم يثن مثل هذا الاقتراح من قبل، ويمكن لنا مرة أخرى أن نُسقطه من حسابنا.

وربما يكون التطير لهذا على الجانب الدلالي أن نقول إن خصائص الأمثلة (١) - (٤) تعلل في ضوء اعتقادات بيتر عن العالم؛ وربما في ضوء قوة الاعتقاد، بمصطلحات كوين. وهذه الاقتراحات مألوفة، بل أقرب ما تكون إلى التقاليد المحافظة. ويجب علينا لكي نقوم هذه الاقتراحات أن نكشف المرید عن كيف تثبت الاعتقادات بهذه الطرق المعقدة جداً والموحدة إلى حد

يعيد في اللغات وعبرها، من بين مسائل أخرى، وليس لهذه الاقتراحات مصمرون تقريباً إلا بعد أن تُبحث هذه المشكلات.

ويبدو من المعقول، عند هذه النقطة، أن نستنتج أن الوضع هنا يشبه تقريباً الوضع على الجانب الصوتي: أي أن الخصائص الدلالية للكلمات والمركبات تحدد بالطرق التي تُكوّن بها، مع إسهام قطري غني. والمشكلة الآن أن يكشف خصائص "الصوت - د" و"المعنى - د" (للوحدات المعجمية، أو لنظيرتها "د - اللغة الذهبية")، والطرق التي يمكن أن تُؤلف بها، والحوسبات التي تنتج التمثيلات الوحيية وكيف تؤلف الأنظمة الخارجية للغة. وهناك، في المجالين كليهما، عدد كبير من المشكلات التي لم تحل، لكن قدراً كبيراً من التقدم الجوهري قد تحقق كذلك.

ننظر إلى مقارنة أخرى مختلفة: ويحتل فيها صوت تعبير معين ومعناه جريئاً إلى علاقات من النوع الذي رأيناه في نقاش المثالين (٢) و(٣). فلوحة المعجمية نمط (متناه) من العلاقات بالتعبيرات الأخرى، وتتمثل هذه بالعلاقات الصوتية والعلاقات الدلالية، وقد تُضاف إليها الخصائص الإحالية الصوتية والدلالية، ونصح الشيء نفسه في التعبيرات الأكثر تعقيداً. فتألف العلاقات الصوتية لـ chase من الخصائص التالية: أنها تسجع مع lase، وتبدأ (إصوتياً) بالطريقة نفسها التي تبدأ بها كلمة child، وتتضمن العدد نفسه من المقاطع في pin، إلخ؛ وتألف علاقاتها الدلالية من علاقاتها مع follow "يتبع"، و intend "يقصد"، إلخ، إضافة إلى بعض الأدوار التصورية والاستدلالية الأخرى.

وليس لهذه المقارنة، مرة أخرى، قيمة على الجانب الصوتي، كما يبدو؛ فالمقارنة المونجية التي تقوم على تأليف السمات كاهية للتعبير عن العلاقات الصوتية إضافة إلى الظواهر الأخرى، مثل: علاقة مكونات chase بالإشارات النطقية والضوضاء، وخصائصها التوزيعية (كالتفاعل بين الصوامت والصوائت، مثلاً)، إلخ. كما تشترك العلاقات الصوتية لـ chase

مع العلاقات الصوتية (الكلمة) في كلمات أخرى. ويمكن أن يعثر عن عدد كبير من الحقائق المشابهة في إطار وجهة النظر النموذجية التي مفادها أن الوحدة المعجمية مكونة من خصائصها، وهي التي تتخل في تحديد علاقاتها الصوتية بالتعبيرات الأخرى وغير ذلك. لهذه الأسباب لم يلتفت أحد إلى مثل هذا الاقتراح قط<sup>(١٦)</sup>.

وهناك اقتراحات مشابهة - مرة أخرى - على الجانب الدلالي، وتبرز أسئلة مماثلة. فتشترك persuade "يُحْضِرُ" في العلاقات الدلالية مع الخصائص الدلالية لـ raise "يرفع": أي في خصائص "المسببة"، التي تُرْسِتْ باستقصاء في لغات كثيرة، مع نتائج غير نافذة. وينبغي أن تبين صورة محقولة للوحدة المعجمية هذه الحقائق، كما ينبغي أن تبين الخصائص التوزيعية التي لم تبين (بطريقة مقنعة) في ضوء الأنوار الاستدلالية والتصورية؛ ومن ذلك مثلاً، أن deny "ينكر"، و doubt "يشك"، و refuse "يرفض"، وغيرها، تظهر مع الأنواع الخفية polarity items (مثل: any, ever, "أبداً"، "إطلاقاً"، إلخ) بطرق لا تظهر بها كلمات مثل assert "يقرر"، و believe "يعتقد"، و accept "يقبل"، وأن الكلمات من النوع الأول، بهذه المعايير، تشبه "لا"، و"قليل" (في مقابل "كثير"). وتسعى المقاربات النموذجية إلى اكتشاف خصائص "المعنى - د" و"دلا" التي يمكن في صونها أن يعثر عن حقائق كثيرة وأن تفسر، ويشمل ذلك الاستدلالات وخصائصها المشتركة والمختلفة.

والتأويلان الدلالي والصوتي متشابهان تقريباً، إن نظرنا إليهما بهذه الكيفية؛ فيتألف "ت" من التمثيلين الوجيهين "صو (ت)" و"دلا (ت)"، المحوسبين من الوحدات المعجمية. فيوفر "صو (ت)" المعلومات التي تستعملها الأنظمة الحسية الحركية للنطق والإدراك؛ وتوفر "دلا (ت)" المعلومات التي تستعملها الأنظمة التصورية - القصدية للتفاعل مع العالم بطرق مختلفة حين يفكر مستعمل اللغة ويتكلم في ضوء المنظورات التي وفرتها مواردُ القدر.

ويمكن أن يتعامل الاستعمال الإحالي للغة مع العناصر المكونية لـ  
 "المعنى - د" و"دلا" بطرق متعددة. فتثير عملية التفريد عموماً بعض العوامل  
 كالنصميم والاستخدام المقصود والمألوف، والدور المؤسسي، إلخ. فإذا بدا  
 شيء لى كأنه كتاب لكنى عرفت أنه صمم ليكون كماً من الورق يُستخدم  
 للورق وأنه يُستخدم لذلك عادة، فربما أقبل عدّه كماً من الورق يُستخدم فى  
 الورق، لا كتاباً. افترض أن مكتبة تحوى نمطين متماثلتين من مسرحية  
 "ميدل مارش" [شكسبير]، وأن يوتر أحد إحداهما وأخذ توم الأخرى. وإذا  
 وجهنا اهتمامنا إلى المكون المادى للوحدة المعجمية فقد أحدا كتابين مختلفين؛  
 أما إن ركزنا على المكون المجرد للكتاب فقد أحدا للكتاب نفسه. ويمكن أن  
 نوجه اهتمامنا لكلا الأمرين بشكل متزامن، مستخدمين الكلمات بهيئتهما  
 المجردة/المادية، كما فى التعبيرين:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever  
 writes it.

"سيكون وزن الكتاب الذى يخطط لتأليفه خمسة أرطال فى الأقل إن  
 أتبع له أن يكتبه أصلاً".  
 لو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابه فى كل متجر من متاجر بيع الكتب فى البلاد".  
 كما يمكن أن نصيغ الالبّ باللون الأبيض ونعبر عن خلاله. أو انظر  
 إلى الكلمة bank (التي تعنى "المصرف" و"سعة النهر"). فنحن نستطيع أن  
 نقول:

The bank burned down and then it moved across the street. ١

"احترق المصرف ثم انتقل إلى مكان آخر فى الجانب المقابل من الشارع".

٢- The bank, which had raised the interest rate, was destroyed by fire;

تم الحريقُ للمصرف الذي رفع سعر الفائدة.

٣- The bank lowered the interest rate to keep from being blown up.

خفض المصرف سعر الفائدة خوفاً من أن يُفجَّر.

ويُحافظ على الاعتماد الإجمالي عبر التمييز: مجرد/حمى. لهذا تعنى الجملة في (١) أن المبنى احترق ثم انتقلت المؤسسة، وكذلك في (٢) و(٣). لكننا لا نستطيع أن نقول:

٤- The bank burned down and then it eroded;

"احترق المصرف ثم تآكل".

أو:

٥- The bank, which had raised the interest rate, was eroding fast;

كان المصرف الذي رفع سعر الفائدة يتآكل بسرعة.

أو:

٦- The bank raised the interest rate without eroding.

رفع المصرف الفائدة من غير أن يتآكل.

ولا تعنى الجملة (٤) أن المصرف احترق ثم تآكلت ضففاً للنهر.

وهذه الحقائق واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تحترم العاصرُ التي تعتمد على غيرها إحصائياً، حتى المحيطة تحديداً دقيقاً جداً منها، معص التمايزات لكنها تتجاهل بعض التمايزات الأخرى (كالصناعات وأسماء

الصلة و"المقولة الفارغة"، وهي الفاعل في العبارة *being blown up* "فُجِر"، و *eroding* "يتآكل". والنتيجة الطبيعية في حالة *bank* أن هناك وحدتين معجميتين تشتركان صنفًا في "الصوت" — د" (أي أنهما من "المشترك اللفظي")، وأن إحداهما — أي: "المصرف"، "متعددة الدلالات"، شأنها شأن "كتاب": فهي توفر طريقًا للنظر إلى العالم يوحد الخصائص المجردة والحسية، ويسمح بالاعتماد الإحالي عبر هذه المنظورات. (الاطلاع على بعض المشكلات التقليدية، التي تتصف غالبًا بالعموم والتعقيد، انظر Lyons 1977 Section 13.4). ويمكن أن تدرس هذه الخصائص بطرق عدة، كإكتساب اللغة، والتشروع بين اللغات، والوحدات المشابهة في اللغة الواحدة، والكلمات المصطنعة، والتعنية *zeugma*، إلخ. ويمثل ذلك، إن استمرت التشابهات والاختلافات المطردة، تأكيدًا للنتائج عن البنية المعجمية. وليس هناك ما يكرّم بأن نتوقع أن تكون مثل هذه الخصائص موجودة في اللغة؛ أما لغة الرجل المريخي فربما تكون مختلفة.

وليس هناك من معنى واضح للسؤال: "ما الذي تحيل إليه الكلمة 'س'؟" سواء أكان السؤال عن بنية، أو (بصورة أكثر غموضًا) عن لغة عامة "ما، فلا تحيل كلمة ما عمومًا، حتى أبسط الأنواع منها، إلى شيء في العالم، أو في "حيزنا الاعتقادي" — ولا يعني هذا، بالطبع، أننا ننكر أن هناك مصارف (إضافيًا)، أو ننكر أننا نتحدث عن شيء ما (بل شيء معين) إن كنا نناقش مصير الأرض *the fate of the Earth* أو *(the earth's fate)* فنستنتج أن "ه" كالحج؛ إذ لا يعني هذا إلا أنه ينبغي ألا ينتهي إلى نتائج غير مسوّغة اعتمادًا على الاستخدام اللغوي العام، وتتوسع هذه الملحوظات لتشمل أبسط العناصر المحيلة والمعتمدة إحيائيًا (كالضمائر، و *same* "مماثل"، و *re(build)* "يعيد بناء"، إلخ)، أو أسماء الأعلام، التي لها خصائص دلالية — تصويرية عنية مشتقة إلى حد بعيد من طبيعتنا، مع بعض الاتصالات المستمدة من التجربة. فيسمى شيء ما بأنه شخص، أو نهر أو مدينة، مع العلم المعقد الذي

يصحب هذه المقولات. وليس هي اللغة لسماء أعلام منطقية، إذا جردناها من هذه الخصائص؛ ويجب أن نكون حذرين مما سماه بيتر ستراوسون "خرافة اسم العلم المنطقي" (Strawson 1952: 216) هي اللغة الطبيعية، والأساطير المماثلة عن الإشارات indexicals والضمائر. ويمكن أن ننظر إلى التسمية على أنها نوع من "الحلق للعالم"، بمعنى شبيه بالمعنى عند نيلسون جودمان (١٩٧٨)، لكن العوالم التي نحلقها غنية ومداخلة ومشاركة إلى حد بعيد بسبب طبيعتها المعقدة المشتركة. بل إن مثل هذه الخصائص توجه حتى الجهود الواعية للعلوم والفنون – لحسن الحظ، أما لو كان الأمر بخلاف ذلك فلن نتجز شيئاً أبداً. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر Chomsky 1975; 1995a).

ولمقاربة التأويل الدلالي في ضوء هذه الطريقة طعم تقليدي. فقد كان علم النفس العقلاني في القرن التاسع عشر يرى أن "القوى المعرفية" cognitive المعطية تُعين الناس على "أن يفهموا أو يحكموا على ما يدركونه عن طريق الحس"، وهو الذي لا يتجاوز دوره إعطاء "الرصة [لدهش] ليمارس نشاطه الخاص" ليصوغ "بعض الأفكار والتصورات الواضحة عن الأشياء من داخله هو" بوصفها قواعد، و"نماطاً" و"أمثلة" و"توقعات" توفر [كلها] علاقات السببية والتأثير، والفكر والجراء، والتناظر والتناسب، والاستخدام المعهود (للأشياء المصطنعة" أو "الأشياء الطبيعية المؤلفة" جميعها)، ووحدة الأشياء والخصائص الجشائية الأخرى، وهي فكرة شاملة لكل، عموماً<sup>(١٢)</sup>. ويرى هوبز أنها تعني أن الأسماء علامات لا على الأشياء بل على أفكارنا، "تصوراتنا" cogitations (Hobbes 1889: 16f)؛ لذلك فالأفضل أن نفهم المفهوم التقني ("علامة ش") التي تصدق على الكلمات، بهذه الطريقة نفسها. وقد تكون هذه "التصورات" معقدة، كما تبين تلك الطريقة التي نفرد بها [الأشياء] بناء على النكوير والشكل والأصل وخصائص أخرى. فالرجل؛



سيطل الرجل نفسه دائماً، تلك الذي تتطلق أفعاله وأفكاره جميعها من نقطة البدلية نفسها للحركة، أي تلك التي كانت في جيله؛ وأن النهر سيكون النهر نفسه الذي ينبع من المنبع نفسه، سواء أكل الماء نفسه، أو ماء آخر، أو شيء آخر غير الماء، هو الذي ينبع من ثم أويضيف هوبر: كما في الحالة الكلاسيكية لمدينة [ثيسوس]؛ كما ستكون المدينة هي المدينة نفسها، وهي التي تتبع أعمالها باستمرار من المؤسسة نفسها" (p. 16f).

وكان البحث في الهوية الشخصية من لوك حتى هيوم يهتم بالوحدة العضوية، وهي فكرة أوسع، فيلاحظ لوك أن الشجرة تختلف عن كتلة من المادة، وكذلك الحيوان، بسبب "انتظام أجزائها في جسد واحد متجانس، ولشراكتها في حياة واحدة" يتصف بـ "تنظيم مستمر" ينبع من داخلها، بعكس الأشياء المصنوعة، ويضيف شافتمبري أن "هوية شجرة من البلوط تحل في تعاطف أجزائها" الذي يسهم في بلوغها "غاية واحدة مشتركة"، تتمثل في "دعم [الشكل] وتغذيته وتنميته"، ويتفق هيوم مع ذلك إلى حد بعيد، لكنه ينظر إلى "الهوية التي نعزوها إلى أفعلة البشر"، و"الأشياء الأخرى المماثلة... التي نعزوها إلى الحصر وأجساد الحيوانات"، على أنها "ليست إلا هوية خرافية" من صنع الخيال، لا من "الطبيعة الخاصة التي تنتمي إلى الشكل" كما يقول شافتمبري. ويحاج جون يولتون بأن التيار الرئيس لنظرية الأفكار من ديكارث إلى ريد كان ينظر إلى الأفكار على أنها ليست أشياء، بل طرقاً للمعرفة، "وليست علامات للبنية المادية، بل علامات نستخدمها لتعرف في صونها التجربة أو نتألف معها"، وهو ما يجعل "العالم كما نعرفه عالمًا من الأفكار، والمحتوى المهم" (Yolton 1984: 213ff) والامتسهايات الأخرى التي منوردها وما وفيما بعد مأخوذة من (Mijuskovic 1974: 97-113).

وتكتسب النتيجة التي انتهى إليها هيوم مزيداً من القوة، حين سطر بدقة إلى تعقيد التصورات وتشابكها. فيلاحظ لوك أن "[الشخص] مصطلح

تشريحي يشتمل على الأحداث وأهميتها؛ لهذا لا ينتمى إلا إلى فاعلين أذكاء، قادرين على أن يشرّعوا القوانين، وأن يكونوا سعداء أو تعساء، إضافة إلى القدرة على تحمل المسؤولية عن أفعالهم، إلى جانب أشياء كثيرة. ويدخل في أفراد الأنهار والمدن عوامل كثيرة جداً وراء الأصول التي نشأت منها. فيمكن لنهر أن يعكس مجراه، أو ربما يمكن تحويله إلى مسار مختلف، بل أن يُعزّج إلى قنوات ربما تتلاقى فيما بعد، أو يُغيّر بطرق متنوعة كثيرة، لكنه يظل النهر نفسه، تحت بعض الظروف الملائمة. وتورد التقارير الصحفية بوضوح أن العلماء "اكتشفوا منبع الأمازون" في مكان غير متوقع، وهو المصدر الوحيد الذي يأتي منه، مع أن "الأنهار تبدأ [غالباً] على صورة قنوات صغيرة كثيرة جداً". ويلاحظ لوك أن شجرة البلوط تظل هي نفسها حين يُقطع فرع منها، لتفرس أن شجرة بلوط اقتلعت وزُرعت في مكان آخر وحل مكانها الأصلى فرع منها، ثم تما ليكون بديلاً مماثلًا لها في حين تتحلل شجرة البلوط التي نقلت وتموت — ومع هذا تظل هي الشجرة الأصلية نفسها، بحسب الهوية الخرافية التي تؤسسها القوى المعرفية الفطرية. ولا يريد هذا عن كونه تتلواً لوكياً لمظاهر الأمر، لما إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فنسجد هذه القوى نفرض إطاراً غنياً من التأويل والفهم، وهو الذي نتوقع ألا نؤثر فيه التجربة إلا هامشياً، كما هي الحال في البنى المعنوية المعقدة الأخرى.

والخطوة قصيرة بين هذه الأفكار عن طرق الإدراك المولدة داخلياً التي تتوافق التجربة معها والوصول إلى تحليل في ضوء السمات الدلالية، أو إلى ما يسميه جوليس مورافيك "العوامل (التوليدية) للبيئة المعجمية" (Moravcsik 1975, 1990)<sup>(13)</sup>. وإذا أعدنا صياغة هذا المشروع في ضوء هذه الأطر فإننا نحاول أن نكتشف التفاصيل التشريحية للدماغ، ومنها الملكة اللغوية والأنظمة عند المستوى الوجداني، وأن نكتشف كيف تتشكل التجربة والتفاعل الاجتماعي في ضوء هذه المصادر الداخلية.

### بعض الأسئلة عن المشروعية:

يُعتقد عموماً أن هذا الوجه من علم الطبيعة البشرية معقد من غير داع،  
أو أنه نوحه خاطئ من حيث المبدأ. فترى إحدى وجهات النظر أن الأسئلة  
التي نستخدم في التنايل على مبادئ الملكة اللغوية "يمكن أن تُعلل بشكل أكثر  
بساطة بـ... . للفرضية التي تقول إن "الملكة اللغوية فطرية في الأدمغة  
البشرية" حقاً لكن هذا لا يدعو إلى أكثر من القول بوجود "مستوى عصبوي  
للتفسير في صوء بنية الجهاز" و"مستوى وظيحي للتفسير يصف أنواع اللغات  
التي يمكن اكتسابها" (Searle 1992: 244). لو أنه يلزم أن يتحلى عن الملكة  
اللغوية بشكل تام لصالح "الفرضية المناقصة" التي تقول إن "الوظيفة الأصلية  
لبنى الدماغ الفطرية كانت وما تزال تنظيم التجربة الإدراكية، أما تنظيم  
المقولات اللغوية فوظيفة إضافية مكتسبة لم تتلاءم العملية التطورية معها إلا  
صدفة" وهو ما يؤدي إلى التعلب على مشكلة تعليل تطور اللغة، مر بين  
"مزايأ أخرى" (Paul Churchland 1981: 86) (١٠).

أما أن هناك "مستوى عضوياً" فالمر لا خلاف عليه، إن قصد بذلك  
احتمال أن الثرات والحلايا، وغيرها تدخل، احتمالاً، في "بنية جهاز" الملكة  
اللغوية التي تتصف بأنها "فطرية في الأدمغة البشرية". لكن لا يسعنا الآن إلا  
اتباع نصيحة جوزيف بلاك للممتازة فصوغ "رصيداً من المبادئ" عن الملكة  
اللغوية؛ وربما يمكن أن نقول المزيد مع التقم نحو التوحيد - وربما تكون  
الافتراضات الحالية عن "العضو" خاطئة تصورياً، كما كانت حال الكيمياء.  
ويهتم "رصيد المبادئ" بالمزاول عن "ما أنواع اللغات التي يمكن أن تُكتسب"  
وما خصائصها، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى، والطريقة التي تُكتسب بها  
وتستخدم، وبمشكلات التوحيد، وأي شيء آخر يصلح أن يكون موضوعاً  
لبحث مفيد. ويبدو أن عملنا في تفصيل هذه القضايا يُعيدنا إلى "القواعد  
العميقة غير الشعورية" التي يرى سيرل إمكان الاستغناء عنها، وسيرل محق  
في قوله "إنه لا يضيف شيئاً من القوة التنبؤية أو التفسيرية أن نقول إن هناك

مستوى آخر للقواعد العميقة غير الشعورية" (Searle 1992: 244-245) للملكة اللعوية، "إضافة إلى [المستويين العضوي والوظيفي]". أما ما اقترح لو هو اقتراح تشومسكي] فمختلف إلى حد بعيد [عن هذا]؛ فهو يبنى ومبادئ محددة للملكة اللعوية، تقود في الأقل إلى تطيل جزئي لخصائص اللغة. وإن تكون الكيمياء، بالمثل، شيئاً مهماً لو اكتفت بالقول بأن هناك خصائص بنيوية عميقة للمادة، إذ لم يطور شيء عن هذه الخصائص إلا بوصفه رصيذاً من المبادئ. ويُذكر هذا النقاش، في أفضل أحواله، بالخلاف القديم عن إن كان يجب عزو الخصائص الكيميائية، والبنى الجزيئية، وغيرها، إلى المادة أو أن يُنظر إليها ببساطة على أنها وسائل حسابية؛ وليس لذلك كله من فائدة، كما يُجمع [مؤرخو علم الكيمياء] حين يرجعون للنظر الآن فيما حدث، ويقع ذلك كله في إطار ملحوظة بروج العميقة عن أن الأسئلة الوجودية ontology وما يشبهها تالية معرفياً للأسئلة عن نجاح الممارسات التفسيرية والوصفية" (Burge 1986a: 18؛ وانظر أيضاً: Chomsky 1986: 250f; 1995a, note 2)<sup>(١٦)</sup>.

وربما صار الاقتراح بول تشيرشلايد "فرضية منافسة" إن فصل تفصيلاً كافياً ليتعامل مع أكثر خصائص اللغة أولية (كـ "اللانهائية المتميزة"، و"اعتماد البنية"، إلخ)، ومع خصائص المثال (١) والأمثلة الأخرى الشبيهة، من ثم<sup>(١٧)</sup>. وربما يكون ضرورياً التعامل مع حقيقة أننا لا نجد، كما يُتنبأ فيما يبدو، تماثلاً في التطور المعرفي والبنى المحصلة عبر المجالات، والتشابه في استخدام اللغة عند أفراد نوع يتماثلون في طرق تنظيم التجربة الإدراكية، وعدم الانفصال الوظيفي نتيجة للإعاقات، والتجانس بين بنى الدماغ، إلخ.

وقد فُثم هيلاري بتنام تحثاً أكثر جوهرية في مقاله الذي ينتقد فيه: "الزعة الدهنية [عدد الباحثين الذين ينتمون لجامعة] إم. آي. سي"، وهي جريئاً وجهة النظر التي بينت خطوطها العامة إلى الآن (وهي التي عزاهما لي ولغودر: Putnam 1986a; 1986b)<sup>(١٨)</sup>، وكان يهدف من ذلك أن يزلزل "نظرية التمثيلات الدلالية العنصرية"، التي تؤكد:

أ - "إن هناك تمثيلات دلالية" في *الذهن/الجماع*.

ب - "إن هذه التمثيلات فطرية وكلية".

ج - "فه يمكن أن تطُلْ تصوراتنا كلها إلى هذه التمثيلات الدلالية"  
(Putnam 1986b: 18)

ونرى نظرية التمثيلات الدلالية كذلك أن *الذهن* "مُسَمَّرٌ للرسائل المعمَّاة": أي أن *الذهن* يفكر أفكاره بـ "اللغة الذهبية" *lingua mentis* ، ويشعر هذه الأفكار باللغة الطبيعية المحلية، ثم يُوَديها إلى سامعٍ "يُحوي رأسه، بالطبع، مسَمَّرًا للرسائل المعمَّاة كذلك، وهو الذي يقوم من ثمَّ بعكس رموز الرسالة" (Putnam 1986b: 20) التي صيغت باللغة الذهبية.

وتذهب نظرية التمثيلات الدلالية بعيدًا جدًا وراء "اللسانيات" - د - والقول بأن التمثيلات التي تولدها "اللغة" - د - تحول إلى "لغة ذهنية" فرضية مختلفة. كما يذهب الحكم (ج) إلى ما وراء دراسة اللغة، التي تُعنى بالملكة اللغوية، لا بالأنظمة المعرفية الأخرى، وهي أنظمة قد تكون (وافتراض أنها كذلك) مختلفة في طبيعتها. ويتطلب الحكم (ب) شيئًا من التوضيح. إذ إن العناصر التي تصاغ منها التمثيلات وحدها هي ما يُعدُّ فطريًا (ومن هنا فهي كلية، وتتوفر بصورة عامة مع أنها ربما لا تتحقق). ومن هنا ربما تكون مكونات التمثيل الصوتي والطريقة التي تولد بها فطرية، أما التمثيلات نصها فلا؛ فهي تختلف في الإنجليزية عنها في اليابانية، بل تختلف حتى بين الأخوة. والشيء نفسه صحيح عن أي شيء يدخل في تثبيت المعنى - سواء أكان "التمثيلات الدلالية"، أم أي شيء آخر. فتختلف اللغات بعضها عن بعض بهذا المعيار، وهذه مشكلة من مشكلات كثيرة تُورق المترجمين. وليس هناك خلاف بخصوص هذا الشأن، وليس هناك خلاف، احتمالاً، في شأن الدعوى التي نقول إن عناصر لغة شيء مما يدخل في تثبيت المعنى فطرية. ومن الصعب أن نتخيل أي دعوى بديلة.

وهناك أسس اختبارية للاعتقاد بأن التنوع قل في المظاهر الدلالية للغة منه في مظاهرها الصوتية. ذلك أن المادة الصوتية الأولية تتوفر للطفل بمرارة، كما يبدو أن الفجوة بين الهدف الذي يحققه الطفل والمادة الأولية [الصوتية] المتوفرة أضيق من الفجوة بين الهدف للمحصل والمادة الأولية في الأنظمة الدلالية الفرعية، وإذا كان الأمر كذلك فالتسامح مع التنوع إفي الأنظمة الصوتية] أسهل، أما دراسة المعنى فيجب أن تواجه حقيقة أن التعرض المحدود جداً في ظروف متباعدة جداً كلف ليتمكن الأطفال من فهم معاني الكلمات والتعبيرات الأخرى المعقدة تعقيداً بالغاً إلى حد يتجاوز أي شيء مما بدأت أكثر المعاجم وكتب النحو شمولاً في تبينه، وهي معانٍ تتصف بقدر عال من الدقة والتشابه لم يفهم إلا فهماً أولياً جداً. ولهذه الأسباب سعى البحث الاختباري نحو اكتشاف الخصائص الدلالية الفطرية والكلية.

وتجب مراجعة هذه المشكلات سواء بنينا إطار "السمانيات - د" (أو بشكل أوسع، "نظرية التمثيلات الدلالية") لو أي إطار آخر. ويبدو كأن يتكلم يرى أن آليات الدكاء العام تكفي. ويوجب هذا أن يكون لهذه الآليات البنية الفطرية اللازمة التي تمكنها من حمل الذهن من المادة الأولية المتوفرة إلى الأنظمة المعرفية المحصلة. [وبعض هذا] أن المشكلة نُقلت الآن، فيما يخص اللغة، من الملكة اللغوية إلى الدكاء العام. وتواجهنا الآن المشكلات التي تواجه "الفرصية المنافسة"، وهي أن كل شيء يُختزل بشكل ما إلى التنظيم الإدراكي. وتبدو النتائج غير مشجعة كما في السابق، لكن ليس هناك ما يمكن أن يناقش إلا أن يُقترح شيء محدد.

وتحتزل الدعوى التي يقصد بتنام زلزلتها، فيما يخص اللغة، الآن، إلى (٦):

أ٦ - هناك تمثيلات دلالية في الذهن/الدماغ.

ب٦ - تصاغ هذه التمثيلات من عناصر فطرية.

والحكم (١٦ب) غير ضار إن صحَّ الحكم (١٦أ). لكن الحكم (١٦) ليس مقصوداً على "الفرقة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. إى. تى"، إذ يفترض علمُ الدلالة الاختباري عموماً شيئاً شبيهاً بها. افترض، مع هذا، أن الحكم (١٦) زائف. لهذا لا تحوى الملكة اللغوية أو أى نظام آخر من أنظمة الذهن/الدماغ تمثيلات دلالية. إلا أن هناك حالة داخلية ما تدخل فى الكيفية التى نفهم بها الجمل، كالتي فى "خ" أو الأمثلة فى (١)، مثلاً. فيرى بديل الحكم (١) - إذن - أن مثل هذه الحالات لا تحوى تمثيلات دلالية. ويبدو كأن البديل المقصود يبقى على المصطلحات عن حالات الذهن/الدماغ التى تتصل بالصوت، وربما تلك التى تتصل بالخصائص البيوية للملكة اللغوية التى تدخل فى تأسيس معنى التعبيرات، لكن ليس "التمثيلات الدلالية"، فتمثل المعرفة المعقدة المحددة التى اكتسبها الطفل، ويستخدمها، فى الذهن/الدماغ بطريقة ما، لكن ليس بالطريقة التى طوّرت فى دراسات علم دلالة اللغة الطبيعية، التى حققت نجاحاً واسعاً الآن، وربما يكون هذا محتملاً، وربما تكون النظرية الصوتية الحالية بعيدة عن إصابة الهدف، كذلك. لكن التعليق، مرة أخرى، غير ممكن.

وإذا تحببنا هذا جانباً، دعنا ننظر فى نقد يتنام للحكم (١٦). ويأتى هذا النقد على صورتين. وإحداها أن "المعنى شبكى" holistic. فتقابل الجمل، فى المعادلة التى اقترحها كوين، اختبار التجربة "بصفاتها جسيماً تضافاً واحداً"، ويمكن للمراجعة أن تحدث عند أى مفصل فيها. وتبدو هذه الصيغة معقولة فى العلوم إلى حد ما، ويبدو كأن رودولف كارباب يتفق مع هذه النظرة، وإن كان يفضل صياغتها بشكل مختلف (انظر Uebel and Hookway 1995). لكن المسائل هنا تتعلق باللغة الإنسانية، وهى موضوع أحيائي، لا بالعلوم التى يصوغها البشر، مستخدمين ملكات ذهنية مختلفة، كما يبدو.

ويرى بتنام، مع ذلك، أن "لغة الحياة اليومية" الخصائص الشبكية

holistic نفسها التي في العلوم. ذلك أن الخطاب اليومي يعتمد على مسلمات غير معلنة، لذلك فـ "إذا كانت اللغة تصف التجربة فهي تفعل ذلك بوصفها شبكة، لا بالنظر إلى الجمل حملةً فجلة" (Putnam 1986b: 23). لكنّ اللغة لا "تصف التجربة"، وإنّ أمكن استخدامها لوصفها أو الخطأ في وصفها، أو استخدامها بطرق أخرى لا حصر لها، ولا يبين لنا كون المسلمات غير المعلنة تدخل في استخدام اللغة شيئاً ذا صلة بما نحن فيه هنا.

وثلاث إحدى صور نقد يتّام إلى الممارسة العلمية. لكن ليس لهذه الحجج، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، صلة باللغة البشرية، أو بالمظاهر الأخرى للتفكير البشري، إلا انطلاقاً من بعض المسلمات عن وحدة الذهن التي يلزم بكل تأكيد أن تسوّغ، وهو ما لا يتوفر الآن، وتعتمد أجراء أخرى من حجته على بعض النتائج عن "اللغة الذهنية" و"اللغة العامة"، والحدس عن الترادف والترجمة وأمور أخرى، وهي أمور لا يبدو أن لشيء منها صلة هنا حتى إن كانت ممكنة (وهو ما أشك فيه دائماً، انظر Chomsky 1995a).

ويصل ما بقي من حجته بفرضية تشومسكي الفطرية. ولم يسبق لي قط أن فهمت ما يفترض أن تعنيه هذه، وتخص هذه الفرضية دائماً، لكن لم يسبق لأحد أن صاغها أو دافع عنها، على حد ما أعلم. ويحصل أن تكون الملكات المعرفية، شأنها شأن الملكات الأخرى كلها، مفروسة في الإعداد الأحيائي، وأن تكون الملكة اللغوية (على افتراض وجودها) نوعاً من التعبير عن المورثات. أما وراء ذلك، فلا أعرف أن هناك فرضية فطرية، وإن كان هناك بعض الفرضيات المحددة عن ما الذي يكون فطرياً على وجه التحديد.

ويبدو أن يتّام يماهي بين "الفرضية الفطرية" و:

١- فرضية أن "اللغة الذهنية" فطرية؛

٢- فرضية أن "المفردات الذهنية" فطرية.



ولا تنقيد "اللسانيات" — د" نفسها بـ (١) أو (٢) — على حد مسا أفهم هاتين للفرضيتين، في الأقل؛ وأعترف أن فهمي لا يذهب بعيداً. يضاف إلى ذلك، أن الفرضيتين أيًا كان مضمونهما متميزتان لاحتمالاً؛ فليست "اللغة الذهنية" هي للمعجم الذهني، مثلما أن اللغة الإنجليزية ليست معردات هذا المعجم.

ثم يلتفت بنيتام، من ثم، إلى الحجج التي يُزعم بشكل واسع أنها لا تهدد "الترعة الذهبية" [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي\* فحسب، بل تهدد كذلك إحدى دراسات المعنى والإحالة منذ أرسطو حتى ميل ورامسل وهريجه وكرناب، أي التقليد الذي يتبنى (١٧) و(٧ب):

١٧ — "حين نفهم كلمة ما أو أية "علامة" أخرى، نربط تلك الكلمة بـ "تصور" ما.

٧ب — يحدد هذا التصور مرجع الكلمة (أو "العلامة").

ويرى بنيتام أن (٧) نُحضت بكون المرجع يحدد جزئياً عن طريق "تقسيم العمل اللفوي" و"ما تسهم به البيئة".

ولا تنقيد "اللسانيات" — د" نفسها بـ (٧)؛ ولا يمكنها ذلك، إذا لم تُفسر المفاهيم التقنية بشكل ما. فافهمي ما تنقيد به "اللسانيات" — د" هو (٨):

٨أ — حين نفهم "س" الكلمة "ك"، فإن "س" يستخدم خصائصها.

٨ب — يمكن أن تشمل هذه الخصائص على "الصوت" — د" و"المعنى" — د"، وإذا كان ذلك كذلك، فـ "المعنى" — د" يؤدي دوراً في تحديد ما يحيل إليه "س" حين يستخدم "ك".

وليس وراء ذلك شيء يمكن تحديده بدقة.

ولا يبدو أن لنقد (٧) صلة بمكون "اللغة" — د" في "الترعة الذهبية" [في] جامعة إم. آي. تي\*، في الأقل، لكن دعنا نتخصصها على أية حال. فيبسطر

بتنام، في توصيحه لتقسيم العمل اللغوي، إلى الكلمة robin [إطار صغير  
يسمى "أبو الحناء"] في الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية. افترض  
أن بينر البريطاني الذي يعيش في بريطانيا وبيتر الأمريكي الذي يعيش في  
أمريكا منمائلان من حيث المعيار ذات الصلة، لكنهما ليسا واعيين بأن:

٩- "لا تحيل الكلمة robin إلى النوع نفسه من الطيور في بريطانيا والولايات  
المتحدة"

ف لدى بينر البريطاني وبيتر الأمريكي الكلمة نفسها في لغتيهما - د،  
لكنها تحيل إلى شيئين مختلفين لأن "الإحالة ظاهرة اجتماعية" تتخصص  
الرجوع إلى الخبراء. لهذا يجب أن نهجر الفرضية التقليدية (٧).

وإذا أخذنا الجملة في (٩) على أنها حكمٌ عن حقيقة علاقات اللعبة  
بالعالم، فإنا نرغب في التحقق من كونها صحيحة أم لا، فوجب علينا أولاً أن  
نفهم الكلمات فيها: وعلى وجه التحديد، "الكلمة: robin" والفعل: "تحيل"، وهي  
علاقة يُزعم أنها موجودة بين "الكلمة robin" ونوع الحيوان ما. دعنا نسلّم  
(بقدر كبير من الاستعجال) بأننا نفهم ما يكفي عن المقصود حين نتكلم عن  
"الكلمة robin"، بوصفها وحدة في لغة عامة (كما هو المقصود). فإذا عن  
الكلمة "تحيل"؟ ويستخدم الناس الكلمات ليحيلوا إلى الأشياء بطرق مختلفة،  
لكن اللغة الإنجليزية لا تتخصص كلمة "تحيل" أو "إحالة" بالمعنى الذي في  
(٩) (٩)؛ وكذلك اللغات المماثلة، وهو السبب الذي لجأ فريجه إلى أن يبتدع  
مصطلحين تقنيين والسبب كذلك في التنوعات الكثيرة للكيفية التي نترجمها  
بها، وقد جعل ذلك بعض الباحثين يفضل الكلمات اللاتينية التي توضح  
مكائنها التقنية. لذلك يجب أن نقوم بعمل ما لنجعل تقويم (٩) ممكناً بوصفه  
رعباً لحثاريًا.

ويوحى السياق (كالجوء إلى التجارب الذهنية، إلخ) بأنه ينبغي أن يفهم  
الحكم (٩) في إطار دراسة النظريات الشعبية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يبدو  
أن هذه النتائج مهمة لـ "اللغويات - د" أو حتى للدراسات التقليدية احتمالاً،

إن فهمت على أنها تقدم نوعاً من التأسيس المنهجي. ومع ذلك دعنا نسأل إن كان الحكم (٩) مؤسساً تأسيساً قوياً في إطار دراسة النظرية الشعبية، ولكي سيجب المصطلحات التقنية (التي لم نقسّر بعد)، دعنا نحترّ جملاً إنجليزية مناظرة لها، وربما تلك المصطلحات التي في (١٠):

١٠. Peterus uses the word robin to refer to one species of bird, and PeterGB to refer to different species.

"يستخدم بيتر الأمريكي الكلمة robin ليحيل إلى نوع من الطيور، ويستخدمها بيتر البريطاني ليحيل إلى نوع مختلف".

فهل (١٠) صحيحة؟ إن الطيور التي يسميها بيتر الأمريكي robins مختلفة بطرق مختلفة كثيرة عن الطيور التي يسميها بيتر البريطاني robins، لكن هذا صحيح أيضاً في حالة بيتر الأمريكي وصديقه تشارلز، اللذين عاشا جارين طوال حياتهما. لذلك يجب أن نعرف أشياء كثيرة لكي نقوم (١٠).

افترض أننا سألنا عن ما لدى يمكن أن يقوله بيتر الأمريكي إن ذهب إلى بريطانيا ورأى تلك الأشياء ذات الصدور الخضراء هاهنا؟ فربما يسميها، افتراضاً، بـ robins لذلك لن يعيدنا هذا شيئاً. افترض أن جونز سيقول إن بيتر الأمريكي مخطئ حين يسمي هذه الطيور في بريطانيا بـ robins (أما أنا فربما لا أفعل). ويعني هذا أننا نتعلم الآن شيئاً عن جونز لا صلة له بما نحن فيه هنا.

وربما كان جونز يقترح شيئاً شبيهاً بالدعوى (٩). فربما كان يعتقد أن "النصور" robin عند بيتر الأمريكي لا يشمل النوع كله في بريطانيا؛ وأن تصور "ماء" عند لوسكار الأرضي لا يشمل الماء في تسوعم الأرض. لكن هذا يعيدنا الآن مرة أخرى إلى السؤال الأصلي، أي: كيف لنا أن نتحقق إن كانت مزاعم جونز صحيحة؟

افترض أن بيل ابن عم بيتر الأمريكي يعيش في منطقة من الولايات المتحدة تنتمي فيها الطيور التي تسمى robins إلى نوع فرعي مختلف. فإذا رار بيتر الأمريكي بيل وسمى الشيء الذي في حديقة منزله بـ robin، فهل يكون محطناً؟ وهل يمكن أن يفهم كلام بيل عن الـ robins؟ افترض أن ماري (روح بيتر الأمريكي) نشأت في المنطقة التي نشأ فيها، لكنها قصت جزءاً من طفولتها في بريطانيا. فما الذي تحيل إليه ماري حين تتكلم عن الـ robins؟ وتختلف الأحكام تبعاً لاختلاف الحالات، بطرق متعددة كثيرة، وهي أحكام في الغالب الأعم غير واضحة إلى حد بعيد جداً.

ولا تبدو هذه الحالة معضلة في "النزعة الذهنية" [بعد الباحثين في] جامعة إم. آي. تي؟ تلك أن الأشخاص المذكورين، الذين يتشابهون من حيث بعض المعايير ذات الصلة، سيصدرون الأحكام نفسها، افتراضاً، عما يكون robin. وتثير النتائج الأخرى عن إن كانوا مُصيبين أم محطنين، أو كيف تُستخدم "الكلمة robin" لتحيل في "اللغات العامة"، أو للتعبير عن اعتقاداتهم، مسائل أخرى ربما تستحق الاستقصاء، أو ربما لا تستحقه حين تصاغ بشكل ملائم واضح. وليس هناك شيء وراء هذا يستحق الحديث عنه، فيما يبدو.

ويستشهد بتنام، في توضيح "ما تسهم به البيئة" بحجة توهم الأرض وحجج أخرى، وتقوم كلها على افتراضات عن "ما يمكن لشخص متوسط أن يقوله" في ظروف مختلفة. ومرة أخرى، ليست هذه الحجج مهمة بشكل مباشر لنظرية عن اللغة تتبنى الدعوى (٨). فاقصى ما يمكن أن يبيّنه هذه الحجج أن النظرية أو "نظرية التمثيل العفري" لا تقدم تفسيراً كاملاً للسلوك اللغوي، أو أنها لا تحيط بالاستخدام العادي، وهذا أمر واضح منذ البداية.

وتقوم الحجج (عن "ماء") على فرضية أن "الماء" هو H<sub>2</sub>O. ويجيب علينا، لكي نقوم مكانة هذا الحكم، أن نعرف ما اللغة التي ينتمي إليها. وهو لا ينتمي إلى اللغة الإنجليزية؛ إذ ليس فيها كلمة H<sub>2</sub>O. ولا ينتمي إلى الكيمياء، التي ليس فيها كلمة "ماء" (مع أن الكيميائيين يستخدمون هذه الكلمة

في حديثهم العام). ويمكن اقتراح أن الكيمياء والإنجليزية تنتميان إلى لغة عليا، لكن يبقى أن تفسر ما يعنيه هذا (انظر Bromberger 1996).

وإذا ما وضعنا مثل هذه الملاحظات جانباً، فهل صحيح أن المتكلم المتوسط يعتمد على "المكونات" حين يقرر إن كان شيء "ماء"؟ افترض أن كأسين G و G' وضعوا فوق الطاولة، وقد ملئ الكأس G من الصبور وملتسي G' من بنر. افترض أن كيساً من الشاي غمس في G. ويمكن أن يكون محتوى G و G' متماثلاً كيميائياً؛ إذ ربما جاء ماء الصبور من مصدر ماء يستخدم "مصفأة من الشاي" لإزالة الشوائب. وعلى الرغم من معرفتي بأن محتوى الكأسين متماثل فربما أقول إن ما في G "ماء"، لا شاي، وأن ما في G' شاي، لا ماء. ويبدو لي أن هذا أمر مألوف. فالمكونات من العوامل التي تساعد في تقرير إن كان شيء ما "ماء"، لكنها ليست العامل الوحيد<sup>(٨)</sup>.

ويذكر هذا الوصف بحالة الكلمة "كتاب" والأشياء الأخرى الشبيهة. فإمكاننا هنا كذلك أن نرتب الظروف مما يجعلنا نوجه اهتمامنا إلى التكوين، لا إلى العوامل الأخرى، في تقرير ما نتحدث عنه، وربما صنع لنا، في مثل هذه الظروف، أن نسمي ما يحويه G و G' كلاهما "ماء"، وربما نستطيع الدراسة الاختبارية تبين أن التكوين من العوامل الأكثر جوهرية لـ "ماء" منها لـ "كتاب"؛ وربما كان ذلك كذلك، لكن ذلك ما يزال غير ذي صلة بـ (٨)، وليس هناك إجابات، في الحالات العادية، إلا في ضوء ظروف واهتمامات معقدة متنوعة تؤدي إلى ما نسميه أكيل بيلجرامسي (١٩٩٢) بـ "محلية المضمون". فإذا اعتقدت ما رأيت أن هناك ماء في المريخ، مثلاً، وأن شيئاً اكتشف هناك وتعدّه "ماء" مع أن تكوينه الداخلي هو التكوين الداخلي للماء الثقيل أو لـ "س من ع"، فليس هناك إجابة عامة عن إن كان اعتقادها صحيحاً أم خطأ.

ويصيف الاحتمال إلى استخدام الحبير مازق جديدة، ومن ذلك أن مقالاً علمياً نشر مؤخراً يفتح بالقول إن "الزجاج، في التصور العام والصحيح

أساساً، سائلٌ فقد قدرته على الجريان"، ثم يستمر ليستنتج أن "معظم الماء في الكون موجود في حالة الرجاجية (كما في المنبتات، إلخ)"، بصفته "ماء مُترجّحاً يظهر بصورة طبيعية" (Angell 1995: 1924). افترض أن مشاهد الشاي — الماء لدى وصفاء أنفاً حدث في نوع الأرض، حيث يصنع سكانها كؤوسهم من أقداح المنبتات التابعة للأرض. ثم افترض أن لوسكار الأرضي هبط على نوع الأرض وطلب ماء، مثيراً إلى G. فهل هو محق أن كان يُحيل إلى الكأس ومحطّي أن كان يحيل إلى محتوياته؟ وأحكامي [عن هذا الأمر] واضحة إلى حد معقول، وأظن أنها نمطية.

لسطر إلى هذه القضايا من زلوية مختلفة، ولأخذ ألبرت وبيبل على أنهم متماثلان نسبياً، وأن "أ" و"ب" تفاضلتان متماثلتان تماماً، و"أ" شيء في تجربة ألبرت، و"ب" شيء في تجربة بيل. ويفكر كل واحد منهما بتفاحته، وينظر إليها، ويقسم منها قسمة، وهو ما يؤدي إلى تعبيرات شاملة متماثلة للحالة، فهل سنقول أن تفكيريهما وخياليهما للبصريين ودوقيهما وتغير وزني التفاحتين وغير ذلك متماثلة عند ألبرت وبيبل لكنها "موجهة" إلى شيئين مختلفين؟ أم أنها مختلفة عدهما، حيث الشيطان الخارجيان "أ" و"ب" "جزءان" من تفكيريهما، إلخ؟ وإذا سمع ألبرت وبيبل أدايين متماثلين لـ "خ"، فهل يمتلكان تجربتين متماثلتين سمعا وفهماً موجهتين نحو أشياء مختلفة، أم يمتلكان تجربتين مختلفتين تتصممان تلك الأشياء؟ ويمكن أن يتعامل الاستخدام اللغوي في الإنجليزية العادية مع المقاربة "الخارجية" بخصوص الفكر والفهم أكثر من تعامله فيما يخص تعبيرات الوزن، لكن ليس من الواضح ما الذي يمكن أن نتعلمه من هذا، وعلم الطبيعة البشرية متطاف جداً إلى درجة لا تسمح له بإثارة هذا السؤال، وتبدو الصورة التي تقترحها المقاربة الداخلية ملائمة، وإن كانت غير كاملة بالمعنى غير المهم الذي تأخذ فيه دراسة ألبرت وبيبل في بيئتهما للبيئة في الاعتبار.

وعالياً ما تكون الأمثلة العادية أكثر تعقيداً. فنظر مثلاً إلى أحد أوجه

الاختبار المحيّر عند سول كرييك. افرض أن بيتر قال:

I used to think that Constantinople and Istanbul were different cities,  
but now I know they are the same.

كنت أظن أن القسطنطينية وإسطنبول مدينتان مختلفتان، لكني أعرف  
الآن أنهما شيء واحد.

ثم بضيف:

But Istanbul will have to be moved somewhere else, so that  
Constantinople won't have an Islamic character.

تكن يجب أن تُنقل إسطنبول إلى مكان آخر، حتى لا يكون  
القسطنطينية طابع إسلامي.

(للاطلاع على أمثلة حقيقية من هذا النوع انظر Chomsky 1995a)،  
فهل يعنى هذا أن بيتر تبني وحدات معجمية جديدة؟ أو اعتقادات جديدة؟ أو  
أشياء مختلفة؟ وإذا قال، محيلاً إلى إسطنبول:

*It will have to be moved and rebuilt elsewhere*

"إنه يجب نقلها وإعادة بنائها في مكان ما".

إستخدام الضمير it الذى يعنى الإشارة الآن إلى شيء معلوم لأنه  
سبق الحديث عنه، وإستخدام السابقة العطية re التى تدل على إعادة بناء  
المدينة]

(في حين نظل المدينة نصّها)، فكيف يمكن لما أن نؤول الوجدتين  
المكتوبتين بالخط المائل [في الجملة الإنجليزية] - وهما اللتان تتصرفان  
بأشكال مختلفة بطرق غريبة تبعاً لتنوع الأمثلة؟ (انظر Chomsky 1995a؛  
وانظر أيضاً الفصل الخامس في هذا الكتاب). وليس بإمكاننا، كما يبدو، أن

نفهم عملنا إلا بطريقة معقولة كما أوضحنا من قبل.

انظر إلى قصيدة احتمال الوقوع في الخطأ؛ فمن الواضح أننا نسود أن يكون باستطاعتنا أن نقول إن بيتر ربما يكون مخطئاً في تسمية شيء ما بـ "س". لهذا ربما يكون مخطئاً في وصفه محتوي G بأنه "ماء"، حين لا يعرف أنه "ساي"، لا "ماء"، أو ربما يخطئ في أخذه رزمة من الورق ثم يعمل مقياساً للورق على أنها كتاب. وربما يكون مخطئاً بسبب عقلته؛ ذلك أنه ربما لن يسميه "س" لو كان واعياً بالحقائق، أو ربما كما نتبى وجهة نظر تعتمد على التكوين في تقريرنا إن كان مخطئاً أم مصيباً، لهذا ربما كان ما يأخذه بيتر على أنه "ماء" شيئاً مختلفاً، كأن يكون "ماء ثقيل" لو "س" من "ع"، وهذه المحاولات نموذجية في العلوم، أما كونها ملائمة عن اللغة الطبيعية، وبأى معيار إن كانت كذلك، فأمر ينتظر أن يوضح. وربما يكون ضرورياً أن نبيّن الإطار النظري الذي أثرت فيه هذه الأسئلة، وإذا كان هذا الإطار يستعمل أفكاراً مثل "تصور"، فمن الضروري أن نتحدّد هذه التصورات بطرق واضحة؛ لا بافتراض أنها تتحدّد بالنظر إلى تكويبها الداخلي، مثلاً. وليس هناك سؤال واضح، ومن هنا فليس هناك إجابات واضحة.

افترض أن للفتى تشارلي تجارب فادته إلى أن يعرف أن استخدام [اللغوي] يختلف عن استخدام البالغين في مجموعته [اللغوية] (١). افترض أنه كان بحيل في الطور (١) [من أطوار اكتسابه للغة] إلى الحيوانات المائية المعهودة على أنها "أسماك" وإلى الحيوانات المائية الكبيرة على أنها "حيتان". وإذا ما وجد أن البالغين يتبنون استخداماً مختلفاً في تسمية أقرب الحيوانات البظيرة (ويطلقون أسماءها بأشكال مختلفة أيضاً) فننقل إلى الطور (٢)، مكيفاً نفسه مع استخدام البالغين، سواء بوعي أم بغير وعي. فكيف نصف ما حدث؟

وربما يميل بعض الملاحظين إلى القول بأن تفكير تشارلي عن الحيتان والأسماك في الطور (١)، والطريقة التي استخدم بها الكلمات ونطقها بها



خطأ. وأنه استطاع تصحيح خطئه حين وصل إلى الطور (٢)، ويشهد هذا بأنه يُحسّن من معرفته بالإنجليزية، وهي لغة المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها (و لا يقمُ الاستخدَامُ للعَدَى للغة طريقة للإحالة إلى نظامه اللغوي في الطور (١))، ويمكن للبحث عن فهم أوفى أن يتّبع المسارين المألوفين. ويمكن أن نسعى لتعلّم المزيد عن كيف يتكلم الناس ويفكرون عن مثل هذه الأمور، أو لتعلّم المزيد عما يحدث بالفعل.

وللتصير في ضوء "السماتيات - د" واضح، وإن لم يكن كاملاً، ويعود ذلك إلى المدى الذي يصل إليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إلى نقص الفهم داخل هذا المدى. فبملاك شارلي، في الطور (١)، "اللغة - د ل ١" التي تتضمن للوحدتين المعجميتين "سمك ١" و"حوت ١". أما في الطور (٢)، فتعوي لغة - د ل ٢: "سمك ٢" و"حوت ٢"، اللتين تختلفان من حيث الخصائص شيئاً ما. والسمات للصوقية [لهذه الكلمات] مختلفة (افتراضاً)، لكن وضع السمات الدلالية غير واضح، فهل للوحدتين المعجميتين الجديتين سمات مختلفة، تتضمن المعايير الجديدة للإحالة إلى الحيوانات المائية؟ وهل تنتمي مناطق مختلفة في "اللغة الذهبية"، أو الحيز التصوري، أو النظام الاعتقادي؟ أو أي شيء آخر؟ وسوف يتعيّن ما يسميه شارلي أثناء بطرق شتى، في ضوء الحقائق العارضة، نحو: هل تنتمي الحيوانات المائية الكبيرة التي كان يعرفها في الطور (١) إلى القرينات أم إلى سمك التونة. ويمكن لنا أن نبحث عن بعض المبادئ التي تتصل بما يمكن أن يكون قد حدث، ثم نسأل إلى أي مدى يمكن لما حدث أن يتّبع مساراً آخر لو اختلفت الظروف. ولا نعرف إلا القليل عن هذه المواضيع مما يجعلنا نكتفي بالافتراض بشأنها، لكن لا ينشأ عن هذا مشكلات مبدئية واضحة. وربما لن يتقدم مشروع البحث باللجوء إلى فكرة تعيين المعنى "الإحالة" (denotation) للكلمات في لغة عامة يعرفها المتكلمون جزئياً ويتركون فيها، أو إلى "الدهر الجمعي" أو إلى "الكلمات" التي تظل ثابتة في حين يتنوع النطق والاستخدام، وغير ذلك من الأفكار المعاملة التي ظلت غامضة.

أعرض أننا قاربتنا هذا الأمر في ضوء فكرة للإحالة في لغة علمية، وربما في ضوء نظرية سببية. ويجب علينا حينئذ أن نحقق هل ظلت الإحالات لـ "حوت" و"سمك" ثابتتين في الوقت الذي غير فيه تشارلي ما يسميه أشياء (ومن تلك الأشياء في تجربته السابقة)، وكذلك ما حدث لمصموم أفكاره. وحين تبين الأفكار التقنية ربما تسهل صياغة الأسئلة الاحتمالية المهمة عن، كيفية تفكير الناس في هذه الأمور في هذه الثقافة أو تلك، وفي هذا السياق للعوى أو ذلك، أما في علم الطبيعة البشرية فلا يبدو لي هذا المسار واعدًا.

انظر أخيرًا إلى حالة ناقشها بيرج (Burge 1986b)، ونهت نوعًا من البحث لافتًا للنظر، افترض أن "أ" يشارك متكلمي الإنجليزية الآخرين في الكلمة sofa "أريكة"، وفي التجارب ذات الصلة بالأشياء التي يسمونها sofas "أرائك". لكنه صار يعتقد أن "الأرائك" sofas لا تستخدم أثنائًا يجلس عليه، بل أعمالاً فنية أو مصنوعات لها وظائف دينية، وليس الجلوس عليها وظيفة أصلية لها. فينتق "أ" مع الآخرين على ما يمكن أن يعد أرائك من بين الأشياء الموجودة في تجربتهم المشتركة، لكنه يختلف عنهم في وظيفة الأرائك وربما يختلف معهم أيضًا فيما إن كانت الأرائك تستعمل فعلاً للجلوس، (ويظن "أ" أن الآخرين مخدوعون في هذه المسألة)، ويستنتج بيرج أنه إذا وجد أن شكوك "أ" تقوم على أسباب قوية، فربما يجب أن يتغير المعنى المتواضع عليه لـ sofa، لكن ربما يظل من الملائم. . . أن نعزو بعض التوجهات الافتراضية التي تشمل على فكرة الأريكة (Burge 1986b: 715)، كما وصفناه آنفاً.

والسؤال الآن: كيف يمكن وصف هذه الأحداث في إطار المقاربة الداخلية، التي نوسعها الآن لتشمل الافتراض بأن هناك نظام تصور — د' ونظام اعتقاد — د' إلى جانب اللغة — د'؟

يملك "أ" والآخرين، في البداية، الوحدة المعجمية sofa، والتصور — د' sofa بضمه، والاعتقادات — د' نفسها عن الأرائك، ونقسم هذا كله بالوحدة

للمشتركة المعقدة "أريكة" SOFA. ويُنظر إلى الأرائك، في داخل هذه الوحدة المعقدة، على أنها مصنوعات لها بعض الخصائص المادية والوظائف المعينة، وتتغير "الوحدة المشتركة المعقدة لأريكة" SOFA، عند "أ" إلى وحدة أخرى هي "SOFA" ويصحب هذا التغير تحول في اعتقاداته عن وظيفة الأرائك، ويمكن لشخص آخر، ونسمه "ب"، أن يعبر عن معتقاداته عما يتكون منه الأرائك، مستخلصاً أن الأرائك في العادة مستوية السطح ولها أذرع حديدية، لكنها ما تزال تستعمل للطوس عليها؛ وتتحول SOFA، عند "ب" إلى وحدة من نوع آخر: "SOFA"، ويتفق الجميع على ما بعد أرائك من بين الأشياء التي تحيط بهم، لكن "أ" يختلف عن الآخرين في وظيفة العvisلة التي تنتمي إليها هذه الأشياء، ويختلف "ب" عنهم في مكوناتها.

وبلى هنا، ليس هناك صعوبة في وصف الأحداث والحالات الذهنية - (د) عند المشاركين. ولم نقل شيئاً بعد عما حدث للمعنى المتواضع عليه، والأفكار والاعتقادات في أثناء تطور معالم هذه القصة؛ لو عن أين حدثت هذه التغيرات في "الأريكة".

ولا يمكن أن نتناول السؤال الأول إلا بعد أن توضح هذه الأفكار. أما السؤال الثاني فربما يكون ذا صلة هنا، لكن الإجابة عنه ما تزال غير ممكنة. وتحدث التغيرات، افتراضاً، في مكون "الاعتقاد" - د" للأريكة [بمعناها العام المعقد] SOFA، لكن هذا لا يجيب عن السؤال عن إن كان "أ" و"ب" قد غيرا الوحدات المعجمية في لغتيهما - د، أم أنهما غيرا مظهرًا آخر من مظاهر الوحدة المعقدة "أريكة" SOFA، ومهما كانت الإجابة فيبدو أن هناك تفسيراً مطرداً لها.

ويحتاجُ بيرج أنه ربما يكون من "السطحي غير المقبول" القول بأن "أ" غير لعتة حين شعر ببعض الشكوك، ذلك "أنه ليس صحيحاً أن نفهم أنه يشير بحصر الأسئلة عن حقيقة الأرائك" وأن نعرف كيف تغارب هذه الأسئلة، وإذا سلمنا بكل ما تقدم فما نزال مع ذلك = بجهل إن كل "أ" قد غير لعتة - د،

مستنداً لا بوحدة معجمية أخرى غيرها. فإذا ظلت لغته — د — ثابتة، فربما يقول الآن إن ما كان يظنه الناس عن الأرائك خطأ؛ أما إذا تعيّرت بالطريقة للنسب وصعابها، فربما يقول الآن إن الناس مخطئون في تسميتهم هذه الأشياء "أرائك" ... ذلك أنها في الواقع أشياء أخرى، ومهما كان الأمر، فنحن نستطيع فهم أسئلته ونعرف كيف نتصّابها. وهناك أسئلة اختبارية ثانوية قريباً من السطح، وربما يمكن الكشف عنها، ومع ذلك فليس من الواضح إن كان هناك شيء أكثر من هذا أهمية هنا.

وتنشأ أسئلة مماثلة عن الحيتان والأسماك، فرض أنه يُنظر إلى الحيتان على أنها أسماك في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها بيتر، لكنه قرر أن تصيبها آخر ربما يكون أكثر ملاءمة، لذلك عكّل من استعمله. ومرة أخرى، ليس صعباً أن نفهم أنه يثير أسئلة عن الحيتان والأسماك (وربما عن "ماهيئها" حقيقة، وإن لم يكن من الواضح إن كانت هذه أوضح طريقة للكلام عنها)، ونحن نعرف كيف نتقصى هذه الأسئلة.

ويبدو أن البحث في هذه الحالات في تنوعها الأحاذ يقود إلى إجابات تتنوع تنوعاً واسعاً حين نغيّر الظروف المفترضة تغييراً قليلاً، ويثير بعض الشكوك عن مدى ما يمكن أن نتعلمه بمقاربة هذه الأمور بهذه الطريقة. لكن لا يبدو لي — بعض النظر عن أي شيء — أن لهذه الطواهر أثراً على صحة المقاربات الداخلية للمظاهر اللغوية والمظاهر الذهنية الأخرى للحياة البشرية، إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه، أو أنها توحى ببديل مفصل آخر.

## هوامش الفصل السابع

- (١) للاطلاع على بعض الأمثلة المشابهة، وعدد من القضايا التي تجاورها  
ها بدرجة كبيرة من العطة (انظر Chomsky 1995a).
- (٢) وقد تطورنا أنا وجون سيرل عن هذه القضايا لمسيب عدة. ومن  
لواضع أننا نتفق على عدم تملك النزعة الأحادية monism والبرعة  
الثقافية والنزعة المادية، إلخ (انظر Searle 1992 25; Chomsky 1968: 98)، وعلى الموضوع الأساسي لتصورات القرن الثامن عشر للذهن —  
الجسد من النوع الذي نكرته أنفا. لكننا لم نتفق على الكيفية التي تفسر  
بها خصائص اللغة؛ انظر أدناه.
- (٣) لاحظ أني لا أوافق على أن الاختيار يقع بين تأويل "الإحاطة grasp  
والفهم understanding بصفتها حالتين شعوريتين"، أو أنهما "مجرد  
نمطين لردود الفعل الناتجة عن التدريب" (انظر Gaifman 1996: 387)،  
حيث يتبنى وجهة نظر يعزوها إلى مايكل دوميست). ويبدو أن فهم  
(العمل التي في (١)، أو الخبر (خ)، إلخ) يتضمن حالات وعمليات لا  
تقع تحت أي من المقولتين.
- (٤) وهناك عدد من الأفكار المختلفة عن كيفية النفاذ إليها. للاطلاع على  
نقاش نقدي لبعض هذه الأفكار وعن بديل "الإدخال المتأخر"، انظر  
(Halle and Marantz 1993). وسأعرض عن هذه الأمور جميعها هنا.
- (٥) ويورد ستك (Stich 1996: 38f) الصياغات النموذجية — لكنه لا  
يتبناها، وهو يميزها عن "السلالات — (د)" و "مقابل — العلم"  
بخصوص الإحالة.
- (٦) لاحظ أنه ليس هناك تعارض بين قبول ملحوظات هجينشتاين الحرة

عن هذه الأمور والنتائج القوية شيئاً ما عن خصيصية عدم التعبير في الصوت والمعنى.

(٧) وبعد توماس ريد Thomas Reid أشهر الذين يحتاجون متبعين طريقة فلسفة اللغة العقلية الحديثة التي مفادها أن تصور فكرة ما على أنها "الموضوع الذي يتلمله الذهن" يقوم على خطأ في تلويصل النحو السطحي، ويمكن توسيع حجته لتشمل الفكر والاعتقاد وحالات أخرى. وللتوسع في قضية النظر إلى الأفكار على أنها موضوعات للفكر أو حالات للذهن في فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر، انظر (Volton 1984) الذي يحتاج بأن ريد والشرائح الآخرين قرعوا تقاليد ذينك القرنين قراءة خاطئة، وانظر أندا.

(٨) كان يفترض في الأبحاث المبكرة جداً من النوع الذي تناقشته هنا أن "اللغة - د" تولد "سامات" في مستويات لغوية متعددة (أي المستوى الصوتي، ومستوى الكلمة، ومستوى بنية المركبات، إلخ)، وكل واحدة من هذه تمثل "صو (ت) بوصفه معمولاً مسطحاً عنه. لهذا فـ "صو (ت)" هو . . . ، حيث تمثل النقاط "التمثيل" الصوتي (أو تمثيل الكلمة، أو تمثيل البنية المركبة، إلخ) (الاطلاع على بعض التفاصيل انظر Chomsky 1955/1975). ويمكن أن يؤخذ "صو (ت)" (ومن هنا، الوسم على المستويات كلها) على أنه "يمثل" المنطوقات بطريقة مماثلة؛ ولأن المنطوقات ترتبط بحالات المتكلمين، يمكن أن يفهم الحمل على أنه صحيح عنها، وهو المسار الذي اتبعه برومبيرجر وهاله (Bromberger and Halle 1996)، في مناقشتها للمستويات الصوتية في ضوء مقاصد المتكلمين (وهي التي نفهم على أنها تُراد على حالات الذهن)، وكان مقصدهما المقارنة بين النظريات المتنافسة، وهو سبب جيد من أجل البحث التأسيسي المفيد، وهو الذي قلما يقام به.

(٩) ولأسباب مماثلة، فعلى الرغم من أن فرضية "استقلال التركيب" رفضت

شدة قلن أحداً لم يدافع عنها إطلاقاً - على حد ما أعلم - كما أن الفاتلين بها لم يصوغوها بأية طريقة مفهومة.

(١٠) ولأسباب مماثلة تواجه النظرية عن "الجملة المترجمة" T sentences بعض المشكلات حين يختلف الموضوع واللغة الواصفة، لذلك لا توفر الحصيلة المعلوماتية للجملة المترجمة غير المجانسة أساساً جيدة لتسوية المقاربة. ومهما كانت قيمتها، وهي حقيقية، فهي لا تلامس السؤال عن الكيفية التي تتفاعل بها اللغة مع العالم، وهي التي تمثل قلب البطريقة الثنائية عن المعنى. انظر أيضاً (Fodor 1990).

(١١) ينبغي ألا يلتبس به افتراض أن "القيم الدلالية (أو الصوتية)" وحدات ذهنية، بعلاقات (وحدة معجمية، قيمة) دولت حصائص صورية — "تحليل" و"تعيين" بمعنييهما التقنيين، فيجب أن يُنظر في هذه المسألة بشكل مواز للافتراضات المتعلقة بالموضوعات التركيبية الأخرى. ويبدو لي أن من الملائم (ولن لم يكن متواصلاً عليه) أن نفهم كثيراً من الأبحاث في دلالة اللغة الطبيعية في ضوء هذه الطرق.

(١٢) وربما أمكن أن نفهم بعض الافتراضات البسيطة في ضوء هذا التحليل، لكن ذلك ربما يكون تأويلاً مشكوكاً فيه، كما أظن.

(١٣) وهذه الاستشهادات مأخوذة من (Cudworth 1838: 425)، لكن وجهة النظر هذه عامة؛ وكانت مؤثرة في الشكل الذي اقترحه "كاسط" لهذه الفكرة كذلك؛ انظر (Chomsky 1966: 67-68).

(١٤) ويأخذ مورافيك (Moravcsik 1975; 1990) مقتباً أفكاراً أرسطية وتطبيقاتها بشكل عام على الدلالة المعجمية هذه العوامل على أنها "المكونات، والبنية، والوظيفة، والقاعلية"، للاطلاع على بعض التعليقات انظر Chomsky 1975؛ وعلى تفصيلات بعض الأفكار المماثلة انظر (Pustejovsky 1995).

(١٥) وأنا لا أتوقف هنا عند الاختلافات الاصطلاحية غير ذات الصلة.

(١٦) وبحاجٍ سيرل أيضًا بأن يفترض بعض القواعد غير الضرورية ليس مشروعا، لكنه يقدّم هذه الحجة اعتمادًا على ما يبدو لي كأنه أسباب غير مهمة؛ انظر (Chomsky 1990). وطريقته الاختزالية التي استعمل فيها الفيلم على "ملكة الإبصار" لا صلة لها هنا لأن المبدأ الذي كان محققًا في رفضه إياه يقتصر إلى لينة قوة تفسيرية.

(١٧) وهناك بعض الأبحاث الجادة تتصف بطعم يكاد يكون قريبًا من هذه الفرصية، سواء في القديم أو الحديث. انظر Jackendoff 1994. Chapter 14 والمراجع المذكورة هناك).

(١٨) وإن أتوقف عند الأسئلة التي تتعلق بدقة العرو حين لا يكون ذلك ضرورياً.

(١٩) وهذه الملحوظة مألوفة؛ انظر مثلاً (Strawson 1952, 189).

(٢٠) للاطلاع على بعض الأبحاث الاحتمالية التي تحلص إلى أن  $H_2O$  لا يتمشى إلا بشكل ضعيف مع الأحكام عما يكون "ماء"، أو حتى ما يمكن أن يعدّ نموذجًا للماء، انظر Malt 1994؛ وراجع Bratby et al 1996. عددًا من الأفكار والأبحاث الاحتمالية عن مثل هذه الأمور، ويقدمون بعض النتائج التي وصلوا إليها هم أنفسهم وبحاجون بأنها "تبيّن أن مصطلحات الأنواع الطبيعية لا تستخدم بطريقة "ماهوية" essentialist".

(٢١) وهناك عدد من الآراء اللافقة عن مثل هذه الحالات في أبحاث تايلر بيرخ، ومنها بحثاه اللذان نشرهما في 1989, 1986b. وليس من الواضح تمامًا لي إن كنا أنا وهو نختلف اختلافًا كبيرًا في هذه القضايا، وإذا كنا نختلف أين يقع هذا الاختلاف. للاطلاع على أحد التلويحات، انظر Mercier 1992.





## المصطلحات الواردة في الكتاب

|                         |                                   |
|-------------------------|-----------------------------------|
| cognitive revolution    | الثورة المعرفية                   |
| generative Grammar      | النحو التحويلي                    |
| body - mind problem     | مشكلة الدهن - الجسد               |
| unification of science  | توحيد العلم                       |
| internalist             | البحث الداخلي                     |
| Gordian knot            | عقدة جور د                        |
| referential semantics   | علم الدلالة الإحالي               |
| individualistic         | فردية                             |
| I-language              | "اللغة - د"                       |
| reduction               | اختزال                            |
| Naturalism              | المقاربة الطبيعية                 |
| dualist demands         | الاشتراطات الثنائية               |
| empirical               | اختباري                           |
| naturalistic            | الطبيعية                          |
| contact michanics       | آليات التماس                      |
| cells                   | الخلايا                           |
| neurons                 | العصبونات                         |
| electrophysiological    | الكهربائية الفعضوية               |
| science forming faculty | ملكة صياغة العلم                  |
| free will               | حرية الإرادة                      |
| consciousness           | الشعور                            |
| competence              | الكفاءة اللغوية (المعرفة اللغوية) |
| performance             | الأداء (الإنجاز)                  |
| perception              | الإدراك                           |

|                   |                           |
|-------------------|---------------------------|
| المنطوقات         | utterances                |
| محدد وراثيًا      | genetically determined    |
| فطري              | innate                    |
| الحالة الأولى     | initial state             |
| المبادئ والوسائط  | principles and parameters |
| نظرية الحد الأدنى | minimalism                |
| التحويلات         | transformations           |
| البنية العميقة    | deep structure            |
| البنية السطحية    | surface structure         |
| الرأس - أولاً     | head-first                |
| الرأس - آخر       | head-last                 |
| المحفزات          | antigens                  |
| تمثيلات           | representations           |
| الصورة الصوتية    | phonetic form             |
| الصورة المنطقية   | logical form              |
| مُنثى             | optimal                   |
| المتلوية          | optimality                |
| مُحكمة            | perfect                   |
| شروط المقرئية     | legibility conditions     |
| الإزاحة           | displacement              |
| سمات              | features                  |
| تركيب             | syntax                    |
| فقر المنبه        | poverty of stimulus       |
| الحوسبة           | computation               |
| الدعوى            | thesis                    |
| التحليل           | analysis                  |
| التركيب (التأليف) | synthetic                 |

folk science العلم الشعبي  
 ethnoscience العلم الإثنى  
 accessibility to consciousness إمكان النفاذ إلى الشعور  
 biolinguistics اللسانيات الأحيائية  
 faculty of language الملكة اللغوية  
 reconstruction الترسيم  
 discreet infinity اللانهائية المتممايزة  
 language acquisition device جهاز اكتساب اللغة  
 input دخل  
 output خرج  
 anthropological linguistics الأناسة اللغوية  
 descriptive adequacy كفاية الوصف  
 explanatory adequacy كفاية التفسير  
 boundary conditions شروط الحدود  
 interface المستوى الواجهي  
 projection principle مبدأ الإسقاط  
 binding theory نظرية الربط  
 case theory نظرية للحالة الإعرابية  
 chain condition شرط السلسلة  
 indices إشارات  
 bar level مستوى بشرطة  
 phrase-structure rules قواعد البنية المركبية  
 adjacency شروط التجاور  
 c-command علاقة التحكم المكوني  
 government العمل  
 topic- comment المبتدأ والخبر  
 spicifity التحديد

agentive force القوة لفاعلية  
 merge ادمج  
 Move! انقل!   
 phonology الصوْفة  
 phonetics علم الأصوات  
 human functional organization التنظيم الوظيفي البشري  
 common- sense النديه  
 sychic persistence الثبات النصي  
 intentional Realist قائل بواقعية القصد  
 natrual kinds الأنواع الطبيعية  
 internal relational structure البنية العلائقية الداخلية  
 selectional properties الخصائص التصنيفية  
 perceptual content المضمون الإدراكي  
 folk psychology علم النفس الشعبي  
 veridical perception الإدراك الحقيقي  
 retina الشبكية البصرية  
 optic nerve العصب البصري  
 visual cortex القشرة المخية البصرية  
 perceptioal displacement الإزاحة الإدراكية  
 clicks الملتقطات  
 phrase المركب  
 computational representations التمثيلات الحوسبية  
 eliminative الإقصائية (الاستبعاد)  
 eliminatorive materialism الإقصائية المادية  
 generive procedure الإجراء التوليدي  
 structural description الوصف البنوي  
 event semantics دلالة الحدث

pragmatics الدريعية  
 arbitrariness الاعباطية  
 passing theory نظرية عابرة  
 incremental learning التعلم للمتدرج  
 assonance التجانس الصوتي  
 entailment الاقتضاء  
 anaphora الضمير العائد  
 empty categories المقولات الفارغة  
 autosegmental المسنوي القطعي المستقل  
 wide content المضمون الواسع  
 variables المتغيرات  
 naturalized epistemology الإبستمولوجية العلمية الطبيعية  
 regulative principle المبدأ التنظيمي  
 radical translation الترجمة المتطرفة  
 informant الراوية  
 coordinate structure constraint القيد على بنية المعطف  
 drift الانحواء  
 recursive تكرار  
 constituents المكونات  
 plato's problem مشكلة أفلاطون  
 generalized learning mechanisms آليات التعلم المعممة  
 innateness hypothesis الفرضية العطرية  
 parser المحلل  
 malapropism سبق اللسان في نطق الصوت  
 methodological naturalism المقاربة للطبيعية المنهجية  
 methodological dualism المقاربة للتنائية المنهجية  
 anti-foundationalism معارضة النزعة الأسسية

معرفية epistemic  
 القياس الاحتمالي abduction  
 الانتقاء الطبيعي natural selection  
 جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition device  
 النحو الكلي Universal Grammar  
 الشعور consciousness  
 جوهر ثان (عقل) res cogitans  
 شرط التقرير assertability condition  
 الاستنتاج a priori  
 الاستدلال a posteriori  
 القوانين الجسدية bridge laws  
 العلم الإثنى ethnosciencce  
 المادية materialism  
 الشعور الممكن potential consciousness  
 العصبونات neurons  
 الترابط association  
 التقييد conditioning  
 النفاذ إلى الشعور Access to consciousness  
 الرأس أولاً head first  
 الرأس آخر head last  
 وسيط الرأس head parameter  
 نظرية الربط العالمي binding theory  
 مبدأ الصلابة rigidity principle  
 الإبصار الأعمى blindsight  
 المبدأ الرابط connection principle  
 طفرة mutation  
 جمل معنوية الحديقة garden path sentences

نظرية النظرية theory-theory  
 ترسيخ reconstruction  
 محكومة بالقاعدة rule-governed  
 المحدودية المعرفية epistemic boundedness  
 منمايز discrete  
 التجنيب الجيني lateral geniculate  
 القالبية modularity  
 التجاور adjacency  
 التشخيص instantiation  
 الدمج المتعدد multiple embedding  
 المصورات quantifiers  
 منظور الفاعل اللغوي عن الأشياء linguistic agent's on things  
 النفاذ إلى الشعور access to consciousness  
 النفاذ من حيث المبدأ access in principle  
 ما صدق extention  
 صواتة phonology  
 الصوت للشفثاني الوقفي bilabial stop  
 المدركات Receptors  
 الفاعل الصفر null subject  
 المتغير الصفر empty operator  
 الأثر trace  
 القيمة الصوتية phonetic value  
 الإدخال المتأخر late insertion  
 علاقات البنية الموضوعاتية argument - structure  
 علاقات الصور بالمتغير quantifier-variable  
 مشكلة العقل - الجسد body - mind problem  
 مشكلة الجسد - الجسد body - body problem



شبكية المعنى holism  
 الثبات النفسي sychic persistence  
 التفريد individuation  
 التحليل analytic  
 التركيب (التأليف) synthetic  
 فائل بواقعية القصد intentional Realist  
 شرط التأكيد assertability condition  
 اللانفاذ impenetrability  
 نظرية النظرية theory-theory  
 معنى Sense  
 Denotation تعيين المعنى (الحقيقي) خارج اللغة  
 مفهوم Intension  
 القصدية intentionality

## References

---

- Almog, Joseph (1991) "The what and the how." *Journal of Philosophy* 5: 225-44.
- Angell, C. Austin (1995) "Formation of glasses from liquids and biopolymers." *Science* 267: 1924-1935.
- Atlas, Jay (1989) *Philosophy without Ambiguity*. Oxford, Clarendon Press.
- Austad, Steven (1994) "Communication complexity and modality in non-human primates." In Carlson Goodnick, Guy McKenna and Lena Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience*, X.1-2, pp. 89-93.
- Austin, John (1962) *How to do Things with Words*. Oxford, Clarendon Press.
- Bailargeon, Renée (1993) "How do infants learn about the physical world?" MS, University of Illinois.
- Baker, Lynne Rudder (1987) *Saving Belief: A Critique of Physicalism*. Princeton University Press.
- Baker, Lynne Rudder (1988) "Cognitive suicide." In R.H. Grimm and D.D. Merrill, eds, *Contents of Thought*. Tucson, AZ, University of Arizona Press.
- Balwin, T.R. (1993) "Two types of naturalism." *Proceedings of the British Academy* 80: 171-99.
- Barinaga, Marcia (1994) "Neurons map out a code that may help locate sounds." *Science* 264: 775.
- Bilgrami, Abner (1987) "An externalist account of psychological content." *Philosophical Topics*.
- Bilgrami, Abner (1992) *Belief and Meaning*. Blackwell, Oxford.
- Bilgrami, Abner (1993) "Discussion." In Nomi Chomsky et al. *Language and Thought*. London, Moyer Bell, pp. 37-68.
- Bradley, David (1994) "A new twist in the tale of nature's asymmetry." *Science* 264: 908.
- Brady, Nick, Bradley Franks and James Hampton (1996) "Essentialism, word use, and concepts." *Cognition* 59: 247-74.
- Brock, William (1992) *The Formative Years: History of Chemistry*. New York and London, Norton.
- Brunberger, Sylvia (1992a) "Types and tokens in linguistics." In S. Brunberger, *On What We Know We Don't Know*. University of Chicago Press, pp. 170-188.
- Brunberger, Sylvia (1992b) *On What We Know We Don't Know*. Chicago, University of Chicago Press.

- Bromberger, Sylvain (1996) "Natural kinds and questions." In Matti Simonsen, ed., *Essays on Jaakko Hintikka's Epistemology and Philosophy of Science*. Poznan, Studies in the Philosophy of Science and the Humanities.
- Bromberger, Sylvain and Morris Halle (1996) "The Content of Phonological Signs," MS, MIT.
- Brook, Andrew (1994) *Kant and the Mind*. Cambridge University Press.
- Burge, Tyler (1986a) "Individualism and Psychology." *Philosophical Review* 95, 3-45.
- Burge, Tyler (1986b) "Intellectual Norms and Foundations of Mind." *Journal of Philosophy* 83: 697-720.
- Burge, Tyler (1986c) "Cartesian error and the objectivity of perception." In Philip Pettit and John McDowell, eds., *Subject, Thought and Context*. Oxford, Clarendon Press, pp. 117-36.
- Burge, Tyler (1989) "Wherein is language social." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Blackwell, Oxford, pp. 175-91.
- Burge, Tyler (1992) "Philosophy of language and mind." *Philosophical Review* 101: 3-51.
- Carey, Susan (1985) *Conceptual Change in Childhood*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Carol (1986) "Analytic study of the Tadoma method: Language abilities of three deaf-blind subjects." *Journal of Speech and Hearing Research* 29: 332-47.
- Chomsky, Noam (1951/1979) *Morphophonemics of Modern Hebrew*. University of Pennsylvania Master's Thesis. New York, Garland Publishing. (Revised version of 1949 BA thesis.)
- Chomsky, Noam (1955/1975) *Logical Structure of Linguistic Theory*. Plenum, New York; excerpted from unpublished 1955/56 MS.
- Chomsky, Noam (1957) *Syntactic Structures*. The Hague, Mouton.
- Chomsky, Noam (1964) *Current Issues in Linguistic Theory*. The Hague, Mouton.
- Chomsky, Noam (1965) *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1966) *Cartesian Linguistics*. Harper and Row, New York.
- Chomsky, Noam (1968) *Language and Mind*. Harcourt Brace Jovanovich, New York. Extended edition 1972.
- Chomsky, Noam (1969) "Some empirical assumptions in modern philosophy of language." In S. Morgenbesser, P. Suppes and M. White, eds., *Philosophy, Science and Method: Essays in Honor of Ernst Nagel*. New York, St Martin's Press, pp. 260-85.
- Chomsky, Noam (1975) *Reflections on Language*. Pantheon, New York.
- Chomsky, Noam (1977) "Questions of form and interpretation." In Noam Chomsky, *Essays on Form and Interpretation*. North Holland, New York, pp. 25-59.
- Chomsky, Noam (1980) *Rules and Representations*. Oxford, Blackwell.
- Chomsky, Noam (1981a) *Lectures on Government and Binding*. Dordrecht, Foris.
- Chomsky, Noam (1981b) "Principles and parameters in syntactic theory." In N. Hornstein and D. Lightfoot, eds., *Explanations in Linguistics*. London, Longman, pp. 123-46.

- Chomsky, Noam (1986) *Knowledge of Language*. New York, Praeger.
- Chomsky, Noam (1987) "Reply" [to reviews of his 1986 by A. George and M. Brody]. *Mind and Language* 2: 178-97.
- Chomsky, Noam (1988a) *Language and Problems of Knowledge: The Managua Lectures*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1988b) "Language and Problems of Knowledge." *Synthese Philosophica* 5: 1-25.
- Chomsky, Noam (1990) "Accessibility 'in Principle' " *Behavioral and Brain Sciences* 13: 600-1.
- Chomsky, Noam (1991a) "Linguistics and adjacent fields: a personal view." In A. Kasner, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 3-25.
- Chomsky, Noam (1991b) "Linguistics and cognitive science: problems and mysteries." In A. Kasner, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 26-53.
- Chomsky, Noam et al. (1993a) *Language and Thought*. London, Moyer Bell.
- Chomsky, Noam (1993b) "A minimalist program for linguistic theory." In K. Hale and J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 1-52.
- Chomsky, Noam (1995a) "Language and Nature." *Mind* 104: 1-61.
- Chomsky, Noam (1995b) "Bare Phrase Structure." In G. Webelhuth, ed., *Government and Binding Theory and the Minimalist Program*. Oxford, Blackwell, pp. 383-439.
- Chomsky, Noam (1995c) *The Minimalist Program*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1998) "Minimalist inquiries: the framework." MS, MIT.
- Churchland, Patricia (1994) Presidential address of the APA Pacific Division, March 1994.
- Churchland, Paul (1979) *Scientific Realism and the Plasticity of Mind*. Cambridge University Press.
- Churchland, Paul (1981) "Eliminative materialism and the propositional attitudes." *Journal of Philosophy* 78: 67-90. Reprinted in Scott Christensen and Dale Turner, eds., *Folk Psychology and the Philosophy of Mind*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, 1993.
- Churchland, Paul (1994) Review of Searle, 1992, *London Review of Books*, 12 May.
- Clark, Andy and Annette Karmiloff-Smith (1993) "The cognizer's unwords." *Mind and Language* 8: 487-530.
- Cohen, Leonore (1941) *From Beast-Machine to Man-Machine*. Oxford University Press.
- Cudworth, Ralph (1838) *Treatise concerning Eternal and Immutable Morality*. American edition of *Works*, ed. T. Birch.
- Darwin, C. (1859/1968) *The Origin of Species by Means of Natural Selection*. Edited by J.W. Burrow. Harmondsworth, Penguin.
- Davidson, Donald (1980) "Psychology as philosophy." Reprinted in *Essays on Actions and Events*. Oxford University Press, pp. 229-39.
- Davidson, Donald (1984) *Inquiries into Truth and Interpretation*. Oxford University Press.
- Davidson, Donald (1986a) "A coherence theory of truth and knowledge." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 307-19.

- Davidson, Donald (1986b) "A nice derangement of epitaphs." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 433–46.
- Davidson, Donald (1990a) "The structure and content of truth." *Journal of Philosophy* 87: 279–328.
- Davidson, Donald (1990b) "The second person." MS, University of California, Berkeley.
- Davies, Martin (1991) "Individualism and perceptual content." *Mind* 100: 461–84.
- Dennett, Daniel (1988) "When philosophy encounters artificial intelligence." *Dandelion 1998 = Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 283–95.
- Dennett, Daniel (1991) Review of McGinn (1991). *TLS* 10 May.
- Descartes, René (1649/1927) Letter (to Marini). In R.M. Eaton, ed., *Descartes' Selected*.
- Devitt, Michael and Kim Sterelny (1989) "Linguistics: what's wrong with 'the right view'." *Philosophical Perspectives* 3: 497–531.
- Dijksterhuis, E.J. (1986) *Mechanization of the World Picture*. Princeton University Press.
- Dobbs, Betty Jo and Margaret Jacob (1995) *Newton and the Culture of Naturalism*. Humanities Press, New York.
- Dreben, Burton (1992) "Putnam, Quine and the facts." *Philosophical Topics* 20: 293–315.
- Dummett, Michael (1986) "A nice derangement of epitaphs: some comments on Davidson and Hacking." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 459–76.
- Dummett, Michael (1991) *The Logical Basis of Metaphysics*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Dummett, Michael (1993) *The Seas of Language*. Oxford, Clarendon Press.
- Harman, J., ed. (1992) *Inferior, Explanation and Other Philosophical Frustrations*. Berkeley, CA, University of California Press.
- Feldman, Gerald (1992) *Bright Sun, Brilliant Fire*. New York, Basic Books.
- Egan, Francis (no date) "Computation and content." MS, Rutgers.
- Epstein, Samuel (1999) "UN-principled syntax and the derivation of syntactic relations." In Samuel Epstein and Norbert Hornstein, eds., *Working Minimalism*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Ervine, Simon (1991) *Donald Davidson*. Stanford University Press.
- Fodor, Jerry (1975) *The Language of Thought*. New York, Crowell.
- Fodor, Jerry (1983) *The Modularity of Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1987) *Psychomantics*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1990) *A Theory of Content*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1994) *The Elm and the Expert*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry and Ernest Lepore (1992) *Holism: A Shopper's Guide*. Oxford, Blackwell.
- Frege, Gottlob (1892/1945) "Über Sinn und Bedeutung." *Zeitschrift für Philosophie und Philosophische Kritik* 100: 25–50. Reprinted in part as "On sense and denotation" in Ernest Nagel and Richard Brandt, eds., *Alonzo and Knowledge: Systematic Readings in Epistemology*. Harcourt, Brace & World, New York, pp. 69–78.

- Friedman, Michael (1993) "Remarks on the history of science and the history of philosophy." In P. Horwich, ed., *World Changes: Thomas Kuhn and the Nature of Science*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 37-54.
- Garfman, Haim (1996) "Is the 'bottom-up' approach from the theory of meaning to metaphysics possible?" *Journal of Philosophy* 93. 373-407
- Galilei, Galileo (1632) *Dialogues on the Great World Systems*, as translated by Thomas Salusbury, 1661
- Gay, Peter (1970) *The Enlightenment: An Interpretation*. London, Weidenfeld
- Gibson, Roger (1986) "Translation, physics, and facts of the matter." In E. Hahn and P.A. Schupp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 139-54.
- Glerman, Lila (1990) "The structural sources of verb meanings." *Language Acquisition* 1. 3-55.
- Goodman, Nelson (1978) *Ways of Worldmaking*. Hackett, Harvester Press.
- Gould, Stephen J. (1982) *The Panda's Thumb*. New York, Norton.
- Groff, Donald (1994) "Animal communication as evidence of animal mentality." In Carleton Gajdus, Guy McKharr and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience* X.1-2, pp. 67-71.
- Hagoort, Peter, Colin Brown and J. Groothusen (1993) "The syntactic positive shift (SPS) as an ERP-measure of syntactic processing." *Language and Cognitive Processes* 8: 439-83.
- Hagoort, Peter and Colin Brown (1994) "Brain responses to lexical ambiguity, resolution and parsing." In Charles Clifton et al., eds., *Perspectives on Sentence Processing*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, pp. 45-80.
- Halle, Morris and Alec Marantz (1993) "Distributed morphology and the pieces of inflection." In K. Hale and S.J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 111-76.
- Harnan, Gilbert (1980) "Two quibbles about analyticity and psychological reality." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 21-2.
- Haugeland, John (1979) "Understanding natural language." *Journal of Philosophy* 76. 619-32.
- Herbert of Cheshire (1624) *De Veritate*. Translated by M.H. Carré, University of Bristol Studies No. 6, 1937.
- Higginbotham, James (1985) "On semantics." *Linguistic Inquiry* 16: 547-93.
- Higginbotham, James (1989) "Elucidations of meaning." *Linguistics and Philosophy* 12: 465-517.
- Hobbes, Thomas (1889) *The English Works of Thomas Hobbes*, Vol I. Edited by William Molesworth.
- Holton, Gerald (1996) "On the art of scientific imagination." *Daedalus - Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 125: 183-208.
- Huarte, Juan (1575) *Ensayo de Ingenios*. Translated by Bellamy, 1698
- Humboldt, Wilhelm von (1836/1988) "Über die Verschiedenheit des Menschlichen Sprachbaues." Berlin. Translated by Peter Heath as *The Diversity of Human Language-Structure and its Influence on the Mental Development of Mankind*. Cambridge University Press.
- Hume, David (1740/1978) *A Treatise of Human Nature*. Edited by L.A. Selby-Bigge. Second edition revised by P.H. Niddich. Oxford, Clarendon Press.

- Hume, David (1748/1975) *An Enquiry concerning Human Understanding*. Edited by L.A. Selby-Bigge; third edition revised by P.H. Niddich. Clarendon Press, Oxford.
- Hume, David (1841) *The History of England: From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution in 1688*. London, 6 volumes, T. Cadell.
- Jackendoff, Ray (1994) *Patterns in the Mind*. New York, Basic Books.
- Jacob, Franois (1974) *The Logic of Living Systems. A History of Humidity*. Translated by Betty E. Spilmann. London, Allen Lane.
- Jacob, Margaret (1988) *The Cultural Meaning of the Scientific Revolution*. Philadelphia, PA, Temple University Press.
- Jacob, Margaret (1991) *Living the Enlightenment: Freemasonry and Politics in Eighteenth-Century Europe*. Oxford University Press.
- Jaeger, H.M. and Sidney R. Nagel (1992) "Physics of the granular state." *Science* 255: 1523-31.
- Jenkins, Lyle (1999) *Biolinguistics: Exploring the Biology of Language*. Cambridge University Press.
- Jerns, Nick Kai (1985) "The generative grammar of the immune system (Nobel lecture)." *Science* 229: 1057-9.
- Jespersen, Otto (1924) *The Philosophy of Grammar*. London, Allen & Unwin.
- Kant, Immanuel (1783) *Prolegomena to any Future Metaphysics*.
- Kayne, Richard (1994) *The Asymmetry of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Kenny, Anthony (1984) *The Legacy of Wittgenstein*. Oxford, Blackwell.
- Koyr , Alexandre (1957) *From the Closed World to the Infinite Universe*. Baltimore, Johns Hopkins Press.
- Kripke, Saul (1972) *Naming and Necessity*. In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Dordrecht, Reidel, pp. 253-355.
- Labandeira, Conrad C. and J. John Sepkoski (1993) "Insect diversity in the fossil record." *Science* 261: 310-15.
- La Mettrie, J.O. de (1747) *L'Homme-Machine*. Critical edition, A. Vannan, ed., Princeton University Press.
- Lange, Friedrich Albert (1925) *The History of Materialism*. London, Kegan Paul.
- Larson, Richard and Gabriel Segal (1995) *Knowledge of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Lamvik, Howard (1989) *Essays on Anaphora*. Dordrecht, Kluwer.
- Lepore, Ernest, ed. (1986) *Truth and Interpretation: Perspectives on the Philosophy of Donald Davidson*. Oxford, Blackwell.
- Lewis, David (1983) "Languages and language." In David Lewis, *Philosophical Papers*, vol. 1. Oxford University Press, pp. 163-88.
- Lewontin, Richard (1990) "The evolution of cognition." In D.N. Osherson and E.E. Smith, eds., *An Introduction to Cognitive Science*, vol. 3. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 229-46.
- Lewontin, Richard (1994) MS, Harvard.
- Llin s, Rodolfo (1987) "'Madness' as a functional state of the brain." In Colin Blakemore and Susan Greenfield, eds., *Mindwaves: Thoughts on Intelligence, Identity and Consciousness*. Blackwell, Oxford, pp. 339-58.
- Locke, John (1690/1975) *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P. Niddich. Oxford, Clarendon Press.

- Lorrmann, Eric (1996) "How to Be a Meaning Holist." *Journal of Philosophy* 93: 51-73.
- Lyons, John (1977) *Semantics*, 2 vols. Cambridge University Press.
- Mah, Barbara (1994) "Water Is Not H<sub>2</sub>O." *Cognitive Psychology* 27: 41-70.
- Marr, David (1982) *Vision*. New York, W.H. Freeman.
- Marshall, John (1990) Foreword to Yamada (1990).
- Marshall, Jonathan (1989) "On making representations." In C. Brown, P. Hagroot and T. Meijering, eds., *Vensters op de Geest*. Utrecht, Stichting Grafiet.
- McGinn, Colin (1991) *The Problem of Consciousness*. Oxford, Blackwell.
- McGinn, Colin (1993) *Problems in Philosophy*. Oxford, Blackwell.
- Mehler, Jacques and Emmanuel Dupoux (1994) *What Infants Know*. Oxford, Blackwell.
- Mercier, Adèle (1992) "Linguistic competence, convention and authority: individualism and anti-individualism in linguistics and philosophy." PhD dissertation, UCLA.
- Mjuskovic, Ben Latane (1974) *The Achilles of Rationalist Arguments*. Martinus Nijhoff.
- Miller, George and Noam Chomsky (1963) "Formal models of language users." In R.D. Luce, R. Bush and E. Galanter, eds., *Handbook of Mathematical Psychology*, vol. II. New York, Wiley, pp. 419-91.
- Moravcsik, Julius (1975) "Axioms as Generative Factor in Aristotle's Philosophy." *Dialogue* 14: 622-36.
- Moravcsik, Julius (1990) *Thought and Language*. London, Routledge.
- Mountainale, Vernon (1998) "Brain science at the century's ebb." *Dadaism*, Spring 1998 = *Proceedings of the American Academy of Art and Sciences* 127: 1-36.
- Nagel, Thomas (1993) "The mind wins!" Review of Searle (1992) *New York Review*, 4 March. Reprinted (1995) as "Searle: why we are not computers" in T. Nagel, *Other Minds*. Oxford University Press, pp. 96-110.
- Neville, Helen, J. Nicol, A. Barrs, K. Forster and M. Garrett (1991) "Syntactically based sentence processing classes: evidence from event-related brain potentials." *Journal of Cognitive Neuroscience* 3: 151-65.
- Passmore, John (1965) *Philosophy's Writings on Philosophy, Science and Politics*. New York, London: Collier-MacMillan.
- Pateman, Trevor (1987) *Language in Mind and Language in Society*. Oxford University Press.
- Peirce, Charles Sanders (1957) "The logic of abduction." In Vincent Thomas, ed., *Peirce's Essays in the Philosophy of Science*. New York, Liberal Arts Press, pp. 235-55.
- Peterson, Roger (1989) *The Emperor's New Mind*. Oxford University Press.
- Piatelli-Palmarini, Massimo (1986) "The rise of selective theories: a case study and some lessons from immunology." In W. Demopoulos and A. Marras, eds., *Language Learning and Concept Acquisition: Foundational Issues*. Norwood, NJ, Ablex, pp. 117-30.
- Popkin, Richard (1979) *The History of Skepticism from Erasmus to Spinoza*. Berkeley, CA, University of California Press.
- Pustepovsky, James, ed. (1993) *Semantics and the Lexicon*. Dordrecht, Kluwer



- Pustejovsky, James (1994) "Coercion and composition." MS, Brandeis.
- Pustejovsky, James (1995) *The Generative Lexicon*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Putnam, Hilary (1975) "The meaning of 'meaning'." In *Philosophical Papers*, vol. 2: *Mind Language and Reality*. Cambridge University Press, pp. 215-71.
- Putnam, Hilary (1978) *Meaning and the Moral Sciences*. Routledge & Kegan Paul.
- Putnam, Hilary (1986a) "Meaning holism." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 405-26.
- Putnam, Hilary (1986b) "Meaning and our mental life." In Edna Uhlmann-Margalit, ed., *The Kaleidoscope of Science*. Dordrecht, Reidel, pp. 17-32.
- Putnam, Hilary (1988a) *Representation and Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Putnam, Hilary (1988b) "Much ado about not very much." *Daedalus*, 1988 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 269-81.
- Putnam, Hilary (1992) "Replica." *Philosophical Topics* 20: 347-406.
- Quine, Willard (1960) *Word and Object*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Quine, Willard (1969) "Reply to Chomsky". In Donald Davidson and Jaakko Hintikka, eds., *Word and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine*. Dordrecht, D. Reidel, pp. 302-11.
- Quine, Willard (1972) "Methodological reflections on current linguistic theory." In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Reidel, Dordrecht, pp. 442-54.
- Quine, Willard (1981) *Theoria and Things*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Quine, Willard (1986) "Reply to Gilbert H. Harman." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 181-8.
- Quine, Willard (1987) "Indeterminacy of translation again." *Journal of Philosophy* 84: 5-10.
- Quine, Willard (1990) *Pursuit of Truth*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Quine, Willard (1992) "Structure and nature." *Journal of Philosophy* 89: 1-9.
- Ramberg, Bjorn (1989) *Donald Davidson's Philosophy of Language*. Oxford, Blackwell.
- Reid, Thomas (1785) *Essays on the Intellectual Powers of Man*. Edinburgh, John Bell.
- Rhine, Michael (1993) "Understanding 'belief'." *MAN* 28.4, December.
- Romaine, Suzanne (1994) *Language in Society*. Oxford University Press.
- Rorty, Richard (1986) "Pragmatism, Davidson and truth." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 333-53.
- Scheffler, Israel (1955) "On synonymy and indirect discourse." *Philosophy of Science* 22: 39-44.
- Schiffer, Stephen (1987) *Remnants of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Schofield, Robert (1970) *Mechanism and Materialism*. Princeton University Press.
- Schweber, Silvan (1993) "Physics, community and the crisis in physical theory." *Physics Today*, 46: 34-40.
- Searle, John (1980) "Minds, brains and programs." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 417-24.
- Searle, John (1992) *The Rediscovery of the Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Segal, Gabriel (1987) "In Deference to Reference." PhD dissertation, MIT.

- Smith, Barry (1992) "Understanding language." *Proceedings of the Aristotelian Society*, pp. 109-41.
- Smith, Neil (1999) *Chomsky: Ideas and Ideals*. Cambridge University Press.
- Smith, Neil, Ianthi-Maria Tsimpli and Jamal Ouhalla (1993) "Learning the impossible: the acquisition of possible and impossible languages by a polyglot savant." *Lingua* 91: 279-347.
- Soames, Scott (1989) "Semantics and semantic competence." *Philosophical Perspectives* 3.
- Spelke, Elizabeth (1990) "Origins of Visual Knowledge." In D.N. Osherson, S.M. Kosslyn and J.M. Hollerbach, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. II. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 99-127.
- Stich, Stephen (1983) *From Folk Psychology to Cognitive Science*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Stich, Stephen (1996) *Deconstructing the Mind*. Oxford University Press.
- Strawson, Galen (1994) *Mental Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Strawson, Peter (1950) "On Referring." *Mind* 59: 320-44.
- Strawson, Peter (1952) *Introduction to Logical Theory*. London, Methuen.
- Stryker, Michael (1994) "Precise development from imprecise rules." *Science* 263: 1244-5.
- Thackray, Arnold (1970) *Atoms and Powers*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Tremblay, Mireille (1991) "Possession and Datives." PhD dissertation, McGill University.
- Turing, Alan (1950) "Computing Machinery and Intelligence." *Mind* 49: 433-60.
- Uebel, Thomas, with comments by Christopher Hookway (1995) *The Vienna Circle Revisited*. Centre for the Philosophy of the Natural and Social Sciences, London. DP 6/95.
- Ullman, Shimon (1979) *The Interpretation of Visual Motion*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Waldrop, M. Mitchell (1990) "Spontaneous order, evolution and life." *Science* 247: 1543-5.
- Weiskopf, Victor (1989) "The origin of the universe." *Bulletin of the American Academy of Arts and Sciences* 42.
- Wellman, Kathleen (1992) *La Mente: Medicine, Philosophy and Enlightenment*. Chapel Hill, Duke.
- Wheeler, John (1994) *At Home in the Universe*. New York, American Institute of Physics.
- Witherspoon, Gary (1977) *Language and Art in the Navajo Universe*. Ann Arbor, MI, University of Michigan.
- Wright, Crispin (1989) "Wittgenstein's rule-following considerations and the central project of theoretical linguistics." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Oxford, Blackwell, pp. 233-64.
- Yamada, Jeni (1990) *Lawr*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Yolton, John (1983) *Thinking Man*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.
- Yolton, John (1984) *Perceptual Acquaintance*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.



## المؤلف في سطور:

### نعم تسومسكى

أستاذ شرف في جامعة ماساتشوستس للتقنية في الولايات المتحدة، وهو مؤسس النظرية اللسانية التي تسمى "النحو التوليدي" وأشهر المنظرين في إطارها خلال العقود الأربعة الماضية. وله عدد كبير من الكتب ومئات المقالات ومئات المحاضرات في اللسانيات والفلسفة والتاريخ الفكري، ومن أشهر كتبه في اللسانيات: "البنى التركيبية"، و"مظاهر نظرية التركيب"، و"المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها"، و"اللغة ومشكلات المعرفة"، و"برنامج الحد الأدنى". كما اشتهر بنشاطه في نقد السياسة الخارجية الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فكتب في هذين الموضوعين عشرات الكتب ومئات المقالات وألقى مئات المحاضرات وأجرى مئات المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية.

المترجم في سطور:

حمزة المزيны

حاصل على الدكتوراه من جامعة تكساس - في لوسطن - الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨١م، في اللسانيات.

يعمل أستاذا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود - الرياض

ألف وترجم عددا من الكتب منها:

- ١- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي، "اللغة ومفكلات المعرفة"، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٠م.
  - ٢- مراجعات لسانية - ١. سلسلة "كتاب الرياض"، العدد ٧٩، يوليو ٢٠٠٠م.
  - ٣- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ستيفن بنكر، بعنوان: غريزة اللغة: كيف يُبدع العقل اللغة، الرياض: دار المريخ، ٢٠٠٠م.
  - ٤- العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم، ترجمة لعدد من المحاضرات والمقالات التي كتبها تشومسكي وكتاب آخرون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، القاهرة: دار مدبولي للنشر، ٢٠٠٣م.
  - ٥- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ديفد جستن، بعنوان، محاسن العربية في العيون الغربية، أو: دلالة الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية، تحت الطبع، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية.
- بالإضافة إلى عدد كبير من الأبحاث العلمية والمقالات في الدوريات العلمية والصحف السعودية والعربية.